

مركز دراسات الدكتوراه : "اللغات والتراث والتهيئة المجالية"
تكوين الدكتوراه : "التاريخ والتراث"
مختبر : التراث دراسة صيانة وانقاذ
محور : التاريخ

أطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية
في موضوع:
العمارة العسكرية بقصور تافيلالت
دراسة تاريخية ومعمارية

إشراف الأستاذ الدكتور:
الحاج موسى عوني

إعداد الطالب الباحث:
سعيد عبيدي

تاريخ المناقشة : الجمعة 03 ماي 2019م

لجنة المناقشة :

رئيسة الدكتوراة ماجدة بنحريط علمي (كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس)
عضوا الدكتور جمال حيمر (كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس)
عضوا الدكتور عبد اللطيف الخمار (الكلية المتعددة التخصصات تازة)
مشرفا ومقررا الدكتور الحاج موسى عوني (كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس)

السنة الجامعية:

2018 - 2019م

1439 - 1440هـ

الإهداء

إلى روح عمتي الطاهرة

إلى أبوي اللذين بذلا الغالي والنفيس في سبيل تجاوزي لصعاب الطريق،

عرفانا بجميلهما وتقديرنا لتضحياتهما

إلى من بوجودها أكتسب قوة ومحبة زوجتي

إلى القلوب الطاهرة والنفوس البريئة أخواتي

إلى جميع أساتذتي وأصدقائي

كلمة شكر

أتقدم بالشكر الجزيل والامتنان العظيم، بعد إتمامي لهذا البحث، إلى أستاذي عوني الحاج موسى الذي استفدت من جلساته العلمية وتوجيهاته منذ تأطيري في بحث الماجستير وصولاً إلى الإشراف على هذه الأطروحة وتتبع تفاصيلها ومراحلها مشجعاً ومقوماً ومضيفاً ومغنياً ومسانداً إلى أن استقام عملها واكتمل على النحو الذي أخرج به. ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر كذلك إلى أساتذة مختبر التراث دراسة وصيانة وإنقاذ على مجهوداتهم وعطاءاتهم في سبيل التكوين العلمي الرصين.

كما أقدم شكري إلى الأستاذ جمال حيمر على ملاحظاته وتوجيهاته القيمة التي أغنت الموضوع، وكذا إلى الأستاذ محمد الشهبوني على تصحيحاته اللغوية، كما أتوجه بالشكر الجزيل كذلك إلى أصدقائي على مساعدتهم الميدانية والتقنية وأخص بالذكر: بو علي الخلافة، محمد بسباس، زهير كروشي، ياسين بهلول، عوني عبد الفتاح، كبيري علوي مصطفى، كبيري علوي محمد، الراضي عبد اللطيف، اسماعيل أحو.

والشكر موصول إلى كل من أسهم من قريب أو بعيد في إنجاز هذا العمل.

قائمة المختصرات والاختزالات

- ج. ر : الجريدة الرسمية
 - خ. ح : الخزانة الحسنية
 - خ. ع : الخزانة العامة
 - مخ : مخطوط
 - ص. ر : صورة رقم
 - م. س : مصدر سابق أو مرجع سابق
 - ط : طبعة
 - ك.آ. ع. إ : كلية الآداب والعلوم الإنسانية
 - م.د.ب.ع : مركز الدراسات والأبحاث العلوية بالريصاني.
-
- ENA : Ecole Nationale d'Architecture
 - INSAP : Institut Nationale des sciences d'Antiquité et du Patrimoine
 - Op.cit : Option Citée
 - T. : Tome
 - Vol. : Volume
 - H. : Hesperis
 - H.T. : Hesperis Tamuda
 - P.A.M : Programme alimentaire Mondial

مقدمة

تحتضن واحة تافيلالت مجموعة متميزة من القصور التي تمتد على طول وادي زيز. وهي تجمعات سكنية تمثل الهندسة النموذجية للمنطقة، وتعبّر عن براعة الإنسان الواحي بالمغرب الشرقي، كما تترجم تكيفه مع الوسط الذي يعيش فيه، إذ كان اهتمام البنائين بالعمارة الواحية؛ باعتبارها رافدا من روافد العمارة الإسلامية؛ يتوافق مع ثقافة الإنسان المحلي وحاجاته ومنسجما مع عاداته وتقاليده وأفكاره وخصوصيته، وقائما على مبدأ تحقيق الأمن والسلامة. وكمثال على ذلك أسوار القصور الفيلالية وأبراجها الركنية والبرّانية، وأبوابها المحصنة، على نحو يجعلها متلائمة مع المتغيرات المناخية وملبية لمتطلبات الإنسان الذي يعيش في هذه البيئة الجغرافية المتسمة بشظف العيش. إضافة إلى كونها تجعل ساكنة القصر تحقق وحدة تضامنية بعيدا عن التنافر والحساسيات وحامية لهذه الساكنة من غارات وهجمات الأعداء أوقات الشدة والحرب.

ولما كانت العمارة إنتاجا ماديا لثقافة وفكر المجتمع، وتعبيرا عن منجزات الإنسان وحاجياته اعتمادا على إمكانياته ووسائله المتوفرة لتأمين أساليب عيش سليمة توفر له السكنية والاستقرار. وحيث إن العمارة عنصر رئيس من عناصر الحضارة لكونها تكشف مستوى التفكير الإنساني وتعكس ثقافة الشعوب وتطبع كيانهم بسمات معمارية متميزة. من ذلك نموذج العمارة العسكرية بقصور تافيلالت التي ظلت وفيّة لأصالتها وشخصيتها المتميزة ونسقها الحضاري الأصيل في الفترات التي لم تتعرض فيها للتبعية السياسية والاجتماعية وللغزو الغربي الذي أدى إلى تراجع الطابع المعماري الخاص بها نتيجة تطور الأسلحة من جهة، وانفجار القصور من جهة أخرى. والمؤكد أن إنشاء العمارة عمل إبداعي يستوجب مجتمعا مستقلا ومتماسكا يحمل قيم التضامن والتآزر، وهو ما جسده تعامل البّناء الفيلالي مع قصوره بعد إدراكه البنية الذهنية للمتطلبات الاجتماعية في عصره وسعيه إلى تلبيتها بكفاءة عالية ودقة متناهية لمواجهة كل الأخطار المحيطة بقصوره ولتحقيق الأمن للسكان.

❖ أهمية موضوع البحث وأهدافه

يحتل البحث في موضوع "العمارة العسكرية بقصور تافيلالت دراسة تاريخية ومعمارية" أهمية كبرى في مجال التاريخ العسكري والسياسي، وأشكال التدافع والصراع بين القبائل الفيلالية التي استوطنت المنطقة، وأبدعت أشكالاً من الوجود الإنساني والثقافي والعمراني بها في أفق الاستمرارية والحفاظ على البقاء. إضافة إلى أن دراسة هذا الموضوع هو في الصميم بحث في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والذهنية لسكان قصور تافيلالت، ومدى قدرتهم على إبداع أشكال معمارية من أجل الحفاظ على البقاء والاستمرارية. لذلك فإنه غدا من الضروري في الزمن الراهن التعريف بهذا النوع من العمارة وإخراجه من دائرة النسيان، والحفر في ذاكرته، والتعرف على تقنياته وسماته وخصائصه الهندسية والمعمارية من أجل صيانتها وإنقاذها وإعادة توظيفه بما يتناسب مع متطلبات العصر.

كما أن البحث في موضوع العمارة العسكرية الفيلالية، يعتبر تنقيبا عن العوامل والظروف التي أدت بالأجداد إلى التفاعل مع واقعهم، وإلى استفراغ الجهود من أجل تجاوز معضلاته، والدفاع عن المبادئ والقيم التي آمنوا بها، والمتمثلة في تأمين سلامة السكان من الأخطار المحدقة بهم ومن ذلك المقاومة الشرسة للمستعمر الفرنسي بعد تغلغه بالمنطقة. مما يبرز أهمية اختيار هذا النمط العمراني، وأسلوب بنائه، وتشكيله الهندسي من لدنهم، ومدى تناسبه مع حياتهم الذهنية والثقافية، وتلبيته لحاجياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدفاعية. وهذا ما جعل كل عنصر من عناصر العمارة العسكرية بقصور تافيلالت لا يرسو في مكانه وموضعه كما اتفق، بل بناء على متطلب خاص أو عام للسكان الفيلالية. وإجمالاً، فإن موضوع البحث يروم تحقيق عدة أهداف أهمها:

- إبراز مظاهر الاستمرارية والقطيعة بين العمارة العسكرية لمدينة سجماسة المندرسة والعمارة العسكرية للقصور الفيلالية المحيطة بها، اعتماداً على تقارير البحوث الأركيولوجية لمدينة سجماسة والمعاينة الميدانية الدقيقة لواقع هذه القصور.

- تتبع تطور العمارة العسكرية بقصور تافيلالت منذ النشأة إلى نهاية القرن العشرين، وذلك من حيث سماتها المعمارية وهندسة نظامها الدفاعي من أسوار وأبواب وأبراج وخنادق، وأثر كل ذلك في تشييد المظاهر الحضارية والمعمارية، في أفق تكوين مشهد معماري دقيق يكون بمثابة نواة صلبة تفيد في جهود الصيانة والإنقاذ والاستثمار.
- إبراز مدى مساهمة العمارة العسكرية بقصور تافيلالت لتطور الأساليب الدفاعية والهجومية وآلات الحصار المستخدمة في مختلف الفترات التاريخية التي مرت بها.
- إنجاز دراسة تبين دور مكانة القصور الفيلالية في تاريخ المغرب، وذلك بإبراز عمقها التاريخي بعد اندراس سجل ماسية عبر استعادة ماضيها والكشف عن جذورها، ورصد معالمها العسكرية، والتعريف بمستوى تطور نسيج عمرانها الأصل خلال الفترة مدار البحث.
- العمل على محاولة تصنيف العمارة العسكرية لقصور تافيلالت عبر البحث في أدق تفاصيل عمرانها من خلال زوايا متعددة تروم ربط النظام الدفاعي للقصور الفيلالية بالمجال الريفي والحضري (مدينة سجل ماسية المندرسية)، وكذا بظروف بناء هذه التحصينات العسكرية.
- التركيز على مكون واحد من مكونات العمارة الإسلامية وهو مكون العمارة العسكرية بعناصرها المعروفة، وذلك في أفق صياغة تصور معرفي رصين لأسباب وحيثيات وظروف نشأة وتكون هذا النوع من العمارة في الجنوب الشرقي المغربي ومقارنته مع أنماط أخرى من العمارة العسكرية.
- تجاوز التصور التقليدي الذي ينظر إلى العمارة العسكرية نظرة ضيقة تختزل هذه المنظومة الدفاعية في الوظيفة الحربية والتحصينية درءا للمخاطر والفتن المحلية، دون ربطه بالحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والذهنية للسكان.
- المساهمة في الحفاظ على الذاكرة والهوية الحضارية للقصور الفيلالية وتنمين عمارتها، في أفق البحث عن صيغة مستقبلية للمعالم الأثرية العسكرية المهددة بخطر السقوط والاندثار، تمكن من مواكبة تطور مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

❖ دوافع اختيار موضوع البحث

لقد كنت مشدودا منذ صباي؛ بدافع من الفضول وحب الاستطلاع؛ إلى اكتشاف فضاء القصور الفيلالية والاطلاع على تفاصيلها، وهي التي نشأت في كنفها وبين جوانبها، فكان الفضول المعرفي يتعاضم لدي من أجل استكناه تفاصيل أمكنتها وأسوارها ومعالمها. ثم تحول هذا الشغف المعرفي مع مرور الزمن إلى أسئلة حارقة حول أسباب وظروف استقرار الأجداد بهذه المنطقة من الوطن، والأساليب التي انتهجوها في التفاعل مع مجالهم الصحراوي وتجاوز معضلاته وعقباته الكأداء. وهي ذات الأسئلة التي دفعتني دفعا إلى الالتحاق بشعبة التاريخ إبان تكويني الجامعي، وكذا التسجيل في "ماستر التراث والتنمية" وصولا إلى إنجاز بحث الماستر في موضوع **"قصور المعاضيد : دراسة تاريخية وعمرانية"**، الذي ولد الاحتكاك به رغبة في مزيد من الاطلاع والتعمق أكثر في العمارة الصحراوية بما هي جزء من العمارة الإسلامية، مما جعلني اهتم بالعمارة العسكرية للقصور الفيلالية بالجنوب الشرقي المغربي، لعلني؛ بذلك؛ أرد بعض الجميل لهذا المعمار البهي الأصيل الذي طبع ملامح شخصيتي ووشم ذاكرتي وشكل جزءا عظيما من تكويني النفسي والثقافي.

إن خيارنا لدراسة مونوغرافية تستهدف استجلاء الخصائص العمرانية والوصف التحليلي للمعمار المحلي تركز على قناعتنا بأن معرفة الجزء سبيلا لتبين الكل والإحاطة به، ضمن تصور شمولي ووظيفي يروم استثمار التشخيص الدقيق للواقع المحلي للسكانة الفيلالية وقبائلها وتوظيفه في كتابة تاريخ وطني عام.

كما أن مسعانا في هذا البحث الميداني التطبيقي متصل بحقيقة مفادها أن المعمار تعبير عن وقائع تاريخية وقيم حضارية. فضلا عن الرغبة في المساهمة عبر البحث الأكاديمي الجامعي في التعريف بأسس ومقومات المحيط الإقليمي والجهوي والوطني، على نحو يحول الاهتمام بالقضايا المعمارية والعمرانية لقصور تافيلالت وتحصيناتها العسكرية من مجالها المحلي الضيق إلى شأن عام، يسلط الضوء على ما طالها من إهمال ونسيان ينذر بفقدانها لقيمتها التاريخية والحضارية، ويرد الاعتبار لنسيجها العمراني، ويعمل على إنقاذه وترميمه وصيانتها من الاندثار، ويبحث سبل تثمينه، عبر تحويل المعالم المعمارية

العسكرية إلى مزارات يتعرف من خلالها الآخر على مكونات التاريخ الفيلالي وما يتميز به من سمات معمارية.

❖ الإطار الزمني والمكاني للبحث

تمتد فترة الدراسة من ظرفية اندراس حاضرة سجماسة خلال القرن الرابع عشر الميلادي إلى نهاية القرن العشرين، مما يجعل الإطار الزمني للبحث طويلا ويطرح مجموعة من التساؤلات، غير أن ما يجب استحضاره أن طول الفترة الزمنية لموضوع الأطروحة فرضته طبيعة الموضوع الذي يندرج ضمن الدراسات التاريخية والمعمارية للبادية المغربية التي يصعب وضع تاريخ دقيق لنسيجها العمراني القروي الذي تعتبر القصور بواحة تافيلالت من أهم مكوناته، وهذا الأمر يتطلب مقارنة العمارة العسكرية بقصور تافيلالت في سياق الزمن الطويل (La longue durée)، وذلك لتجاوز المشهد الحداثي والبحث في مظاهر الاستمرارية والقطيعة في تاريخ العمارة العسكرية للقصور الفيلالية.

ويتحدد مجال هذه الدراسة في منطقة زيز الأسفل الذي يكون إلى جانب زيز الأوسط وزيز الأعلى واحات تافيلالت، ويشمل هذا المجال قصور جماعة عرب الصباح زيز التي تضم قصور المعاضيد وقصور تيزيمي، والقصور الواحية لتافيلالت "الصغرى" التي تتألف على المستوى الإداري من بلدية مولاي علي الشريف، وجماعة السيفة، وجماعة بني أمحمد سجماسة، وجماعة السفالات، وجماعة الريصاني.

❖ إشكالية موضوع البحث

تسعى فصول هذا البحث إلى كشف النقاب عن كثير من القضايا المطروحة في موضوع "العمارة العسكرية بقصور تافيلالت: دراسة تاريخية ومعمارية"، وإثارة أسئلة مفتوحة تنطلق من مساءلة ماهية العمارة العسكرية الفيلالية من الناحية التاريخية على مستوى بدايات نشأة قصورها وتعميرها وأبعادها العسكرية، لتقارب الخصائص العمرانية والمعمارية لهذا الصنف من العمارة من حيث تخطيطها وهندستها ونمط وأسلوب بنائها ومواد وتقنيات إنشاء معالمها، ومدى تجسيدها لروح العمارة الصحراوية شكلا ووظيفة

وقيما، وحدود تلبيتها للحاجيات الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية للساكنة والمجال الواحي. ومن أجل ذلك فإن هذه الدراسة تطرح تساؤلات عديدة ومتشابكة نجملها في ما يلي:

- ما المقصود بالعمارة العسكرية وما طبيعتها بقصور تافيلالت؟ وما موقع العمارة العسكرية لقصور تافيلالت في المصادر والمراجع وفي أحكام البنين؟ وكيف تجلت المكونات المعمارية والمنشآت العسكرية في هندسة ومعمار قصور تافيلالت؟
- كيف تبلورت ظروف النشأة والتكون والتخطيط للعمارة العسكرية الفيلالية؟ وما هي الفترات الزمنية والتاريخية التي شيدت فيها؟ وما أبرز العوامل التي أسهمت في تكونها بقصور تافيلالت حتى اتخذت صورتها المعروفة؟
- ما هي خصائص ومواصفات هذا النمط العمراني من الناحية الهندسية والتقنية والمعمارية؟ وما طبيعة مواد البناء المستعملة وطرق وتقنيات استخدامها؟ وإلى أي مدى تفنن البناء الفيلالي ومن يسلك مسلكهم من ذوي الصنعة والخبرة في تشييد النظام الدفاعي لمكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت من أسوار وأبواب وأبراج ركنية وبرانية وغيرها؟
- ما هي المعايير التي يمكن اعتمادها لتصنيف القصور الفيلالية بشكل يقربنا من استجلاء مورفولوجيتها ووظيفتها وسمات عمارتها العسكرية؟ وإلى أي حد يجوز الارتكاز على مكونات العمارة العسكرية في تصنيف قصور تافيلالت؟
- أي مستقبل ينتظر العمارة العسكرية للقصور الفيلالية في ظل اجتياح العمارة الحديثة، وانفجار القصور والأدوار السلبية المتعاضمة لمآل الحداثة على شخصيتها الحضارية وطابعها المعماري الأصيل؟

❖ المنهج

لمقاربة إشكالات البحث، أثرت تبني منهج يجمع بين التوثيق التاريخي، عبر رصد واستقراء المادة التاريخية المتنوعة المظان واعتماد الرواية الشفهية من جهة، والبحث

الميداني القائم على الوصف والتحليل والتفكيك والاستنباط مع الأخذ بعين الاعتبار تكامل الظاهرة التاريخية من جهة أخرى.

إن هذا الخيار المنهجي جعل مسار البحث في الباب الثالث، يأخذ منحى تقنيا صرفا اتخذ من المنهج الوصفي المعتمد على المعاينة الميدانية وتفريغ معطياتها وتفصيلها في جداول واصفة وتحليلات وإحصاءات وصور متعددة أبرزت مكونات العمارة العسكرية للقصور الفيلاية. بينما اتسمت مباحث وفصول الباب الأول والثاني بالمنحى التاريخي الشمولي.

ورغم تباين المقاربة في كل من الباب الأول والثاني والثالث من هذا البحث، فإن العديد من النتائج التي أسفرت عنها مباحث الباب الثالث جاءت مدعمة في الغالب الأعم لنتائج ومحصلات الباب الأول والثاني، وذلك في إطار تكامل منهجي لم نتقصده في البداية، وإنما فرضته مادة البحث وموضوعه وإشكالاته العويصة التي صادفتنا ونحن نخوض غماره. فكان لهذا التكامل المنهجي، الذي حتم علينا الانفتاح على حقول معرفية تمتح من علم التاريخ، وعلم الجغرافيا، وهندسة المدينة الإسلامية وتخطيطها، وفقه العمران، والسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا، وقع إيجابي على تصورنا لما ينبغي أن يكون عليه البحث العلمي في مقاربة مثل هذه المواضيع، وبالمثل أسعفنا في التمكن إلى حد ما من حيازة كفاية وصفية وتحليلية وتفسيرية لمختلف الظواهر التاريخية والعمرانية التي شكلت مدار البحث. وقد ارتكزت منهجية اشتغالنا في الميدان على ما يلي:

- القيام بتحريرات ميدانية متكررة للوقوف على مكونات العمارة العسكرية للقصور الفيلاية والمقارنة بين ما ذكر في المصادر المكتوبة وواقع الحال الذي تبوح به الشواهد الأثرية المكونة لأنظمة التحصين بتاڤيالات.
- أخذ صور شمسية لمكونات العمارة العسكرية بقصور تاڤيالات بشكل يراعي المعايير العلمية للتصوير الفوتوغرافي.
- توثيق مكونات وعناصر العمارة العسكرية للقصور الفيلاية.
- وضع مخططات توضيحية للعمارة العسكرية بقصور تاڤيالات.
- مقارنة تصاميم القصور وعناصر أنظمة التحصين الدفاعية.

- تشخيص حالة مكونات العمارة العسكرية للقصور الفيلالية.
- اقتراح التقنيات والأساليب المناسبة لصيانة وإنقاذ النظام الدفاعي للقصور مدار الدراسة.

❖ مصادر ومراجع البحث

لقد فرضت علينا طبيعة الموضوع النهل من مظان مختلفة يمكن تقسيمها إلى نوعين من المصادر: الأثر المكتوب والأثر المادي. فبالنسبة للأثر المكتوب، فقد تم التقاط عدة إشارات من كتب الحوليات التاريخية، والفقه والنوازل، والجغرافيا والرحلات، والمونوغرافيات وغيرها من المصادر التي أمكننا الاطلاع عليها، بالإضافة إلى الدراسات والبحوث الأكاديمية المنجزة حول منطقة تافيلالت التي شكلت نواة صلبة وأرضية ارتكاز شجعتني على خوض غمار البحث في العمارة العسكرية الفيلالية، وهو ما سنتعرض له في الفصل الأول من هذا العمل.

وأما بالنسبة للأثر المادي بما هو المرجع الأساس والشاهد الذي لا يعتريه الشك في كل دراسة معمارية، فإن طبيعة موضوع البحث تقتضي العمل الميداني من أجل توثيق التفاصيل المعمارية للتحصينات العسكرية للقصور الفيلالية، والذي من دونه يتعذر إنجاز هذه المهمة العلمية ولا إعطاء فكرة عن مظاهر ومكونات العمارة العسكرية وسماتها المميزة لها عن غيرها من العمائر العسكرية لواحات بلاد المغرب، وكذا حواضره الكبرى.

❖ خطة البحث

انطلاقاً من الرؤية المنهجية التي أطرت تعاملنا مع الموضوع، فقد تم تقسيمه إلى ثلاثة أبواب معززين بصور وتصاميم وجداول وخرائط ووثائق، ومقدمة ثم خاتمة متضمنة لأهم الخلاصات والاستنتاجات المتوصل إليها في البحث، وملحق يشمل وثائق محلية ومعجم لقائمة المصطلحات المستعملة، وبيبلوغرافيا.

ينقسم الباب الأول إلى ثلاثة فصول، يعالج الفصل الأول منه موقع العمارة العسكرية بقصور تافيلالت في المصادر والمراجع برؤية نقدية تهدف إلى إبراز مساهمتها في إغناء البحث منهجياً ومعرفياً، وأخذ تصور جديد عنه، كما تفيد في بيان نقاط القوة والثغرات التي قد تعتري تلك الدراسات السابقة عن موضوع البحث. أما الفصل الثاني فتم تخصيصه

للحديث عن موقع العمارة العسكرية في فقه العمران، قصد فهم البناء الفكري والقيمي الذي كان يؤطر العمارة الإسلامية عامة والعمارة العسكرية على نحو خاص، وكذا بهدف تفسير حركية العمران التي ولدت جملة من القواعد الفقهية الضابطة والموجهة لما سمي فقه العمران. وبما أن أي دراسة تحتاج إلى وعاء نظري وجهاز مفاهيمي لدراسة القضايا المطروحة في البحث، فقد أفردنا الفصل الثالث لتقديم تعريف مفصل لمصطلحات ومفاهيم العمارة العسكرية لإدراك معانيها ودلالاتها، ولتوضيح كيف تمت ترجمتها في الهندسة المعمارية العسكرية بقصور تافيلالت.

أما الباب الثاني فيبحث في "قصور تافيلالت : إشكالية التأسيس والأبعاد العسكرية والوظيفية"، إذ انكب الحديث في الفصل الرابع منه على الحديث عن قصور تافيلالت وإشكالية التأسيس وامتدادها التاريخي من خلال إبراز موقع تافيلالت الجغرافي وتاريخها، في أفق امتلاك تصور معرفي سليم لأسباب وحيثيات وظروف نشأة وتكون هذا الصنف من العمارة في جنوب المغرب الشرقي.

تناولنا في الفصل الخامس مميزات القصور الفيلالية ودور البعد الأمني والسياسي في بلورتها، فضلا عن تسليط الضوء على مستلزمات إنشاء القصور الفيلالية والوظائف التي قامت بها منذ ظهورها، حيث ركزنا على المهام والأدوار الدفاعية لمكونات عمارتها العسكرية المتمثلة في الأسوار والأبراج والأبواب وغيرها. وتمحور مدار الكلام في الفصل السادس والأخير من هذا الباب حول القصور الفيلالية وإشكالية تصنيفها الوظيفي والمورفولوجي مع تقديم محاولة في التصنيف العسكري.

وتوقفنا في الباب الثالث لتتبع "دراسة العمارة العسكرية بقصور تافيلالت من خلال نماذج"، وهكذا خصصنا الفصل السابع منه لتقديم محاولة في التصنيف العسكري لهذه القصور اعتمادا على معايير متعددة تتجاوز النظر إلى مكونات عمارتها العسكرية بأسوارها وأبوابها وأبراجها نظرة تظهرها وكأنها في حالة مواجهة وصراع لدرء كل الأخطار والهجمات والصراعات القبلية فقط، وإنما تصنيف ودراسة نماذج من عمارة القصور الفيلالية العسكرية تروم إبراز تفاصيلها باعتبارها منظومة عمرانية دفاعية ترتبط

بالمجال الطبيعي للسكان وذهنياتهم لحفظ الأمن والدفاع عن حياضهم، علاوة عن دراستها في ارتباط ببنياتهم الاقتصادية والاجتماعية.

وأما الفصل الثامن فخصص لدراسة "مواد وأساليب البناء في العمارة العسكرية بقصور تافيلالت وتشكيلاتها الزخرفية" من خلال إبراز مواد البناء التي استعملها الإنسان الواحي في عمارته العسكرية بقصور تافيلالت وفن تشييدها على الأرض، حتى غدت مدعاة للتباهي من طرف الساكنة المحلية، ومحط إعجاب من لدن مَنْ شد الرحال لزيارتها من مختلف مناطق المعمور، وما تضمنته من تشكيلات زخرفية ورؤية جمالية.

وكرسنا الحديث في الفصل التاسع عن "صيانة وترميم وتثمين العمارة العسكرية بقصور تافيلالت"، انطلاقا من تتبع عوامل ومظاهر تدهور التراث المعماري بقصور تافيلالت وآفاق إنقاذه، وكذا تناول موقع العمارة العسكرية بقصور تافيلالت ضمن سياسة رد الاعتبار والإنقاذ للمباني التاريخية التي تنهجها الدولة المغربية عبر مختلف مؤسساتها المختصة. وختمنا الحديث في هذا الفصل عن آليات تثمين العمارة العسكرية بقصور تافيلالت من خلال إبراز أشكال تأهيل هذا التراث المعماري ليقوم بأدوار أخرى تسائر متطلبات العصر عبر استثماره في التنمية المستدامة محليا على المستوى الثقافي والسوسيو اقتصادي والسياحي والفني.

وغني عن البيان أن ما أثرناه من إشكالات وقضايا تاريخية ومعمارية لقصور تافيلالت ووجهات نظر تبقى قاصرة عن إيجاد حلول وإجابات قطعية لكثير منها. وهو ما لا يتيسر إلا عبر مواصلة البحث والتنقيب والارتقاء في مجال المعرفة والبحث العلمي. وحسبي أن أكون قد عرفت على قدر المستطاع بالعمارة العسكرية الفيلالية بما يمكن من إعادة الاعتبار لتراثها واستثماره في التنمية المستدامة المحلية.

الباب الأول:

موقع العمارة العسكرية لقصور تافيلالت في المصادر

والمراجع وفي فقه العمران، مع تعريف مصطلحاتها

ومفاهيمها

تقديم:

لا سبيل لإنكار أهمية الدراسة البيبليوغرافية والمصطلحية في أي دراسة أكاديمية تطمح إلى الإلمام بالجوانب المنهجية والمعرفية التي يجب أن يتسلح بها الباحث عن سبر أغوار الإشكالات التي ينوء بها بحثه، ولعل ميسم المحدودية والابتسار في حقل الدراسات التاريخية والعمرانية، المهمة بالتحصينات العسكرية عموما والعمارة العسكرية الواحية خصوصا، كان من دوافع خوض غمار موضوع البحث حول **"العمارة العسكرية بقصور تافيلالت دراسة تاريخية ومعمارية"**. وذلك في أفق إعداد دراسة وافية متكاملة، من منطلق أن العمارة إنتاج مادي لثقافة وفكر المجتمع، وتعبير عن منجزات الإنسان وحاجياته اعتمادا على إمكانياته ووسائله المتوفرة من أجل البحث عن أساليب عيش سليمة توفر له السكنية والأمن والاستقرار.

وفي هذا السياق، فإن الفصل من الأول من هذا الباب والذي يعالج موقع العمارة العسكرية بقصور تافيلالت في المصادر والمراجع برؤية نقدية يهدف إلى إبراز مساهمتها في إغناء البحث منهجيا ومعرفيا، وأخذ تصور جديد عنه، كما تفيد في بيان نقاط القوة والثغرات التي قد تعتري تلك الدراسات السابقة عن موضوع البحث. أما الفصل الثاني فتم تخصيصه للحديث عن موقع العمارة العسكرية في فقه العمران، قصد فهم البناء الفكري والقيمي الذي كان يؤطر العمارة الإسلامية عامة والعمارة العسكرية على نحو خاص، وكذا بهدف تفسير حركية العمران التي ولدت جملة من القواعد الفقهية الضابطة والموجهة لما سمي فقه العمران. وبما أن أي دراسة تحتاج إلى وعاء نظري وجهاز مفاهيمي لدراسة القضايا المطروحة في البحث، فقد خصصنا الفصل الثالث لتقديم تعريف مفصل لمصطلحات ومفاهيم العمارة العسكرية لإدراك معانيها ودلالاتها، ولتوضيح كيف تمت ترجمتها في الهندسة المعمارية العسكرية بقصور تافيلالت.

الفصل الأول:

موقع العمارة العسكرية لقصور تافيلالت

في المصادر والمراجع المعتدة

الفصل الأول : قراءة في المصادر والمراجع المعتمدة

تشكل الدراسة البيبليوغرافية أهمية كبرى في مجال البحث العلمي لما لها من دور كبير في تسهيل عملية البحث وتجاوز معظم عقباته وصعوباته التي قد تصادف الباحث، علاوة على تمكنه من وضع خطة متكاملة لموضوع البحث والإحاطة بأبعاده وقضاياه. وقد استندت خطة عملنا في البداية إلى الاطلاع على كتاب "تأفيلالت الكبرى مقارنة بيبليوغرافية" لمؤلفه سعيد واحيحي، ثم مراجعة فهرس الخزانات العامة الكبرى بالمغرب وكذلك خزانات كليات الآداب والعلوم الإنسانية في كل من الرباط والدار البيضاء وفاس ومكناس والقنيطرة. بالإضافة إلى زيارة المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث وبعض المكتبات العمومية. فضلا عن الولوج لمجموعة من البوابات الإلكترونية ذات الارتباط بموضوع التراث، وقد حظي موقع www.memoryarabworld.net الذي يضم بيبليوغرافية متنوعة حول التراث المعماري والعمراني في العالم العربي تقدر بحوالي سبعمائة وأربعة وتسعين (794) مصدرا ومرجعا بمختلف اللغات باهتمام خاص نظرا للاعتبار المذكور.

ولا شك أن عملية الاطلاع على المصادر التاريخية والوثائق والمراسلات، وكذا الدراسات السابقة تسهل من مهمة اكتشاف ومعرفة المعلومات التي تخدم موضوع البحث وتغني محاوره وتذلل صعوباته، كما تمكن من أخذ تصور جديد عنه، وتفيد في بيان بعض الثغرات التي قد تعترى تلك الدراسات السابقة وتثمين عوامل قوتها. بالإضافة إلى كون هذه العملية؛ كذلك؛ تسمح بالتعمق في إشكالية البحث وطرح أسئلة جوهرية حوله تساهم في وضع الهيكل العام لموضوع البحث ووضع خطة وتصميم متكامل ومنسجم له، وهو ما سنعمل على إبرازه في هذا الفصل من خلال تتبع موقع العمارة العسكرية للقصور الفيلائية في المصادر التاريخية والمراسلات السلطانية والوثائق المحلية، وكذا الأبحاث والدراسات الأكاديمية التي تناولت المنطقة بالدراسة والتحليل وتمكنا من الاطلاع عليها وفق الإمكانيات المتاحة لنا.

المبحث الأول: قراءة في المصادر التاريخية

احتلت منطقة تافيلالت في تاريخ المغرب مكانة متميزة، نظرا لكون معظم الدول المغربية ترجع بأصولها إلى مناطق الصحراء والواحات⁽¹⁾، وكذا نتيجة للأحداث التاريخية التي شهدتها في مختلف الفترات التاريخية للمغرب، وهو ما عبر عنه ابراهيم بوطالب بقوله: "ولما كانت تافيلالت ملتقى لكبريات الطرق كانت حتما ملتقى للأحداث والتاريخ ... إن تافيلالت نموذج مصغر عن مجموع البلاد"⁽²⁾، الأمر الذي جعل مختلف المصادر التي أرخت لبلادنا تخصص لها حيزا مهما على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، غير أن الذي يهم موضوع البحث يتمثل في التقاط شذرات وإشارات المصادر التاريخية والجغرافية والرحلات وغيرها لإبراز موقع العمارة الفيلالية ضمنها بشكل عام وتحصيناتها الدفاعية والعسكرية على نحو خاص.

1- كتيب التاريخ العام

تهتم كتب التاريخ العام أساسا، والتي تعرف بكتب الحوليات؛ في الغالب الأعم بالتاريخ السياسي أساسا للدول التي تعاقبت على الحكم في بلاد المغرب أو غيره من بلدان العالم الإسلامي، غير أن ذلك لا يمنع من وجود عدة نتف تهتم بجوانب أخرى والتي من بينها التاريخ العمراني، الذي يندرج ضمنه موضوع بحثنا، وفي مقدمة المصادر التاريخية التي تفيد في موضوع العمارة العسكرية عامة والعمارة الدفاعية بقصور تافيلالت، نجد العلامة ابن خلدون (ت. 808 هـ)، والذي خبر أحوال العمران خلال فترة الحكم المريني بالمغرب الأقصى، في "المقدمة" أو في كتاب "العبر"، يقدم مادة مصدريّة هامة تبين الطابع العسكري في الهندسة المعمارية لكثير من المدن المغربية المختطة والبوادي في عصر ابن خلدون، حيث إن المدن لم تعد تبنى وتشيد لتقوم بوظائف اقتصادية واجتماعية،

1- محمد زنيبر، مساهمة الصحراء في بناء الدولة المغربية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد 21-22، الطبعة الأولى 1418-1998، ص. 77.

2- ابراهيم بوطالب، مرتبة إقليم تافيلالت في تاريخ المغرب، ضمن ندوة نشأة الدولة العلوية الشريفة، مطابع ميثاق المغرب، الرباط، 1988، ص. 28.

بل لتحمي أهلها وساكنتها بمن فيهم الحكام والأمراء⁽¹⁾، وكذا لتكون "شجبا في حلق من يروم العزة"⁽²⁾. ولا غرابة في ذلك فقد عايش ابن خلدون تخريب مدينة سجلماسة في القرن الرابع عشر الميلادي، ومعلوم أن الكثير من منشآت العمارة العسكرية للقصور الفيلالية عاصرت المدينة التي خربها المرينيون، من هنا تستمد كتابات ابن خلدون أهميتها في موضوع البحث، فضلا عن أنها تفيد في إبراز مواد البناء المستعملة في العمارة الصحراوية وخصوصا البناء بـ "الطابية" (التراب المدكوك)⁽³⁾ الذي شيدت منه العمارة العسكرية للقصور الواحية المغربية. كما تظهر أهمية كتاب "المقدمة" فيما يخص موضوع بحثنا في الاستفادة من الضوابط والشروط التي وضعها لإنشاء المدن والحوضر، إذ وضع البعد الأمني والعسكري على رأس تلك الأولويات.

ومن المصادر المهمة التي تقدم إشارات من شأنها أن تجيب عن إشكالية تأسيس القصور الفيلالية، هل بعد دمار سجلماسة أم قبلها أم شيئا معا في نفس الفترة، يوجد كتاب "الإصليت الخريت بقطع بلعوم العفريت النفريت" لابن أبي محلي (ت 1022هـ)، إذ إن الفقيه الثائر ابن أبي محلي اعتبر بأن "دمار سجلماسة جاء على يد تغوير مائها، محدثات القرى التي تسمى اليوم الرتب ... لأنها قطعت عنها ماء عنصرها المعروف بعين أجلف"⁽⁴⁾. ويظهر هذا النص وغيره من الإشارات الواردة في مخطوط "الإصليت الخريت" الفترة التاريخية التي شيدت وتأسست فيها بعض القصور الواحية بمنطقة تافيلالت وهو ما يبين القيمة التاريخية لهذا المصدر في دراسة العمران بقصور تافيلالت الكبرى.

يضاف إلى ما سبق من مصادر، مؤلف **الضعيف الرباطي** المتوفى في حوالي عام 1233 هـ، والذي أورد مادة مصدرية بالغة الأهمية في كتابه "تاريخ الدولة السعيدة" من

1- حميد نيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2010، ص. 512.

2- ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، تحقيق وتقديم وتعليق عبد السلام الشدادي، ج. 2، خزنة ابن خلدون، مكتبة الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2005.

3- المصدر نفسه، ص. 296.

4- عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي : الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، منشورات عكاظ، الرباط، 1991، ص. 22.

شأنها أن تنير الطريق في تاريخ العمارة العسكرية الفيلالية، خاصة ما يتعلف بأسباب هدم بعض القصبات، وهو ما يتجلى مثلاً إبرازه لتداعيات الصراعات بين أهل المعاضيد ومولاي المامون بن المولى اسماعيل (1672-1727م) وما نتج عنها من هدم لقصبته. فضلاً عن بعض التلميحات التي أسهمت في معرفة طبيعة العلاقة بين سكان تافيلالت والسلطة المركزية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وتحديدًا في عهد السلطان المولى سليمان (1792-1822م)⁽¹⁾.

كما أن المهتم بتاريخ تافيلالت بشكل عام لا غنى له عن الرجوع إلى مؤلفات أبي القاسم الزباني (ت 1249هـ)، والذي نهج أسلوب الحوليات في تكوين الأحداث، وأبرز هذه المؤلفات "البستان الطريف في دولة مولانا علي الشريف" الذي يستعرض تاريخ الدولة الإسلامية ثم الدولة العلوية، وقد سماه أيضاً الروضة السليمانية دون فيه تاريخ الدولة العلوية منذ نشأتها إلى حدود سنة 1817، حيث تضمن هذا الكتاب بعض النتف المرتبطة بساكنة قصور تافيلالت، خاصة ما ارتبط بالصراعات القبلية وحملات سلطانية تأديبية⁽²⁾. بالإضافة إلى ذلك، فإن أكنسوس (ت. 1294هـ) صاحب كتاب "الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي" أورد بعض الشذرات التي تؤرخ لنشأة الدولة العلوية وما عرفته منطقة تافيلالت من "آلة حرب لم تكن معهودة"⁽³⁾ عند ساكنتها من قبل، علاوة عن التأريخ لأعطيات السلطان المولى سليمان لشرفاء تافيلالت والزوايا بالمنطقة⁽⁴⁾، وهو ما يمكن أن يفيدنا في الحديث عن الهندسة المعمارية العسكرية للقصور الزوايا الفيلالية.

وفي نفس الإطار، فقد شكلت أجزاء كتاب أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت. 1310هـ) في مصنفه "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" الذي أشار في الجزء

1- الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة العلوية السعيدة، تحقيق محمد البوزيدي الشخي، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988، ج. 1، ص. 345.

2- الزباني أبو القاسم، البستان الطريف، تحقيق رشيد الزاوية، نشر مركز الدراسات والبحوث العلوية، الربصاني، الطبعة الأولى، 1992، ص. 418.

3- أكنسوس أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، تحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش، الطبعة الأولى، دون تاريخ الطبع، ج. 1، ص. 240.

4- المصدر نفسه، ص. 302.

الثامن من الكتاب إلى بعض الجوانب المتصلة بتداعيات هدم قصبة مولاي المامون ومختلف العلاقات الناشئة بين سكان قصور تافيلالت والسلطة المركزية خلال عهد السلطانين سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790م) والمولى سليمان (1792-1822م). وما أسفرت عنه من استيلاء "بعض قبائل الصحراء كعرب الصباح وبرابرة ايت عطة ... على قصور المخزن التي هنالك من عهد السلطان م. اسماعيل"⁽¹⁾. كما أنه من شأن الباحث في العمارة الفيلالية أن ينهل من المؤلف المونوغرافي للمختار السوسي المتوفى عام 1383هـ/ 1963م والموسوم بـ "المعسول" في جزئه السادس عشر معلومات في غاية الأهمية حول قصور تافيلالت، والتي ذكرها في عدة مواضع خاصة أثناء حديثه عن المقاومة الفيلالية للاستعمار الفرنسي وكيف تلاشت أهمية الأسوار أمام قذائف ونيران المدافع الفرنسية.

وتمثل مؤلفات عبد الرحمان بن زيدان المتوفى سنة 1365هـ/ 1946م، مصدرا مهما لسبر أغوار قصور الساكنة الفيلالية، سواء في مؤلفه "إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس" أو "المنزع اللطيف في مفاخر المولى اسماعيل ابن الشريف"، أورد بعض الإشارات المهمة التي ترتبط بمسقط رأس السلطان المولى اسماعيل بقصر آبار، وكذا ما يهم فترة بناء بعض القصور المخزنية والقصبات، مثل بناء المولى اسماعيل "قصبة المامون بتيزيمي من تافيلالت والقصبة الشهيرة بناحية السيفة وقصبة لبطرنى وقصبة أولاد عبيد بالمحل وقصبة كندار وقصبة الخلفى وقصبة أولاد يعيش وقصبة لجارصة وقصبة العبايدة وقصبة أولاد كروم وقصبة مزكيدة وقصبة الفيضة"⁽²⁾

2- كتب الجغرافيا والرحلات

تعتبر كتب الجغرافيا والرحلات من أغنى المصنفات الأدبية للتأريخ للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي والعمراني، وذلك بحكم اعتماد مؤلفي هذه المصنفات على الوصف

1- الناصري أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2007، المجلد الثالث، صص. 64-65.

2- ابن زيدان مولاي عبد الرحمان، المنزع اللطيف في مفاخر المولى اسماعيل ابن الشريف، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، مطبعة إديال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1993، ص. 336.

والسرد، خاصة عندما يتعلق الأمر بطرق أبواب البحث في تاريخ العمارة العسكرية لقصور تافيلالت، وتتجلى أهمية هذه الكتب في كونها تمكن من فهم العلاقة التي جمعت بين مدينة سجلماصة ومجالها البدوي من جهة، والمدن المغربية وبلاد السودان من جهة أخرى⁽¹⁾. ويأتي في طليعة هذه المصادر رحلة ابن بطوطة (توفي 779هـ) المعروفة بـ "تحفة النظار في غرائب الأمصار"، والذي قدم بعض النتف المرتبطة بمنطقة تافيلالت أثناء مروره بها إلى بلاد السودان وممالك افريقيا.

ويشكل كتاب الحسن الوزان الملقب بليون الإفريقي، والمنتسب للقرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي المعنون بـ "وصف افريقيا"، والذي يحمل في طياته معطيات تاريخية مهمة حول قصور تافيلالت ومجالها الجغرافي استقاها من معاينته للمنطقة في إطار زيارته السفارية، ومن بين ما أشار إليه الحسن الوزان في كتابه "وصف افريقيا" حدود إقليم سجلماصة الذي "يستمد اسمه من المدينة الرئيسية فيه"⁽²⁾. وتجب الإشارة هنا إلى أن ليون الإفريقي لا يستعمل في مصنفه مصطلح "تافيلالت" وإنما وظف لفظ سجلماصة سواء تعلق الأمر بالمدينة أو بباديتها.

ومن الإشارات المهمة كذلك عند الحسن الوزان، والتي تفيد في التأريخ لقصور تافيلالت قوله وقد : "تجمع سكانها في القصور، وتفرقوا هنا وهناك في الإقليم كله"⁽³⁾، وكذا في معرفة مساحة وعدد قصور الإقليم، حيث إن "إقليم سجلماصة ذاته يمتد على مسافة عشرين ميلا على نهر زيز من الشمال إلى الجنوب، ويشمل ما يقرب من ثلاثمائة قصر كبير وصغير، فضلا عن المداشر"⁽⁴⁾، وإذا علمنا بأن الميل الواحد يساوي 1340 متر فإن مساحة إقليم سجلماصة يمكن تحديدها بحوالي 36000 كلم مربع⁽⁵⁾.

1- حافظي علوي حسن، سجلماصة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة الأولى، 1997، ص. 15.

2- الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي، وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج. 2، ص. 120.

3- المصدر نفسه، ج. 2، ص. 128.

4- المصدر نفسه، ج. 1، صص. 125-126.

5- بلبكري عبد العزيز، تافيلالت ودلالاتها في المصادر التاريخية، مجلة واحة تافيلالت، العدد الأول، 1999، ص. 8.

ومن المصادر المهمة في كتب الجغرافيا والرحلات التي من شأنها أن تغني موضوع البحث نجد كتاب "إفريقيا" لمارمول كاربخال رغم تشابه ما ذكر فيه مع ما أورده ليون الإفريقي، إلا أنه في بعض الأحيان ينفرد عنه في بعض الإشارات التاريخية التي يمكن أن تنير بعض جوانب الموضوع، إشارة مارمول إلى أصول ساكنة القصور الفيلالية من العرب والأمازيغ وموقع بناء القصور الواحية، حيث ذكر بأنه "عندما شيد البرابر هذه المدينة في سهل من الرمال بنوا داخلها قصرا كبيرا وأحاطوها بالأسوار يسكن فيها اليوم ما يزيد عن ألفي نسمة سوادهم الأعظم من البرابر وينسبون كلهم إلى المدينة، فيطلق عليهم اسم فيلالة"⁽¹⁾.

وغني عن البيان أن أهمية هذه الشذرات الواردة في كتب الجغرافيا والرحلات من شأنها أن تفيدنا أثناء التطرق في الباب الثاني لتاريخ قصور تافيلالت وأبعادها العسكرية، خاصة في المبحث المرتبط بدور العامل الأمني والسياسي في بلورة القصور الفيلالية وتقنيات تشييد عمارتها العسكرية ومواد البناء المستعملة فيها.

3- كتب النوازل الفقهية

تشكل كتب "النوازل الفقهية" مادة علمية واسعة في حقل الدراسات التاريخية والعمرانية، والتي يستطيع الباحث من خلالها أن يستخرج معلومات تنير بعض الجوانب المعتمدة في موضوع بحثه. وقد اعتمدنا على نوازل كانت لها علاقة غير مباشرة بموضوع الدراسة من خلال التأطير النظري لموقع العمارة العسكرية في الفقه الإسلامي وتقديم أمثلة عن أحكام الفقهاء الواردة بصدد بناء الأسوار وإصلاحها، وتعتبر نوازل الونشريسي (ت 914هـ/1508م) خير سند لنا في هذا الجانب، حيث اعتمدنا على بعض نوازل "المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب" في الجزء الخامس

1- مارمول كاربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد زنيير، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بن جلون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار نشر المعرفة، مطابع المعرفة الجيدة، الرباط، 1988-1989م، ج.3، ص. 156.

والسابع من الكتاب، وذلك لكون نوازل الونشريسي "تعطي لنا نصوصا بريئة خالية من كل نزعة ذاتية"(1).

وأما فيما يتعلق بالنوازل التي لها علاقة مباشرة بموضوع بحثنا، فهي نوازل ابراهيم بن هلال السجلماسي" المتوفى سنة 903هـ/1497م، والتي تعتبر ذات قيمة كبيرة بحكم ارتباط قضاياها الفقهية بالمجتمع الواحي بتاغيلالت ودرعة(2)، وكذا لكونها تظهر سمات عصر تطبعه الاضطرابات السياسية والاجتماعية، وخصائص منطقة تاغيلالت المتميزة جغرافيا(3). وفي هذا السياق، يورد ابن هلال عدة نوازل تتعلق بالجغرافيا التاريخية لتاغيلالت يمكن توظيفها في القضايا المرتبطة بتفاعل الإنسان الفيلالي مع مجاله المعماري، أوفي صراعه مع الآخر من أجل تحصين قصوره ومنازله، وهكذا يورد ابن هلال على سبيل المثال نازلة تظهر النزاع بين الناس في عصره بمنطقة تاغيلالت حول السكن والاستقرار بأحد الحصون، حيث "قام فريق منهم قبل هذا الزمان بنحو من ثلاثين عام إلى حصن مهديم، فبنوه وأصلحوا منه ما وهى وسكنوه، يتصرفون فيه بأنواع التصرف، إلى الماضي -قبل عامنا هذا- قام الفريق الثاني عليهم مدعين بأن لهم في الحصن المذكور حقا"(4).

1- ابراهيم القادري بوتشيش، إسهامات في التاريخ الاقتصادي - الاجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط، مطبعة فضالة، المحمدية، 1998، ص. 29.

2- عمر بنميرة، النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (القرنان 8 و9هـ/14 و15م)، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1989، ص. 31.

3- المرجع نفسه، ص. 23.

4- ابراهيم بن هلال السجلماسي، نوازل ابن هلال، مخطوط بمؤسسة آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، البيضاء، [52ب].

1.4 الوثائق المخزنية

يقصد بالوثائق المخزنية، الوثائق المكتوبة الصادرة عن الإدارة المركزية المغربية أو ممثليها في الأقاليم من عمال وقواد وأمناء⁽¹⁾، والتي تتوفر الخزانة الملكية على القسم الأكبر منها وبشكل ضئيل الخزانة العامة بالرباط وغيرها من الخزانات العامة والخاصة والأرشفات الوطنية والأجنبية التي تم حفظها فيها.

وغني عن البيان، أن هذه الوثائق المخزنية كانت موجهة من لدن السلطان أو مرسلة إليه من طرف خليفته بتأفيلالت أو أحد ممثليه المخزنيين أو من بعض أعيان القبائل الفيلالية، غير أنه تجب الإشارة إلى أن هذه الوثائق تطرح في كثير من الأحيان عدة صعوبات بالنسبة للدارس لها نظرا لرداءة الخط الذي كتبت به أو لتعرض جزء منها للبت⁽²⁾، فضلا عن ركافة الأسلوب وغلبة اللهجة العامية في بعض المراسلات⁽³⁾.

وتتمثل أهمية هذه الوثائق فيما يتعلق بموضوع بحثنا في تنوع موضوعاتها المرتبطة بتأفيلالت، غير أن الذي يهمننا من هذه الوثائق تلك التي تضمنت معلومات ومعطيات تاريخية حول المنشآت الدفاعية للقصور الفيلالية ومكوناتها العمرانية، وهو ما أشارت إليه مجموعة من الوثائق، حيث نجد رسائل سلطانية خاصة بإصلاح وترميم بعض القصور بمنطقة تأفيلالت، أو إصلاح بعض أسوارها التي تعرضت للهدم بفعل عوامل طبيعية أو بشرية، كما يمكننا أن نستفيد من هذه الرسائل فيما ما يتعلق بأسباب تدهور العمارة العسكرية لبعض القصور المخزنية ومواد البناء المستعملة فيها. فضلا عن ذكرها لبعض

1- محمد أعفيف، توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات وتاريخها، سلسلة رسائل وأطروحات منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط رقم 70، مطبعة أبي رقرق، الرباط، الطبعة الأولى، 2014، صص. 13-14

2- بوعصب امبارك، مساهمة في دراسة قصور تأفيلالت من سقوط سجلماصة إلى نهاية القرن العشرين والتاريخ والمعمار، أطروحة دكتوراه مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، ساس فاس، السنة الجامعية 2010-2011، ص. 10.

3- بوعصب امبارك، المراسلات والوثائق السلطانية خلال العصر العلوي : مساهمة في دراسة الخط المجوهر وسماته الفنية، مطبعة الأمنية الرباط، 2013، ص. 31.

المعلومات التي تبين تدخل السلطة الحاكمة لحل النزاعات المحلية بين ساكنة صور تافيلالت.

غير أن أهم ما يمكن أن يستفيد منه الباحث في العمارة العسكرية للقصور الفيلاالية؛ فيما يتعلق بالوثائق المخزنية، رغم كون جل مواضيعها ترتبط بالتاريخ السياسي هو تضمنها لبعض النقف والإشارات التي تبين أن عملية بناء وتشبيد كثير من القصور المخزنية كانت مسبقة بتصميم وتخطيط يحدد شكل القصر⁽¹⁾، واتجاه مدخله وشوارعه، مما يفند بعض الطروحات التي جعلت القصر مجرد هندسة معمارية لا تخضع لتخطيط مسبق.

وتجب الإشارة إلى أننا سنناقش هذه النقطة لا حقا، كما أننا قمنا في الملحق الخاص بهذا البحث بتثبيت تلك الوثائق المرتبطة بالعمارة العسكرية للقصور الفيلاالية، مع وضع جدول لها يتضمن رقم وموضوع وتاريخ الوثائق المخزنية المحفوظة بالخزانة الملكية، وكذا يتوفر مركز الدراسات العلوية بالريصاني عليها.

2.4 الوثائق الخاصة

نقصد بالوثائق الخاصة مجموع الوثائق التي تكون في ملكية بعض العائلات والأسر والأعيان بالمنطقة، وكذا التي كانت في حوزة مؤسسة "الجماعة" التي كانت تسهر على تدبير الشأن العام للقصور الفيلاالية. ومن هذه الوثائق نجد عقد صلح بين أهل المعاضيد وأهل تيزيمي في أواخر شهر محرم من سنة 1338هـ،⁽²⁾ حيث إنه رغم ارتباط موضوع الوثيقة بتقسيم المياه بين عرب الصباح بالمعاضيد وتيزيمي إلا أنها تكشف جانب من الصراعات المحلية وما فرضته على ساكنة القصور الفيلاالية من تحصين لمواجهة كل الأخطار التي تهدد أمن وسلامة السكان، كما أن هذا النوع من الوثائق يبرز دور هذه الصراعات في كثير من الأحيان في تدهور وتخريب بعض القصور بمنطقة تافيلالت.

1- بوعصب امبارك، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت ، مرجع سابق، ص. 11.

2- ينظر الوثيقة رقم 5 في الملحق.

5- الرواية الشفوية

لقد أصبحت المصادر الشفوية في الزمن الراهن منهج بحث وظيفته دراسة الماضي، من خلال ذاكرة منطوقة قوامها روايات الأفراد واستحضاراتهم لأحداث شاركوا فيها أو كانوا مجرد شهود عيان عنها أو تناقلوها جيلا عن جيل، وهو ما جعل من المهم في الكتابة التاريخية الراهنة والدراسات العمرانية الاستعانة بالمصدر الشفوي الذي غدا مصدر معلومات إضافي، وأداة خصوصية للنفاذ إلى عمق ثقافة مجتمع معين وذهنياته وتمثلاته في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية وغيرها⁽¹⁾.

والحق أن الرواية الشفوية تعتبر من المصادر المهمة في حقل المعرفة التاريخية، خاصة بالنسبة لتلك الأحداث التي شارك فيها الرواة أو عايشوها أو كانوا قريبين منها، فبفضل الرواية الشفوية قد يتمكن الباحث في التاريخ المحلي أو المونوغرافي أساسا من ملء بعض البياضات والفراغات التي لم ترد في المصادر أو الوثائق، غير أن أقوال الشاهدين في كثير من الأحيان تطبعها الذاتية، لذلك يجب توخي الحيلة والحذر من الرواية الشفوية أثناء استثمارها في الكتابة التاريخية.

وفيما يتعلق بمنهجية تعاملنا مع الرواة بقصور تافيلالت، فقد ارتكزت على استجواب مختلف الأشخاص المسنين ببعض القصور التي لا زال السكان يقطنون بها، حيث قمنا بتوجيه أسئلة متكررة على عدة أشخاص لنفس الحدث في كثير من الأحيان والمقارنة بين الأجوبة.

وقد مكنتنا الرواية الشفوية من جمع معلومات ترتبط بالمنشآت الدفاعية للقصور، مثل تقنية بناء أسوار القصور وأبراجها الركنية والخارجية أو البرانية، وكذا مواد البناء وتقنيات التشييد فضلا عن دوافع التشدد في إغلاق أبواب القصور وعدم فتحها في بعض الأوقات التي ينعدم فيها الأمن لصد مختلف الهجمات المرتبطة بالصراعات القبلية.

1- فتحي ليسير، تاريخ الزمن الراهن عندما يطرق المؤرخ باب الحاضر، دار محمد علي للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 2012، صص. 122-123.

يظهر من خلال ما سبق، بأن موقع العمارة العسكرية لقصور تافيلالت في كتب التاريخ العام كان عرضيا فقط بحكم اهتمامها بالتاريخ السياسي أساسا وتغيبها للحديث عن المنطقة في كثير من اللحظات التاريخية، غير أنه مقابل ذلك نجد كتب الجغرافيا والرحلات والنوازل الفقهية، فضلا عن الوثائق المخزنية والرواية الشفوية قد تضمنت في ثناياها معلومات تاريخية مهمة ساهمت في التعريف ببعض منشآت العمارة العسكرية لقصور تافيلالت، وإبراز أهميتها في التحصين بالمنطقة، فضلا عن إخراجها من دائرة الظل ومن ركam الإهمال والنسيان الذي طالها بعد تلاشي وظيفتها الدفاعية في الزمن الراهن.

المبحث الثالث : الدراسات الأجنبية

اعتنت الكتابات الأجنبية بالعمارة المغربية وتجلّى ذلك في تقارير ومذكرات ورحلات وأبحاث المستكشفين الأسبان والفرنسيين وغيرهم، وإذا كانت هذه الكتابات قبل توقيع معاهدة الحماية يوم 30 مارس 1912، قد تغيت هذه الدراسات تسهيل مهمة احتلال المغرب بأقل السبل والتكاليف الممكنة، فإن تلك الكتابات زمن الحماية هدفت إلى تسهيل عملية "التهدئة" واستغلال خيرات البلاد وتنفيذ سياسة الغزو والإلحاق وتبريرها، وهو ما يتضح في الأدبيات الكولونيالية التي اهتمت بإبراز الجانب التاريخي للدولة المغربية ونسجها العمراني.

وغني عن البيان، أنه رغم النزعة الاستعمارية لهذه الكتابات، فإنها تضمنت في ثناياها معلومات من شأنها أن تذلل عقبات البحث خاصة تلك الكتابات التي قام بها الدارسون ذوي الاختصاص في التاريخ والحضارة، حيث ساهمت في إبراز تطور العمارة العسكرية المغربية ومنشآتها الدفاعية بالمدن المغربية والقصبات والقصور الواحية، غير أنه يلزم الباحث الحصيف الانتباه في بعض الأحيان لتخريجاتها الايديولوجية.

1- الدراسات الأجنبية قبل الحماية

تعد الرحلات والمذكرات التي كتبها وسجلها الأوروبيين وغيرهم من الأجانب في مغرب ما قبل الحماية، من المصادر المهمة في دراسة تاريخ المغرب عامة والتاريخ

المحلي خاصة، ومن بين هذه المصادر ما كتبه مجهول برتغالي في وصف المغرب أيام أحمد المنصور (1578-1603م)، وتتمثل أهمية هذا المصدر في ذكره نتف حول منطقة تافيلالت عند سرده لتفاصيل الحملة التي وجهها المنصور الذهبي إلى بلاد السودان، إذ وصف تافيلالت بأنها بلاد "أهلة بالقرى بعضها أكبر من بعض، وليس لأهلها أسلحة غير السيوف والرماح، وتوجد تافيلالت في مبتدأ بسيط الصحراء"⁽¹⁾.

ونفس القول ينسحب على رحلة الأسير مويط (Germain Mouette)⁽²⁾ (ت1691م) الذي تم أسره في عهد السلطان المولى اسماعيل (1672-1727م)، حيث ذكر بعض المعلومات التي يمكن أن تفيد بشكل عام في تاريخ منطقة تافيلالت وأوضاعها الاجتماعية والثقافية، وكذا فيما يخص موقع تافيلالت وبيئتها المحلية التي شيد منها معمار قصورها. بالإضافة إلى رحلة شارل دوفوكو (Charles de Foucauld) (1858-1916) التي انطلق فيها من طنجة يوم 20 يونيو 1883 متنكرا في زي يهودي⁽³⁾، وقد قدم فيها بعض الإشارات التاريخية حول منطقة تافيلالت أثناء مروره من دادس إلى قصر السوق⁽⁴⁾. يضاف إلى هذه الرحلات والمذكرات الرحالة هنري روني والمستكشف الفرنسي هنري داستوك، وكذا رحلة الطبيب لينارس (Docteur LINARÈS) الذي رافق السلطان الحسن الأول (1873-1894م) في رحلته إلى تافيلالت سنة 1310هـ/1893م ودونها في كتاب موسوم بـ "رحلة إلى تافيلالت مع جلالة الملك مولاي الحسن سنة 1893م"⁽⁵⁾، إذ إن لينارس خلال حديثه عن مسار الرحلة في المرحلة 32 و33 و34 أيام 06 و07 و08 نونبر عام 1893 من المعاضيد في اتجاه قصر الدار البيضاء بتافيلالت أورد بعض المعطيات

1- مجهول برتغالي، وصف المغرب أيام مولاي أحمد المنصور، تعريب محمد مزين وعبد الرحيم بنحادة، مراكش، 1995، ص. 85.

2- رحلة الأسير مويط، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار المناهل للطباعة والنشر المملكة المغربية، وزارة الثقافة، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، 1990.

3- شارل دو فوكو، التعرف على المغرب 1883-1884، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، الطبعة الأولى، 1999.

4- المصدر نفسه، ص. 307.

5 -Linarès, voyage au Tafilalet avec s.m. le sultan Moulay Hassan en 1893, pp. 1-60. Extrait du « Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc » (Nos III et IV 1932).

التاريخية التي تفيد في التعرف على المجال الحيوي للقصور الفيلائية وموروفولوجية قصورها، خاصة وأن الدكتور فرنارد جان لينارس كان يحرص أشد الحرص على وصف كل ما كان يشاهده من مناظر طبيعية ومعاملات تجارية ومنشآت عمرانية ومآثر تاريخية. كما يجد الباحث المهتم بالعمارة العسكرية المغربية، كذلك بعض الكتابات في بداية القرن العشرين اهتمت بشمال المغرب وتتوفر على إشارات عامة عن العمارة الدفاعية لكل من مدينة طنجة (سالمان Saloman) سنة 1904 والقصر الكبير (ميشو بيلير Michaux Bellaire) سنة 1905 وتطوان (جوبي Jupé) سنة 1905⁽¹⁾، وغيرها من الكتابات التي ساهمت في التمهيد للسيطرة الاستعمارية.

ومما يجدر لفت الانتباه إليه أنه رغم الخلفية التي دونت بها هذه المصنفات التاريخية، والتي كانت تروم التمهيد لاحتلال المغرب بأقل التكاليف الممكنة وبأسهل السبل من خلال إظهار الأوضاع العامة للبلاد في صورة كيان يسبح في فوضى مزمنة⁽²⁾، وكذا الطابع الوصفي والأسلوب السردي لما ورد فيها، فإن فائدتها في بحثنا مهمة خاصة في مباحث الفصل المرتبط بالتطور التاريخي لتأفيلات وجغرافيتها التاريخية.

2- الدراسات الأجنبية بعد الحماية

اهتمت كثير من الدراسات والأبحاث الكولونيالية بعد فرض الحماية على المغرب بموضوع العمارة وتطورها عبر التاريخ، وقد خصص مؤلفوها الذين شغلوا مهام عسكرية وتربوية وعلمية وغيرها فصول ومباحث في كتاباتهم للحديث عن العمارة العسكرية، والتي من شأنها أن تفيد موضوع البحث سواء تلك الكتابات والأبحاث التي اهتمت بالهندسة المعمارية للمدن المغربية، والتي يمكن توظيفها في إبراز تطور المنشآت الدفاعية في العمارة المغربية، أو الكتابات التي سلطت الضوء بشكل مباشر على العمارة الواحية للقصبات والقصور الصحراوية.

1- منير اقصيبي، العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ، إفريقيا الشرق، المغرب، 2015، ص. 37

2- محمد مزيان، المغرب في الأدبيات الكولونيالية الفرنسية ومشروعية الغزو والإلحاق، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 17، المجلد الخامس، صيف 2016، ص. 107.

وقد تم نشر هذه الدراسات في كتب خاصة من قبل مؤلفيها أو على شكل تقارير ومقالات نشرت بمجلات متعددة أبرزها مجلة هسبريس (Hespèris)، وهكذا ألفت مونوغرافيات لبعض الحواضر والمدن التاريخية كمراكش والرباط وفاس قدمت وصفا عرضيا للنظام الحضري القديم للمدن السلطانية ومبانيها الدينية والمدنية والحربية⁽¹⁾، مثل دراسة لوتورنو (Le Tourneau) حول مدينة فاس قبل الحماية (Fés avant le protectorat)، والتي اعتمد صاحبها على الرواية الشفهية وأعمال البعثات الأوربية المنشورة في مجالات الوثائق المغربية والجريدة الرسمية. فضلا عن دراسة ماريان باروكاند (Marianne Barrucand)⁽²⁾ حول عمارة القصبة الاسماعيلية بمكناس، والتي يمكن الاستفادة منها في القضايا المرتبطة بالأسوار والأبواب والأبراج ومواد بنائها وتقنية تشييدها ومقارنتها مع العمارة الواحية وإبراز أوجه التماثل والاختلاف بينها.

ومن الكتابات التي من شأنها أن تفيدنا في الجانب النظري لموضوع بحثنا ما كتبه الأثري جورج مارسيه (G. Marçais) حول جوانب متعدد من العمارة الإسلامية بالمغرب وتحديدًا في كتابه "العمارة الإسلامية للغرب الإسلامي" (L'architecture musulmane d'Occident)⁽³⁾، والذي بين فيه التطور التاريخي للعمارة بالمغرب الإسلامي وعلاقته بالفن الأندلسي، فضلا عن وصف مجموعة من المكونات المعمارية للمدن والبوادي المغربية وتصحينات مبانيها العسكرية مثل الأسوار والأبواب والأبراج وما تضمنته من مواد في البناء وتقنيات في التشييد.

وفي هذا السياق، فإن من أهم المراجع الأجنبية التي ساهمت في إغناء موضوع البحث على المستوى المنهجي والمعرفي نجد كتابات هنري تيراس (HENRI TERRASSE) في كتابه "القصبات الأمازيغية في جبال الأطلس والواحات : المعالم الكبرى للجنوب المغربي"، والذي صدر بباريس سنة 1938 ويتألف من 144 صفحة

1- المرجع نفسه، صص. 36-37.

2 - Barrucand (M), L'ARCHITECTURE DE LA QASBA DE MOULAY ISMAIL A MEKNES, Editions Maghrébine, Casablanca, 1980.

3 - Marçais (G), L'architecture musulmane d'Occident, 3d Arts et métiers, paris, 1954.

ويضم 22 رسماً⁽¹⁾، حيث اهتم طيراس في هذا الكتاب بدراسة الهندسة المعمارية للجنوب الشرقي، وبين كيف ساهمت الحروب في بناء قصبات محصنة عبارة عن مساكن جماعية تتوفر على أسوار وأبراج وذات مدخل واحد. فضلاً عن مقال حول "الهندسة الأمازيغية وتقسيماتها في الجنوب المغربي" صدر بالعدد 23 من مجلة الجغرافيا المغربية بالرباط سنة 1939، كما أن من بين كتابات طيراس حول المنطقة مقال موسوم بأطلال سجلماصة⁽²⁾ صدر بالمجلة الإفريقية العدد رقم 3 و4 سنة 1936.

وقد حفلت دراسات طيراس التي تناول فيها بالدراسة والتحليل مكونات العمارة المغربية فصولاً ومقالات مهمة خصصها المؤلف للحديث عن بعض الجوانب المرتبطة بخصائص وسمات العمارة العسكرية المغربية، ومن بينها نجد مقال "زخرفة الأبواب القديمة بالمغرب" الذي نشر بمجلة هسبريس سنة 1923⁽³⁾، إضافة إلى مقال التحصينات الموحدية الذي ألفه طيراس بالاشتراك مع هنري باسي (Henri Basset)⁽⁴⁾ وغيرها من الدراسات التي ألفها طيراس حول العمارة المغربية بالمدن والواحات بحكم اشتغاله مديراً لمصلحة الآثار التاريخية بالمغرب في فترة الحماية.

وعلى غرار ما كتبه طيراس، نجد مادة علمية مهمة حول منطقة تافيلالت وعمارة قصورها في كتابات جاك مونيي (Jacques Meunié)، والتي من بينها أطروحته تحت عنوان "المغرب الصحراوي من الأصول إلى سنة 1670"⁽⁵⁾، والتي حاولت من خلالها النبش والبحث في تاريخ الجنوب المغربي، عبر القيام بحفريات تاريخية اعتماداً على بعض المصادر والشهادات اليهودية والإسلامية والروايات الشفهية، حيث تقدم الأطروحة معلومات مهمة تفيد في إشكالية تأسيس القصور الصحراوية وأصول هذا النمط العمراني،

1 – Terrasse (H), Kasbas berbère de l'Atlas et des Oasis, éd. Horizons de France, 1938.

- Terrasse (H), Villages et Kasbas berbère dans l'Atlas et des Oasis, in Hespèris, 1938.

2 – Terrasse (H), Note sur les ruines de Sijilmassa, Revue Africaine, N° 368-369, 3^e et 4^e Trim. 1936, 9p., 8pl.

3 – Terrasse (H), Le décor des portes anciennes du Maroc, Hespèris, 1923.

4 – Basset (H), Terrasse (H), Sanctuaires et forteresses almohades, in Hespèris, 1932.

5 – Meunié (J), Le Maroc Saharien des origines à 1670, paris, klincksieck, 1982, 2 vol, 990 p.

كما أنها تساهم في إغناء البحث فيما يتعلق بالأدوار التي قامت بها قصور تافيلالت والمكانة التي احتلها نسيجها العمراني بعد اندراس سجلماسة أو قبلها مقل قصر تابوعصامت⁽¹⁾.

إضافة إلى أطروحة المغرب الصحراوي، فإن لجاك مونيي مقالات مهمة حول العمارة الواحية وتحصيناتها الدفاعية من بينها مقال حول قصر آبار⁽²⁾ تم نشره في مجلة هسبريس سنة 1959، وأهمية هذا المقال تكمن في كشف بعض الجوانب المرتبطة بالقصور المخزنية، إذ بين الكاتب فيه موقع قصر آبار في النصوص التاريخية ومكونات هندسته المعمارية التي من بينها المنشآت الدفاعية، إضافة إلى توفره على رسومات ومخططات تظهر شكل القصر ومورفولوجيته ونسيجه العمراني. علاوة على مقال حول البحث الأثري بقصبة تاسغيموت⁽³⁾ سنة 1951م والقصبة المرابطية بزاكورة⁽⁴⁾ سنة 1956.

من خلال ما سبق، يمكن القول أن الكتابات الأجنبية خلال فترة الحماية تحوز أهمية كبرى في حقل الدراسات التاريخية للعمارة المغربية، إذ إن أهميتها تكمن؛ كما بينا سابقا؛ في تمكين الباحث من التعرف على خصوصيات العمارة المغربية وتطورها حسب الدول التي تعاقبت على الحكم عبر التاريخ، فضلا عن تخصيصها لفصول ومباحث تتحدث عن العمارة العسكرية خلال فترة حكم كل دولة بالمغرب الأقصى، علاوة عن التطرق لنماذج من المباني العسكرية في المدن والبوادي المغربية، وهو ما ساهم في تقديم أجوبة لمجموعة من التساؤلات التي ينوء بها موضوع بحثنا والمرتبطة بوظائف وتطور العمارة العسكرية لقصور تافيلالت.

1 – Meunié (J), Le Maroc Saharien des origines à 1670, op. cit, p. 336.

2 – Meunié (J), Abbar cité Royale du Tafilalet, Hespèris, Tome XLVI, 1959.

3 – Meunié (J), Recherches archéologiques dans la kasaba de Tasghimout, Hespèris, Tome XXXVIII, 1951.

4 – Meunié (J), La kasaba almoravide de Zagoura, Hespèris, Tome XLIII, 1956.

المبحث الثالث : الدراسات المغربية حول العمارة العسكرية

1- الدراسات التاريخية والمعمارية العامة

تكتسي عملية الاطلاع على الدراسات السابقة العامة أو الخاصة المتصلة بموضوع البحث والمنجزة حوله، أهمية كبرى لتعميق إشكالية البحث وتقديم معطيات وبيانات لمختلف القضايا التي يتطرق إليها تصميمه وهيكله العام، ويمكن تقسيم الدراسات الحديثة والرسائل والأطروحات الجامعية المعتمدة في هذا العمل إلى دراسات عامة تتضمن معلومات عن النظام العسكري والعمارة العسكرية المغربية عبر التاريخ، والتي تفيد على المستوى النظري والمنهجي في إغناء موضوع البحث، ودراسات خاصة ترتبط بشكل مباشر بموضوع البحث وتشكل مادته العلمية إلى جانب العمل الميداني، الأمر الذي جعل استفادتنا منها في هذا البحث متفاوتة حسب قربها أو بعدها من الموضوع، وكذا حسب نوعيتها.

1.1 الدراسات التاريخية

تصدت مجموعة من الدراسات التاريخية الحديثة لتناول التاريخ العسكري ومنشآته الدفاعية بمقاربة تاريخية تعتمد مختلف المصادر والمطالعات التي توفرها الاسطوغرافيا المغربية، والتي استفدنا منها في موضوع بحثنا لإبراز التطور التاريخي للعمارة العسكرية والوظائف التي اضطلعت بها في تاريخ المغرب، وفي هذا الصدد نجد مقال العلامة محمد المنوني (ت 1999م) الموسوم بـ "الحصون والقلاع العسكرية كفن أصيل في العمارة الإسلامية"، والذي بين فيه العمارة العسكرية بالمغرب على مستوى عددها وموقعها ومجالات توظيفها واستخداماتها مع الإشارة إلى التحول الذي عرفته في هندستها المعمارية وتصميماتها من الدولة المرابطية إلى الدولة العلوية⁽¹⁾، ويعتبر هذا المقال من الدراسات التي لا غنى للباحث في العمران العسكري عنها لفهم تطوره التاريخي بالمغرب.

وقد اهتم كتاب "النظام العسكري بالأندلس في عصري الخلافة والطوائف" لمحمد حناوي، والذي قام فيه بتحليل التاريخ العسكري الأنديلسي عبر جرد واسع للمادة المصدرية

1- المنوني محمد، الحصون والقلاع العسكرية كفن أصيل في العمارة الإسلامية، مجلة الفنون، العدد 2، السنة الرابعة، دجنبر 1977م، صص 107-111.

المتوفرة له، وفيما يخص استفادتنا من هذا المؤلف فقد كانت على المستوى المنهجي المتبع من لدن المؤلف في الباب الثاني من الكتاب المعنون بالحصون والقصبات والأسوار والأسلحة⁽¹⁾. كما أن الاطلاع على كتاب "الأساليب التكتيكية عبر تاريخ الحروب المغربية من عهد الأدارسة إلى عهد العلويين قبل الحماية" لأحمد البسييري أفادنا في معرفة تطور التنظيمات العسكرية وتكتيكاتها الحربية ما بين استخدام الأسلحة الجارحة والسلاح الناري⁽²⁾، حيث إنه بعد ظهور السلاح الناري ستعرف وظيفة العمارة الدفاعية بالقصور الفيلالية تطورا من الحماية والأمن إلى وظائف أخرى.

وبالمثل، ساهمت أطروحة "المدينة المغربية والحرب على عهد السعديين" لنور الدين احجيرة، التي تمت مناقشتها بكلية الآداب سايس سنة 2002 وتضمنت بعض الإشارات التي تم توظيفها في الجانب المرتبط بانعكاسات الحروب على منشآت العمارة بالمدينة والبادية المغربية، والتي من بينها المنشآت المعمارية العسكرية.

ونظرا لكون العمران يتأثر بالتنظيم الحربي وتقنياته، فقد اكتست دراسة "الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني" لحميد تيتاو أهمية كبرى في موضوع بحثنا، على المستوى المنهجي والمعرفي، خاصة في الفصل الرابع من الباب الثاني المعنون بانعكاسات الحرب على العمران، والذي أبرز فيه المؤلف دور الهاجس الأمني والدفاعي في تخطيط المدن، وكذا علاقة الحرب بالهندسة المجالية، ثم أخيرا أثر الحروب في خراب العمران بالمجال البدوي والحضري، وتجلت أهمية هذا الفصل في بحثنا في تقديمه لتصور يساعد في فهم الأبعاد الأمنية والسياسية في تشييد العمارة العسكرية المغربية عامة والقصور الفيلالية على نحو خاص. بالإضافة إلى ما سبق، فإن كتاب "الجيش المغربي عبر التاريخ"⁽³⁾ لمؤرخ المملكة عبد الحق المريني، وأطروحة بهيجة سيمو "الإصلاحات

1- محمد حناوي، النظام العسكري بالأندلس في عصري الخلافة والطوائف، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2003.

2- أحمد البسييري، الأساليب التكتيكية العسكرية عبر تاريخ الحروب المغربية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2016.

3- عبد الحق المريني، الجيش المغربي عبر التاريخ، مطبعة المعارف الجديدة بالرباط، 1997، عدد الصفحات 565.

العسكرية بالمغرب 1844-1912"⁽¹⁾، وكتاب "الجيش المغربي وتطوره خلال القرن التاسع عشر" لثريا برادة ساهمت كذلك في إدراك بعض جوانب تطور العمران المغربي وأثر الحروب عليه.

2.1 الدراسات المعمارية

إذا كانت أهم الدراسات التي انجزت حول العمارة المغربية في عهد الحماية من لدن مؤلفين أجانب، خاصة الفرنسيين منهم، فإنه بعد الاستقلال بدأت تظهر مجموعة الأبحاث والدراسات المغربية المختصة في الجانب المعماري، وفي هذا الصدد نصادف كتاب "تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى" لعثمان عثمان اسماعيل الذي يتكون من خمسة أجزاء⁽²⁾، وقد تضمن هذا المؤلف الموسوعي فصولا للحديث عن العمارة الحربية المغربية عبر التاريخ وتطورها من خلال دراسة نماذج منها بالمدن والبوادي كالقصبات والحصون والقلاع وغيره.

كما أن من بين الدراسات المعمارية العامة التي اهتمت بالعمارة العسكرية، نجد الندوة الوطنية حول الأسوار التي نظمت بتزنيث سنة 1989م، إذ تضمنت هذه الندوة عدة مقالات باللغة العربية والفرنسية لمؤرخين وأثريين وجغرافيين تمحورت حول أسوار المدن عبر التاريخ والإجراءات المتخذة لحماية الأسوار التاريخية⁽³⁾. وفيما يخص استفادتنا من هذه الندوة فتتمثل في الاستعانة بها لتقديم قراءة تاريخية ومعمارية لأسوار القصور الفيلايلية وآليات تشييدها، وكذا المقارنة بينها وبين أسوار المدن والحوضر المغربية على مستوى مواد البناء والوظائف وغيرها.

وتعد أطروحة سمير قفص حول التحصينات العسكرية بالمغرب السعدي، والتي أنجزها لنيل دبلوم السلك الثالث لعلوم الآثار والتراث سنة 2006، من بين الدراسات الأكاديمية المؤسسة منهجيا لدراسة العمارة العسكرية المغربية، إذ عمل فيها المؤلف على

1- بهيجة سيمو، الإصلاحات العسكرية بالمغرب 1844-1912، المطبعة الملكية بالرباط، 2000، عدد الصفحات 572.

2- عثمان عثمان اسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، 5 أجزاء، الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 1992.

3- الندوة الوطنية حول أسوار المدن العتيقة بتزنيث، مديرية التراث الثقافي، وزارة الشؤون الثقافية بالمملكة المغربية، 1989.

جرد وتصنيف مختلف المعالم العسكرية التي شيدت زمن حكم الدولة السعدية للمغرب، فضلا عن تضمنها لمجموعة من الرسوم والتصاميم التي توضح خصائص المعمار العسكري السعدي⁽¹⁾. وقد مكنتنا هذه الأطروحة من اكتساب منهجية وصف المعالم العسكرية للقصور الفيلاية وتحليل هندستها المعمارية.

كما يقدم مقال عز الدين كرا المعلنون بـ "جوانب من العمارة العسكرية البرتغالية بالمغرب"⁽²⁾، والذي اعتمد فيه بشكل كبير على كتاب "البرتغاليون في المغرب عمارة وعمران من سنة 1415 إلى سنة 1769م"⁽³⁾، معلومات مهمة حول سمات العمارة العسكرية البرتغالية بالمدن الساحلية المغربية، إذ قام المؤلف بتتبع تطور العمارة العسكرية البرتغالية بالمغرب من خلال جرد للتحصينات الدفاعية التي تم تشييدها من لدن البرتغاليين قصد الحفاظ على مستعمراتهم الساحلية بالمغرب. وقد اتسمت هذه العمارة في تشييدها بمواكبتها لتطور الأسلحة النارية، وهو ما يمكن الباحثين في هذا الصنف العمراني من إدراك أثر تطور الأسلحة في بناء العمارة العسكرية المغربية خلال العصر الحديث.

ومن أبرز الدراسات العامة التي أفادت موضوع بحثنا، أطروحة محمد الملوكي حول "العمارة العسكرية بمدينة فاس خلال العصرين المريني والسعدي" التي تمت مناقشتها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سنة 2009، وأطروحة منير اقصبي "النظام الدفاعي العتيق لمدينة فاس : دراسة تاريخية وأثرية للمباني العسكرية"، والتي نوقشت بكلية الآداب ظهر المراز فاس سنة 2012 وتم طبعها في كتاب بعنوان "العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ" سنة 2015. وسيتضح لمتصفح هذا البحث أهمية وقيمة الأطروحتين في إفادتنا منهجيا في تحليل فصول الباب الثاني والثالث من البحث، وكذا معرفيا في أبواب الفصل الأول، حيث مكنا الاطلاع عليهما من التعرف على أهم المصادر والمراجع العامة

1 -Kafas (Samir), Les fortifications et l'architecture militaires au temps des Saadiens, thèse de troisième cycle, Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine, Rabat, 2006.

2- عز الدين كرا، جوانب من العمارة العسكرية البرتغالية بالمغرب، مجلة الذاكرة الوطنية، العدد 14، سنة 1431هـ/2010، صص. 59-68.

3- بيدرو دياش، البرتغاليون في المغرب عمارة وعمران من سنة 1415 إلى سنة 1769، ترجمة أحمد محفوظ، لشبونة 2000.

المرتبطة بالعمارة العسكرية المغربية ومنشآتها الدفاعية والتطور التاريخي لمعمارها، فضلا عن التعرف على أهم المصطلحات والمفاهيم الموظفة في وصف مكونات العمارة العسكرية، علاوة على اعتماد أصحابها على التحري الميداني، مما ساعدنا على وضع تصميم مترابط للبحث ومحاولة تقديم أجوبة للتساؤلات التي يطرحها. ومن الدراسات التي أغنت موضوع البحث على مستوى المصطلحات والمفاهيم الموظفة في الوصف والتحليل للعمارة العسكرية بالقصور الفيلائية، نجد كتاب جمال بيلول "المصطلحات المعمارية المدنية"⁽¹⁾، والذي قام فيه بتجميع معظم المصطلحات المعمارية العربية ومقارنتها بالمصطلح المغربي والأمازيغي مع ترجمتها للغة الفرنسية، وفائدة هذا الكتاب كانت واضحة في الفصل الثالث من البحث الخاص بمحاولة تقديم تعريف لمصطلحات ومفاهيم العمارة العسكرية وتطورها انطلاقا من العمل الميداني والمصادر التاريخية.

2- الدراسات المختصة في الموضوع

2.1 الدراسات التاريخية

تعتبر دراسة العربي مزين حول تافيلالت مساهمة في تاريخ المغرب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر⁽²⁾ من أهم الدراسات التاريخية حول منطقة تافيلالت التي لا مناص للباحث من الرجوع إليها لدراسة التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بقصور تافيلالت، وذلك لاعتماد صاحبها على الوثائق المحلية في هذه الدراسة المونوغرافية انطلاقا من القوانين العرفية لقصر الكارة وزاوية أسول، وقيمة هذا الكتاب تظهر في تضمنه مجموعة من الأعراف التي أوردها المؤلف على مادة مصدرية ترتبط بمواد بناء القصور الفيلائية ودور مؤسسة الجماعة في صيانة وإصلاح أسوار القصر،

1- جمال بيلول، المصطلحات المعمارية المدنية، إفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الأولى، 2014.

2 - Mezzine, (Larbi), Le Tafilalet contribution à l'histoire du Maroc aux XVII et XVIII siècle, Rabat, 1987.

كتضمن إحدى القوانين العرفية لإشارة تؤكد على أن "بناء البروج أو الأسوار الاثنين على القبيلة"⁽¹⁾.

وفي نفس الاتجاه نجد أطروحة امحمد احدى حول البنيات الاقتصادية والاجتماعية بتافيلالت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وثقل علاقتها مع افريقيا السوداء، وتحديدًا بلاد السودان(2)، والتي من بين فصولها المفيدة في البحث الفصل الخاص بدراسة الحياة الاجتماعية للقصر الفيلاي من خلال نموذج الكارة، إذ سلط الضوء على دور التنظيم السياسي للقصر ودوره في حماية منشآته الدفاعية، والتي تولت الإشراف عليه مؤسسة "الجماعة"، فضلًا عن تضمينه لصور ورسومات ومخططات تسمح بالمقارنة بين أشكال تخطيط القصور الفيلاية.

كما تعد دراسة حسن حافيظي علوي الموسومة بـ "سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي"⁽³⁾، من بين الدراسات التي تحوز أهمية كبرى في دراسة التاريخ المحلي للمنطقة، وقد مكنا الاطلاع عليها من التعرف على موقع القصور الفيلاية ضمن حاضرة سجلماسة، فضلًا عن إفادتها لنا في التأريخ لنشأة بعض القصور الفيلاية، وذلك في الفصل الثاني من الكتاب المتحور حول السكن والسكان بسجلماسة وإقليمها. بالإضافة إلى هذا المؤلف، فإن من بين الكتابات التي أسهمت في إنارة بعض جوانب البحث كتاب أحمد عبد اللوي علوي حول "مدغرة وادي زيز : إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث"⁽⁴⁾، إذ إن انطلاق المؤلف من الوثائق المحلية ساهم في جرده للقصور المندرسة والقائمة بزيز الأعلى الذي يندرج مجاله ضمن واحة تافيلالت بمعناها الإداري.

1 -Ibid, p : 172.

2 - Ahda (M'hamed), Structures sociales et économiques du noire du tafilalt aux XVII-XVIII siècle : le poids des relations avec l'Afrique noire (Bila -es-soudan), Université Toulouse le Mirail, 1990.

3- حافظي علوي حسن، سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة الأولى، 1997.

4- عبد اللوي علوي أحمد، مدغرة وادي زيز : إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1996.

وأما أطروحة "سجلماسة/ تافيلالت من اندراس المدينة إلى واحة القصور : 796هـ/1393م إلى أواخر القرن 11هـ/17م (دراسة تاريخية، اجتماعية، ثقافية)" لمؤلفها سعيد واحيحي(1)، فقد مكنتنا من تتبع وضعية منطقة تافيلالت وتطورها التاريخي بعد اندراس سجلماسة التي انتقل إشعاعها لحساب القصور، فضلا عن تضمنها لإشارات تفيد في دراسة نشأة القصور الفيلالية.

ويذكر كتاب "التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير" لمؤلفه عبد الكريم الفيلالي في أجزائه الاثنى عشر بمعلومات مفيدة حول تاريخ منطقة تافيلالت وقصورها، خاصة في الجزء الثاني والرابع والسابع، حيث يقدم إشارات مهمة استقاها المؤلف من كتب الحوليات والأنساب تفيد في تحديد نشأة القصور الفيلالية وعلاقتها بمدينة سجلماسة قبل اندراسها(2).

وينفرد عبد الكريم الفيلالي في مؤلفه بسرد روايات تاريخية من شأنها أن تفيد في تأكيد الطرح القائل بأسبقية تشييد القصور بواحة تافيلالت على بناء مدينة سجلماسة التي وجدت بجانبها "قصور العرب الذين لم يقبلوا مذهب الصفرية، وقد شيدت بعيدا مثل قصر أولاد عقبة بن نافع بتيزيمي ... ويعتبر من أقدم قصور المنطقة ومثله أولاد بحر"(3). ورغم غرابة كثير من الروايات التي انفرد المؤلف بذكرها؛ نظرا لغياب إشارات مصدرية تؤكد، إلا أن اعتماده على الرواية الشفوية وإطلاعه على كثير من الوثائق المخزنية والخاصة في مختلف الأرشيات جعلنا نعتمد على بعضها في الفصل الرابع من البحث الخاص بإشكالية قصور تافيلالت وامتدادها التاريخي.

ولم يخلو اطلاعنا على دراسة الباحث محمد ميوسي الموسومة بـ "تافيلالت من أطروحة التراجع والأزمة إلى أطروحة التحول والاستمرار : أداء الواحات بين المقاربتين

1- سعيد واحيحي، سجلماسة/ تافيلالت من اندراس المدينة إلى واحة القصور : 796هـ/1393م إلى أواخر القرن 11هـ/17م (دراسة تاريخية، اجتماعية، ثقافية)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرز فاس، السنة الجامعية 2005-2006.

2- عبد الكريم الفيلالي، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ج. 2، منشورات شركة ناس للطباعة والنشر، مصر، الطبعة الأولى، 2006، ص. 95.

3- عبد الكريم الفيلالي، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ج. 2، مرجع سابق، ص. 96.

المشهدية والشمولية : أي تنمية؟⁽¹⁾، من فائدة مهمة في المبحث الخاص بـ "القصر نمط سكني فريد وعلاقات اجتماعية غير متكافئة"، وذلك من خلال تطرقه للقصر بين التحديد الاصطلاحي والتحديد الوظيفي، واعتباره مورفولوجية متكيفة مع الوسط ومجال لتدبير الحياة السياسية لمؤسسة "الجماعة".

فضلا عن ما سبق، فإن من بين الأبحاث التي تناولت التاريخ الفيلاي واستفدنا منها على المستوى التاريخي لقصور منطقة تافيلالت كتاب عبد الله استيتو المعنون بـ "دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والمخزن والمستعمر"، حيث ساعدنا الفصل الأول من هذا المؤلف من تتبع التطور التاريخي لتافيلالت وطوبونيميتها وجغرافيتها التاريخية التي تكونت منها مواد بناء قصورها.

كما أن من بين الدراسات التي سلطت الضوء على تاريخ تافيلالت في الفترة المعاصرة، أطروحة ابتسام تملين في موضوع "آثار الاحتلال الفرنسي على تافيلالت في عهد الحماية : دراسة في البنيات السياسية والاجتماعية وتحولاتها"⁽²⁾، وقد استفدنا من هذه الدراسة في الجانب المرتبط بعوامل تدهور العمارة العسكرية بمنطقة تافيلالت بعد فرض الحماية على المغرب، وما نتج عن التسرب الاستعماري بالمنطقة، حيث أدى ذلك إلى تهاوي أسوار وأبراج القصور الفيلاية التي رفض أهلها الاستسلام في البداية أمام المدفعية الفرنسية، وما أعقب ذلك من تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية وعمرانية تمثلت في تنامي ظاهرة انفجار القصور بعد الاستقلال.

2.2 الدراسات المعمارية

شكل كتاب "عمران سجلماصة دراسة تاريخية وأثرية"⁽³⁾ لمؤلفه لحسن تاوشخت نواة صلبة وموطئ قدم راسخ شجعتني على خوض غمار البحث في العمارة العسكرية

1- محمد ميوسي، تافيلالت من أطروحة التراجع والأزمة إلى أطروحة التحول والاستمرار : أداء الواحات بين المقاربتين المشهدية والشمولية : أي تنمية؟، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2002.

2- ابتسام تملين، آثار الاحتلال الفرنسي على تافيلالت في عهد الحماية : دراسة في البنيات السياسية والاجتماعية وتحولاتها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، السنة الجامعية 2016-2017.

3- تاوشخت لحسن، عمران سجلماصة دراسة تاريخية وأثرية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2008، جزءان.

بقصور تافيلالت، وذلك بحكم تخصيص الكاتب لمباحث حول العمارة الدفاعية بتافيلالت، حيث إن إفادتتنا منه كانت مهمة في دراسة فصول البحث، وذلك لما تضمنه من دراسة عمرانية شاملة لواحة تافيلالت من المدينة إلى القصور، وهو ما استفدنا منه منهجيا في صياغة إشكالية البحث ووضع تصميم له، وكذلك الاستفادة منه معرفيا لسبر أغوار تاريخ قصور تافيلالت وأبعادها الأمنية والسياسية، ومواد البناء الأساسية التي شيدت به قصورها. ومن أبرز الدراسات التي أفادت الموضوع منهجيا ومعرفيا نخص بالذكر دراسة الباحث عبد القادر شلخوم حول "النقائش الأثرية بقصور الجنوب الشرقي المغربي من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر الميلادي" (Épigraphie Monumentale) (des Oratoires et Palais du Sud-est Marocain XV-XVIIIe siècles)⁽¹⁾، والتي قام فيها المؤلف بدراسة وصفية وتحليلية عبر القيام بجرد شامل لمخزون النقائش الأثرية لقصور تافيلالت وعمارتها الدينية من مساجد ومقابر وأضرحة، مع تحليل لمضمونها، وإبراز الجانب الفني فيها. والجدير بالملاحظة، أنه رغم ارتباط موضوع هذه الدراسة بالنقائش الكتابية إلا أن الباحث قدم معلومات في غاية الأهمية حول منطقة تافيلالت وعمارة قصورها وتقنيات تشييدها وزخرفتها، وهو ما أفادنا كثيرا في مقاربة مباحث الفصل الخاص بمواد البناء وتقنيات التشييد للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت وتشكيلاتها الزخرفية.

وعلى غرار كتاب "عمران سجلماسة"، فقد تم الاطلاع على أطروحة امبارك بوعصب المعنونة بـ "مساهمة في دراسة قصور تافيلالت من سقوط سجلماسة إلى نهاية القرن العشرين: التاريخ والمعمار والإنقاذ"⁽²⁾، والتي شكلت أرضية ارتكاز لإثراء موضوع البحث وتتبع بعض قضاياها الملغزة، إذ تم استثمار هذه الأطروحة في الجانب المعرفي والمنهجي نظرا لتخصصها بشكل مباشر في دراسة عمارة القصور الفيلالية تاريخيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ومعماريا، فضلا عن توفرها على مبحث يتمحور حول

1 - ABDELKADER CHALKHOUNE, Épigraphie Monumentale des Oratoires et Palais du Sud-est Marocain (XV-XVIIIe siècles), Thèse de doctorat en histoire de L'art, Tome I, Université de Toulouse le Mirail, 1995.

2- بوعصب امبارك، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت من سقوط سجلماسة إلى نهاية القرن العشرين التاريخ والمعمار، أطروحة دكتوراه مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، ساس فاس، السنة الجامعية 2010-2011.

تحصينات القصور بيزر الأسفل وتصنيف نظامها الدفاعي حسب أنواع القصور، مما ساهم في عملية دراستنا لأصناف العمارة العسكرية وتطورها من خلال نماذج تعتمد التصنيف الوظيفي تارة للقصر وتارة أخرى التصنيف المورفولوجي حسب الشكل تارة أخرى مع تقديم محاولة في التصنيف العسكري.

وفي نفس الإطار، فقد اعتمدنا على بحث أبا صادقي الذي أنجزه بالفرنسية تحت عنوان "التعمير والمحافظة على التراث الثقافي في المغرب شبه الصحراوي : نموذج قصور منطقة تافيلالت"⁽¹⁾، والذي ساعدنا على التعرف على البنية العمرانية لقصور تافيلالت داخل الأسوار، باعتبارها بنية عمرانية تنطلق من الفضاء العام (المشترك) إلى الفضاء الخاص (المنازل والدور السكنية)، بينما نجد خارج الأسوار عبارة عن عمارة دفاعية لها باب واحد في الغالب الأعم، كما بين ذلك المؤلف. مما ساهم في توضيح مميزات القصور الفيلالية في الفصل الخامس من هذا البحث، وإبراز السمة البارزة لمعمار القصور المتمثلة في الاعتماد أساسا على تقنيات هندسية وخبرات معمارية تعتبر ثمرة إبداع الإنسان المحلي وتصوره للحياة⁽²⁾ وتفاعله مع محيطه الحيوي من أجل الاستمرار في البقاء.

وإذا كانت الدراسات المعمارية السالف ذكرها تتصل بموضوع البحث بشكل مباشر على المستوى المجالي والزمني، والتي أفادت موضوع البحث إفادة مهمة، فإن هناك دراسات لا تقل أهمية عنها قاسمها المشترك هو العمارة الواحية والصحرواية بشمال افريقيا. وعلى رأس هذه الدراسات بحث "العمارة الدفاعية في منطقة وادي مزاب"⁽³⁾ لكتابه يحيى بوراس، الذي حاول فيه الدارس محاولة الإلمام بالعمارة الدفاعية بمنطقة

1 - ABA, SADKI, Urbanisme et Conservation du patrimoine culturel présaharien : l'exemple des ksour du Tafilalet, Mémoire pour l'obtention du Diplôme des études supérieures, INUA-Rabat, Juillet 2003.

2- أبا صادقي، إشكالية التدبير التقني والقانوني للتراث المعماري بمنطقة محمية المحيط الحيوي لواحاح الجنوب الشرقي: (نموذج القصور)، ضمن كتاب التراث المعماري بالمغرب، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة دراسات وأبحاث رقم 37، صص. 195-227.

3- بوراس يحيى، العمارة الدفاعية في منطقة وادي مزاب (نموذج قصر بني يزقن) من القرن 10هـ/16م إلى القرن 13هـ/19م دراسة وصفية تحليلية ومقارنة، بحث لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2001-2002.

مزاب، مما مكننا من المقارنة بين الهندسة المعمارية العسكرية لواحة تافيلالت ونظيراتها من القصور الصحراوية الجزائرية.

وعلى نفس المنوال، يمدنا كتاب أحمد مولود ولد أيده الهلال الموسوم بـ "مدن موريتانيا العتيقة قصور ولاتة وودان وتيشيت وشنقيط"⁽¹⁾ بمعلومات طيبة حول السياق التاريخي لتشكل وازدهار وتراجع القصور الصحراوية ووظائفها وتقنيات التشييد ومواد البناء، الأمر الذي ساعد على تقديم مقارنة بين العمارة العسكرية لواحة تافيلالت وصنوها من العمارة بالقصور الصحراوية لمنطقة شمال افريقيا.

خلاصة القول، حاولنا في هذا البحث تنويع المصادر والمراجع المعتمدة فيه، وذلك عبر الاطلاع على المصادر والدراسات المتصلة بموضوعه من قريب أو بعيد، مما ساهم في اكتساب تصور أكثر شمولية عن موضوع البحث، جعلتنا ندرك بأن كل عنصر من عناصر العمارة الدفاعية لواحة تافيلالت لا يرسو في مكانه وموضعه كما اتفق، بل بناء على متطلب خاص أو عام للساكنة الفيلاية. غير أن ذلك لا يمنع من تسجيل الملاحظات المتصلة بمكامن القوة والضعف الواردة في المصادر والمراجع التي تم إبراز موقع العمارة العسكرية لقصور تافيلالت ضمنها، وأهم هذه الملاحظات ما يلي :

1- أحمد مولود ولد أيده الهلال، مدن موريتانيا العتيقة قصور ولاتة وودان وتيشيت وشنقيط، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2014.

- غناها من حيث المادة المصدريّة المرتبطة بقصور تافيلالت، إذ تستند إلى نصوص زاخرة بالمعطيات الأثرية تسلط أضواء على الأشكال المعمارية في القصور الفيلالية وبعض الحواضر المغربية. وهذا من شأنه أن يسهم في تذليل صعاب المقارنات المزمع عقدها بين نوع العمارة -قيد الدراسة- ونظيراتها في مناطق أخرى من المغرب، وصنوها من العمارات الصحراوية بشمال إفريقيا.
- سقوط بعض الدراسات في مطب الاجترار والتكرار خاصة في القسم المتعلق بالتطور التاريخي لمنطقة تافيلالت عبر التاريخ، وهذا ما سيدفعنا إلى الابتعاد عن الخوض فيه بشكل مفصل.
- إدراج موضوع العمارة العسكرية بقصور تافيلالت كمبحث ضمن تلك الدراسات، وهو ما شكل حافزا لدينا نحو تخصيص دراسة مستقلة للبحث في هذا الموضوع دون غيره.
- شيوع الاختلاف بين هذه الدراسات حول المصطلحات والمفاهيم المتعلقة بالعمارة العسكرية ومنشآتها الدفاعية وعدم توحيدها، وهذا من شأنه أن يضرب الرؤية ويشيع الغموض أمام الباحث. الأمر الذي يستوجب تخصيص فصل لتقعيد المفاهيم وتحديد المصطلحات المرتبطة بالعمارة العسكرية من خلال وضع تعاريف تنطلق من المعاجم المتخصصة ومدى تكيفها وارتباطها مع العمارة العسكرية الواحية بالمغرب الشرقي.

الفصل الثاني:

موقع العمارة العسكرية في الفقه الإسلامي

الفصل الثاني: العمارة العسكرية في الفقه الإسلامي

إن دراسة موقع العمارة العسكرية في فقه وأحكام البنين في التشريع الإسلامي يعبر عن ذلك الأثر لتعاليم الإسلام في بناء وتشبيد مختلف المنشآت المعمارية في أقطار العالم الإسلامي عبر التاريخ. من أجل إمطة اللثام عن بعض الجوانب، ذات البعد العمراني في التراث الفقهي للمذاهب الإسلامية، قصد فهم البناء الفكري والقيمي الذي كان يؤطر العمارة الإسلامية عامة والعمارة العسكرية على نحو خاص، وكذا بهدف تفسير حركية العمران التي ولدت جملة من القواعد الفقهية الضابطة والموجهة لما سمي فقه العمران.

إن البحث في موضوع "العمارة العسكرية بقصور تافيلالت: دراسة تاريخية وعمرانية" يستند إلى أسس تمتح من جوانب دينية وتاريخية وحضارية وعلمية، نهدف من خلاله إلى إظهار وبيان بعضها وزيادة تقوية وتصليب بعضها الآخر. وهو ما يروم هذا الفصل الموسوم بالعمارة العسكرية في الفقه الإسلامي إبرازه، عبر التطرق فيه لدور الفقه في تنظيم وتقنين العمارة الإسلامية بشكل عام وموقع العمارة العسكرية ضمن تصورات الفقهاء وعلماء السياسة الشرعية الذين خصصوا مؤلفات لا حصر لها لتناول المرافق والمنشآت المعمارية للبادية والمدينة الإسلامية، حظي فيها البعد الأمني بأهمية كبيرة وهو ما توفره مكونات العمارة العسكرية. ويتكون هذا الفصل من بحثين، يعالج المبحث الأول مفهوم فقه العمارة الإسلامية وقواعده الأصولية ومصادر دراسته، بالإضافة إلى أحكام البنين في الشريعة الإسلامية، بينما يتطرق المبحث الثاني لضوابط تخطيط المدينة الإسلامية والشروط المؤطرة للبناء والعمران فيها عند الفقهاء والمؤرخين، والمكانة التي حظيت بها العمارة العسكرية ضمن تلك الشروط والضوابط لما لها من دور في حفظ مقاصد الإسلام.

1- مصادر دراسة فقه العمارة الإسلامية

تتعدد مصادر دراسة فقه العمارة الإسلامية لإصدار الأحكام الفقهية المتعلقة بال عمران في البوادي والمدن الإسلامية لتنظيمه وتقنيته بما ينسجم مع مقاصد الشريعة الإسلامية، وبالرجوع للتراث الفقهي في مجال البنين نجد أن الفقهاء ألفوا كتباً مستقلة في أحكام العمارة جديرة بالدراسة والتناول، ويعتبر كتاب "القضاء في البنين" لعبد الله بن عبد الحكم (ت. 214هـ/829م)⁽¹⁾ وهو من الكتب المفقودة في أحكام البنين⁽²⁾، بالإضافة إلى كتاب "القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر" للإمام عيسى بن موسى التطيلي (ت. 386هـ)⁽³⁾.

ويعد كتاب ابن الرامي البناء (ت. 734هـ/1334م)⁽⁴⁾ من أهم المؤلفات في الارتفاق وأحكام العمارة، حيث قدم ابن الرامي في مؤلفه قواعد تنظيمية مهمة، كما توسع في الحديث عن النوازل المعمارية وآثارها، مثل خطأ عدم حماية المبنى من الدخان والروائح والضوضاء والشمس، وفرض احترام الآخرين بعدم الإطلال على الجوار، وعدم إفساح مجال إطلاع المارة على داخل المسكن⁽⁵⁾.

وتجدر الإشارة إلى وجود عدة مؤلفات عامة تناولت أحكام البنين وما يتعلق بها في مباحث خاصة، ومن بين هذه المصنفات نجد كتب الفتاوى والنوازل الفقهية التي تعتبر نوازل الونشريسي من أهمها، إذ شكلت هذه النوازل خلفية فكرية للتعامل مع العمران، وقد

-
- 1- ابن فرحون اليعمري المالكي، الديباج المذهب، دار الكتب العلمية، طبعة بيروت، دون تاريخ الطبع، ج1، ص. 134.
 - 2- لطف الله قاري، جولة مع كتب فقه العمران التراثية المطبوعة، مجلة الفيصل، العدد 300، أغسطس - سبتمبر، 2001، ص. 113-120.
 - 3- عيسى بن موسى بن أحمد التطيلي، القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر، تحقيق محمد النمينج، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية و العلوم و الثقافة - إيسيسكو -، 1420هـ/1999م.
 - 4- ابن الرامي البناء، الإعلان بأحكام البنين، الإعلان بأحكام البنين، تحقيق ودراسة فريد بن سليمان، مركز النشر الجامعي، تونس، 1999، ص. 8.
 - 5- عفيف البهنسي، فنون العمارة الإسلامية وخصائصها في مناهج التدريس، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية و العلوم والثقافة (إيسيسكو)، 1423هـ/2003م، ص. 17.

تضمنت نوازل الونشريسي على سبيل المثال ما يزيد عن 14 مسألة ترتبط بالتحصينات العسكرية لمدينة فاس وتتعلق بالهدم والضرر والأحباس⁽¹⁾، مما يبرز القيمة العلمية لهذه المؤلفات في دراسة فقه العمارة الإسلامية إلى جانب كتب الحسبة والقضاء والوقف، فقد اشتملت على أبواب تتعلق بالسياسة الشرعية الخاصة بالعمران، خاصة عمارة المدن والشروط الخاصة بها والأمور الواجبة على الحاكم في هذا الخصوص بشكل واكب تطور العمارة الإسلامية الحضرية كتشييد الحواضر السلطانية، والبدوية مثل القصور الصحراوية عبر تقنيها وتنظيمها.

وتمثل كتب الحسبة والوقف مصدرا هاما في دراسة أحكام البنيان المرتبطة بالعمارة الإسلامية، حيث حفلت هذه المؤلفات بكل ما يرتبط بالأحكام وكيفية التصرف فيها بالمدينة الإسلامية. فضلا عن كتب الجغرافيا والرحلات والتاريخ العام التي يعتبر كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" للمقريري (ت. 845هـ/1442م) من أشهر تلك المؤلفات التاريخية.

وفيما يخص الدراسات الحديثة، فإن الدارس لفقه العمارة الإسلامية وأحكام البنيان لا محيد له من الرجوع إلى مجموعة من الدراسات الأكاديمية والمؤلفات الفقهية، والتي من بينها كتابات خالد محمد مصطفى عزب وفي طليعتها موسوعة "فقه العمران : العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية" التي تناول في فصولها الثمانية على مدى 576 صفحة دور الفقه في التنظيم العمراني المدني والاقتصادي والعسكري والحضاري، وأما كتابه الثاني فيدرس "تخطيط وعمارة المدن الإسلامية" من خلال أربعة فصول تسلط الضوء على فقه عمارة المدن الإسلامية وآثر الحسبة في المدينة الإسلامية مع تذييلها بملحق حول اختيار المنازل الحضرية للاجتماع.

2- فقه العمارة الإسلامية: المفهوم والقواعد

يقصد بفقه العمارة مجموع القواعد التي ترتبت عن حركية العمران نتيجة للاحتكاك بين الأفراد ورغبتهم في العمارة، وما ينتج عن ذلك من تساؤلات يجيب عليها فقهاء

1- محمد لموكي، العمارة العسكرية بمدينة فاس خلال العصرين المريني والسعدي، أطروحة مرقونة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادال الرباط، السنة الجامعية 2008-2009، ص. 40.

المسلمين، مستنبطين أحكاما فقهية من خلال علم أصول الفقه⁽¹⁾، وذلك لبيان حدود الوعي الفقهي بمسائل العمران، ولبيان حركة الفقه الإسلامي في عوالم المدينة وأحوالها، مما يتصل بأخبار البلاد والعباد التي حفلت بها المدينة الإسلامية.

وفي هذا السياق، فقد اعتمد الفقهاء في تناولهم لقضايا العمران وأحكام البنين في بناء وتشبيد المدينة الإسلامية على العرف والقياس والاستصحاب⁽²⁾، وذلك استنادا على قول الله عز وجل: **"خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين"**⁽³⁾. ويفسر العرف في هذه الآية بالنسبة لأحكام البنين بما جرى عليه الناس وارتضوه، ولم يعترضوا عليه⁽⁴⁾ مادام لا يتعارض ذلك مع القرآن الكريم، أو الحديث النبوي الشريف، على اعتبار أن العرف والعادة أصل يرجع إليه في التنازع إذا لم يكن ثم أصل يرجع إليه⁽⁵⁾.

وقد اتخذ العرف المتعلق بالبيئة العمرانية ثلاثة معاني أساسية، الأول هو استنباط الأحكام في ما ليس فيه نص من المسائل العامة التي قد تؤثر في العمران، مثل عادة أهل بلد معين⁽⁶⁾، اعتمادا على القاعدة الفقهية: "العادة محكمة" أي "أن العادة تعتبر وتحكم، إذا كانت غالبية أو مستمرة"⁽⁷⁾. وأما المعنى الثاني للعرف، والذي يعد الأكثر تأثيرا على معمار الحواضر والمدن الإسلامية، فهو المتعارف عليه بين الجيران في تحديد الأملاك والحقوق، فوضع اليد مثلا دليل على القرب والاتصال⁽⁸⁾ وفق القاعدة القائلة: **"من في يده شيء فهو ملكه، لا يحل لأحد الاعتراض عليه ولا يكلفه إثباته ببيئة"**. والمعنى الثالث

1- خالد عزب، فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2013، ص. 12.

2- يحيى وزيري، العمارة الإسلامية والبيئة: الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 304، يونيو 2004، ص. 47.

3- القرآن الكريم: سورة الأعراف، الآية 199.

4- خالد عزب، فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 38.

5- ابن الرامي البناء، الإعلان بأحكام البنين، تحقيق ودراسة فريد بن سليمان، مرجع سابق، ص. 34.

6- خالد عزب، فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 39.

7- لحسن تاوشخت، عمران سجماسة، دراسة تاريخية وأثرية، ج1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص154.

8- خالد عزب، فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 39.

والأخير لمعنى العرف فيتعلق بالأنماط البنائية. فعندما يتصرف الناس في البناء بطريقة متشابهة نقول بأن هناك عرف بنائي أو نمط ما(1).

وفيما يخص الحديث النبوي الشريف «لا ضرر ولا ضرار»، فإن الفقهاء يعتمدون عليه بشكل أساسي في أحكام البنیان، ولا غرو في ذلك، إذ إنه يعد من الأحاديث الخمسة التي يدور عليها الفقه الإسلامي. وهو ما جعل قاعدة "لا ضرر ولا ضرار" تحتل بابا واسعا في فقه العمارة الإسلامية، وهكذا نجد المثل بالضرر يضرب على كل عمل مخالف نتج عنه فتح كوة أو نافذة، ذلك أن العلاقة بين البنايات المتجاورة ليست جامدة، بل تساهم إلى حد كبير في تحديد سلوك القاطنين بها وما يتطلبه ذلك من ضرورة احترام الآداب العامة(2).

وترتب عن تطبيق قاعدتي "لا ضرر ولا ضرار" و"الأخذ بالعرف" في الارتفاق وأحكام العمارة نشوء وظهور مبدأ فقهي يصطلح عليه "حيازة الضرر"، ويقصد به "أن من سبق في البناء يحوز العديد من المزايا التي يجب على جاره الذي يأتي بعده أن يحترمها، وأن يأخذها في اعتباره عند بنائه مسكنه"(3)، أما الطرق والشوارع فهي ملك عام وحق من حقوق جميع السكان والمارة والمستعملين لها(4). وبالاعتماد على أحكام التراث الفقهي، حول كيفية نشأة الطرق في أحياء وشوارع المدينة الإسلامية يمكن تقسيم الطرق بالمدن الإسلامية إلى ثلاثة أنواع(5).

- الطرق العامة: عرف المقدسي(6) الطرق العامة بأنها ذلك الشارع المنفك عن الاختصاص، فالناس كلهم سواء في الطرق العامة ويستحقون المرور فيها، ولا اختصاص لأحد بل هو مشترك عام، وبالتالي فإنه يمنع من التصرف فيه بما يضر

1- خالد عزب، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، ط1. 1418هـ، ص 83.

2- لحسن تاوشخت، عمران سجلماصة، دراسة تاريخية وأثرية، ج1، مرجع سابق، ص. 155.

3- خالد عزب، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، مرجع سابق، ص. 86.

4- لحسن تاوشخت، عمران سجلماصة، دراسة تاريخية وأثرية، ج1، مرجع سابق، ص. 155.

5- خالد عزب، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، مرجع سابق، ص 85.

6- المقدسي أبو حامد، الفوائد النفيسة الباهرة في بيان حكم شوارع القاهرة في مذاهب الأئمة الأربعة، تحقيق الدكتور آمال العمري، إصدار هيئة الآثار المصرية، 1988، ص 22.

المارة في مرورهم، على اعتبار أن الحق في الطرق العامة ليس للمتصرفين خاصة بل للمسلمين جميعاً. ومن أمثلة هذا النوع من الطرق في بلدنا المغرب، طرق المدن العتيقة كفاس ومكناس ومراكش التي تربط ما بين الشمال والجنوب أو الشرق والغرب داخل أسوار المدينة.

- الطريق العام الخاص: وهو أقل درجة من الطرق العامة لأن الارتفاق به من قبل جماعة المسلمين يكون قليلاً نوعاً ما بالقياس مع الطريق العام⁽¹⁾، ومثال ذلك الطرق الرابطة بين الأحياء النافذة، والطرق العامة.

- الطريق الخاص: ومثال هذا النوع الطريق غير النافذة⁽²⁾، التي تعتبر ملكاً للقاطنين فقط، كالدروب في القصبات والقصور، والأحياء والأزقة غير النافذة في المدن الإسلامية.

وبما أن كل ساكن في المدينة الإسلامية يمر ببعض الطرق أكثر من غيرها، فقد أجمع الفقهاء على منع تضيق الطرق العامة والاقتطاع منها⁽³⁾. وذلك بناء على ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه: "من اقتطع من طريق المسلمين أو أفنيتهم شبراً من الأرض طوقه الله يوم القيامة من سبع أرضين"⁽⁴⁾. علاوة على اتفاق الفقهاء على تحريم منع قطع الطريق بالهدم أو غيره من الحواجز، فضلاً عن حفر الطريق أو الإضرار به⁽⁵⁾.

وإجمالاً، فإن فقه العمارة الإسلامية لديه كليات يستمدّها من علم أصول الفقه، كما أنه يركز على أسس شرعية وقيم حضارية خاصة بالأمة الإسلامية، كما أن فقه العمارة

1- عزب خالد محمد مصطفى، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، مرجع سابق، ص 91.

2- المرجع نفسه.

3- وورقية عبد الرزاق، أهمية التراث الفقهي في تفسير التهيئة العمرانية للمدن العتيقة، مجلة دفاتر جغرافية، كلية الآداب ظهر المهراس فاس، العدد 3-4، 2007، ص 16.

4- أبو القاسم الطبراني، المعجم الصغير، ج. 2، المكتب الإسلامي، دار عمار - بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ/1985م، ص. 297.

5- وورقية عبد الرزاق، أهمية التراث الفقهي في تفسير التهيئة العمرانية للمدن العتيقة، م. س، ص 17.

علم تطبيقي ارتبط بالمجتمع⁽¹⁾، الأمر الذي جعل أحكام الفقهاء تواكب تطور حركة العمران على مر التاريخ بالتنظيم والتقنين.

3- دلالة العمارة العسكرية في الفقه الإسلامي

1.3 الحكم الفقهي للعمارة العسكرية

ينظر الفقهاء إلى أن تشييد وبناء المنشآت المعمارية المرتبطة بالعمارة العسكرية باعتبارها من البناء الواجب الذي ينبغي أن يسهم فيه كل أفراد المجتمع، لا سيما إذا عجزت السلطة عن القيام به. غير أنه قبل التفصيل في الأحكام الفقهية المرتبطة بالعمارة العسكرية تجب الإشارة إلى أن البناء في الشرع تؤطره عدة أحكام تتجلى في ما يلي:

- البناء الواجب : مثل بناء الجوامع والمساجد لإقامة الصلوات فيها، وكذا بناء الحصون والأسوار والأربطة للدفاع عن ديار المسلمين وحرمتهم⁽²⁾.
- البناء المندوب : يندرج ضمنه بناء المآذن والصوامع للآذان فيها بهدف الإسراع لأداء الصلاة، وكذا بناء الأسواق لتلبية حاجيات الناس، ولكي يستقر في الأسواق الباعة وأصحاب السلع حتى يسهل للناس شراؤها من الباعة.
- البناء المباح : يدخل ضمنه بناء الدور والمساكن بهدف الاستغلال، ومعلوم أن بناء المساكن يندرج ضمن المقاصد الكلية للشرعية الإسلامية التي تتغى حفظ الدين والنفس والمال والعرض والنسل، وهكذا نجد أن الناس يقومون بتشيد الدور والمنازل ليحفظوا أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، فتنشأ الأسر للإعمار ويستمر النسل الإنساني.
- البناء المحظور: يندرج ضمن هذا النوع من الأبنية بناء دور المنكر والفساد كالخمرات ودور البغاء والقمار، إضافة إلى البناء على المقابر والبناء في أرض

1- خالد عزب، فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 12.

2- المرجع نفسه، ص. 37.

الغير(1). أو البناء في الطرقات، وهكذا نجد الفقهاء المالكية يعتبرون "من بنى في طريق المسلمين أو أضاف شيئاً من الطريق إلى ملكه منع باتفاق"(2).

وترتبط المنشآت العسكرية بصلة قوية بالدين الإسلامي الذي يقدس حياة الأفراد والجماعات، وهو ما لا يتم إلا بتشييد وبناء منشآت دفاعية وعسكرية من أجل الحماية وتحقيق الأمن والأمان لحفظ النفس. وهو ما يظهر في السند الديني الذي يجعل من التحصينات الدفاعية والمنشآت العسكرية مسلكا له صلة متينة بالدين الإسلامي الذي يحرم إزهاق الروح في الإسلام تبعا لقوله تعالى: "من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا"(3). مما استلزم حماية أرواح الأفراد والجماعات وذلك عبر تشييد منشآت دفاعية طلبا للأمان وتحقيقا للطمأنينة(4)، وهو ما يتجلى في دعوة نبي الله إبراهيم عليه السلام "ربي اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات"(5)، لذلك لا عجب أن يصنف الفقهاء بناء مكونات العمارة الدفاعية من أسوار وأبراج وأبواب وقلاع وحصون ضمن البناء الواجب.

ويحوز الأمن أهمية أساسية في نشأة وتطور البادية والمدينة الإسلامية، وهو ما جعل الدين الإسلامي يعتبر بناء الأسوار والأبراج والقلاع والحصون والخنادق وغيرها من المنشآت العسكرية والدفاعية، من أهم الوسائل التي تساعد في حفظ النفس والمال والعرض، لأنها تقوم بدور مهم في الدفاع عن البادية والمدينة وضمان استقرار المجتمع وتطوره وتماسكه، الأمر الذي جعل الفقهاء يحكمون بالالتزام العامة في المشاركة في بناء أو ترميم أو

1- خالد عزب، فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 38.

2- ابن جزي أبي عبد الله محمد بن أحمد (ت. 741هـ)، القوانين الفقهية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1989، ص. 333.

3- القرآن الكريم : سورة المائدة، الآية 32.

4- عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 135.

5- القرآن الكريم : سورة البقرة، الآية 126.

إصلاح مكونات العمارة العسكرية، لكونها تحقق مصلحتهم خصوصا إذا دعت الظروف إلى ذلك⁽¹⁾.

2.3 أمثلة عن أمكان العمارة العسكرية من العمارة المغربية

يجد الباحث الذي يطرق تاريخ العمارة المغربية في كتب النوازل والفقه، بأن مسألة تسوير المدن ورفع تحصيناتها قد احتلت مكانة متميزة في فتاوي وأحكام الفقهاء، حيث إن هذه المصادر تحمل في ثناياها عدة فتاوى ونوازل صدرت من لدن الفقهاء تبين مقاصد وغايات منشآت العمارة العسكرية المتمثلة في ضمان الأمن والاستقرار، ومواجهة مختلف الأخطار المحدقة بالمدن الإسلامية، وهكذا نجد بأنه لمواجهة الغارات التي كانت تقوم بها القوات الصليبية في جنح الظلام على المدن الأندلسية، بقصد النهب والتخريب، قدم رئيس فقهاء الأندلس أبو الوليد بن رشد الجد (ت. 520هـ/1126م) إلى علي بن يوسف بن تاشفين مشروعا متكاملا لصد الهجمات الصليبية كان مما تضمنه تسوير المدن الأندلسية كقرطبة واشبيلية تحصينا لها، وحفظا لأمنها⁽²⁾. فضلا عما سبق نجد أن فكرة تسوير مدينة مراكش كانت بإيعاز من الفقيه ابن رشد الجد كذلك، حيث أشار على علي بن يوسف بضرورة الاحتماء بسور لكف عادية المعتدي⁽³⁾.

كما أنه من بين الأمثلة التي تبين الأحكام الفقهية المتعلقة بالعمارة العسكرية فيما يتعلق بإصلاح الأسوار وترميمها يجد الباحث في كتب النوازل حيزا مهما حول قضايا البناء الدفاعي، وذلك ما يتجلى في نازلة مهمة للونشريسي تبين قضايا إصلاح الأسوار في المدينة المغربية؛ وكذا القصور الترابية بالوحدات المغربية، لإدراك الأحكام الفقهية لمكونات معمارها العسكري، ونظرا لأهمية النازلة وما تضمنته من حكم واستدلال فقهي حول مكون أساسي من مكونات العمارة العسكرية فإننا نورد سؤال النازلة وجوابه بشكل حرفي :

1- عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 128، ص. 135.

2- سعيد أعراب، أعلام الأندلس: القاضي أبو بكر ابن العربي (468-543 هـ)، مجلة دعوة الحق، العدد 173، 1977، ص. 77-82.

3- كتاب "رسالة في تحقيق اتجاه قبلة الصلاة" (مخطوط)، ص. 13. نقلا عن ابراهيم القادري بوتشيش، حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 2006، ص. 119.

سؤال النازلة : "وسئل بعضهم بما نصه [...] ما ترون بنور العلم وبصيرة الهدى فيما وقع إلينا من أمر سور هذه المدينة المحروسة بالله تعالى من تهدم بعض أرجائه، وهل ينبغي أن يقوم عليه من جبره وبنائه وأن الذي يحتاج إلى ذلك من المال كثير وأن على أرباب الأملاك وظيف ذلك كله عليهم ، كما أشرت إليه، عبئ ثقيل وحمل كبير، لا سيما في حق من هو منهم ضعيف أو يتيم أو صغير، ولن تقع الإعانة لهم في ذلك بوفر أحباس الزوايا التي أسسها بعض بنات الملوك السالفة رضي الله عنهم لدفنهم بها، أو ما يعرف منها ومن يجري مجراهن ممن له تعلق بالسلطنة وتَمَوَّلُ منها، وحتى من أحباس مكة العظمى التي توفر لعدم من يصل منها لقبضه بموجب يقتضيه، والاحتياط في عدم صرفه لتعذر السبيل وما يراكب من خطر فيه فتردد نظرنا (في هذا) بين شفقتة على ضعفاء أهل هذه البلدة تحمل على إثثار التخفيف عنهم بكل ممكن من الوجوه وبين تقية تصل عن أحداث رأي في الأحباس مخافة أكثر مما نرجوه، اللهم إن كانت فتيا منكم [...] فإذا نعتمدها عمدة وذخيرة ونأمر بالعمل بمقتضاها على بصيرة [...] فأجاب : [...] أما تردد نظركم في مسألة إصلاح للشفقة على الرعية والوقوف في حق الحبس موقف الحذر والتقية، فذلك إن شاء الله من ثمرة اليقين وحقيقة العلم بأنكم مسؤولون عما قلدتهم من أمور المسلمين ..."(1)

ما يمكن استنتاجه من ثانيا هذه النازلة، هو أن مضمونها يدور حول مسألة إصلاح ما تهدم من سور بمدينة فاس في نهاية الفترة الوسيطية وتحديدا إبان حكم الدولة المرينية للمغرب الأقصى⁽²⁾، كما يظهر من الاستدلال الفقهي للنازلة التزام العامة بالمشاركة في بناء وإصلاح الأسوار في أوقات الشدة أو الرخاء⁽³⁾.

وتجدر الإشارة إلى أنه رغم كون مسألة التحصينات بالمدن الإسلامية من أمور السيادة بالنسبة للسلطان باعتباره صاحب القرار، فقد كان الفقهاء والعلماء والقضاة أصحاب

1- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى التلمساني (ت. 914هـ/1508م)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج.7، تخريج مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1981، صص. 303-304.

2- محمد لموكي، العمارة العسكرية بمدينة فاس خلال العصرين المريني والسعدي، مرجع سابق، ص. 38.

3- المرجع نفسه، ص. 40.

المشورة في مسائل بناء الأسوار أو إصلاحها وتجديد بنائها، لذلك لا غرابة أن يوكل أمر سور زيتون بن عطية بفاس إلى القاضي الفقيه أبي أمية الدلائي⁽¹⁾.

ومما يجدر لفت الانتباه إليه، أن الفقهاء في تاريخ المغرب عامة وفي الفترة المرينية على نحو خاص، قد اختلفوا في مسألة إجبار الرعية على توفير أموال بناء وإصلاح المنشآت الدفاعية، إذ إن هناك صنف من الفقهاء أصدروا مجموعة من الفتاوي التي تراعي وضعية السكان الاجتماعية فيما يتعلق بتسوير مدنهم أو إصلاحها، حيث أصرروا على ضرورة أن تتكفل الدولة بهذه المهمة⁽²⁾، نظرا لكون بناء الأسوار كما عبر عن ذلك أبو عبد الله بن مرزوق (780هـ) بقوله: "إنما وجوبه على بيت المال"⁽³⁾، غير أن صنفا آخر من الفقهاء لم يتردد في أن يجيب على من تحفظ في ضرورة مساهمة العامة في أعمال البناء والصيانة والإنقاذ بقوله: "أما تردد نظركم في مسألة إصلاح السور للشفقة على الرعية ... فإن المعلوم في هذه المسألة ... أن تقدم مراعاة المصالح العامة على المصالح الخاصة"⁽⁴⁾. وقد دفع الهاجس الأمني إلى ترجيح الرأي الأخير زمن حكم الدولة المرينية⁽⁵⁾.

خلاصة القول، إنه نظرا لأهمية وقيمة العمارة العسكرية في تاريخ الإسلام فقد صنفها الفقهاء في خانة البناء الواجب لتحصين المدن والحوضر الإسلامية، وهذا ما جسده السكان في المدن والبادي، حيث حظيت الأسوار بحرمة كبيرة واعتبرت شيئا لا يمكن المساس به من لدن أي شخص مهما كان وضعه الاجتماعي، بالإضافة إلى كون "أسوار المسلمين من مصالحهم، مجراها مجرى أحباسهم وأوقافهم التي لا يجوز تغييرها، ولا نقلها من مواضعها، ولا هدم شيء منها، ولا تغييره من حالته المتقررة"⁽⁶⁾ لتحقيق الاستقرار والتعاون في المجتمع الإسلامي عبر إحاطة الدور السكنية والمنازل بالأسوار من جهة، وتحقيق الأمن والأمان عن طريق حماية أرواح الأفراد والجماعات من جهة أخرى.

1- المرجع نفسه، صص. 41-42.

2- حميد تيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مرجع سابق، 519.

3- الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب، مصدر سابق، ج.5، ص. 348.

4- المصدر نفسه، ج 7، ص. 304.

5- حميد تيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مرجع سابق، 519.

6- الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب، مصدر سابق، ج 5، صص. 352-353.

المبحث الثاني: أثر البعد العسكري في تخطيط المدينة الإسلامية

قبل الشروع في تناول شروط وضوابط تخطيط وتأسيس المدينة الإسلامية وموقع العمارة العسكرية ضمن تلك الشروط والضوابط، يطرح سؤال يكاد يسد الأفق يتمحور حول علاقة ضوابط تخطيط المدينة الإسلامية عند الفقهاء وعلماء السياسة الشرعية والمؤرخين ببناء وتشيد القصور الصحراوية عامة والقصور الواحية بتافيلالت على نحو خاص؟

وفي هذا الإطار، فإنه إذا ما اعتبرنا القصور الصحراوية تمثل الشكل العمراني الأصيل في المناطق الواحية التي تشكل فيها هذه القصور مراكز محصنة وفضاء للثقافة والدين الذي يربط القوافل المسافرة على المسالك الصحراوية⁽¹⁾، فإنه يمكن القول بأن أن هذه القصور في الواحات تعتبر صورة مصغرة لبعض الأحياء المُسَوَّرة بالحواضر المغربية⁽²⁾، بل إن المستشرق الفرنسي جورج مارسى اعتبر أن المدينة الإسلامية عبارة عن عدة قرى تتركز في مكان واحد، نتيجة انغلاق الأحياء بعضها على بعض، وكذا بسبب التكتل العرقي والاثني داخلها⁽³⁾. بالإضافة إلى أن الفضاء البدوي الذي تشكلت فيه هذه القصور يعد أصل العمران الذي لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره⁽⁴⁾. وهو ما تجسده الضوابط والشروط المحددة من لدن الفقهاء والمؤرخين لتحديد مواطن الاستقرار والحياة سواء بالوسطين البدوي أو الحضري في أقطار العالم الإسلامي.

1- شاوش صالح وبن شريف مريامة، رحلة في تراث المغرب العربي، ترجمة محمد هشام بن شريف ومراجعة عبد السلام يخلف، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2014، ص. 163.

2- عوني الحاج موسى، المعاصيد، معلمة المغرب، مطابع سلا، 2005، ج. 21، ص. 7185.

3 - Marçais (Georges) : L'architecture musulmane d'Occident : Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile. Paris, édit. Arts et Métiers Graphiques, 1954, p. 368.

4- محمد استيتو، الاعتبارات الحيوية والبيئية والصحية في اختطاط المدن المغربية الإسلامية : مدينة فاس أنموذجاً، ندوة السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب : الائتلاف والاختلاف، سلسلة ندوات رقم 2، كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة، 2013، ص. 597.

1 - ضوابط تأسيس المدينة الإسلامية عند الفقهاء والمؤرخين وعلماء السياسة الشرعية

إن تأثير الدين الإسلامي في تخطيط ونشأة المدينة الإسلامية وتطورها واضح لكل دارس، حيث يجد أن الإسلام قدس مدنا قديمة لها اعتبارات دينية خاصة قبل البعثة أو عاشت أحداثا إسلامية مرتبطة بالبعثة أو غيرها من الأحداث في مرحلة صدر الإسلام⁽¹⁾، لذلك لا غرو أن يستأثر تخطيط المدينة الإسلامية وعمارتها باهتمام الفقهاء والقضاة والمؤرخين وعلماء السياسة الشرعية في تاريخ الإسلام، نظرا لكون المدن والحوضر تمثل مرحلة متقدمة ومتطورة في تاريخ الاجتماع البشري والعمراني⁽²⁾، مما يبين بجلاء أن المدينة الإسلامية تأسست وفق تخطيط مسبق، وذلك ما يفند الطروحات التي نزعته عن المدينة الإسلامية ومعالمها العمرانية الأصالة والتميز وجعلتها استنساخا لما تقدمها من المدن السابقة في حضارات أخرى⁽³⁾.

1-1 - شروط تأسيس المدينة عند ابن الربيع

حظي تخطيط المدينة الإسلامية بأهمية كبيرة من لدن الفقهاء المؤرخين العرب والأجانب وغيرهم، ويبدأ هذا التخطيط باختيار الموقع الذي تتحكم فيه مجموعة من الشروط وجب توافرها بصفة عامة في اختيار أي موقع، وقد أشار ابن الربيع إلى هذه الشروط وحدها بستة شروط هي "سعة المياه المستعذبة، وإمكان الميرة المستمدة واعتدال المكان وجودة الهواء، والقرب من المرعى والاحتطاب، وتحصين منازلها من الأعداء والذعار*،

1- عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 98.

2- محمد استيتو، الاعتبارات الحيوية والبيئية والصحية في اختطاط المدن المغربية الإسلامية : مدينة فاس أنموذجا، مرجع سابق، ص. 602.

* الذعار : ما يثير الذعر والخوف.

** سواد كل شيء: كورة ما حول القرى والرساتيق، ويقال كورة كذا وكذا وسوادها إلى ما حوالي قصبته وفسطاطها من قرار ورساتيقها. ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة سود. وينظر كذلك محمد استيتو، الاعتبارات الحيوية والبيئية والصحية في اختطاط المدن المغربية الإسلامية : مدينة فاس أنموذجا، مرجع سابق، ص. 605.

3- محمد الكحلوي، الفن الإسلامي المفهوم والنشأة والجماليات، منشورات كارم الشريف، تونس، الطبعة الأولى، 2010، ص. 113.

وأن يحيط بها سواد** يعين أهلها"⁽¹⁾. حيث إن توفر الماء يعتبر شرطا أساسيا وحتميا في اختيار مواقع المدن فهو عصب الحياة وعامل نشوء الحضارات عبر التاريخ، كما أنه عامل من عوامل انتهائها في حالة ندرته⁽²⁾، لذلك فإن توفر الماء يأتي من مصادر مختلفة أهمها الأنهار التي تمثل موردا منتظما للماء، وسعة الماء كشرط أساسي من شروط اختيار مواقع المدن، تعني وفرته للوفاء بحاجة السكان وتلبية متطلباتهم، وفي ذلك مراعاة للنظرة المستقبلية لازدياد متوقع في عمران المدينة، وتسهل أيضا عملية التخطيط والتنفيذ لتوصيله إلى مرافق المدينة وتكويناتها المعمارية المختلفة⁽³⁾.

أما الشرط الثاني وهو "إمكان الميرة المستمدة" ويحيل إلى أن توفير الغذاء يعتبر مطلباً أساسياً لنشأة المدن واستمرار حياتها، وابن الربيع لم يحدد الشروط لتحقيق هذا المطلب، وهو ما يشير إلى إمكانية توفر ذلك بأوجه مختلفة، فكانت المدينة تعتمد على إقليمها الذي يمدّها بما تحتاج إليه، ومن هنا كانت علاقة المدينة بإقليمها علاقة أساسية لتحقيق هذا المطلب⁽⁴⁾، ولذلك عدّت "دراسة المدينة ناقصة ما لم تدرس علاقة المدينة بإقليمها وريفها المحيط بها، فهناك تفاعل وثيق بين المدينة وريفها يتكون من مجموعة من الأفعال وردود الأفعال المتبادلة بينهما، مما يخلق مركبا إقليميا متميزا"⁽⁵⁾.

والشرط الثالث الذي حدده ابن الربيع لاختيار مواقع المدن هو "اعتدال المكان وجودة الهواء"⁽⁶⁾، وفي هذا الشرط ما يؤكد على أهمية المناخ والاعتبارات الصحية في اختيار المسلمين لمواقع مدنهم⁽⁷⁾. ولهذا كانت المدينة مظهرا من مظاهر التفاعل بين الإنسان وبيئته الطبيعية، ولما كان المناخ عنصرا من عناصر هذه البيئة فإن إدراك المسلمين أهميته في اختيار مواقع مدنهم يعكس مستوى حضاريا متقدما.

1- ابن أبي الربيع (سليمان): سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق ناجي التكريني، بيروت، دار الأندلس 1981، ص192.

2- خالد عزب، فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 23.

3- محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مرجع سابق، ص97.

4- م.ن، ص98.

5- جمال حمدان، جغرافية المدن، القاهرة، 1977، ص324.

6- ابن أبي الربيع (سليمان): سلوك الملك في تدبير الممالك، مصدر سابق، ص192.

7- محمد عبد الستار، م.س، ص101.

كما أثر المناخ تأثيرا مباشرا وفعالا في تخطيط التكوينات المعمارية للمدينة الإسلامية، كما كان له أثره الواضح في تخطيط شوارعها وتحديد اتجاهاتها، وتشابهت هذه التأثيرات في معظم المدن الإسلامية سيما أن أغلبها يقع تقريبا في المنطقة الحارة، فتلاصقت المباني وتدرجت مقاييس الشوارع وأصبح الفناء عنصرا رئيسا في تخطيط التكوينات المعمارية المختلفة⁽¹⁾.

ويذكر ابن الربيع شرطا رابعا وهو: "القرب من المرعى والاحتطاب"⁽²⁾ حيث إن توفر المرعى والوقود والغذاء والأخشاب اللازمة للبناء تحقيقا لهذا الشرط، يدفع بعمران المدينة إلى التطور، كما أن وفرة المرعى والحطب والغذاء من مصادر قريبة، وتأمين مصادرها، كان لها تأثير مباشر في هيئة تخطيط المدن: مثلا في شرق العالم الإسلامي والتي يلاحظ أنها كانت تشتمل في الوسط على مقر السلطة والحكم مؤمنا في قلب المدينة، ويحيط بها سور ويدعى "الشهرستان"، ويليه دائرة أوسع تمثل المدينة العظمى يحيط بها سور هي الأخرى⁽³⁾.

وتحكم في اختيار موقع المدينة ما يتمتع به الموقع من تحصين يعين على دفع الأخطار التي تحدث عند هجوم الأعداء عليها، وبرزت الحاجة إلى تحصين المدن منذ عهد قديم، عندما نشأت المدن وزاد عمرانها وثراؤها، وبدأت تتعرض لهجمات الأعداء، الذين يطمعون في السيطرة عليها أو نهب ثرواتها. مما أدى إلى بناء الأسوار حول المدن، واتخاذ الجند والقادة الذين يتولون الدفاع عنها⁽⁴⁾. ومن هنا كان اتخاذ السور حول المدينة أمرا هاما، وتبلورت الدلالة الحضرية للسور-الذي يعني أمن وأمان سكانها- وتأمين المدينة رهين ببناء الأسوار والأبراج والقلاع، كما أن الذي يزيد من كفاءتها وسهولة إنشائها والاقتصاد فيها ما يتوفر للموقع من مميزات تحصينية طبيعية.

1- م.ن، ص104.

2- ابن أبي الربيع (سليمان): سلوك الملك في تدبير الممالك، مصدر سابق، ص21.

3- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت، ص334.

4- بيتر فارب، بنو الإنسان، ترجمة زهير الكرمي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، سنة 1980، ص139.

من خلال ما سبق، يتضح من كلام ابن الربيع أنه حدد شروطاً دقيقة في تخطيط المدينة الإسلامية كانت بالنسبة للحاكم مسؤوليات عليه تنفيذها⁽¹⁾، كما يظهر مدى الفهم المقرون بالتحليل المنطقي في أسس إنشاء المدن، إذ إن اشتراط سوق المياه للمدينة للشرب يجعل السكان يتخطون ما يسمى بالحمية الطبيعية ووصول المخطط الحضري إلى مرحلة الحرية في تحديد الموقع المدني⁽²⁾.

1-2- ضوابط تأسيس المدينة عند الماوردي

وضع الماوردي المتوفى 450هـ/1058م مجموعة من الضوابط الجامعة والممانعة التي يجب أن يتضمنها أي موطن للاستقرار البشري⁽³⁾، حيث قدم الماوردي في هذا الإطار نظرة جديدة لظاهرة التمدين والتخطيط الحضري في أقطار العالم الإسلامي عبر تصنيف وظائف المدن والتفريق بينها حسب طبيعة كل وظيفة⁽⁴⁾، وهكذا حدد الماوردي خمسة أمور للأمصار الجامعة والتي بمقتضاها لا يمكن اعتبار المكان صالحاً لاستقرار ما لم يتضمنها⁽⁵⁾ وهي :

- أن يستوطنها أهلها طلباً للسكينة والدعة.
- حفظ الأموال فيها من استهلاك وإضاعة.
- صيانة الحرم والحرم من انتهاك ومذلة.
- التماس ما تدعو إليه الحاجة من متاع وصناعة.
- التعرض للكسب وطلب المادة.

1- خالد عزب، فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 18.

2- المرجع نفسه، ص. 23.

3- خالد عزب، فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 14.

4- لحسن تاوشيك، عمران سجلماصة، دراسة تاريخية وأثرية، ج1، مرجع سابق، صص. 151-152.

5- الماوردي أبو الحسن، تسهيل النظر وتعجيل الظفر بأخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق محيي هلال السرحان، مراجعة حسن الساعاتي، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، صص. 161-162.

ويظهر تميز الماوردي في ضوابط تخطيط المدن والأمصار وشروط الاستقرار بها في تمييزه ما المدينة والشروط الضرورية لإحداثها وتشبيدها، وهو بهذه المبادئ قد جمع ما بين التركيب الداخلي للمدينة وشروط اختيارها، حيث حددها في ستة شروط :

- سعة المياه المستعذبة.
- إمكان الميرة المستمدة.
- اعتدال المكان الموافق لصحة الهواء والتربة.
- قربها مما تدعو الحاجة إليه من المراعي والأحطاب.
- تحصين منازلها من الأعداء والزُّعَار.
- أن يحيط بها سَوَادٌ يعين أهلها بموادّه⁽¹⁾.

ونظرا لأهمية هذه الشروط والضوابط التي لا يمكن أن يخلوا من معظمها أو كلها مكان صالح للاستقرار البشري، فإن الماوردي اعتبر بأن أي موطن لا يتضمن هذه الضوابط لا يمكن أن يصلح للاستقرار البشري، وقد أكد على ذلك بقوله : "فإن عدم فيها أحد هذه الأمور الخمسة فليست من مواطن الاستقرار وهي منزلة قيعة ودمار"⁽²⁾.

1-3- شروط تأسيس المدينة عند ابن خلدون

حدد العلامة ابن خلدون مجموعة من الشروط التي تجب مراعاتها في اختيار مواضع المدن وتأسيسها عند تخطيطها وأجلها في ستة شروط، حيث إنه يلزم مُراعاة "دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها، فأما الحماية من المضار فَيُرَاعَى لها أن يُدَار على منازلها مَعاً سِيَّاح الأسوار، وأن يكون ذلك في مُمتنع

1- الماوردي أبو الحسن، تسهيل النظر وتعجيل الظفر بأخلاق الملك وسياسة الملك، مصدر سابق، صص. 162-163.

2- المصدر نفسه، ص. 162.

الأمكنة، إما على هضبة متوغرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يُوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها⁽¹⁾. وقد دُلَّ العلامة ابن خلدون حديثه عن المدينة وما يتعلق بها باعتباره لها بأنها قرار تتخذهُ الأمم عندما تصل إلى مرحلة الترف والدعة، حينها تتخذ المنازل للقرار⁽²⁾، لكن حصول ذلك ربطه بشرطين :

أولهما: دفع المضار، وذلك بإقامة أسوار تحيط بمنازل المدينة إن كانت في سهل، أو أن توضع قواعد المدينة على هضبة وعرة أو جبل كما اقترح حلا آخر بإقامة المدينة وسط نهر أو بحر حتى يصعب على العدو منالها، ومن ناحية أخرى اشترط ابن خلدون في مسألة دفع المضار عن المدينة وجود طيب الهواء ونقائه حتى لا يصاب أهل المدينة بالأمراض⁽³⁾.

ثانيهما: جلب المنافع، من خلال قرب المدينة من الماء، باعتباره عنصر أساسي لا تقوم الحياة إلا به، ناهيك عن مراعاة وجود مرافق ضرورية كطيب المراعي لسائمتهم إذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولا بد لها من المرعى. كما وضح أهمية قرب المزارع للناس "فإن الزروع هي الأقوات، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها، كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله، ومن ذلك الشجر للحطب والبناء، فإن الحطب مما تهم البلوى في اتخاذ لوقود النيران للطبخ، والخشب أيضا ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم"⁽⁴⁾.

1- ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، تحقيق وتقديم وتعليق عبد السلام الشدادى، خزانة ابن خلدون، مكتبة الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2005، ج.2، ص. 182. ينظر عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات، المدينة في العصر الوسيط (قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي)، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1994م، ص. ص. 15-17.

2- عبد الرحمان بن خلدون (ق8ه/14م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت 1983، ج2، ص617.

3- المصدر نفسه، ص619.

4- المصدر نفسه، ص621.

1-4- شروط تأسيس المدينة عند ابن الأزرقي

يرى ابن الأزرقي (توفي 899هـ/1491م) الذي فصل ما تحدث عنه ابن خلدون، بأن ما يجب مراعاته في تخطيط وتأسيس المدن الإسلامية أصلاً من مهمات يتمثلان في دفع المضار وجلب المنافع، حيث ذكر أن المضار نوعان : أرضية ودفعها بإدارة سياج الأسوار على المدينة ووضعها في مكان ممتنع، إما على هضبة متوعدة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر...حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو ويتضاعف تحصينها⁽¹⁾. و أما النوع الثاني من المضار سماوي، ودفعه باختيار المواضع طيبة الهواء، لأن ما خبث منه بركوذه أو تعفن بمجاورته مياهها فاسدة، ويضرب ابن الأزرقي لذلك مثلاً بمدينة فاس التي كانت عند استعادة العمران بأفريقية كثيرة السكان، فكان ذلك معينا على تموج الهواء وتخفيف الأذى منه⁽²⁾.

وأما الأصل الثاني الذي يتمثل في جلب المنافع⁽³⁾، فإنه يتأتى بمراعاة عدة شروط من بينها : توفر الماء كأن يكون البلد على نهر أو بإزائه عيون عذبة، فضلاً عن قرب المزارع الطيبة لأن الزروع بتعبير ابن خلدون هي الأقوات⁽⁴⁾، وكذا القرب من البحر لتسهيل الحاجة القصية من البلاد النائية، وغني عن البيان أن هذه الشروط تتفاوت بحسب الحاجة وما تتطلبه ضرورة السكن وتدعو إليه⁽⁵⁾.

ويظهر مما سبق، أن ابن الأزرقي في معرض حديثه عن أوضاع المدن وشروط تخطيطها، قد فصل ما تحدث عنه ابن خلدون مع تقديم أمثلة ملموسة من حواضر الغرب الإسلامي كمدينة فاس التي استحدثت بقرار سياسي أو غيرها من المدن التي ساهمت الشروط الخلدونية عند مراعاتها في الاختطاط بالنمو والتطور.

1- ابن الأزرقي أبو عبد الله محمد الأندلسي، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق محمد عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1977، ج2، ص.764.

2- المصدر نفسه، ج2، ص. 764.

3- المصدر نفسه، ج2، صص.765-766.

4- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار ابن خلدون، الاسكندرية، 1998، ص. 245.

5- خالد عزب، فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 18.

حصيلة القول، إن الفقهاء وعلماء السياسة الشرعية، قد وضعوا مجموعة من الشروط والضوابط التي أطرت ظاهرة التمدين في تاريخ العالم الإسلامي الوسيط، وشكلت مرجعا في التخطيط والبناء في مختلف الأمصار، وقد استندت هذه المرجعيات على مقاصد الشريعة الإسلامية وحاجيات المجتمع مما ساهم في تطور ونمو العمارة الإسلامية. فما موقع العمارة العسكرية ضمن هذه الضوابط والمرجعيات أثناء التشييد والبناء في العمارة الإسلامية؟

2- تصورات فقهية حول العمارة القروية

إذا كانت القرى تكرر جزئيا وبصفة مصغرة النموذج الحضري⁽¹⁾ بالمدينة الإسلامية، بما فيها العمارة العسكرية التي تعتبر مدار بحثنا، فإن أحكام البنين التي وضعها الفقهاء جاءت عامة وتطبق على المدن والقرى، لذلك لا غرابة أن لا نجد عالم من العلماء وضع تصورات خاصة بالعمارة القروية فقط، غير أن هذا لا يمنع من وجود بعض الفتاوى والنوازل المتعلقة في أحكامها وقضاياها بالقرى فقط.

وفي هذا السياق، تقدم كتب النوازل الفقهية نصوصا فريدة حول القرى المغربية عامة وعمرانها على نحو خاص. وتعتبر "نوازل ابن الحاج"⁽²⁾ (ت 529هـ/1134م) مصدرا مهما للتعرف على أشكال الملكيات العقارية وسيادة الملكية الخاصة في البوادي بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، مما يجعل هذا المؤلف مصدرا هاما لقراءة تاريخ البادية ومجالها العمراني بنظرة تتسم بالعمق والشمولية، وبعين صاحبة حتى يصبح تاريخنا تاريخا متكاملا غير مبتور⁽³⁾.

1- محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع : فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2004، ص. 25.

2- ابن الحاج أبو عبد الله محمد، نوازل ابن الحاج التحيبي القرطبي، دراسة وتحقيق الدكتور أحمد شعيب اليوسفي، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، الطبعة الأولى، 2018، ج.3.

3- إبراهيم القادري بوتشيش، مخطوط "نوازل ابن الحاج" مصدر جديد في تاريخ المجال القروي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، البادية المغربية عبر التاريخ، منشورات كلية الآداب الرباط، 1999، ص. 29-42.

كما تقدم نوازل الونشريسي مجموعة من القضايا الفقهية التي تخص أحكام البنيان المشترك والخاص بالقرى المغربية، والتي من بينها العمارة العسكرية بأسوارها وأبراجها وأبوابها، وفي هذا الإطار أورد الونشريسي في الجزء الثامن الخاص بنوازل من الضرر والبنيان نازلة حول حكم النخلة القائمة بالسور، إذ أنه "سئل عن نخلة عند السور قائمة لكن يخاف عند نزول العدو بالبلد أن يقطعوها فتهدم السور أو بعضه، فهل تقطع إذا خيف ذلك عند حلول العدو بالبلد؟ وكيف إذا كانت داخل السور مائلة يخاف عليها من الوقوع على السور فتهدمه هل تقطع أم لا؟

فأجاب : متى غلب على ظنه السلامة بقيت، وإن غلب على ظنه الخوف قطعت ولو استوى الاحتمالان بقيت على حالها"⁽¹⁾.

3- موقع العمارة العسكرية ضمن الشروط الفقهية في العمارة الإسلامية

لا شك في أن أول ما يشغل الناس بعد الاستقرار هو الأمن والطمأنينة لتستقر أحوالهم ومعاشهم وتهنأ نفوسهم⁽²⁾، الأمر الذي جعل العمارة العسكرية في الفقه العمراني تحتل مكانة متميزة استمدتها أولا من تصنيفها في خانة البناء الواجب الذي يجب أن تساهم فيه السلطة والمجتمع، وثانيا في كون جميع الفقهاء وعلماء السياسة الشرعية أثناء تطرقهم لضوابط تخطيط البوادي والمدن وشروط الاستقرار بها يؤكدون على أن يكون الموقع حصينا بطبيعته أو بالبناء والتشييد، وذلك تحقيقا للأمن والأمان في انسجام وتناغم مع الكليات الخمس للدين الإسلامي.

وفي هذا السياق، نجد ابن الربيع في الاعتبارات الأساسية التي وضعها في اختيار مواقع المدن أن يتم "تحصين منازلها من الأعداء والذعار"⁽³⁾، وهو الشرط الخامس في تخطيط المدينة عند ابن الربيع. أما الماوردي فقد اشترط في مواطن الاستقرار خمسة شروط كلها ترتبط بالسكون وحفظ الأموال والحرمان وغيرها، وهي شروط لا يمكن أن

1- الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب، ج. 8، مرجع سابق، ص. 439.

2- محمد استيتو، الاعتبارات الحيوية والبيئية والصحية في اختطاط المدن المغربية الإسلامية، مرجع سابق، ص. 614.

3- ابن أبي الربيع (سليمان): سلوك الملك في تدبير الممالك، مصدر سابق، ص. 192.

تتحقق إلا بإحاطة الأمصار بسور، وهو ما جعل التدبير في المدن يراعي ضرورة أن تتخذ لها الأسوار والخنادق والحصون⁽¹⁾. كما أن الماوردي اشترط على منشئ المصر في حقوق ساكنيه ثمانية شروط جعل الشرط السابع يختص بضرورة "أن يحوطهم بسور إن تآخموا عدوا، أو خافوا اغتيالاً، حتى لا يدخل عليهم إلا من أرادوه، ولا يخرج عنهم إلا من عرفوه، لأنه دار لساكنيه، وحرز لمستوطنيه"⁽²⁾.

وأما عند ابن خلدون، فإننا نجد أول شرط لاختيار مواضع الحواضر والمدن وإنشائها ودواعي اختيار موقعها وموضعها يتمثل في "أن تحاط بسور يدفع المضار عنها"⁽³⁾، مما يبين الأهمية التي يحظى بها البعد الأمني في تحديد مواضع المدن لدى العلامة ابن خلدون، بحكم الوظائف المتعددة التي تضطلع بها أسوار المدن، حيث تساهم في الحماية والدفاع عن المدينة من هجمات الأعداء ومختلف الغارات، كما تحقق التماسك الاجتماعي للسكان وتجعلها تعيش وكأنها في دار واحدة⁽⁴⁾ بتعبير ابن الربيع كما بينا سابقاً.

وعلى نفس المنوال، فقد أكد صاحب "بدائع السلك في طبائع الملك"⁽⁵⁾ جازماً عندما تطرق للشروط الواجب مراعاتها في أوضاع المدن، على أن السبيل لدفع المضار الأرضية في الأمصار والحواضر والمدن الإسلامية لا يتحقق إلا بالموقع المحصن سواء تطلب الأمر إقامة الأسوار أو أن يكون الموقع محصناً طبيعياً في موضع يتسم بوعورته عبر تشييد البناء العمراني على هضبة متوعدة من الجبل أو باستدارة بحر أو نهر لا يوصل إليها إلا بعد العبور على الجسر أو القنطرة⁽⁶⁾، وذلك لمنع العدو من الهجوم وضمان حفظ النفس والمال والعرض، وكذا الدفاع بصفة عامة عن حرمان المسلمين.

من حصاد ما تقدم يظهر أن موقع العمارة العسكرية ضمن الشروط الفقهية في العمارة الإسلامية متميز، فقد حظيت المنشآت المعمارية الدفاعية بمكانة مركزية في فقه

1- عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 136.

2- الماوردي أبو الحسن، تسهيل النظر وتعجيل الظفر بأخلاق الملك وسياسة الملك، مصدر سابق، ص. 164.

3- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، مرجع سابق، ص. 244.

4- خالد عزب، فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 25.

5- ابن الأزرقي مصدر سابق، ج2، ص. 764.

6- عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 136.

ال عمران، مما يبرز بجلاء أهمية العمارة العسكرية في تحقيق الأمن للناس ودرء مختلف الأخطار المحدقة بحياض المدينة الإسلامية والقصور الصحراوية، وهو ما بين بجلاء بأن العمران الإسلامي قد قام على مبدأ تحقيق الأمن والسلامة، والذي يتمثل في نظام الأحياء بالحوضر والمدن وأبوابها والأسوار الواسعة والمنيعة، فضلا عن مبدأ تثبيت الروابط القبلية والمهنية بتوزيع الأحياء السكنية حسب التعددية الإثنية لتحقيق وحدة اجتماعية متضامنة بعيدا عن التنافر والحساسيات⁽¹⁾.

وتجب الإشارة إلى أن تشدد الفقه الإسلامي في العمارة العسكرية باعتبارها بناء واجبا نابع كذلك من تمكين السلطة الحاكمة من مواجهة مختلف التمردات والفتن والثورات المحلية. ومما يمكن استنتاجه؛ كذلك؛ فيما يتعلق بموقع العمارة العسكرية ضمن ضوابط وشروط علماء السياسة الشرعية والفقهاء وكتابات الآداب السلطانية أن قضية بناء الأسوار وإصلاحها شغل الحيز الأكبر في مكونات العمارة الدفاعية، وذلك راجع لكون التحصين يقوم أساسا على إحاطة المدينة بالأسوار أولا، بينما باقي المكونات من أبراج وأبواب وغيرها تكون مرتبطة بالأسوار.

وإذا كنا في هذا الفصل قد تطرقنا لدور الأحكام الفقهية في تأطير العمارة العسكرية، عن طريق إبراز وجهة نظر الفقهاء وأحكامهم في فقه العمران بشكل عام والمنشآت الدفاعية على نحو خاص، استنادا إلى القواعد الفقهية التي أطرت وظيفة المباني العسكرية ودعت إلى ضرورة صيانتها والمحافظة عليها وحمايتها من الهدم أو الاندثار، عبر إصدار عدة فتاوي تمنع إزالة الأسوار حتى بعد تطور سلاح المدفعية الذي ساهم في تلاشي أهمية المنشآت العسكرية بشكل تدريجي، فإنه لتوضيح الإطار النظري لموضوع البحث يلزم تقديم تعريف مفصل عن مصطلحات ومفاهيم العمارة العسكرية لإدراك معانيها ودلالاتها، وكذا توظيفها وفق سياقها التاريخي الذي ارتبطت به، وذلك عبر محاولة تقديم إجابة للتساؤل الآتي : كيف تجلت المكونات المعمارية والمنشآت العسكرية في هندسة ومعمار قصور تافيلالت؟

1- عفيف البهنسي، فنون العمارة الإسلامية وخصائصها في مناهج التدريس، مرجع سابق، ص.75.

الفصل الثالث:

العمارة العسكرية بالمغرب:

إشكالية المفاهيم وقضايا التطور التاريخي

الفصل الثالث : العمارة العسكرية بالمغرب : إشكالية المفاهيم وقضايا التطور التاريخي

تحتم دراسة المكونات المعمارية للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت أو غيرها من العمائر بالمدن والبوادي المغربية عبر التاريخ، على الباحث في مثل هذه الموضوعات تقديم تعريف مفصل عنها لإدراك معانيها ودلالاتها، وكذا توظيفها وفق سياقها التاريخي الذي ارتبطت به. وإذا كانت العمارة العسكرية تشتمل على مصطلحات ومفاهيم متعددة تعبر عن مكوناتها ومنشآتها الدفاعية، فإنه من الضروري تفصيل القول عنها للتعريف بها وشرحها، وهو ما يروم هذا الفصل إبرازه من خلال محاولة جرد وتعريف أهم المفاهيم والمصطلحات المعبرة عن العمارة العسكرية والتي يتم تداولها في الاسطوغرافيا المهمة بحقل العمارة الإسلامية، اعتمادا على المعاجم اللغوية مثل لسان العرب، ثم بعد ذلك شرحها تاريخيا وأثرها.

كما يروم هذا الفصل، تقديم نظرة مقتضبة عن تطور التحصينات العسكرية في تاريخ المغرب القديم والوسيط والحديث، وذلك لإبراز دورها في توفير الأمن والحماية للسكان من جهة، ودورها في مواجهة مختلف الفتن والتمردات والثورات التي كانت تواجه السلطة الحاكمة في بعض الفترات التاريخية التي اقترنت في الغالب الأعم خلال العصر الوسيط بمرحلة أفول الدولة، والذي سنركز فيه أكثر على تطور المنشآت الدفاعية لمدينة سجداسة المندسة بحكم ارتباط مجالها بموضع بحثنا. فضلا عن كشف النقاب عن دور هذه التحصينات في صد ومواجهة الأخطار الخارجية والتهديدات التي تعرض لها المغرب منذ الاحتلال الروماني إلى الغزو الإيبيري ووصولاً إلى الفترة الاستعمارية.

المبحث الأول: العمارة العسكرية وإشكالية المفهوم

لعل من أبرز الإشكاليات الكبرى التي تطرحها دراسة التحصينات العسكرية والمنشآت الدفاعية للعمارة الإسلامية، إشكالية تتمثل في توظيف المفهوم الذي يعبر عنها، حيث نجد اختلافا بين الباحثين المشتغلين في حقل العمارة، فبينما يوظف فريق مصطلح العمارة الدفاعية، نجد فريقا آخر يوظف مصطلح العمارة الحربية، بينما فريق ثالث يستخدم مصطلح العمارة العسكرية، وهو ما يطرح إشكالا في هذا الإطار. غير أن ما يوحد بين هؤلاء الباحثين والدارسين هو أنهم يستعملونها للتعبير عن نفس المكونات والمنشآت من أسوار وأبراج وأبواب وقلاع وحصون وخنادق وما يتصل بها.

بداية، يقصد بالعمارة العسكرية تلك التحصينات العسكرية واستحكاماتها الحربية التي أنشأت بالمدينة أو القرية، منها: الأبراج والقلاع والأسوار والخنادق والأربطة والحصون، وذلك لتوفير الأمن بكل أبعاده للسكان، أمن الحياة وأسبابها وأمن الفكر والمعتقد، ولتحقيق السيادة والتفوق والامتداد للسلطة الحاكمة⁽¹⁾.

ومن الملفت للانتباه، أنه إلى عهد قريب كانت دراسة العمران العسكري الإسلامي عامة والعمارة المتعلقة بالتحصينات الأندلسية خاصة، والتي تفاعلت مع العمارة المغربية، من لدن بعض الباحثين ترتبط بالبعد السياسي الذي يعتبر الحصون والقصبات والأسوار مجرد مؤسسات منعزلة عما يجري في المجال من تطورات اقتصادية واجتماعية، دون مقاربتها بزوايا متعددة⁽²⁾.

ويرجع سبب ذلك إلى تأثر مجموعة من الباحثين ببعض الطروحات الاستشراقية لكويتيه (Jean Gautier-Dalché) الذي عبر عن هذا التصور بقوله: "إن الأمراء والحكام يختبئون في حصونهم وقصورهم خوفا من الثورات الداخلية ... وخلقوا أنظمة

1- قمنا بتركيب هذا التعريف اعتمادا على كتاب: محمد الجهني، العمارة الحربية في الجزيرة العربية، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، الطبعة الأولى، 2008، ص. 5. ويبحث محمد رايح فيسة، المنشآت المرابطية في مدينة ندرومة دراسة تاريخية أثرية، رسالة لنيل الماجستير في الآثار، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2005، ص. 135.

2- محمد حناوي، النظام العسكري بالأندلس في عصري الخلافة والطوائف، مرجع سابق، ص. 173.

دفاعية في المدن والأرياف، وتحصنوا وانعزلوا فيها"⁽¹⁾، وهو ما تصدى له مجموعة من الباحثين الذين عملوا على دراسة العمارة العسكرية من زوايا ورؤى متعددة تمتح من العلوم المساعدة للتاريخ والآثار⁽²⁾.

وقبل التدقيق في المفهوم الأكثر تعبيراً عن هذا المعمار الذي عرفته المدن والأرياف عبر التاريخ، فإن الحصون والقلاع والقصبات والأسوار وما إلى ذلك تعتبر أنظمة مادية وأدوات دفاعية لا تقل أهمية عن السلاح نفسه⁽³⁾، يوضح بجلاء اهتمام الشعوب والأمم منذ القديم بتوفير الأمن والاستقرار في حياتها⁽⁴⁾، والذي بدوره لا يمكن لأي مجتمع أن ينمو ويتطور أو ينعم بالحياة والهدوء في حياته، لذلك لا غرو أن تزود المجتمعات البشرية مواطن استقرارها في المدن والقرى بوسائل تضمن لها الحد الأدنى من الأمن والأمان.

وجدير بالإشارة، أن توظيف مصطلح العمارة الدفاعية يجعل هذا النوع من العمارة وكأنها دائماً متعرضة للهجوم مما يحتم عليها صد أي عدوان ومواجهته ومراقبة تحركاته، ومنعه من اقتحام المدينة أو الحصن أو القصر أو غيره، علاوة عن جعل هذه العمارة وكأنها دائماً في حالة مواجهة ومستعدة على الدوام للدفاع، مما يبرز طغيان الهاجس الأمني والدفاعي للسكان.

والواقع أن المجتمع لم يكن دائماً في نزاع مستمر حتى نجعله في حالة من المواجهة، حيث إن المدن أو القصور الواحية كانت فيها حياة داخلية تجعل السكان يعيشون حياة يومية مستقرة، وبالتالي فإن توظيف مصطلح العمارة الدفاعية لدراسة أسوار وأبراج وأبواب القصور الفيلائية لا يعبر عن ماهيتها التي يهدف بحثنا إبرازها، مما جعلنا نستخدم بشكل مركزي في هذه الدراسة مصطلح العمارة العسكرية.

1 -GAUTIER-DALCHE (J), Châteaux et peuplement dans la péninsule ibérique (X-XIII siècle) : Flaran 1. Châteaux et peuplement en Europe occidentale du X^e au XVII^e siècle, Premières journées internationales du centre culturel de l'abbaye de Flaran (Gers), Auch, 1979, p. 94.

2- محمد حناوي، النظام العسكري بالأندلس في عصري الخلافة والطوائف، مرجع سابق، صص. 173-174.

3- م. ن، ص. 173.

4- بوراس يحيى، العمارة الدفاعية في منطقة وادي مزاب، مرجع سابق، ص. 30.

وأما توظيف مصطلح العمارة الحربية، فإنه يعبر عن استفحال الحروب كما هو حال المعمار المغربي في بعض الفترات التاريخية زمن الحكم المرابطي⁽¹⁾ والمريني⁽²⁾ وتعبير عن انتصار لطرف وانكسار لطرف آخر، وكذا عن الصراع من أجل البقاء والسيادة والتفوق⁽³⁾، على نحو يجعل الحروب وكأنها هي التي تساهم في رسم النسيج العمراني للمدن والبادي وتحديد أشكال المعمار بها ووظائفه وهندسته. وهو أمر يتجاوز الواقع التاريخي، نظرا لكون العمارة "وعاء الحضارة"⁽⁴⁾ التي تعكس نظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية والسياسية والعسكرية وتطورها في السلم والحرب⁽⁵⁾، وهو ما يتجلى في استمرار الوظائف الأخرى للمنشآت العسكرية إلى الوقت الراهن رغم ضمور أهمية الدور الدفاعي للقصور الواحية وأسوارها بعد اختراع السلاح الناري.

في هذا المنحى الاستطلاعي، وقصد التدقيق في المصطلح الأكثر تعبيرا عن المنشآت العسكرية بالقصور الفيلالية والأكثر وضوحا لمبانيها، فقد اعتمدنا في هذا البحث منذ بدايته مفهوم العمارة العسكرية، الذي يعبر عن وظائف مختلفة لعمارة القصور الفيلالية العسكرية، والتي تتمثل في تحقيق الأمن والاستقرار من جهة؛ والتعاقد والتعاون داخل القصر من جهة أخرى، علاوة عن توفير الحماية من المخاطر البيئية كشدة الحرارة ورياح الشرقي التي يتسم بها المناخ الصحراوي، وكذا باعتباره فاصلا ما بين الحياة الداخلية لسكانة القصر ومجالهم الحيوي المتمثل في الحقول والبساتين لسهل تافيلالت.

-
- 1- عثمان عثمان اسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، مرجع سابق، ج.2، ص. 115.
 - 2- حميد تيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مرجع سابق، صص. 520-520.
 - 3- محمد الجهيني، العمارة الحربية في الجزيرة العربية، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، الطبعة الأولى، 2008، ص. 5.
 - 4- عفيف البهنسي، فنون العمارة الإسلامية وخصائصها في مناهج التدريس، مرجع سابق، ص. 25.
 - 5- محمد الجهيني، العمارة الحربية في الجزيرة العربية، مرجع سابق، ص. 5.

المبحث الثاني : تعريفات عامة لمكونات العمارة العسكرية

1- الأسوار (Murailles)

السور كل ما يحيط بشيء من بناء أو غيره جمعه أسوار وسيران، والسور بالضم حائط المدينة المشتمل عليها، قال تعالى : "فضرب بينهم بسور له باب"⁽¹⁾، والسور هو الحائط الضخم في العرض والارتفاع، وقد ذكره ابن الرامي في إطار تحصين المستوطن من العدو واللصوص، واعتبره من بين المنشآت الحربية التي تنشأ لهذا الغرض كالدروب والحفير، كما قدم إشارة ضمنية إلى أن هذه الأسوار كان أهالي المستوطن يتعاونون في بنائها على نفقتهم، وكانت النفقة توزع بينهم وفق نظام معين يرتضونه⁽²⁾. وبشكل أعم، فإن الأسوار تعرف بأنها نوع من الجدران الضخمة المحيطة بالبناء لحمايته متخذة كل حاجز ترابي أو خشبي أو حجري يحيط بالمدينة أو القلعة أو يمتد على حدود الدولة⁽³⁾.

وغني عن البيان، إلى أن الأسوار رغم كونها شيدت من منطلق العنف، فإنها ظلت تبهر النفوس وتخلب المناظر، دالة بذلك على ما للخوف من دخل في تركيب الجمال، فضلا عن أنها تعد الرحم الذي ضمن ظروف النشأة للدول، وذراع السلطان إذا نام ورمز من رموز سيادته وهيبته⁽⁴⁾. لذلك لا غرو أن تعتبر متانة الأسوار وقوتها وضخامتها من أهم المعايير التي استند عليها مصنفو الجغرافيا والرحلات للمفاضلة بين المدن⁽⁵⁾.

وتعتبر الأسوار من أهم الإنشاءات المعمارية العسكرية التي ميزت العمران الإسلامي بالمدن أو القصبات والقلاع أو القصور الواحية لتوفير الأمن والحماية للسكان،

1- القرآن الكريم، رواية ورش : سورة الحديد، الآية 13

2- محمد عبد الستار عثمان، الإعلان بأحكام البنين لابن الرامي، دراسة أثرية معمارية، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، الطبعة الأولى، 2002، ص. 193.

3- رزق عاصم (محمد)، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، 2000، صص. 153-154.

4- أحمد التوفيق، مقدمة لقراءة أسوار المدن، ضمن الندوة الوطنية حول أسوار المدن العتيقة بترنيت، م.س، ص. 39.

5- حميد تيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، م.س، ص. 517.

وقد ارتبط تشييدها في بداية الأمر بفترة صدر الإسلام رغم بساطة تخطيطها وشكلها(1). إذ شيدت السلطة الحاكمة أسوارا حول المدن التي تشرف عليها، فكان لهذه الأسوار أبواب تحمل أسماء الجهات الأربع أو أسماء أمكنة، أو أسماء أشخاص، أو أسماء حرف وصنائع وغيرها، كما كانت هذه الأسوار مزودة بشرفات في أعلاها، وبأماكن خاصة للدفاع، عبارة عن ممشى يمكن الجند المدافعين من تأدية عملهم بمستوى عال ويحقق للجند المشاة أو الركبان رؤية أفضل ومرمى أبعد وأوسع، مما جعل السور بهذه المواصفات يشكل خطا دفاعيا- هجوميا متكاملًا في هندسة العمران الإسلامي(2).

2- الأبواب (Portes)

تميزت مداخل الأبنية العامة والقصور في العمارة الإسلامية بضخامتها، والباب في المصطلح الأثري المعماري سواء كان خارجيا أو داخليا، رئيسا أو فرعيا هو الفتحة القائمة في سور المدينة أو الحصن أو في واجهة المسجد والمدرسة والقصر والبيت وغير ذلك مما يغلق عليه مصراع أو مصراعان أو أكثر(3). لذلك تعد الأبواب من العناصر المعمارية الأساسية، فهي وسيلة الاتصال ما بين داخل المباني وخارجها(4).

ويتم التمييز في المباني العسكرية بين الباب ذا المعطف الواحد الذي ظهر بالمغرب والأندلس خلال القرن الخامس الهجري (11م) والأبواب ذات الالتواءات المتعددة التي ظهرت ابتداء من القرن السادس الهجري (12م)، كما يمكن التمييز في وظائف الأبواب العسكرية بين الوظائف العامة التي تقدم مختلف الخدمات وشكلت قاسما مشتركا بين جميع الأبواب، وبين الوظائف العامة التي كانت حكرا على باب من الأبواب بعينها، ومنها ما كان

1- منير اقصابي، العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ، مرجع سابق، ص. 13.

2- بورية رشيد، أسوار المدن الإسلامية في العصر الوسيط، ترجمة عريب مختار، مجلة الجامعة، العدد 18، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1983، ص. 39.

3- رزق عاصم (محمد)، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مرجع سابق، ص. 23.

4- عبد العزيز التوري، مادة باب، ضمن معلمة المغرب، ج3، الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، مطابع سلا، 1991م، ص. 945.

مشاركاً أيضاً⁽¹⁾، غير أن اللافت للانتباه بالنسبة لأبواب القصور الفيلائية هو توفر معظم القصور على باب واحد ذي مصراع أو مصراعين يؤدي الوظائف العامة والخاصة، مما يجعل منه باباً مشتركاً للأنشطة المدنية والعسكرية.

ولاشك أن إيمان الحكام والسلاطين في زيادة التأمين والتحصين لموطن استقرارهم عملوا على تشييد وبناء أبواب خاصة للمدينة تساعد على مبارحتها والهرب منها إذا نشبت ثورة مفاجئة، حيث كانت هذه الأبواب الخاصة الأساس الذي قام عليه انتشار "باب السر" خصوصاً في تلك العصور التي سادتها الفتن والاضطرابات كالعصر المملوكي بمصر. فلم يقتصر إنشاء أبواب السر على القلاع ومراكز السلطة ولكنه ساد قصور وبيوت الأمراء المنتشرة في المدينة⁽²⁾.

وقد استخدمت في زخارف الأبواب جميع العناصر المعمارية الإسلامية وفنونها كقفرات الأقواس الملونة والمتداخلة والفسيفساء والرخام والخزف⁽³⁾ وغيرها من العناصر المعمارية والمواد الصناعية التي احتوت عليها. وتجدر الإشارة إلى أن الأبواب عرفت عدة تسميات كالنسبة إلى حاكم المدينة أو المدينة نفسها، أو إلى ولي صالح، أو إلى الاتجاه الجغرافي الذي تطل عليه، أو إلى اسم القبيلة التي تقطنها، أو الحرفة التي تزاوّل بالقرب منه.

3- البرج (Tour)

تعد الأبراج إحدى العناصر الدفاعية في مجال العمارة والاستحكامات العسكرية، وأحد أهم مكونات العمارة الدفاعية عبر مختلف الأزمنة والعصور، وتحيل على بناء مرتفع في سور المدينة أو القلعة أو الحصن أو الرباط أو القصر، يربط فيه الجند المكلفون بالدفاع عنه، ويشكل عنصراً دفاعياً هاماً في أسوار المدن والقلاع وغيرها⁽⁴⁾. وتنشأ الأبراج في

1- المرجع نفسه، صص. 946-947.

2- محمد عبد الستار عثمان، م.س، ص158.

3- يحيى وزيري، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مكتبة مدبولي للطباعة والنشر، مصر، 1999، ص. 11.

4- رزق عاصم (محمد)، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، م.س، ص. 34.

أركان البناء المحصن وداعمة لأسواره إذا امتدت لمسافة طويلة، وهذا يتفق مع المعنى اللغوي الذي ذكره كل من الجوهري وابن منظور من أن "الأبراج جمع برج، وهي البيوت التي تبنى على نواحي أركان القصر، وبرج الحصن ركنه وربما سمي الحصن به"⁽¹⁾.

ويشكل البرج عنصرا دفاعيا بسور مدينة أو حصن، إذ يعتبر من العناصر المعمارية المكونة للسور، كما يمكن أن يكون منعزلا عنه في شكل بناء مرتفع منه. ويتألف البرج في الغالب الأعم من قسمين؛ قسم أدنى وآخر أعلى تشغله غرفة سطحه مع سور الممشى وتعلو جدرانه العليا شرفات وتزود جدران البرج في الغالب بمنافذ للسهام تنفتح فيه⁽²⁾. وقد أقام المسلمون الأبراج منذ العصور الإسلامية التي أعقبت الفتح الإسلامي، وظلت الأبراج تقوم بوظيفتها الدفاعية والتدعيمية في العمارة الإسلامية إلى أن تغيرت الأفكار الحربية تدريجيا نتيجة تطور المدفعية⁽³⁾ من أسلحة جارحة إلى أسلحة نارية.

وإذا كان للأبراج دور دفاعي ووظيفة حربية، فإن له كذلك وظيفة دعم البناء وتقويته⁽⁴⁾، وهو ما جعل الأبراج تختلف من حيث الشكل وموقع وموضع تشييدها، وهكذا يمكن التمييز فيها بين الأبراج الصغرى الموزعة بصفة منتظمة داخل الأسوار، والأبراج المحصنة من جانبي الأبواب الكبرى والتي يكون حجمها كبير لما تتشكل منه من مساكن وممرات للجند⁽⁵⁾، فضلا عن أبراج المراقبة (Tour de guet) في مواقع خارج المدن⁽⁶⁾ أو القصور الواحية في مواقع منعزلة كنقاط أمامية وجدت ببلاد المغرب منذ القديم⁽⁷⁾.

ومن اللافت للانتباه أن العمارة العسكرية ببلاد المغرب والأندلس قد عرفت جميع أنواع الأبراج التي استخدمت من قبل في الحضارات القديمة، علاوة عن تطويرها وذلك ما

1- محمد عبد الستار عثمان، الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي، دراسة أثرية معمارية، م. س، ص. 143.

2- جمعة أحمد قحة، موسوعة العمارة الإسلامية، دار الملتقى، 1989، ص. 240.

3- بيرتون بيچ، البرج في العمارة الإسلامية الحربية، ترجمة ابراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص. 15.

4- جمال بيلول، المصطلحات المعمارية المدنية، م. س، ص. 23.

5- منير أقصبي، العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ، م. س، ص. 16.

6- م. ن، ص. 16.

7- يحيى بوراس، العمارة الدفاعية في منطقة وادي مزاب، م. س، ص. 46.

يتجلى في ظهور الأبراج البرانية (Albarrana) التي تعتبر أبراجا بارزة عن السور بشكل غير معتاد وترتبط به عبر سور جسر أو دهليز مُقبى ذي طول غير منتظم⁽¹⁾، وترجع هذه الأبراج إلى عصر الموحدين الذين اتخذت في فترة حكمهم للغرب الإسلامي شكلا مربعا أو شكلا مثنيا، والغرض منها يكمن في غلق الطريق أمام الأعداء في أضعف مناطق السور⁽²⁾.

4- حصن (Château)

يقصد بالحصن في المصطلح الأثري المعماري البناء الحصين الذي لا يوصل إلى داخله إلا بقتال، وكان على نوعين : أحدهما عبارة عن بناء منفصل قائم بذاته بني في الثغور الساحلية وطرق القوافل التجارية والمواقع الاستراتيجية الحساسة المتفرقة على حدود الدولة، وأما النوع الثاني فكان عبارة عن بناء متصل على شكل برج في سور مدينة أو قلعة، مما يجعله يشرف على البوابات وأركان السور وأجزاء متفرقة منه⁽³⁾.

وتجدر الإشارة إلى أنه في النوعين معا يشتمل الحصن على أبراج ذات مزاغل لرمي السهام، وعلى بوابات منزلقة وسقاطات لصب المواد الحارقة على المهاجمين، لذلك اعتبر مجموعة من الباحثين في العمارة الإسلامية الحصن أكبر عمائر الاستحكامات الحربية⁽⁴⁾.

لقد عرف الحصن مع مرور التاريخ الإسلام تطورا فأصبح مقرا للحاكم وأعوانه، لذلك أصبح يطلق في الشرق الإسلامي على صروح عسكرية كبرى ذات تخطيط هندسي معقد⁽⁵⁾. حيث إن الحصن من الناحية المعمارية يقسم إلى ثلاثة طوابق وهي : الطابق

1- باسيليو بابون مالدونو، العمارة في الأندلس : عمارة المدن والحصون، ج. 1، م. س، ص. 505.

2- السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986، ص. 162.

3- رزق عاصم (محمد)، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، م. س، ص. 81.

4- م. ن، ص. 81.

5- منير أقصبي، العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ، م. س، ص. 20.

الأرضي الذي يتضمن البئر ومخزن الأسلحة، والطابق الأوسط المخصص لسكنى الحاكم وأعوانه، والطابق العلوي عبارة عن مزاغل وسقاطات لرمي السهام على الأعداء⁽¹⁾.

5- خندق (Fossé)

الخندق (بفتح الخاء وسكون النون) -جمع خنادق- الوادي، وأخدود عميق مستطيل بحفرة ميدان القتال ليتقي به الجنود، وحفير حول أسوار المدن والقلاع والمعسكرات الحربية لحمايتها، وتعويق المهاجمين لها، وقد يكون فارغا من الماء أو مملوء به⁽²⁾. وبتعبير أدق، فالخندق عبارة عن حفرة تتسم بالعمق والطول في ساحة النزال بهدف حماية الجنود.

ولقد اعتمد هذا النوع من التحصينات العسكرية في بلاد الغرب الإسلامي كل من المرابطين والموحدين⁽³⁾، كما شكل الخندق عنصرا دفاعيا اعتمده سكان القصور الصحراوية بواحة تافيلالت أو غيرها لتحقيق الحماية في صراعهم مع القبائل المجاورة المناوئة لهم، وذلك عبر حفره في الغالب أمام السور الأمامي للقصر.

6- رباط (Ribat)

الرباط نوع من الثكنات العسكرية التي كان يربط فيها المجاهدون على حدود الدولة وثغورها لحمايتها من الأعداء⁽⁴⁾ وتحقيقا لقول الله عز وجل : "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا"⁽⁵⁾، وقول عز من قائل : "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم"⁽⁶⁾. وفي التاريخ الإسلامي نجد أن الدول الإسلامية التي تعاقبت على حكمه بالشرق والغرب اعتادت على إنشاء الرباطات على حدودها

1- جمال بيلول، المصطلحات المعمارية المدنية، م. س، صص. 41-42.

2- رزق عاصم (محمد)، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، م. س، ص. 101.

3- جمال بيلول، المصطلحات المعمارية المدنية، م. س، ص. 50.

4- رزق عاصم (محمد)، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، م. س، صص. 115-116.

5- القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية 200.

6- القرآن الكريم، سورة الأنفال، الآية 60.

وثغورها لتكون كل منها بمثابة حصن وبرج مراقبة واتصال ومنارة ومحطة بريد ترسل منها الأخبار العاجلة والإنذارات القادمة من مقر حاضرة الخلافة الإسلامية أوقات الشدة أو تعرض الدولة للخطر(1).

وبالنسبة للرباطات في تاريخ الغرب الإسلامي، فقد ظهرت بشكل واضح بالمغرب الأدنى منذ القرن الثالث الهجري الموافق للقرن التاسع الميلادي، بينما في المغرب الأقصى فإن أقدم رباط به يرجع للقرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي. ويتسم تصميم الرباطات في الغالب بشكله المستطيل المتألف من طابقين ويتم إحاطته بسور به أربعة أبراج ركنية وبمنار في إحدى زواياه(2).

7- قصبة (Casbah)

تعتبر القصبة اصطلاحاً شائعاً في تاريخ المغرب والأندلس، إذ ينطقها الإسبان إلى الزمن الراهن (الكازابا : Alcazaba)، والقصبة تعني القلعة وتعني كذلك المدينة المحصنة بكل وسائل الدفاع والمقاومة، وهو ما يجعل الساهرين على تخطيطها يختارون لها موقعا استراتيجيا يضمن سهولة الدفاع عنها(3)، كما تستعمل كلمة قصبة للدلالة على أشكال معمارية متعددة تتغىي التحصين رغم اختلافها في بعض التفاصيل، تشكل القصبة ملجأ آمناً لممثل المخزن في حالة الهجوم طارئاً أو ثورة محلية أو تمرد ضده(4).

ومن نافلة القول، أن القصبة في المغرب تقابلها في المشرق كلمة قلعة(5)، حيث كانت تزود القصبة بأسوار داخلية تحيط بها أسوار أخرى تتخللها أبواب محصنة بوسائل دفاعية متنوعة كما هو الحال في قصبات تونس والجزائر وتلمسان وفاس وغيرها من

1- رزق عاصم (محمد)، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، م. س، صص. 115-116.

2- جمال بيلول، المصطلحات المعمارية المدنية، م. س، ص. 56.

3- عثمان عثمان اسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية، ج 5، م. س، ص. 192.

4- مينة المغاري، مادة قصبة، ضمن معلمة المغرب، ج 19، الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، مطابع سلا، 1425هـ/2004، ص. 6633.

5- نفسه، ص. 6633.

القصبات⁽¹⁾. وقد عرفت القسبة تطورا في تاريخ المغرب، حيث اقترنت خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالدور الكبرى والبنائات التي كانت في ملكية وحوزة القواد الكبار⁽²⁾. وأما في الفترة الاستعمارية بشمال إفريقيا، فإن المستعمر الفرنسي والاسباني أطلق قسبة على بعض المدن العتيقة بأكملها لتمييزها عن المدن الجديدة كطنجة والجزائر العاصمة، فضلا عن استعمالها للدلالة عن المطامير البدوية الجماعية المحصنة بمساكن الأطلس المغربي، وذلك تعرييا منهم للكلمتين الأمازيغيتين "إكودار" و"إغرم"⁽³⁾.

8- قلعة (Citadelle, Forteresse)

القلعة طراز من الحصون انتشر استخدامه في العصور الوسطى لحماية المدن من أي عدوان داخلي أو خارجي، وتعتبر القلعة التي بناها وليم عم الملك وليم الفاتح في نورماندي أول قلعة عرفت العمارة الحربية، ثم بعده انتقلت إلى العمارة الإسلامية المبكرة والوسيطة⁽⁴⁾، وتتكون القلعة من الناحية المعمارية من الأسوار والأبراج وأماكن المراقبة.

وبالرجوع لتاريخ الشرق الإسلامي، نجد أن تأمين المدينة وتحصينها ارتبط بشكل وثيق في بعض المدن بالحاجة إلى إنشاء نقاط دفاعية متينة، سواء كانت هذه النقاط للحراسة أو الاستطلاع، أو إنشاء قلاع في مواضع حصينة تمكن من الدفاع عن المدن والطرق الموصلة إليها. بينما في بلاد الغرب الإسلامي نجد أن بعض القلاع تحولت إلى مدن كاملة من بعد تشييدها كما هو حال قلعة بني حماد التي اتخذت عاصمة لبني حماد بالمغرب الأوسط خلال القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي⁽⁵⁾. بقي أن نشير إلى أن معظم القلاع كانت تشيد في المناطق المرتفعة حتى تحقق الأهداف التي شيدت من أجلها، والمتمثلة في صعوبة الوصول إليها واستحالة نصب المنجنيق عليها⁽⁶⁾.

1- عثمان عثمان اسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية، ج 5، م. س، ص. 192

2- مينة المغاري، مادة قسبة، ضمن معلمة المغرب، ج 19، م. س، ص. 6633.

3- منير أقصبي، العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ، م. س، ص. 20.

4- رزق عاصم (محمد)، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، م. س، ص. 241.

5- منير أقصبي، العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ، م. س، ص. 20.

6- جمال بيلول، المصطلحات المعمارية المدنية، م. س، ص. 98.

خلاصة القول إن عملية تعريف ودراسة المصطلحات والمفاهيم المرتبطة بالتحصينات العسكرية والنظام الدفاعي بالنسبة لموضوع البحث، يروم إبراز كيف جسد البناء الواحي بقصور تافيلالت المعمار العسكري في الباب الثاني والثالث من البحث، وذلك انطلاقاً من تجاربه الميدانية وإبداعاته وابتكاراته في بيئته المحلية، بشكل يتوافق مع ثقافة الإنسان الواحي وحاجاته ومنسجماً مع عاداته وتقاليده وذهنيته وخصوصيته، على نحو يجعل هندسة العمارة العسكرية متلائمة مع الضرورات المناخية وملبية لمتطلبات الإنسان الذي يعيش في هذه البيئة الجغرافية المتسمة بشطف العيش، وقائمة على مبدأ تحقيق الأمن والسلامة، وهو ما يتجسد في أسوار القصور الداخلية والخارجية؛ المنيعة؛ وأبراجها الركنية والبرّانية، وأبوابها المحصنة، وخنادق أسوارها الأمامية في بعض القصور.

المبحث الثالث : تطور العمارة العسكرية في تاريخ المغرب

1- الفترة القديمة

شكل الأمن والأمان قيمة أساسية عبر التاريخ؛ وهو ما أدركه الإنسان منذ القديم، إذ بينت التحريات الميدانية والتنقيبات الأثرية في كثير من مناطق العالم بأن إنسان ما قبل التاريخ لم يكن يجهل الحاجز الوقائي الذي أحاط به تجمعاته السكنية(1). وفيما يتعلق بالمجال الدفاعي للمغرب وتحصيناته العسكرية خلال الفترة القديمة، فإن تاريخ موريطانيا قبل السيطرة الرومانية تميز بوجود مراكز عمرانية أشارت إليها المصادر الأدبية التي أرخت للمرحلة، وتتمثل هذه المراكز في مدن الساحل المتوسطي كتامودة، ومدن المحيط حتى سلا مثل لكسوس، فضلاً عن مدن المحيط جنوب سلا مثل موغادور، ومدن الداخل شمال خط ويلي- سلا كبناسة، ثم أخيراً مدن الداخل جنوب خط ويلي- سلا التي من بين

1- عبد العزيز الثوري، مداخلة تمهيدية، ضمن الندوة الوطنية حول أسوار المدن العتيقة بطنزيت، م. س، ص. 24

مدنها توكلوسيدة(1)، وقد أكدت الأبحاث الأركيولوجية واللقى الأثرية التي تم العثور عليها في عملية الحفريات توفر هذه المراكز العمرانية على أحزمة دفاعية. كما أن مملكة الموريين قبل السيطرة الرومانية في المغرب القديم اعتمدت التحصينات الطبيعية من خلال احتضان نفوذها للجبال المغربية في الريف والأطلس(2).

ومن الملفت للانتباه أن تطور الجهاز الدفاعي والتنظيم العسكري ببلاد المغرب القديم يتضح بشكل واضح خلال الوجود الروماني، والذي تميز بتشديد الجهاز الدفاعي "الليمس" للفصل بين العالم الروماني "المتحضر" والعالم "البربري" "المتوحش"(3).

رغم ما تطرحه حدود "الليمس" من إشكالية بين الباحثين الأركيولوجيين بالمغرب إلى يومنا هذا، من قبيل ماهي حدوده بموريطانيا الطنجية؟ وهل كان لليمس موريطانيا الطنجية ارتباط واتصال بليمس موريطانيا القيصرية؟ غير أن ما يهمنا هنا هو أن هذا الجهاز الدفاعي باعتباره تنظيما ماديا يشمل مجموعة من العوائق الطبيعية كالأودية والتلال، فإنه في حالة انعدام تلك المعوقات يتم تشييد متاريس صناعية كالخندق الذي تتخلله الأبراج والحصون المتفاوتة الأهمية والتي تربط بينها الطرق(4)، مما ساهم في تعدد المواقع العسكرية وأبراج المراقبة التي تبرز تطورها بعد السيطرة الرومانية على بلاد المغرب القديم.

2- الفترة الوسيطة

تميزت التحصينات العسكرية المغربية خلال العصر الوسيط بتشديد عدد كبير من المنشآت الدفاعية والتحصينات العسكرية من لدن الدولة الإدريسية والمرابطية والموحدية

1- محمد مجدوب، مختصر تاريخ موريطانيا قبل السيطرة الرومانية، ضمن مجلة بحوث، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، العدد السادس، 1995، صص. 155-156.

2- محمد مجدوب، جبال الأطلس قبل التوسع الروماني، ضمن ندوة الجبل في تاريخ المغرب، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس فاس، 1994، ص. 33.

3- مصطفى اعشي، مادة اليمس، ضمن معلمة المغرب، ج 20، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، نشر مطابع سلا، 1425هـ/2004م، ص. 6912.

4- م. ن، ص. 6913.

والمرينية التي تعاقبت على حكم المغرب خلال هذه الفترة. وهكذا أقام الأدارسة بعد بناء مدينة فاس وإحاطتها بسور تتخلله عدة أبواب، تم تشييد عدة مدن وتحصينات وقلاع من بينها مدينة البصرة التي كانت "تحيط بها أسوار مبنية من أحجار وأجر، تفتحها عشرة أبواب"(1)، إضافة إلى بناء قلعة حجر النسر الواقعة بالشمال الغربي لمدينة العرائش، والتي تم تأسيسها من لدن ابراهيم بن محمد بن القاسم بن ادريس سنة 317 هـ/929م(2).

عرفت العمارة العسكرية خلال فترة حكم الدولة المرابطية تطورا واضحا تمثل في تشييد مجموعة من الأسوار والحصون والقلاع في مختلف المناطق التي بسطت السيطرة عليها، غير أن أهم ما اتسم به المعمار العسكري المرابطي هو بناء عدة قلاع كبرى في مواضع جبلية مثل قلعة أمركو التي تم تشييدها في الشمال الشرقي لمدينة فاس، وتعد من أروع أمثلة العمارة العسكرية المرابطية(3)، علاوة عن بناء قلعة تاسغيموت بالجنوب الشرقي لمدينة مراكش في عهد السلطان علي بن يوسف بن تاشفين (500-537 هـ/ 1106-1143م)، وقلعة بني تاودا لمراقبة سكان الجبال بالمنطقة الريفية، ثم أخيرا بناء قصبة النصراني شرق جبل زرهون (شمال مدينة مكناس)(4).

وأما العمارة العسكرية زمن حكم الموحدين للغرب الإسلامي، فقد عرف المغرب الوسيط خلالها ازدهارا وتطورا في هندسة وبناء التحصينات العسكرية والمنشآت الدفاعية، وذلك ما يتجلى في بناء بعض الأسوار والأبراج والقصبات والرباطات، فضلا عن استعمال مواد بناء متنوعة في تشييدها تتكون من الحجارة الضخمة غير المنجورة والحجارة المسطحة والطابية، ومن بين المعالم المعمارية الموحدية أسوار تينمل التي ارتبط تالريخها بابن تومرت الزعيم الروحي للدولة، وأسوار تازة وقصبة مراكش(5). ومن أهم معالم تميز وانفراد العمارة العسكرية الموحدية في هذه الفترة تشييد الأبراج البرانية التي اتخذت شكلا

1- أبو عبيد الله البكري، المسالك والممالك، ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص. 112.

2- منير أقصبي، العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ، م.س، ص. 23.

3- عثمان عثمان اسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، مرجع سابق، ج.2، ص. 121.

4- المرجع نفسه، ج.2، ص. 122.

5- منير أقصبي، العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ، م.س، ص. 26.

مربعاً أو مثمناً في عهدهم⁽¹⁾. كما أن الموحدين تميزوا في المعمار المرتبط بتشييد الأبواب، إذ تعد الأبواب الموحدية "أقدم ما وصل إلينا كاملة متكاملة والنموذج الذي ذهب على دأبه من جاء بعدهم"⁽²⁾، مع بعض التغييرات المتفاوتة في الفترة السعدية والعلوية.

وفيما يتعلق بالعمارة العسكرية المغربية في الفترة المرينية، فقد تميزت بالاعتماد على الإرث المرابطي والموحدي وتطويره، مما جعل الفن المعماري المريني في معظمه فناً انتقائياً⁽³⁾، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد نهجت الدولة المرينية سياسة التسوير والتحصين بالمدن، كما أصبحت القلاع والحصون من أهم مظاهر العمران البدوي⁽⁴⁾، ومن بين أهم المعالم المعمارية الدفاعية في العصر المريني بالمغرب الأقصى بناء أسوار مدينة سلا وأسوار مدينة فاس الجديد بالطابية.

3- الفترة الحديثة

اهتمت الدولة السعدية بالعمارة العسكرية وما يرتبط بها من منشآت حربية منذ عهد السلطان محمد الشيخ السعدي (1552-1555م) الذي أمر ببناء مجموعة من القصبات بلغ عددها ثلاثين قسبة، من بينها قسبة تامدارت بجوار باب فتوح وقسبة أكادير⁽⁵⁾. وبما أن العهد السعدي تميز بظهور السلاح الناري، والذي يفرض استعمال وتوظيف تقنيات دفاعية جديدة في الهندسة المعمارية الحربية، فقد بنى السعديون تحصينات عسكرية جديدة تواكب تطور الأسلحة النارية، وهكذا نجد المنصور الذهبي (1578-1603م) شيد المعقلين الكبيرين اللذين أنشأ بفاس، أحدهما خارج "باب عجيسة" المعروف بباب الكيسة، والثاني قبالة باب فتوح، ويعرف هذا المعقلان عند العامة بالباستيون⁽⁶⁾.

1- السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986، ص. 162.

2- عبد العزيز التوري، مادة باب، ضمن معلمة المغرب، ج 3، م.س، صص. 946.

3- أحمد صالح الطاهري، مادة العمارة على العهد المريني، معلمة المغرب، ج 18، الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، مطابع سلا، 1424هـ/2003.

4- حميد تيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مرجع سابق، صص. 520-520.

5- منير أقصبي، العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ، م.س، ص. 27.

6- عثمان عثمان اسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، م.س، ج 5، ص. 58.

وتجدر الإشارة إلى أن العهد السعودي تميز بانتشار المنشآت الدفاعية في جميع المناطق التي كانوا يحكمونها خاصة بعد حملة المنصور الذهبي على بلاد السودان الغربي، والتي ساهمت في انتشار أساليب عمارتهم بقلب إفريقيا. ومما اتسمت به العمارة العسكرية السعودية هو اعتماد الهندسة الباستيونية، والتي تجلت على سبيل المثال في برج تازة المعروف بالباستيون ذي الشكل المربع، والذي يبلغ طول كل ضلع منه 26 مترا(1). وفيما يخص مواد بناء الأبراج خلال هذه الفترة فقد بلغت درجة كبيرة من الإتقان، إذ تجلت في الطابية والحجر المنحوت في الزوايا واستغلال الآجر في بناء بعض القباب(2).

وارتبطت العمارة العسكرية في فترة العلويين الأوائل وإلى حدود الحماية الفرنسية والاسبانية على المغرب بشكل واضح بالسلطان المولى اسماعيل، الذي اتخذ مدينة مكناس عاصمة لملكه وشيد بها القسبة الاسماعيلية والتي اتسمت بشساعة مساحتها، حيث بلغ طول السور المحيط بها 25 كلم، وترتبط بضواحيها الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية مجموعة من الأبواب السامقة المقبوة تعلوها أبراج معززة بالمدافع والمهاريس(3). ويعد باب منصور المتكون من ثلاث وحدات أساسية متوازنة من بين المعالم العمرانية البارزة للقسبة الاسماعيلية من جهة، وكذا من بين المعالم التي توضح سياسة العلويين في الحفاظ على الأساليب المعمارية التقليدية مع تطويرها(4).

كما لجأ المولى اسماعيل إلى بناء ستة وسبعين قسبة في مختلف مناطق المغرب امتدت من شرق المغرب إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه، وقد تكونت هذه القصبات من أبراج وأسوار شيدت بالطابية، علاوة عن مرافق تضمن مساكن الجند والمساجد والمخازن. وأما الوظائف التي اضطلعت بها هذه القصبات، فارتبطت بوظائف أمنية وسياسية كمرقبة

1- م. ن، ج.5، ص. 58.

2- منير أقصبي، العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ، م. س، ص. 28.

3- رقية بلمقدم، مادة القسبة الإسماعيلية، ج 20، م. س، 6634.

4- عثمان عثمان اسماعيل، م. س، ج.5، صص 188-189.

القبائل المتمردة والثائرة وتأمين الطرق التجارية وسلامة الانتقال بين المناطق المختلفة(1)، وكذا مراقبة الحدود، ووظائف اقتصادية كالتخزين وغيره.

وغني عن البيان، أن السلاطين العلويين الذين تعاقبوا على حكم المغرب قد شيّدوا معالم معمارية عسكرية متعددة لا تقل شأنًا عن العمران الدفاعي الإسماعيلي، ومن أبرز هؤلاء السلاطين الذي شيّدوا تحصينات عسكرية السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790م) الذي اهتم ببناء العديد من المنشآت الدفاعية كتجديد بناء الأسوار بمعظم المدن المغربية الداخلية والشمالية مثل طنجة، فضلا عن بناء مدينة الصويرة وتحصينها عبر الاستعانة بالمهندس الفرنسي تيودور كورنو (Théodore Cornut) (2).

كما استمر البناء في عهد السلاطين الذين تعاقبوا على حكم الدولة العلوية بعد وفاة السلطان محمد الثالث، حيث عرف المغرب إصلاح أو بناء مجموعة من المعالم المعمارية العسكرية في عهد السلطانين المولى عبد الرحمان بن هشام و محمد الرابع، والتي من بينها القصور والقصبات بواحة تافيلالت، وهو ما سنعمل على إبرازه في الباب الثاني من هذا البحث.

خلاصة القول بعد هذه الإحاطة المقتضبة بالعمارة العسكرية المغربية وتطورها من التاريخ القديم إلى التاريخ الحديث، يتبين أن المغرب قد عرف بناء وتشيد معظم مكونات التحصينات الدفاعية والمعالم المعمارية العسكرية من أبواب وأسوار وأبراج وقصبات وغيرها. ويمكن القاسم المشترك بينها في التحصين والدفاع وحفظ الأمن وتحقيق الأمان للسكان والسلطة أوقات الحرب والسلام رغم اختلافها في الزمان وتطورها من حيث تقنيات التشييد ومواد البناء والوظيفة. وأما بالنسبة لموضوع بحثنا، فتجدر الإشارة إلى أن الفترة العلوية تميزت بتشيد السلطان المولى اسماعيل وغيره من سلاطين الدولة مجموعة من القصور والقصبات بمنطقة تافيلالت سنتطرق إليها بتفصيل في الفصول الموالية من هذا البحث.

1- م. ن، ص. 192.

2- نعيمة الحضري، كورنو تيودور، معلمة المغرب، ج 20، م. س، ص. 6841.

الباب الثاني:

قصور تافيلالت: إشكالية التأسيس

والأبعاد العسكرية والوظيفية

تقديم :

يحتل موضوع " قصور تافيلالت : إشكالية التأسيس والأبعاد العسكرية والوظيفية"؛ الذي يعتبر مناط الباب الثاني من هذا البحث؛ منزلة كبرى ويحوز أهمية قصوى في إطار التاريخ السياسي وأشكال التدافع والصراع بين القبائل الفيلالية التي استوطنت المنطقة وأبدعت أشكالاً من الوجود الإنساني والثقافي والحضاري والعمراني بها. إضافة إلى أن البحث في هذا الموضوع هو في الصميم بحث في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والذهنية لسكان قصور تافيلالت، ومدى إبداعهم لأشكال معمارية من أجل الحفاظ على البقاء والاستمرارية. لذلك فإنه غدا من الضروري في الزمن الراهن إخراج هذا النوع من العمارة من دائرة النسيان والحفر في ذاكرته وتسليط الضوء على هذا النمط المعماري والتعرف على تقنياته ومواصفاته الهندسية والمعمارية التي جعلت كل عنصر من عناصر العمارة العسكرية لا يرسو في مكانه وموضعه كما اتفق، بل بناء على متطلب خاص أو عام للسكان الفيلالية.

وفي هذا الإطار، فقد كرسنا الفصل الرابع من هذا الباب للحديث عن قصور تافيلالت وإشكالية التأسيس وامتدادها التاريخي من خلال إبراز موقع تافيلالت الجغرافي وتاريخها، في أفق امتلاك تصور معرفي رصين لأسباب وحيثيات وظروف نشأة وتكون هذا الصنف من العمارة في جنوب المغرب الشرقي.

ويممنا في الفصل الخامس صوب الإحاطة بمميزات القصور الفيلالية ودور البعد الأمني والسياسي في بلورتها، فضلاً عن تسليط الضوء على مستلزمات إنشاء القصور الفيلالية والوظائف التي قامت بها منذ ظهورها، حيث ركزنا على المهام والأدوار الدفاعية لمكونات عمارتها العسكرية المتمثلة في الأسوار والأبراج والأبواب وغيرها. وأما الفصل السادس والأخير في هذا الباب فكان مدار الكلام فيه عن القصور الفيلالية وإشكالية تصنيفها الوظيفي والمورفولوجي مع تقديم محاولة في التصنيف العسكري.

الفصل الرابع :

قصور تافيلالت : إشكالية التأسيس والامتداد التاريخي

الفصل الرابع : قصور تافيلالت وإشكالية التأسيس وتطورها التاريخي

يتوخى هذا الفصل المعنون بقصور تافيلالت وإشكالية التأسيس وتطورها التاريخي في المبحث الأول تتبع موقع تافيلالت والإشكالية التي يطرحها على مستوى حدوده الجغرافية، فضلا عن محاولة تأصيل مصطلح تافيلالت من خلال تتبع طوبونيمي للدلالات التي يحيل عليها اسم تافيلالت اللغوية والتاريخية مع ترجيح الطرح الذي يقر بالأصل الأمازيغي لطوبونيمية تافيلالت، دون إغفال التطور التاريخي لهذه المنطقة والإشعاع الحضاري الذي اضطلعت به في تاريخ المغرب عبر مختلف الفترات.

وأما المبحث الثاني، فيميط اللثام عن مفهوم القصر ودلالاته في المجال الجغرافي والعمراني والاجتماعي، فضلا عن تتبع الأصول المعمارية للقصور الفيلالية، انطلاقا من البحث في أصل هندستها المعمارية وجذورها التاريخية بمنطقة تافيلالت، وذلك من خلال تتبع مختلف الإشارات والنتف التي حفلت بها المصادر التاريخية، وكذا البحوث والدراسات الأكاديمية التي اهتمت بالمنطقة، علاوة عن المعاينة الميدانية لمعظم هذه القصور الواحية.

ويعالج المبحث الثالث من هذا البحث، إشكالية تأسيس قصور تافيلالت وتطورها التاريخي بمقاربة كرونولوجية، ومحاولة النبش في تاريخ تشييد قصور منطقة تافيلالت الذي يعد من الأمور التي يصعب الحسم في تحديد تاريخ دقيق لبداية ظهورها بالمنطقة في ظل غياب الأبحاث الأركيولوجية للمكونات المعمارية لهذه القصور. فهل كان ذلك قبل تشييد مدينة سجداسة؟ أم بعد تشييدها؟ أم بعد اندراسها؟

المبحث الأول: تافيلالت : الموقع والدلالة الطوبوغرافية والتطور التاريخي

1 - موقع تافيلالت وحدودها الجغرافية

يطرح موقع تافيلالت وحدودها الجغرافية في حقل الدراسات التاريخية والعمرانية إشكالا كبيرا للباحثين الذين تناولوا تاريخها المونوغرافي والمعماري بالدراسة والتحليل، نتيجة الالتباس الحاصل بين الموقع التاريخي والجغرافي للمنطقة من جهة، وبسبب الخلط بين مفهومي سجل ماسة وتافيلالت من حيث الامتداد والانتشار بالمنطقة، وكذا من حيث الأسبقية الزمنية(1).

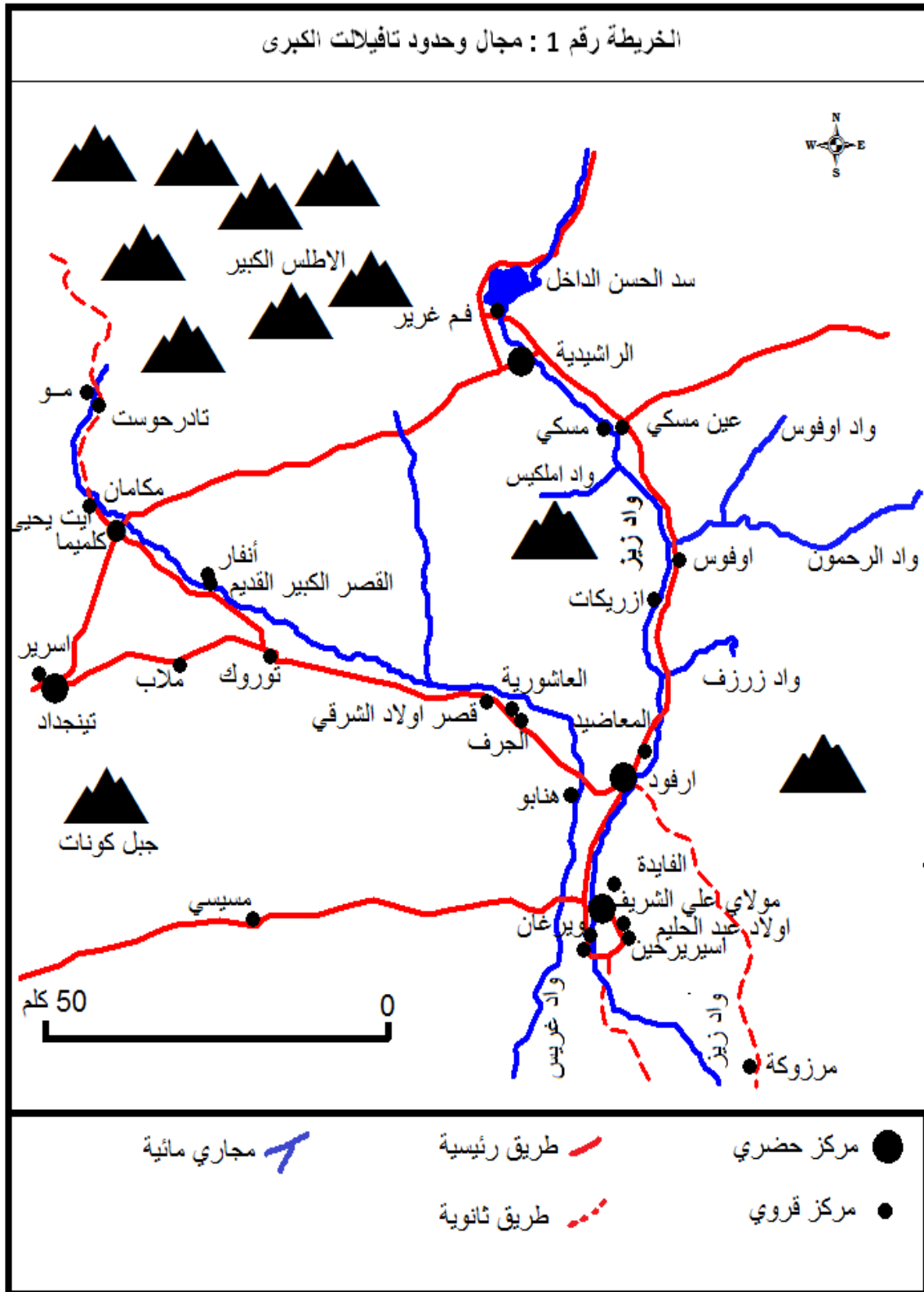
وفي هذا السياق، يمكن التمييز في موقع تافيلالت وحدودها الجغرافية بين تافيلالت الكبرى ذات الحدود الواسعة والتي يحدها شرقا حمادة كير وغربا الأطلس الصغير وجنوبا حمادة كم كم وشمالا الأطلس الكبير الشرقي، وهي بذلك تشمل السفوح الجنوبية للأطلس الكبير الشرقي الذي يتألف من الأحواض النهرية لكل من زيز وغريس وكير وبعض الواحات المتناثرة والممتدة داخل المنطقة(2) التي تشكل سهل تافيلالت، مما يجعل واحة تافيلالت بهذه الحدود أوسع الواحات الموجودة في الصحراء(3)، وكذا مرادفة على المستوى الإداري لإقليم الراشدية، وهذه الحدود تتماشى مع الإشعاع التاريخي الذي مارسه تافيلالت عبر مختلف فترات التاريخ(4)، وجعلها نقطة وصل بين العالم المتوسطي والعالم الإفريقي(5).

1- عبد الله استيتو، دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والمخزن والمستعمر، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2013، ص. 27.

2- جرير محمد، بعض المظاهر من تحولات العالم القروي بواحات تافيلالت الكبرى، سلسلة ندوات، ندوة المجال والمجتمع بالواحات المغربية، منشورات جامعة المولى اسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، عدد 6، 1993، ص. 51.

3- ملين سعيد، القصور والقصبات المتاخمة للصحراء، ترجمة السائح عبد السلام، وزارة السكنى للملكة المغربية، الرباط، 1992، ص. 67.

4- عبد الله استيتو، دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والمخزن والمستعمر، م. س، ص. 48.



المصدر: ملين سعيد، القصور والقصبات المتاخمة للصحراء، مرجع سابق، ص. 54 (بتصرف)

وبين تافيلالت الصغرى ذات الحدود الضيقة والمحصورة، والتي تقع من الناحية الجغرافية بين خطي العرض 17° و 37° شمال خط الاستواء وبين خطي الطول 16° و 4° شرق خط غرينيتش (Greenwich) على ارتفاع يصل إلى حوالي 765 مترا فوق سطح البحر وبطول يبلغ حوالي 20 كلم وعرض يتراوح ما بين 7 و 9 كلم ومساحة إجمالية تتراوح ما بين 150 و 170 كلم مربع، حيث يحدها شمالا واحة أولاد الزهراء وأرفود بينما يحدها جنوبا جبل أدرار وبومعيز، وأما شرقا فيحدها واد أمربوح وغربا واد غريس(1).

وبالنسبة لمجال دراستنا في هذا البحث، فإنه يشمل دراسة العمارة العسكرية من خلال نماذج بقصور جماعة عرب الصباح زيز التي تضم قصور المعاضيد وقصور تيزيمي، والقصور الواحية لتافيلالت "الصغرى" التي تتألف على المستوى الإداري حاليا من بلدية مولاي علي الشريف، وجماعة بني أمحمد سجلماصة، وجماعة السفالات، وجماعة الريصاني، وتكون هذه الجماعات الثلاث قيادة الريصاني. والجدول التالي يقدم بعض المؤشرات الديموغرافية عن مجال الدراسة في الوقت الحالي :

جدول رقم 1 : مؤشرات ديموغرافية حول مجال الدراسة ما بين 1994 و 2004

2004				1994				الجماعة
عدد الأسر	المجموع	الأجانب	المغاربة	عدد الأسر	المجموع	الأجانب	المغاربة	
2578	18332	01	18331	2436	18522	01	18521	جماعة عرب صباح زيز
2282	16709	00	16709	2713	22600	01	22599	جماعة بني امحمد سجلماصة
727	5575	03	5572	598	4673	01	4672	جماعة الريصاني
2147	16163	00	16163	2549	22258	00	22258	جماعة السفالات
3251	20469	01	20468	2799	18450	01	18449	بلدية مولاي علي الشريف

المصدر : موناوغرافية بلدية مولاي علي الشريف، 2009، صص. 16-17

1- لحسن تاوشخت، واحة تافيلالت بين الأمس واليوم، سلسلة الندوات 6، ندوة المجال والمجتمع بالواحات المغربية، م. س، 1993، ص. 8.

ما يمكن ملاحظته من خلال الجدول تراجع نسبة السكان بمنطقة تافيلالت، نتيجة الهجرة الداخلية أساسا بسبب عدة عوامل طبيعية تتمثل في توالي سنوات الجفاف وتنامي ظاهرة التصحر بفعل المناخ الصحراوي وشبه الصحراوي الذي يسود بالمنطقة.

ويتميز مجال الدراسة باختلاف توزيع القصور التي تسود بكل منطقة منه، وكذا بتنوع تركيبته السكانية وتعدد أصولها التي كانت مقسمة تاريخيا إلى مجموعة من المشيخات، والتي تنتسب إلى شيخ ويقصد بها "الجماعة" التي كانت تشرف على تسيير شؤون القصر ومجاله الحيوي (الحقول والبساتين وسواقي المياه) عبر السهر على تطبيق الأحكام العرفية والقوانين التي توطر الشأن العام للقصر في مختلف المجالات، والجدول التالي يوضح مشيخات وعدد قصور مجال الدراسة.

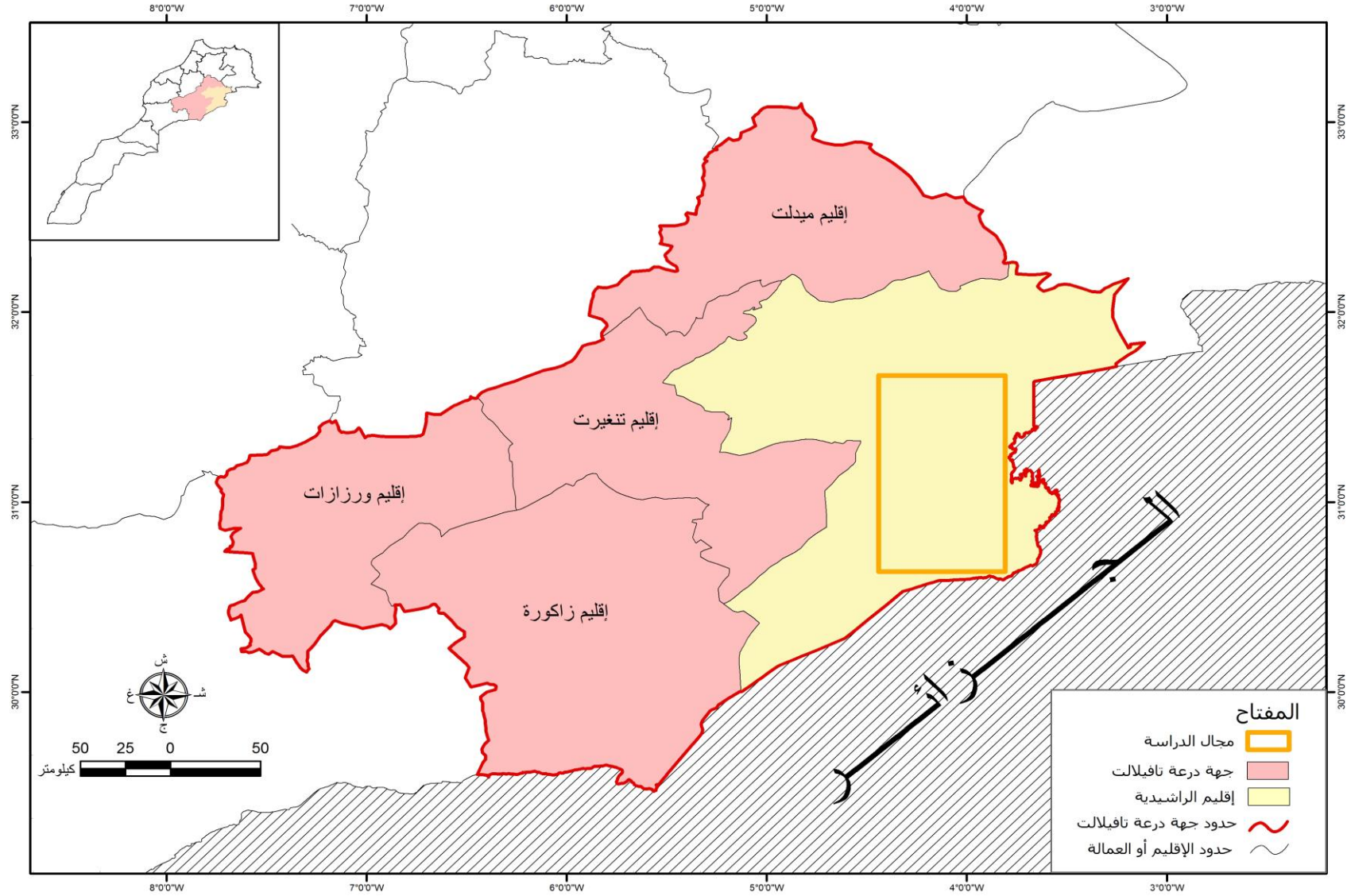
جدول رقم 2 : مشيخات وعدد قصور جماعات مجال الدراسة

الجماعات	المشيخات	عدد القصور
جماعة بني احمد سجلماصة	مشيخة وادي إفلي (وادي الشرفاء)- مشيخة تانجيوت- مشيخة الغرفة- مشيخة بني احمد	93
جماعة الريصاني	مشيخة سيدي بوبكريات- مشيخة مزكيدة- مشيخة هارون	12
جماعة السفالات	مشيخة الثلث الفوقاني (الأعلى)- مشيخة الثلث الوسطاني (الأوسط)- الثلث التحتاني (الأسفل)- الزوايا	40
جماعة عرب الصباح زيز	مشيخات تيزيمي : أولاد بن عيسى الفوقانية- أولاد بن عيسى التحتانية- أولاد معطلة الفوقانية- أولاد معطلة التحتانية	تاريخيا 40 قصر، وعدد القصور التي يقطنها السكان 23 قصر حاليا
	مشيخات المعاضيد : المكابر- العبادلة- التغيان	05

المصدر : - عبد الله استيتو، دور تافيلالت في تنظيم العلاقات، م. س، صص. 93-94

-مؤنوغرافية جماعة عرب الصباح زيز، 2008، المصلحة التقنية لبلدية مولاي علي الشريف، 1996.

الخريطة رقم 2 : حدود جماعات إقليم الراشيدية وتحديد مجال الدراسة



عمل شخصي : 2018

2- طوبونيمية تافيلالت

نهدف من خلال هذا المبحث محاولة الوصول إلى الدلالة الطوبونيمية لتسمية "تافيلالت" عبر تأصيل وتأثيل الاسم انطلاقاً من النظر في رسم الكلمة/التسمية وأصولها الاشتقاقية من الناحية اللغوية كما وردت في معاجم اللغة وقواميسها أولاً، ومن الناحية الدلالية ذات الحمولة التاريخية والثقافية والاجتماعية حتى نتمكن من تجميع قدر من الحجج المقنعة التي بمقدورها أن تميّط اللثام وتكشف معاني دلالات تسمية "تافيلالت" وتجعلنا نرجح تصوراً على آخر، وذلك لكون الأسماء الجغرافية لا توضع لغواً، وإنما تترجم تفاعل الإنسان مع محيطه ليصبح الاسم مجرد رمز لامتلاك المسمى(1).

بتفحص المصنفات الوسيطية والحديثة والوثائق المخزنية والمحلية التي أرخت للمنطقة ووردت فيها تسمية "تافيلالت" نجد أن أقدم إشارة تاريخية تتضمن هذه التسمية ترد عند فقيه الخوارج ابن سلام في "رسالة التوحيد" التي اكتشفت ضمن بقايا خزائن الزوايا في الجنوب المغربي والجزائري(2)، الذي استعمل تسمية تافيلالت للدلالة على الواحة التي تنتشر جنوب شرق المغرب، بينما وظف تسمية سجلماصة للتعبير عن المدينة التي تحتضنها تافيلالت. غير أن ما يهمنا في هذا المبحث هو الأصل اللغوي لتسمية "تافيلالت" والمعنى الإيتمولوجي لها، والذي يختلف الباحثون في أصوله اللغوية وحجم المقصود به جغرافياً.

وفي هذا الإطار، نجد من بين الآراء التي سعت إلى الحفر في رسم تسمية تافيلالت وجذرها اللغوي، فريق من الباحثين الذي يعتبر الكلمة ذات أصل عربي استناداً إلى لفظة "فيلال" التي تعرف بها إحدى مناطق شبه الجزيرة العربية(3)، وأن تداول كلمة تافيلالت واستعمالها ارتبط بدخول القبائل الهلالية إلى المغرب بعد استقرار عرب الصباح بالمعاضيد

1- إبراهيم بوطالب، الصحراء في تاريخ المغرب، مجلة دار النيابة، العدد السابع، السنة 2، صيف 1985، ص. 32.

2- سعيد واحي، سجلماصة/ تافيلالت من اندراس المدينة إلى واحة القصور 796هـ/1393م إلى أواخر القرن 11هـ/17م (دراسة تاريخية، اجتماعية، ثقافية)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرز، فاس، السنة الجامعية 1426-1427هـ/2005-2006، ص. 42.

3 - Gendre (J), Tafilalet, R.G.M, 3-4ème, Trimestre, Mai-Août, 1992, p. 52.

بإقليم سجلماسة وتحديد المعاضيد وتيزيمي والجرف. وهذا التصور اعتمده باحثون آخرون انطلاقاً من لسان العرب الذي يربط معنى الجذر اللغوي "أفلال" بـ "الصحراء التي لم يصبها مطر" (1)، وهي خاصية تتسم بها جغرافية منطقة تافيلالت بحكم مناخها الصحراوي. وهذا ما حاول أن يبينه أحد الباحثين، الذي أبرز بأن مصطلح تافيلالت يرتبط في دلالاته بـ "الأرض التي لم يصبها مطر، وجمعها أفلال" (2).

وعلى عكس هذا التأصيل اللغوي العربي ومدلوله للفظـة "تافيلالت" نجد فريقاً آخر من الباحثين يعتبر كلمة "تافيلالت" أمازيغية الأصل، تطلق على ما يشبه القـدح، وذلك استناداً إلى كون مجالها الجغرافي على شكل حوض تتجمع فيه المياه التي تفيض بها أودية زيز وغريس (3)، وأصحاب هذا التصور الذي يتبناه العربي مزين يرجحون قدم اسم "تافيلالت" على اسم سجلماسة (4)، حيث يجعلون تسمية "تافيلالت" تحيل على المدينة والإقليم معاً. إذ يرى هـاريس (Harris)، كما أورد حسن حافـيظي علوي؛ أن كلمة "تافيلالت" مشتقة من "فيلال"، وأن تاء التصدير هي للنسبة أما تاء الآخر فللتأنيـت (5). كما أن جاك مونـي (Jacques Meunié) اعتبرت بأن "تافيلالت" اسم أمازيغي مشتق من أفيلال الذي يعني الجبل بالعربية، وأبرزت أن "أفيلال" على مستوى المنطقة عبارة عن سلسلة جبلية تقع على بعد 50 كلم في الجنوب والجنوب الشرقي للريصاني وفي الشمال والشمال الغربي للطاوس على الضفة اليمـنى لوادي زيز بعلو لا يتجاوز 785م (6).

1- ابن مـظور، لسان العرب المحيط، ج 2، م. س، ص. 1131.

2- عبد الله استيتو، دور تافيلالت في تنظيم العلاقات، م. س، ص. 47.

3- العربي مزين، تافيلالت مهد الدولة العلوية، مذكرات من التراث المغربي، ج2، مجموعة تحت إشراف العربي الصقلي، طبع وتجليـد Atlamira-Madrid، 1985، ص15.

4- م، ن، ص. 15.

5- حسن حافـيظي علوي، واحات بلاد المغرب من القرن 4 هـ/10م إلى القرن 8هـ/14م، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية 1425-1426هـ/2004-2005، صص 890-891.

6 - Meunié (J), Abbar cité Royale du Tafilalet, op, cit, p : 10.

وفي هذا الإطار نجد فريقا ثالث من الباحثين حاولوا النبش والحفر في تسمية "تافيلالت"، فاعتبروا لفظتها في الأصل تعود إلى السكان اليهود الذين استوطنوا في المنطقة منذ القدم، والذين من بينهم طائفة يهودية تعرف ب تافيلات (Tafilat) فاشتقت منه تسمية "تافيلالت" وهو التفسير الذي قدمه ناعوم سلوش (N. SLOUSH)، غير أن هذا التفسير السطحي تعوزه القرائن التاريخية كما عبر عن ذلك عبد الله استيتو(1)، بينما نجد باحثا آخر يتماهى مع هذا الطرح من خلال مقاربة أركيو – لسانية، حيث اعتبر بأن "تافيلالت" صيغة "آرامية أو عبرية" تعني "بلاد الغزال"(2)، غير أن الباحث رغم مقاربتة لم يستطع الحسم ليختم دراسته بسؤال : هل لفظ "تافيلالت" إطلاق عبري – بهذه الشحنة الدينية- أم آرامي أتى من نفس البيئة السامية (انتسابا للساميين) للأمازيغ؟(3)

وأما التفسير الرابع لتسمية ومعنى "تافيلالت" فيمتح من الثقافة الشعبية للمنطقة عبر اعتماد الرواية الشفوية التي تربط تداول "تسمية" تافيلالت يرجع إلى العصر الوسيط خلال قدوم الشرفاء العلويين إلى المنطقة أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي(4)، حيث تشير الرواية الشفوية إلى أن سكان تافيلالت لما ذهبوا إلى الجزيرة العربية استقدموا الشرفاء إلى المنطقة لإصلاح أشجار النخيل والتبرك وقع اتفاق بينهم مع الحسن بن أبي القاسم أن يعطوه نصيبه من التمر بعد نضجه، غير أنهم نكثوا العهد مع الحسن الداخل فذكرهم صائحا "وفوا وفوا" بمعنى أوفوا بالعهد، فكان جوابهم "لا لا" فأطلق عليهم لقب وفيلالا ثم فيلالا وعلى منطقتهم تافيلالة ثم تافيلالت(5)

ما يمكن استنتاجه من كل ما سبق، أن هناك اختلافا حول دلالة تسمية تافيلالت وتضاربا في المعاني التي يحملها هذا الاسم، إلا أن استقرار الواقع التاريخي يجعلنا ننفذ رواية الأصل اليهودي لتسمية سجلماسة نظرا لغياب أي إشارة تاريخية –في حدود علمنا-

1- عبد الله استيتو، دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والمخزن والمستعمر، م. س، ص. 45.

2- عبد الحميد العوني، تافيلالت وسجلماسة قبل 4000 سنة أقدم مملكة في شمال افريقيا (1378 ق.م)، المطبعة الأورو متوسطية المغربية، 2009، ص. 5.

3- المرجع نفسه، ص. 10.

4- حسن حافيظي علوي، سجلماسة وإقليمها، م. س، صص. 89-90.

5- لحسن تاوشخت، عمران سجلماسة، ج 2، م. س، ص. 422.

لطانفة يهودية تدعى "تافيلات" في المصادر التي اهتمت بالمنطقة، كما نستبعد الرواية الشفوية التي يتجاوز فيها الواقع بالخيال، وذلك لكون تسمية "تافيلات" لا ترتبط بمجئ العلويين إلى المنطقة واستقرارهم بها، بل إن هذا الاسم كما بينا سابقا أقدم من سجلماسة وسابق عليها.

ليبقى الإشكال مطروحا بين الأصل العربي والأصل الأمازيغي لتسمية "تافيلات" ومورفولوجيتها بحكم وجود العنصر الأمازيغي والعربي بالمنطقة، وكذا انتشار ثقافتها، وكذا بحكم التسميات التي يتضمنها مجال تافيلات عمرانيا واقتصاديا واجتماعيا وعرفيا، إذ نجد قصورا ذات معاني أمازيغية وأخرى ذات معاني عربية. إلا أنه إذا اعتبرنا العنصر الأمازيغي هو الأقدم استقرارا بالمنطقة، وإذا استحضرنا طبوغرافية مجال تافيلات وعقدها الواحي عند سافلة نهري زيز وغريس، حيث تتجمع مياه فيضهما، وبحكم دلالة "تافيلات" الأمازيغية المرتبطة بالماء، حيث تطلق على ما يشبه القدح كما أسلفنا القول عند العربي مزين، وكذا تعتبر تصغيرا لكلمة "أفيلال" التي تعني الخابية أو الجرة أو الزير التي تتعلق كلها بالماء(1). فضلا عن إشارة ابن أبي محلي في أرجوزته للتعريف بمدينة سجلماسة التي قال فيها(2) :

وتافلات اسمها بالبربري بفضل أهلها أخي فاخبري

إن هذه السمات الدلالية ذات الحمولة التاريخية والثقافية والاجتماعية، وكذا رسم الكلمة وجذرها اللغوي وتقارب معانيها في اللغة الأمازيغية بشكل يجعل معانيها متطابقة مع الجغرافية التاريخية لمنطقة تافيلات يجعلنا نرجح الأصل الأمازيغي لتسميتها كما تؤكد كذلك المرويات التاريخية التي قدمناها في هذا المبحث.

1- محمد شفيق، المعجم الأمازيغي العربي، ج1، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، الطبعة الأولى، 1990، ص.341.

2- سعيد واحيحي، مهدوية ابن أبي محلي الفيلاي ومخطوطه "تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة"، مطبعة Rabat Net Maroc، الطبعة الأولى، 2009، ص. 92.

3- التطور التاريخي لمنطقة تافيلالت

احتلت منطقة تافيلالت في تاريخ المغرب مكانة متميزة، نتيجة للأحداث التاريخية التي شهدتها عبر مختلف الفترات والعصور، حيث أثرت وتأثرت بالأحداث الكبرى للدولة المغربية. وقد تناولت عدة دراسات وأبحاث تاريخ منطقة تافيلالت بشكل شمولي لتسلسل الأحداث التي عرفتها المنطقة أو بشكل مرحلي يشمل فترة حكم دولة من الدول أو عهد سلطان من سلاطين حكام المغرب. وسنعمل في هذا المبحث على تقديم لمحة مقتضبة عن التحولات التاريخية بإقليم سجلماسة- تافيلالت منذ العصر القديم إلى فترة الحماية.

1.3- الفترة الممتدة للتاريخ والعصر القديم بمنطقة تافيلالت

تتميز منطقة تافيلالت بتعدد مواقعها الأثرية التي ترجع إلى فترة ما قبل التاريخ والمتمثلة في المدافن القديمة والمواقع الأثرية مثل كارة أولاد الزهراء وجبال أوفيلال بالقرب من الطاوس وجبل البوية الذي يعد أهم هذه المواقع وأكبرها بمنطقة تافيلالت(1)، فضلا عن المقابر الأمازيغية(2) والنقوش الصخرية الموجودة بناحية الطاوس وتزارين وألنيف والتي تعبر عن نمط عيش الإنسان القديم وتقاليده الصيد الأولى بمنطقة تافيلالت(3).

إن هذه المواقع الأثرية والنقوش الصخرية التي تزخر بها منطقة تافيلالت تعكس غنى مواقعها النيوليتية التي اعتبرها المؤرخ الفرنسي غابرييل كامبس (Camps Gabriel) أغنى من منطقة الأطلس من جهة، وتجعل المنطقة تسبح في فضاء زمني طويل يمتد من الألف الثانية قبل الميلاد إلى غاية وصول بني مدرار للمنطقة(4) من جهة أخرى.

1- لحسن تاوשיخت، عمران سجلماسة، ج 1، ص. 70.

2- بوكبوت يوسف، تحريات أثرية في منطقة تافيلالت، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، الدورة الأولى، دجنبر، 1989، ص. 394.

3- لحسن تاوשיخت، عمران سجلماسة، ج 1، م. س، ص. 70.

4- مصطفى تيليوا، مقاربة أنثروبولوجية لسكان تافيلالت خلال فترة ما قبل التاريخ، مجلة واحة تافيلالت، العدد الثاني، 2000، ص. 20.

وأما تاريخ منطقة تافيلالت في العصر القديم، فإن كوك ماك يقدم رواية تربط المنطقة بالتجارة مع القرطاجيين، حيث أشار إلى "أنه ليس من البعيد أن المدينة المغربية القديمة سجلماسة كانت في أيام القرطاجيين أعظم مستودع لتجارة الذهب التي استمرت زمنا طويلا"⁽¹⁾. ورغم عدم الاطمئنان لهذه الرواية بحكم ارتباط تأسيس سجلماسة بتاريخ لاحق، إلا أنها تقدم إشارات مفادها أن منطقة تافيلالت في العصر القديم شكلت نواة محطة تجارية تربط بين الصحراء الكبرى والساحل المتوسطي.

وإذا كان الوجود الروماني قد تركز في المناطق الشمالية بعد احتلال المغرب، فإن الحملتين العسكريتين لما وراء جبال الأطلس ومنطقة كير ونواحيها⁽²⁾ دفعت بعض الباحثين الأوروبيين إلى الربط بين هذا الحدث ورواية الحسن الوزان التي يشير فيها إلى كون سجلماسة أسست من لدن قائد روماني⁽³⁾. وهي رواية متجاوزة، بحكم شبه إجماع المؤرخين والجغرافيين السابقين على الحسن الوزان بكون تأسيس سجلماسة كان في المرحلة الإسلامية سنة 140 هـ/757م رغم تضاربها فيما يتعلق بظروف تأسيس المدينة واسم المؤسس⁽⁴⁾.

وإجمالاً، فإن تاريخ منطقة تافيلالت في العصر القديم لازال يكتنفه الغموض نتيجة غياب الوثيقة المكتوبة وإحجام المصادر الأدبية القديمة التي أرخت للوجود القرطاجي والروماني والبيزنطي والوندالي بالمغرب، مما يجعل الأمل معقود على معول الأثريين لحل ألغاز تاريخ منطقة تافيلالت في العصر القديم وتوضيح صورته الحقيقية.

1- كوك ماك، الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانا كما يعرضها ويحللها ماك كوك، تعريب وتعليق، محمد الحمداوي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1395هـ، ص. 10.

2- مقدون محمد ووحيد علي، سوتينيوس وبولينوس والحرب الموريتانية الثانية بمنطقة تافيلالت، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، الدورة الأولى، دجنبر، 1989، ص. 378.

3- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج.2، م. س، ص 127.

4- الحبيب الجحاني، المجتمع العربي الإسلامي الحياة الاقتصادية والاجتماعية، عالم المعرفة، العدد 319، سبتمبر، 2005، ص. 142.

2.3- منطقة تافيلالت في العصر الوسيط

شكلت تافيلالت في العصر الوسيط أهمية كبرى لما لعبته من أدوار طلائعية في المشهد السياسي والاقتصادي خلال هذه الفترة، خاصة بعد إنشاء الخوارج الصفيرية لدولتهم المدراية في سجلماسة سنة 140هـ/757م كما تذكر معظم كتب الحوليات والجغرافيا والرحلات(1)، حيث ساهم تأسيس دولة بني مدرار في هذا الإقليم ما بين 140-366هـ/366-976م الذي يمثل نهاية العمران بأقصى الصحراء الكبرى بتعبير محمود اسماعيل(2) في ازدهار المنطقة التي أصبحت ممرا تجاريا شبه إلزامي للقوافل التجارية، وكذا صلة وصل بين العالم الإفريقي والعالم المتوسطي(3)، وذلك بعد أن جذبت المدينة بعد تأسيسها "بطون مكناسة الضاربة في وادي ملوية ونواحي تازة وتسول بالمغرب الأقصى فهجروا مواطنهم واستقروا بها(4).

وغني عن البيان الإشارة إلى أن نهاية دولة بني مدرار في منطقة تافيلالت ارتبطت بقيام الدولة الفاطمية التي قامت على أنقاض الدول المستقلة عن الخلافة المشرقية في المغرب(5).

وفي الفترة المرابطية خضعت سجلماسة وإقليمها لحكم المشروع الوحدوي لدولة الملتهمين الرامي إلى تكوين دولة مترامية الأطراف بالغرب الإسلامي بعد توحيده، وهكذا أعد المرابطون خطة محكمة ومدروسة للسيطرة على محور سجلماسة – أغمات قصد

1- تؤكد معظم كتب الجغرافيا والحوليات على تأسيس سجلماسة سنة 140هـ/757م، ومن بينها رواية أبي عبيد الله البكري الذي أورد أن "مدينة سجلماسة بنيت سنة 140هـ وبعمارتها خلت مدينة ترغة وبينهما يومان وبعمارتها خلت زيز". البكري أبو عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، بيت الحكمة، الدار العربية للكتاب، قرطاج، 1968، ص 148. كما تؤكد على أن تأسيس سجلماسة كان في موقع مهم، حيث ذكر ابن حوقل أن "سجلماسة مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل فاخرة العمل على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل في وقت كون الشمس"، ابن حوقل (أبي القاسم ابن حوقل النصبي)، صورة الأرض، دار صادر بيروت، الطبعة الثانية، 1928، ص. 91.

2- محمود اسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1985، ص. 113.

3 - Mezzine, (Larbi), Le Tafilalet, op-cit, p. 265.

4- محمود اسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، م. س، ص. 288.

5- م. ن، ص. 210.

التحكم في منافذ تجارة الجنوب(1). وفي هذا المساق تمكن المرابطون من إخضاع مدينة سجلماسة لنفوذ حكمهم سنة 450هـ/1045م. وتجدر الإشارة إلى أنه فضلا عن الدافع الاقتصادي، فإن إخضاع المرابطين لسجلماسة كان بهدف استتباب الأمن بها، وذلك بعد ان طلب وكاك أوجاج اللمتوني "من المرابطين باسم سجلماسة التدخل لوضع حد نهائي لاستبداد فساد بني وانودين"(2).

وأما الدولة الموحدية، فقد وضعت السيطرة على سجلماسة ضمن مخطتها السياسي لبسط النفوذ على بلاد المغرب أولا ثم الأندلس ثانيا، حيث إنه بعد إخضاع الموحيدين لتلمسان سنة 540هـ/1145م تمكنوا من دخول سجلماسة وإخضاعها لحكمهم سنة 543هـ/1148م مستغلين ضعف وأفول الدولة المرابطية(3).

وتشكل الفترة المرينية مرحلة حاسمة في تاريخ مدينة سجلماسة، إذ إن بني مرين بعد حملاتهم للسيطرة على أهم المدن المغربية في هذه الفترة كفاس ومكناس ورباط الفتح، ستعرض مدينة سجلماسة لغارات مستمرة واقتحامات موسعة قبل أن يتمكن يعقوب بن عبد الحق المريني (656-685 هـ / 1258-1286م) من السيطرة عليها نهائيا سنة 673هـ/1274م(4). وقد أثر ذلك على الدور الاستراتيجي للمدينة فيما يتعلق بالربط التجاري بين المغرب الأقصى وبلاد السودان(5)، مما جعل المدينة تعيش تراجعا اقتصاديا وتدهورا سياسيا في منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي(6) أعقبه انهيار هذه المدينة العامرة ليسدل الستار عن تاريخ ثاني مدينة إسلامية تأسست ببلاد المغرب بعد مدينة القيروان سنة 50 هـ، وتبدأ حياة جديدة لسكان منطقة تافيلالت تتمثل في الانتقال من سكن المدينة إلى سكنى القصور، حيث "تجمع سكانها في القصور، وتفرقوا هنا وهناك في الإقليم

1- ابراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين : المجتمع - الذهنيات - الأولياء، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، الطبعة الثانية، 2004، ص. 12.

2- ابن خلدون، العبر، ج 3، م. س، ص. 375.

3- لحسن تاوشخت، عمران سجلماسة، ج 1، م. س، ص. 104.

4- حميد تيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، م. س، ص. 33.

5- م. ن، ص. 269.

6- حسن حافيظي علوي، سجلماسة وإقليمها، م. س، ص. 438.

كله"(1)، ومعلوم أن إقليم سجلماسة عند الحسن الوزان "يمتد على مسافة عشرين ميلا على نهر زيز من الشمال إلى الجنوب، ويشمل ما يقرب من ثلاثمائة قصر كبير وصغير، فضلا عن المداشر"(2) وإذا علمنا بأن الميل الواحد يساوي 1340 متر فإن مساحة إقليم سجلماسة يمكن تحديدها بحوالي 36000 كلم مربع(3) وهذا يعني أن قصور المعاضيد وتيزيمي تدرج ضمن إقليم سجلماسة الذي تحدث عنه الحسن الوزان، وهذه إشارة مهمة تربط تشييد هذه قصور هذا المجال الذي يندرج ضمن نطاق البحث باندراس سجلماسة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.

بقي أن نشير إلى أن منطقة تافيلالت في العهد الوطاسي تمتعت بالاستقلال عن الحكم المركزي رغم محاولتهم اليائسة لاسترجاع السيطرة عليها سنة 946هـ/1540م(4).

3.3- منطقة تافيلالت من التاريخ الحديث إلى التاريخ المعاصر

شهدت منطقة تافيلالت خلال فترة حكم دولة الأشراف السعديين للمغرب انتعاشا محليا(5)، حيث شكلت تافيلالت جزءا لا يتجزأ من المشروع السياسي لدولتهم بعد السيطرة عليها نهائيا في عهد السلطان محمد الشيخ (651-965 هـ / 1544-1557م) سنة 960 هـ/1554م وجعلها إقليما تابعا لدولة الأشراف(6)، غير أنه بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي (1578-1603م) ستعرف منطقة تافيلالت ظهور حركة الفقيه الثائر ابن أبي محلي (ت.1613) الذي استطاع أن ينتصر على المخزن السعدي في أول لقاء عسكري سنة 1611م(7). مما سيجعل الحكم المركزي للمغرب يعرف تفككا وانقساماً ويفتح المجال أمام ظهور قوي سياسية جديدة.

1- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، مرجع سابق، ج. 2، ص. 128

2- م. ن. ج. 2، ص. 125

3- بلبكري عبد العزيز، تافيلالت ودلالاتها في المصادر التاريخية، مجلة واحة تافيلالت، العدد الأول، 1999، ص. 8.

4- لحسن تاوشيك، عمران سجلماسة، ج 2، م. س، صص. 448-450.

5- هاشمي العلوي القاسمي، تافيلالت : التاريخ والواقع، مجلة واحة تافيلالت، العدد الثاني، م. س، ص. 9.

6- لحسن تاوشيك، عمران سجلماسة، ج 2، م. س، ص. 452.

7- عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليية الخريت، م. س، ص. 65.

وفي هذا السياق، ومع بداية الدولة العلوية خلال القرن السادس عشر الميلادي سوف تستعيد منطقة تافيلالت مكانتها، بل وتتجاوزها بحكم أنها شكلت منطلق ومهد الدولة العلوية(1). غير أنه تجدر الإشارة إلى أن الشرفاء العلويين الذين "لم يجادل أحد في صحة هذه النسبة لهذه الأسرة أساساً"(2) وصلوا إلى تافيلالت منذ أوائل القرن 7هـ / 13م بعد استقدام أهل تافيلالت للحسن بن القاسم لمنطقتهم.

وقد ظهر العلويون كقوة سياسية بزعامة مولاي الشريف الملقب بأبي الأملاك(3) في منطقة تافيلالت في خضم الصراع الذي عرفته المنطقة بين السملاليين والدلائيين من أجل السيطرة عليها، والذي جعل الفيلاليين يبايعون مولاي الشريف باستثناء بني الزبير أهل تابوعصامت(4) الذين تمكن المولى محمد من بسط سيطرته عليهم بينما تمكن أبو حسون السملالي من احتجاز المولى الشريف(5) وأسرته بمنطقة سوس سنة 1042هـ/1635م إلى أن اقتداه ولده مولاي محمد بمال عظيم سنة 1051 هـ/ م 1641(6). وبعدها تمكن مولاي محمد من إخضاع تافيلالت برمتها لسلطته والتي أدى له أهلها البيعة بالولاء والطاعة.

وبعد وفاة مولاي علي الشريف بتافيلالت سنة 1069 هـ/1659م قام ولده مولاي محمد بالهجوم على بلاد الحياينة بأحواز فاس، مما جعل أهلها يستغيثون بالدلائيين لما وقع لمدينتهم(7). وفي غمرة هذه الأحداث أعلن مولاي الرشيد بعد التوجه إلى تازة الثورة سنة 1047هـ/1663 ضد أخيه مولاي محمد، مما أدى إلى المواجهة بينهما، والتي انتهت بانهزام ومقتل مولاي محمد صاحب سنة 1075هـ/1664م(8). مما فتح الباب على

-
- 1- لحسن تاوشخت، واحة تافيلالت بين الأمس واليوم، م. س، ص. 29.
 - 2- القادري محمد الطيب، كتاب النقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادي عشر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، 1981، ص14.
 - 3- محمد العمراني، المغرب زمن العلويين الأوائل، مطابع الرباط نت، الطبعة الأولى، 1435 هـ/2013م، ص. 31.
 - 4- عبد الكريم الفيلاي، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، ج. 4، م. س، صص. 74-75.
 - 5- محمد القبلي وآخرون، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2011، ص. 400.
 - 6- محمد العمراني، المغرب زمن العلويين الأوائل، م. س، ص. 33.
 - 7- أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، ج. 7، م. س، ص. 28.
 - 8- محمد العمراني، المغرب زمن العلويين الأوائل، م. س، ص. 38.

مصراعيه لمولاي الرشيد الذي قام بتوحيد المغرب منذ توليه الحكم سنة 1664م إلى أن توفي سنة 1672م(1).

استهل المولى اسماعيل الذي كان "محل ولادته بقصر ابحار"(2) سنة 1646م سلطته بعد تولي الحكم سنة 1672 بمواجهة مختلف الفتن والاضطرابات والثورات التي واجهته إلى أن تمكن من إخمادها وبسط يده على الحكم، مما جعل المغرب يعرف استقرار سياسيا وازدهارا في عدة ميادين، والتي من بينها المجال العمراني، حيث اهتم بتشييد القصبات في مختلف مناطق المغرب، والتي من بينها "قصة المامون بتيزيمي من تافيلالت والقصة الشهيرة بناحية السيفة وقصة لبطرنى... وقصة مزكيدة وقصة الفيضة"(3).

وتجدر الإشارة إلى أن علاقة القبائل والفئات المكونة للمورفولوجيا الاجتماعية للقصور الفيلالية(4) كعرب الصباح(5) بالمعاضيد وتيزيمي(6) وعرب السفالات وغيرهم تميزت علاقاتهم مع السلطة المركزية وممثلها بالمنطقة بالمد والجزر، حيث يسود التوتر والفتر في العلاقات في بعض الفترات، بينما يكون الانفراج والتعاون في العلاقات تارة أخرى.

وفي هذا الإطار، سيدخل المغرب بعد وفاة المولى اسماعيل سنة 1727م مرحلة من الفوضى لمدة ثلاثين سنة، وقد عمق من هذه الأزمة تزامن توالي سنوات الجفاف معها، وكذا وممارسات جيش عبيد البخاري(7). انتهت هذه الأزمة بتولي السلطان محمد بن عبد الله (1757-1790م) الحكم، والذي قام بعدة منجزات عمرانية بمنطقة تافيلالت تمثلت في

1- أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، ج. 7، م. س، ص. 43.

2- عبد الرحمان ابن زيدان، المنزع اللطيف، م. س، ص. 43.

3- م. ن، ص. 336.

4- استيتو عبد الله، دور تافيلالت في تنظيم العلاقات، م. س، ص. 127.

5- الصباح : قبيلة عربية مستقرة في الحوض الأوسط والأسفل لأودية زيز وغريس بجماعتي تيزيمي وقصور المعاضيد وفزنة والسيفة، يرجع ابن خلدون نسبهم إلى قبائل بني معقل العربية. محمد احدى، مادة الصباح، معلمة المغرب، ج. 16، صص. 5482-5483.

6- تيزيمي : تنتمي إداريا لجماعة عرب صباح زيز، وجغرافيا منطقة تشرف على جبل أرفود في الجنوب الشرقي للمغرب، يحدها شرقا وادي زيز وغربا وادي غريس، وشمالا قصور المعاضيد ومنطقة الرتب وجنوبا تافيلالت -بالمعنى المحلي للكلمة- أي الواحات المحيطة بالريصاني. ينظر حسن حافيظي علوي، مادة تيزيمي، معلمة المغرب، ج. 8، م. س، صص. 2960-2961.

7- محمد القبلي وآخرون، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، م. س، ص. 426.

إصلاح وترميم معمار بعض القصور والقصبات وبناء أخرى جديدة، وهكذا استمرت منطقة تافيلالت في ازدهارها رغم حدوث بعض الأزمات خاصة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي ما بين 1822 و1912م، والذي جعل المنطقة بتعبير أحد الباحثين تدخل عصر الانكماش والانعزال السجلماسي- الفيلالي(1). والذي كان من بين تجلياته بعد خضوع المنطقة للحماية الفرنسية تدهور عمارة قصور تافيلالت، إذ "تضعض هذا القطر وتأخرت عمارته إلى الآن"(2).

المبحث الثاني: مفهوم القصر وأصوله المعمارية بمنطقة تافيلالت

1- مفهوم القصر

نروم من خلال تحديد مفهوم القصر الذي يقابله في اللسان الدارج "الكُصْر" وفي الأمازيغية "إِيغْرَم" ربطه بإشكالية نظام السكن في المجال المدروس. حيث يكون السكان في كل واحة أو مجال واحي قرية أو عدة قرى. وتدعى القرية قصرا وتكون لهذه القرى/القصور علامات إثنوغرافية مشتركة(3). وهو ما سنعمل على إيضاحه بصدد القصور الفيلالية.

أما لفظة "قصر" فتفيد لغة المنزل. وأثر عن العرب قولهم: "هو كل بيت من حجر قرشية. وسمي كذلك لأنه تقصر فيه الحرم أي تحبس وجمعه قصور"(4)، وفي القرآن الكريم وردت آيات عدة تتضمن كلمة قصر كقوله تعالى: "واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا واذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين"(5) وقوله سبحانه "تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من

1- هاشمي العلوي القاسمي، تافيلالت : التاريخ والواقع، م. س، ص. 10.

2- المختار السوسي (محمد المختار)، المعسول، ج. 16، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1961، ص. 311.

3-عماري أحمد، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850 إلى 1902، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1988، ص. 16.

4- ابن منظور (جمال الدين محمد)، لسان العرب، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1993، ج. 11، ص. 186.

5- القرآن الكريم ، سورة الأعراف، الآية: 73.

ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا"(1). والمستفاد من دلالة ورود لفظة القصر في الذكر الحكيم هو ما ارتقى وشمخ وعلا عن الأرض، كما أن السياق الدلالي لورود هذه اللفظة مرتبط بقيم الخير والنماء والعطاء والخصب. كما يوحي بالفخامة والعظمة والجاه والسعة والسلطة والحكم والملك. فهل هو المعنى نفسه والدلالة ذاتها التي يحملها مفهوم القصر في الواحات الصحراوية بالجنوب الشرقي عامة ومنطقة تافيلالت خاصة؟

يتصل إشكال تحديد مفهوم القصر بحقل الدراسة أو الإطار النظري أو وجهة النظر التي ينظر من خلالها الباحث إلى هذا المفهوم، حيث تختلف التعاريف باختلاف المنظور الذي يصدر عنه الباحث والذي تتحكم فيه محددات متنوعة منها نظام السكن وأدواته ومكوناته والغاية منه ووظيفته وتاريخه ومجاليه. ففي حين يذهب المهتمون بالمجال الجغرافي والعمراني إلى القول بأن: "القصر مصطلح يدل على كيان عمراني ينتشر بواحات المغرب شبه الصحراوي"(2) كواحات تافيلالت. إضافة إلى كونه عبارة عن "بنايات متماسكة يحيط بها سور لا يمكن النفاذ منه إلا عبر باب واحد محروس"(3). إذ يتم النظر إلى القصر من الناحية العمرانية بكونه "عبارة عن قرية مجمعة ومحصنة يمكن أن يقيم فيها مائة إلى الألف من السكان يحيط بها سور من التراب المدكوك المخلوط بالحصى، به باب بسيط الزخرفة تحيط به أبراج، توجد في الداخل دروب ضيقة مغطاة جزئياً، مظلمة وملتوية"(4)، مما يجعل القصر يرتبط بالعمارة في مختلف أشكالها(5).

وبشكل عام، فإن تعاريف القصور المنطلقة من وجهة النظر العمرانية تؤكد على أن القصر الصحراوي عبارة عن تجمع سكني متراص ومتماسك ومغلق له منفذ واحد في

1- القرآن الكريم، سورة الفرقان، الآية: 10

2- البلعميشي عبد الرحمان وآخرون، القصور والقصبات: دراسة تفصيلية لمصطلحات عمرانية، بحث لنيل دبلوم مهندس معماري، المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية، الرباط، 1992، ص. 77.

3- آيت حمزة محمد وشاكر الميلود، تقرير عن رحلة إلى تافيلالت، مجلة جغرافية المغرب، العدد 6، السلسلة الجديدة، 1982، ص. 65.

4 -Joly, F- Promenade dans les palmeraies, Confluent, n° 8, Juin/Juillet, 1960, p. 408.

5- محمد حسن، الجغرافيا التاريخية لأفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع الهجري، دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، 2003، ص. 45.

غالب الأحيان يحيط به سور عال من أجل الدفاع والحماية(1). ويتميز بوجود أبراج ركنية تصلها أسوار محاطة بخندق خارجي غالبا(2)، والملاحظ أن بعض القصور والقصبات ينطبق شكلها الهندسي مع إطار المكان الذي شيدت عليه، وأنها تتسم بكثرة الانقراض التي تقدر عددها في بعض الواحات بثلاثة أضعاف البنايات القائمة(3).

ونخلص هنا إلى انفراد الجنوب والجنوب الشرقي لبلاد المغرب بنمط معماري أصيل تجسده الهندسة المعمارية الترابية المتلائمة مع الفضاء المحيط والوسط الإيكولوجي الجاف. فهي تتموقع بالقرب من مصادر المياه على الأراضي الخصبة لمباشرة النشاط الفلاحي من زراعة وري وسقي، مما يجعل القصر مورفولوجيا متكيفا مع الوسط(4).

أما التعاريف التي ركزت على الجانب الوظيفي : الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. فتتحو منحى اعتبار القصر "وحدة سياسية واجتماعية تنظم داخله حياة الأفراد والمجموعات إذ هو عبارة عن جسم مستقل في الواحة يدير شؤونه الخاصة بمعزل عن تأثير خارجي وينقسم القصر إلى أرباع أو فلكات يختلف عددها من قصر إلى آخر ويطلق على القصر الواحد منهم اسم (إغرم)"(5).

ولذلك يذهب أحد الباحثين إلى اعتباره مؤسسة للاستقرار تناط بها أدوار سياسية واجتماعية واقتصادية في سياق تكاملي(6). كما ركز هذا الفريق من الباحثين على الدور الدفاعي للقصور من حيث الاحتماء بها إبان هجوم العدو ووقت الحرب، فالضرورات الأمنية هي التي حتمت بناء سور على جنبات القصر الذي غالبا ما تشيد قاعدته بحجارة

1- كبري علوي مولاي هاشم، التحولات السكنية بيزز الأوسط: انفجار القصور ومسلسل التمدين، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، السنة الجامعة 2004-2005، ص. 19.

2- بنعبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة الصحراء، مطبعة فضالة، 1976، ملحق 1، ص. 66.

3- م. ن، ص. 66.

4- ميوسي محمد، تافيلالت من أطروحة التراجع إلى أطروحة التحول والاستمرارية، م. س، ص. 112

5- مزيان أحمد، فكيف مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر (1845-1903)، مطبعة فجر السعادة، 1988، ص. 277.

6- البوزيدي أحمد، التاريخ الاجتماعي لدرعة من مطلع القرن 17 إلى مطلع القرن 20، مطابع آفاق، سلا سطيف، طبعة 1994، ص. 61.

متينة لتحميها من الانجراف مع السيول المهولة التي تأتي بها الوديان والأنهار المحادية لهذه القصور(1).

إن القصر من الناحية الاجتماعية مجال لسكن الفئات الاجتماعية المختلفة إذ يحتوي على مساكن العوام والمزارعين والحراطين وغيرهم(2)، مما يجعل القصر الواحي نمطا سكنيا فريدا تسوده علاقات اجتماعية متميزة تعكس بشكل دقيق صورة حياة ساكنة مرتبطة بتجمع محاط بسور(3).

ومحصلة هذه التعاريف على تباين مرجعياتها ومنظوراتها هي أن القصر وحدة سكنية أساسية ومعمار تقليدي محلي فرضته ضرورات المناخ والمجال والتاريخ أولا والإنتاج الزراعي والاستقرار ثانيا والدفاع والمواجهة ثالثا. ويقوم القصر بتلبية مجموعة من الأغراض الأنثروبولوجية(4). فالقصر داخل القصر يحس بالأمان والطمأنينة على نفسه وذويه وممتلكاته لكنه ملزم بالخضوع "للجماعة" والتنازل عن جزء من حريته لصالحها. إذ ليس بمقدوره الانفلات من المراقبة الدقيقة في كل تصرفاته ويحترم أعراف القبيلة احتراماً تاماً(5).

-
- 1- حافظي علوي حسن، سجل ماسة وإقليمها، مرجع سابق، ص. 115.
 - 2- العماري أحمد، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850 إلى 1902، مرجع سابق، ص. 17.
 - 3- ميوسي محمد، تافيلالت من أطروحة التراجع إلى أطروحة التحول والاستمرارية، م. س، صص. 112-113.
 - 4- القسطنطي بن محمد، الواحات المغربية قبل الاستعمار، مرجع سابق، ص. 36.
 - 5- آيت حمزة محمد، مادة القصر، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للنشر والتأليف، نشر مطابع سلا، 2004، المجلد 19، ص. 6639.

أما من حيث الخصائص الهندسية والمورفولوجية، فيمكن اختزالها في كون القصور الصحراوية تبنى في الغالب الأعم بالتراب المدكوك والآجر والحجارة وتتخذ أشكالاً معمارية تضيف عليها جمالا نادرا، وتتكيف مع شروطها البيو مناخية. كما تنصهر مع المناظر الطبيعية المحيطة بها وتتناسق أجزاءها وأحجامها تناسقا يتناسب مع بساطة وعتاقة الأساليب المعمارية المستعملة في تشييدها، والتي تتماشى من الناحية الجمالية مع النقوش والزخارف البسيطة التي تكسوها(1).

فإذا كان مفهوم القصر قد اندمج في تشكيله البعد المورفولوجي والبعد الوظيفي، فما علاقة ذلك كله بالمسار التاريخي لتأسيس القصور الفيلالية وتطورها، وإلى أي حد يعكس معمار القصور الواحية بتاويلات مكونات العمارة العسكرية ونظامها الدفاعي ويجسد خصائصها الهندسية والوظيفية؟

2- الأصول التاريخية لنمط عمارة القصور الفيلالية

يثير موضوع أصول عمارة القصور الواحية عامة والقصور الفيلالية خاصة إشكالية كبرى ترتبط بشح إشارات المصادر التاريخية التي لاذت بالصمت حول أصل القصر الفيلالي وجذوره التاريخية، وكذا لتضارب خلاصات وتأويلات الباحثين المغاربة والأجانب وغيرهم حول أصل هذا النمط المعماري، حيث إنه رغم استقرار الإنسان بمنطقة تافيلالت منذ القديم كما بينا سابقا، فإن الجذور التاريخية لقصور تافيلالت وبداية تشييدها وإنشائها ما زالت تطرح أكثر من إشكالية. إذ يرجع فريق من الباحثين أصل معمار القصور الواحية إلى المؤثرات الشرقية، نجد فريق آخر منهم يرجعه إلى الحضارة المتوسطية أو الأوربية، في حين يرجعه فريق ثالث إلى أصل محلي يرتبط بالسكان الأصليين لبلاد المغرب.

طرح بعض الدارسين الأجانب عدة افتراضات تربط النمط المعماري للقصور الصحراوية بالمؤثرات الشرقية تارة وبالمؤثرات الأوربية تارة أخرى، وهكذا يشير طيراس إلى أن الهندسة المعمارية للقصور والقصبات الواحية خضعت لتأثيرات فرعونية وتأثيرات

1- الدخيسي ادريس، الفن المعماري المغربي في قصبات الجنوب، مجلة الفنون، العدد 2، السنة 8، شتنبر 1981، ص.56.

روما البيزنطية قبل وصول التأثيرات الإسلامية إلى هذه المناطق(1)، غير أن هذا الطرح تعوزه الأدلة والبراهين من جهة، ويتناقض في أصل الهندسة المعمارية للقصور الواحية من جهة أخرى.

وعلى غرار افتراض وتصور هنري طيراس (H. Terrasse)، يربط الباحث جاك مونييه (J. Meunié) أصل النمط المعماري لقصور تافيلالت أحيانا بالتأثير المشرقي الفارسي من خلال تشابهه مع المعمار الموجود بإقليم سيستان بإيران التي ينحدر منها الخوارج الصفورية – حسب الباحث- الذي قاموا بنقل ثقافتهم ونمطهم المعماري إلى منطقة تافيلالت بعد تأسيس مدينة سجماسة(2)، وأحيانا أخرى تربط الجذور التاريخية لهذا المعمار بالتأثير المشرقي العربي لمدينة الكوفة وبغداد نتيجة العلاقات الاقتصادية والثقافية التي ربطت بلاد المشرق بمتربول الصحراء الكبرى(3).

كما يذهب هنسن (Hensens) إلى أن النمط المعماري للقصور الواحية بتافيلالت خضع للتأثيرات المشرقية والمتوسطية منذ العصر القديم، حيث إن المنازل ذات الحصون والأشكال المربعة والزوايا القائمة، فضلا عن التحصين ومتانة الأسوار ووجود النخيل والجمال كلها مؤشرات حضارية لحوض البحر الأبيض المتوسط(4).

وبعيدا عن الافتراضات والتصورات السابقة، التي تراوحت بين التأثير المشرقي والأوربي لعمارة القصور الفيلاية، فإن كوتيه (Gautier) يرى بن أصل هذا النمط المعماري يرجع إلى القبائل الزناتية التي تتكون منازلها من عدة طوابق على عكس المنزل "القبائلي" الصنهاجي الذي يتشكل من سكن أرضي فقط(5).

وفي هذا السياق، فإن ظهور هذا النوع من السكن يرجع إلى القبائل الزناتية التي يرجع إليها الفضل في تشييد معمار معظم واحات المناطق الصحراوية مثل واحة سوف

1 -Terrasse (H), Kasbas berbère de l'Atlas et des Oasis, op.cit, pp 70-74.

2 - Meunié (J), Architectures et habitats du Dadès, Maroc Présaharien, paris, Librairie C. Klincksieck, 1962, pp 100-101.

3 -Meunié (J), Le Maroc Saharien des origines,op. cit, p. 297

4 - Hensens (J), Habitat rural traditionnel des oasis présahariennes, le qsar : problèmes de rénovation, Bulletin Economique et Social du Maroc, N 114, Juillet- Septembre, 1969, p. 83.

5 - Gautier (E.F), le passé de l'Afrique du Nord, Paris, 1964, pp. 228-229.

وريج وتوات على حد تعبير الباحث لويكي (Lewiki)(1). وهذا التصور والافتراض يتقاطع مع ما ورد عند ابن خلدون الذي ذكر أن القبائل الزناتية بعد أن تكونت لها دول ببلاد المغرب الأقصى ممثلة في المرينيين بفاس وبالمغرب الأوسط ممثلة بالزيانيين بتلمسان تركت قصورها جنوب جبال درن لعرب المعقل(2).

بخلاف الأصل الزناتي لعمارة القصور الفيلالية، يرى محمود اسماعيل بأن الجذور التاريخية لهذه العمارة ارتبطت بعرب المعقل الذين نقلوا هذا النوع المعماري من موطنهم الأصلي باليمن ومع مرور الزمن تأثرت هندسة القصور الفيلالية بالمؤثرات الأندلسية والمشرقية(3).

وهذا التصور والافتراض يتقاطع مع ما ذهبت إليه الباحثة أوديت دي بيغادو (Odette Du Puigadeau) التي لا حظت وجود تشابه واضح بين العمارة الصحراوية المغربية مع أنماط معمارية بحوض البحر الأبيض المتوسط وبلاد الرافدين واليمن، مما جعل هذا النمط المعماري الواحي يشكل أداة للتلاقح والتواصل الحضاري(4)، رغم أن الباحثة ركزت على التأثير اليمني على الفن المعماري الصحراوي عبر التركيز على صنف معين من الحليات المعمارية التي تزر بها هذه القصور التي تعتبر بلاد اليمن مهدا لها(5). خلاصة القول، إن الأصول التاريخية لعمارة القصور الفيلالية لازالت تطرح إشكالا تاريخيا كبيرا لا يمكن الحسم فيه بسهولة نظرا لغياب إشارات مصدرية واضحة تفيد في استنتاج الماضي البعيد لهذا الأصل المعماري، وكذا لعدم وجود أبحاث أثرية من شأنها أن تزيل الغموض الذي يكتنف تاريخ المنطقة ويزيل الحلقة المفقودة حول الجذور التاريخية لعمارة القصور الفيلالية.

1 - LWIKI (T), Sur le titre libyco-Berbère, Etudes Maghrébines et Soudanaises, Varsovie, 1983, p. 44.

2- ابن خلدون، العبر، م. س، ج. 7، ص. 77.

3- محمود اسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، م. س، ص. 300.

4 - Puigadeau (o. Du), Arts et coutmes des Maures (II), Hespèris-Tamuda, tome IX, 1968, p. 388.

5- أحمد مولود ولد أيده الهلال، مدن موريتانيا العتيقة قصور ولاتة وودان وتيشيت وشنقيط، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2014، ص. 317.

وإن كنا نميل إلى الطرح الذي يربط أصل عمارة هذه القصور بالبيئة المحلية بحكم تفاعل الإنسان الواحي مع محيطه على مستوى هندسة هذه القصور ومواد بنائها وتقنيات تشييدها النابعة من البيئة المحلية، إلا أن هذا النمط المعماري عرف مع الهجرات البشرية التي جاءت إلى المنطقة واستقرت بها توسعا وتطورا خاصة مع دخول عرب المعقل إلى المنطقة في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي(1). وأما مسألة تشابه هذا المعمار مع أنماط معمارية أخرى بشبه الجزيرة العربية أو غيرها من المناطق فهو نابع من الضرورة التي فرضتها البيئة الصحراوية التي يطبعها المناخ الصحراوي وشبه الصحراوي.

المبحث الثالث : نشأة القصور الفيلالية وتطورها التاريخي

1- تاريخ تشييد القصور الفيلالية

يعتبر تاريخ تشييد قصور منطقة تافيلالت من الأمور التي يصعب الحسم في تحديد تاريخ دقيق لبداية ظهورها بالمنطقة(2). فهل كان ذلك قبل تشييد مدينة سجماسة أم بعد تشييدها أم بعد اندراسها؟

استنادا إلى المواقع الأثرية القديمة بمنطقة تافيلالت التي تؤكد استقرار الإنسان بمنطقة تافيلالت، والتي سبق أن أشرنا إليها في المبحث السابق، وكذا اعتمادا على الطرح القائل بالأصل المحلي لعمارة القصور الفيلالية دون خضوع لتأثيرات مشرقية أو أوربية، فإنه يمكن القول بأن القصور بمنطقة تافيلالت ترجع لفترة تاريخية سابقة عن تاريخ بناء مدينة سجماسة، وأن الهندسة المعمارية للقصور الفيلالية ترجع لفترة تاريخية أقدم من تلك القصور التي شيدت بدرعة(3). وذلك بحكم أن منطقة تافيلالت كانت مأهولة بالسكان منذ عصور غابرة، كما دلت على ذلك البقايا الأثرية المكتشفة في بداية خمسينات القرن العشرين(4).

1- حسن حافيظي علوي، سجماسة وإقليمها، م. س، صص. 116-117.

2- لحسن تاوشخت، عمران سجماسة، ج. 2، ص. 427.

3 - Meunié (J), Abbar cité Royale du Tafilalet, op. cit, p. 51.

4- حسن حافيظي علوي، سجماسة وإقليمها، م.س، صص. 119-120.

مقابل هذا الافتراض، نجد افتراضاً آخر يرى أن تشييد القصور الفيلالية جاء بعد بناء مدينة سجلماصة، والدليل على ذلك وجود مجموعة من الإشارات التاريخية حول أسماء بعض القصور التي عاصرت مدينة سجلماصة، وما يعزز هذا الطرح أن كثيراً من المصادر التاريخية في وصفها لمدينة سجلماصة وأحوازا كانت تشير في الغالب الأعم إلى كونها عبارة عن "قصور وديار وعمارات متصلة"⁽¹⁾، بالإضافة إلى ما ذكره أبو حامد الأندلسي من أن سجلماصة محاطة بمساكن محصنة⁽²⁾، كما أن مارمول كاربخال في حديثه عن إقليم سجلماصة وتدمير مدينته من لدن المرينيين قدم إشارة تفيد بأن القصور بمنطقة تافيلالت كانت معاصرة لسجلماصة، إذ أنه بعد إعلان سكان سجلماصة الولاء للمرينيين "سمحوا لهم بإعادة بناء بعض القرى والقصور المحصنة"⁽³⁾، والسماح بإعادة البناء —حسب إشارة مارمول— يعني أن المنطقة كانت تزخر بقصور محصنة وقرى تعرضت للتدمير، فتم تجديد بنائها بعد التدمير والتخريب الذي تعرضت له.

وعلى عكس الطرحين السابقين، هناك من يرى أن تاريخ بناء القصور الفيلالية كان بعد اندراس مدينة سجلماصة واندثارها، وذلك بالاستناد على رواية الحسن الوزان الذي أشار إلى أنه بعد تدمير مدينة سجلماصة "تجمع الناس فبنوا قصورا ضخمة ضمن الممتلكات ومناطق الإقليم"⁽⁴⁾، وهذه الرواية تفيد الباحث في معرفة كيفية التحول الإشعاعي الحضاري بمنطقة تافيلالت من حاضرة سجلماصة إلى القصور بأحوازا، إذ إن القصور الفيلالية بعد تخريب مدينة سجلماصة أصبحت تمارس اختصاصات المدينة⁽⁵⁾.

ونتيجة لكل ذلك، فإن الذي لا زال يثير إشكالا هو مسألة أيهما أسبق في البناء والتشييد بالمنطقة، هل القصر بنمطه المعماري أم مدينة سجلماصة، ونعتقد بأن العمل الأثري قادر على حل ألغاز هذه الإشكالية وإبراز الفترة الحقيقية لتاريخ نشأة القصور الفيلالية وبداية تشييد معمارها العسكري والمدني والديني. أما مسألة ربط بناء جميع

1- الحميري ابن عبد المنعم، الروض المعطار في أخبار الأقطار، بيروت، الطبعة الأولى، 1984، ص. 305.

2- حسن حافيظي علوي، سجلماصة وإقليمها، م.س، ص. 119.

3- مارمول كاربخال، افريقيا، ج. 3، م. س، ص. 152.

4- الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج. 2، ص. 121.

5- حسن حافيظي علوي، سجلماصة وإقليمها، م.س، ص. 118.

القصور الفيلالية بعد تدمير واندثار سجلماسة كما ذكر ليون الإفريقي (الحسن الوزان) فقد أصبحت متجاوزة نظرا لوجود قصور معاصرة لمدينة سجلماسة أشارت إليها المصادر التاريخية بحكم الأدوار التي اضطلعت بها في تلك الفترة.

2- القصور الفيلالية قبل اندثار سجلماسة

ظلت القصور الواحية طيلة العصر الوسيط مكونا أساسيا من مكونات العمران البدوي إلى جانب المدن والقرى والمنازل(1)، لذلك لا غرو أن يصادف الباحث في تاريخ القصور الفيلالية ومعمارها مجموعة من القصور التي شيدت خلال الفترة الوسيطة وعاصرت مدينة سجلماسة التي شكلت عاصمة منطقة تافيلالت، مما جعل علاقة هذه المدينة بباديتها تتسم بالتكامل الاقتصادي(2).

وفي هذا الإطار، فإن أقدم إشارة للقصور الفيلالية التي عاصرت مدينة سجلماسة خلال العصر الوسيط، قبل تعرضها للتخريب والتدمير في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، تشير إلى أن بناء كل من قصر "الجبيل" وقصر "آبار" يرجع للقرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، حيث يذكر الباحث روجي فور (R. Faure) أن قصر الجبيل الذي تتألف تركيبته البشرية من العنصر العربي وفئة الأحرار وبعض الأسر من قبائل آيت ازدك يرجع إلى القرن 5هـ/11م(3)، وهي الفترة ذاتها التي يرجع جاك مونيه (J. Meunie) إليها بناء قصر آبار، وإن كان موقع هذا القصر المتميز على الضفة اليسرى لوادي زيز من شأنه أن يشجع على الاستقرار به قبل هذه الفترة(4).

وإذا كان بعض الباحثين قدموا إشارات تؤرخ لبعض القصور الفيلالية في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، فإن المصادر التاريخية لا تقدم معطيات فيما يتعلق بالقرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، حيث لا يعثر الباحث على نتف أو

1- محمد حسن، الجغرافيا التاريخية لأفريقية، م. س، ص. 45.

2- حسن حافيظي علوي، سجلماسة وإقليمها، م. س، ص. 113.

3 - Faure (R), Le tafilalest étude d'un secteur traditionnel d'irrigation, Paris, 1969, p. 167.

4 - Meunie (J), Abbar cité Royale du Tafilalest, op. cit, p. 63.

شذارت تؤرخ لقصور تم تشييدها في تلك الفترة(1). بخلاف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي الذي عرفت فيه منطقة تافيلالت ازدهارا معماريا تمثل في تشييد مجموعة من القصور، إذ يذكر ابن الزيات التادلي (ت. 627 أو 628 هـ/1230م) في معرض حديثه عن المتصوف أبي العباس التوزي (توفي في حدود سنة 610 هـ/1214م) بأن هذا الأخير " اعتكف ... برابطة أنبدور خارج مدينة سجلماسة"(2)، ومعلوم أن قصر انبدور يقع بمشيخة بني امحمد إلى الشمال الغربي من موقع سجلماسة(3). كما أن هذه الإشارة إذا كانت تفيد في التأريخ للفترة التاريخية التي وجد فيها قصر انبدور، فإنها تبرز الإشعاع الديني الذي قامت به القصور الفيلائية(4) إلى جانب الوظائف الأمنية والاقتصادية والاجتماعية والتنظيمية.

صفوة القول، إن منطقة تافيلالت في العصر الوسيط عرفت تشييد مجموعة من القصور التي كانت موجودة في الفترة السجلماسية بالمنطقة وعاصرت وجودها، وساهمت في الإشعاع الحضاري والاقتصادي الذي لعبته حاضرة سجلماسة منذ بنائها إلى أن تم تدميرها، وأبرز هذه القصور يبينها الجدول التالي :

1- حسن حافيظي علوي، سجلماسة وإقليمها، م. س، ص. 120.

2- ابن الزيات (يوسف بن يحيى التادلي)، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، 1984، ص. 412.

3- لحسن تاوشيخت، عمران سجلماسة، ج. 2، م. س، ص. 427.

4- حسن حافيظي علوي، سجلماسة وإقليمها، م. س، صص. 120-121.

جدول رقم 3 : أهم قصور منطقة تافيلالت قبل تدمير مدينة سجلماسة

اسم القصر	الموقع	فترة البناء	دلالة الاسم	الوضعية الحالية
قصر الجبيل	يقع شمال غرب جماعة سجلماسة	القرن 5هـ/11م (1)	اسم جغرافي يعني جبل صغير (2)	القصر لا زال السكان يقطنون به حاليا
قصر آبار المخزن	يقع بالقرب من ضريح مولاي علي الشريف على الضفة اليسرى لوادي زيز بمقاطعة وادي ايفلي	القرن 5هـ/11م (3)	القصر بعد توسعه استقر به بعض أفراد عائلة السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام (4)	القصر حاليا لا يقطنه السكان وآيل للسقوط
قصر انبدور	يقع شمال موقع سجلماسة الأثري على بعد خمسة كلم	القرن 7هـ/13م	كلمة أنبدور تعني العتبة أو الحكاية أو الملحمة (5)	تعرض هذا القصر للهدم بعد هجرة ساكنته المتألفة من القبائل العربية نتيجة الغارات التي تعرض لها من لدن قبائل بني امحمد التي تحالفت مع قبائل آيت عطا خلال القرن 18م (6)
القصر الجديد بالغرفة	يقع نحو الجهة الجنوبية الشرقية من موقع مدينة سجلماسة المدرسة	القرن 7هـ/13م (7)	اشتق الاسم من فعل غرف بمعنى أخذ الماء، كما يمكن أن تعني الملحقة التي تسمى محليا "المغرفة" (8)	القصر لا زال قائما ويقطنه السكان رغم تآكل بعض جنبات القصر التي أصبحت آيلة للسقوط

1 - Faure (R), Le tafilalet, , op. cit, p. 167.

2- لحسن تاوشيخت، عمران سجلماسة، ج. 2، م. س، ص. 693.

3 - Meunié (J), Abbar cité Royale du Tafilalet, op. cit, p. 63.

4- لحسن تاوشيخت، عمران سجلماسة، ج. 2، م. س، ص. 535.

5- حسن حافيظي علوي، سجلماسة وإقليمها، م. س، ص. 121.

6- امبارك بوعصب، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت، م. س، ص. 35.

7- ابن السكاك، نصيح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام، مخطوطة بالخرزانة العامة، الرباط، رقم د.

8- حسن حافيظي علوي، سجلماسة وإقليمها، م. س، ص. 126.

قصر صوصو	ينتمي لمشيخة وادي ايفلي ويقع شرق موقع مدينة سجماسة	القرن 7هـ/13م	قصر يسكنه شرفاء علويون(1)	القصر لازال قائما إلى اليوم ويقطنه السكان
قصر أولاد عبد الحليم	يقع على بعد ثلاثة كلم إلى الجهة الشرقية من موقع سجماسة الأثري	762شبيده عبد الحليم بن أبي علي الذي حكم سجماسة ما بين 762- 763هـ/ 1361- 1362م(2)	نسبة إلى مؤسسه عبد الحليم بن أبي علي الذي حكم سجماسة ما بين 762-763هـ/ 1361-1362م	القصر اليوم شبه فارغ من السكان ومعظم مرافقه تعيش الهشاشة وآيلة للسقوط. الدار الكبيرة بالقصر لازالت تحتفظ بجل مرافقها الأساسية ومكوناتها المعمارية.
قصر أخنوس	يقع بالقرب من ضريح المولي على الشريف على بعد حوالي 150م غربا.	القرن 7هـ/13م	نسبة إلى الغلام الذي كان مملوكا للمولي على الشريف، وأخنوس كلمة أمازيغية تعني الغلام(3)	القصر في يومنا هذا في وضعية أقل ما توصف به أنها هشّة ومتآكلة في مختلف مرافقه. رغم ترميم سور القصر بالجهة الشمالية، حيث يتم تعويض السور الرئيسي بآخر من الاسمنت والحجارة.
قصر تابوعصامت	ينتمي هذا القصر لمشيخة السفالات ويقع على بعد سبعة كلم جنوب مدينة الريصاني	ما قبل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي(4)	كان القصر يسمى في البداية بالقصبة، التي كانت تضم قصرين شمالي وجنوبي،(5)	القصر لازال قائما إلى اليوم وتقطنه بعض الأسر رغم تنامي ظاهرة انفجار القصور بأحوازه

1- لحسن تاوشخت، عمران سجماسة، ج. 2، م. س، ص. 692.

2- حسن حافيظي علوي، سجماسة وإقليمها، م. س، ص. 122.

3- العلوي المدغري أحمد بن عبد العزيز، الأنوار السنية في نسبة من بسجماسة من الأشراف المحمدية، تحقيق عبد
الكريم الفيلاي، الرباط، 1972، ص. 59.

4 - Meunié (J), Abbar cité Royale du Tafilalet, op. cit, p. 63.

5- لحسن تاوشخت، عمران سجماسة، ج. 2، م. س، ص. 481.

3- القصور الفيلازية بعد اندثار سجلماسة

عرفت منطقة تافيلالت بعد تعرض مدينة سجلماسة للتدمير والتخريب بناء وتشبيد مجموعة من القصور، اضطلعت بوظائف أمنية واقتصادية واجتماعية وثقافية، جعلت الإشعاع الحضاري بالمنطقة ينتقل من المدينة المندرسية إلى القصور التي أصبحت مراكز فاعلة في إنعاش الاقتصاد من خلال الاستمرار في مزاولة نشاط التجارة الصحراوية، وكذا في كونها غدت تشكل مراكز للقرار بعد التخلص من التبعية التي كانت تعيشها في ظل مدينة سجلماسة.

وفي هذا السياق، يذكر الحسن الوزان بأنه بعدما أصبحت مدينة سجلماسة خربة "تجمع سكانها في القصور، وتفرقوا هنا وهناك في الإقليم"⁽¹⁾، وهي الإشارة ذاتها التي أوردها الفقيه الثائر ابن أبي محلي، حيث ذكر بأنه بعد تدمير سجلماسة "انتقل أهلها منها وتفرقوا في أرجائها فعمروا بالقرى والحصون والقصور الكبار والصغار"⁽²⁾.

ما يمكن استنتاجه من هذه النتف والإشارات المصدريّة أنها تفيد في تتبع المجال الذي شيدت به القصور بمنطقة تافيلالت بعد اندراس سجلماسة، إذ إن الحسن الوزان يذكر بناء قصور ضخمة في مناطق الإقليم⁽³⁾ ومعلوم أن إقليم سجلماسة عند الحسن الوزان "يمتد على مسافة عشرين ميلا على نهر زيز من الشمال إلى الجنوب، ويشمل ما يقرب من ثلاثمائة قصر كبير وصغير، فضلا عن المداشر"⁽⁴⁾ وإذا علمنا بأن الميل الواحد يساوي 1340 متر فإن مساحة إقليم سجلماسة يمكن تحديدها بحوالي 36000 كلم مربع⁽⁵⁾ وهذا يعني أن قصور جماعة عرب الصباح زيز التي تضم قصور المعاضيد وتيزيمي تدرج ضمن إقليم سجلماسة الذي تحدث عنه الحسن الوزان، وبالتالي يمكن وضع فرضية بداية تشييد هذه القصور بعد انهيار سجلماسة وتخريبها خلال عهد الدولة المرينية، وما يزكي هذه الفرضية بالنسبة لقصور المعاضيد على سبيل المثال كثرة المقابر المحيطة بمحيطها، الذي

1- الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج. 2، ص. 128.

2- ابن أبي محلي، الإصليّة الخريت، م. س، ص. 20.

3- الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج. 2، ص. 121.

4- المصدر نفسه، ج. 2، ص. 125.

5- بلبكري عبد العزيز، تافيلالت ودلالاتها في المصادر التاريخية، م. س، ص. 8.

تتواجد به خمس مقابر لا زالت آثارها بادية للعيان إلى يومنا هذا أربعة منها متقاربة بجوار السور الشرقي للقصور المعاضيدية الأم (المكابر، العبادلة، القصير).

وغني عن البيان أن الحسن الوزان، الذي زار منطقة تافيلالت في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي وبقي "مرة سبعة أشهر بقصر المامون"⁽¹⁾ ذكر بأنها كانت تضم "ما يقرب من ثلاثمائة قصر كبير وصغير، فضلا عن المداشر. وأهم القصور فيه ثلاثة : الأول يسمى تنجيوت ... والثاني يسمى تبعضامت ... والثالث اسمه المأمون"⁽²⁾.

وفيما يخص هذه القصور الثلاثة، فإن قصر تنجيوت لم يعد له وجود وبقي فقط اسمه يطلق على مشيخة تقع بالجزء الشمالي للواحة من أهم قصورها مزكيدة والقصر الفوقاني⁽³⁾، كما أن قصر المامون تعرض للتخريب سنة 1830⁽⁴⁾، أما قصر تابوعصامت فإنه لا زال قائما إلى يومنا هذا ويقطنه السكان "أكثر من كل بقية الإقليم"⁽⁵⁾. وقد ذهب أحد الباحثين إلى تفسير تركيز الحسن الوزان على هذه القصور الثلاثة نابع من أنها كانت خاضعة للعصبية المعقلية التي كانت تفرض سيطرتها على مجالات منطقة تافيلالت⁽⁶⁾.

كما أن من بين القصور التي ساهمت في الإشعاع الحضاري بالمنطقة بعد اندراس سجلماسة، قصر "أبو عام" الذي يقع في الجهة الشرقية لموقع سجلماسة الأثري الذي اضطلع بمهمة تجهيز القوافل التجارية قبل انطلاقها في رحلتها عبر الصحراء الكبرى⁽⁷⁾، فضلا عن ارتباط القصر بعلاقات تجارية مهمة مع مجموعة من المدن المغربية كفاس ومراكش ومنطقة درعة⁽⁸⁾.

1- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 2، ص. 128.

2- م. ن، ج. 2، ص. 125-126.

3- لحسن تاوשיخت، واحة تافيلالت من المدينة إلى القصور، مجلة واحات تافيلالت، العدد الأول، السنة الأولى، أكتوبر 2014، ص. 7.

4- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 2، هامش الصفحة 126.

5- م. ن، ج. 2، ص. 128.

6- سعيد واحي، سجلماسة/تافيلالت من اندراس المدينة إلى واحة القصور، م. س، ص. 50.

7- حسن حافيظي علوي، سجلماسة وإقليمها، م. س، ص. 128.

8- لحسن تاوשיخت، عمران سجلماسة، ج. 2، ص. 488.

ومن نافلة القول، إنه إذا كانت مجموعة من القصور بعد تخريب سجلماسة قد اضطلعت بأدوار كبرى أمنية واقتصادية واجتماعية وثقافية مثل قصر تابوعصامت وغيره، فإن هذه القصور في عهد الدولة السعدية استمرت في أدوارها "وبخاصة قصر الشرفاء الحسنيين المعروف أيام السعديين بالقصبة السجلماسية"⁽¹⁾.

وقبل سيطرة العلويين على منطقة تافيلالت "بنى أهل الساحل السوسيون في تافيلالت وفي درعة قصورا وقصبة ... وفي عام 1041هـ أخذ أبو حسون تافيلالت وبنى فيها قصبة"⁽²⁾.

وأما القصور التي شيدت في عهد الدولة العلوية فهي متعددة، حيث سبق وأن أشرنا في المبحث الخاص بالتطور التاريخي لمنطقة تافيلالت زمن حكم العلويين بأن المنطقة عرفت ازدهارا عمرانيا تمثل في بناء مجموعة من القصور المخزنية والقصبات وغيرها سواء في عهد العلويين الأوائل زمن حكم السلطان المولى امحمد والمولى الرشيد والمولى اسماعيل أو في عهد السلاطين الذين أتوا بعدهم، وهكذا يشير ابن زيدان إلى أن المولى اسماعيل "أسس الدور العديدة لأولاده بسجلماسة لكل واحد قصرا أو دارا وأعطى لكل على حدا نخيلا وأرضا للحرثة والغراسه ومن يقوم به من الممالك كل على قدر رتبته ومكانته لديه، ومن ذلك قصبة مولاي المامون بتيزيمي"⁽³⁾.

كما أنه في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، تم بناء عدة قصور بمشيخة وادي إيفلي (وادي الشرفاء)، من بينها قصر مولاي المستعين، علاوة عن قصبة الحذب وقصبة أبي القاسم الزباني وقصر الدار البيضاء⁽⁴⁾. فضلا عن بناء القصور والقصبات بالمنطقة، اهتم سلاطين الدولة العلوية بترميم وإصلاح أسوار بعض القصور بالمنطقة، وذلك ما تجلى في الدعم المالي الذي قدمه السلطان المولى سليمان (1792-1822م) لمولاي المامون بن الهاشمي بن ملوك لإصلاح داره وسور قصبة سيدي ملوك، والذي يقدر "بمائة مثقال"⁽⁵⁾.

1- حجي محمد، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج. 2، مطبعة فضالة، المحمدية، 1978، ص. 519.

2- المختار السوسي، إلغ قديما وحديثا، ص. 91.

3- ابن زيدان، المنزع اللطيف، م. س، ص. 387.

4- الناصري، الاستقصا، ج. 8، م. س، ص. 69.

5- الوثيقة رقم 28290، الوثائق الملكية (ينظر الوثيقة رقم 1 في الملحق).

واستمر البناء والتشييد في عهد السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام (1822-1859م)، الذي شيد قصر آبار لأولاده المولى عبد الله ولالة رقية والمولى الحسين في شوال سنة 1243هـ/1830م⁽¹⁾، فضلا عن قصر أولاد عبد الحليم وقصر الفيضة الذي يقع على بعد أربعة كلم شمال شرق مدينة الريصاني.

يستنتج مما سبق أن منطقة تافيلالت في عهد الدولة العلوية عرفت ازدهارا عمرانيا تمثل في بناء مجموعة من القصور والقصبات لعبت أدوارا متعددة نابعة من كون هذه المنطقة شكلت مهد الدولة العلوية، وهو ما جعل القصور الفيلالية تستمر في إشعاعها الحضاري في الفترة الحديثة والمعاصرة.

صفوة القول إن منطقة تافيلالت بعد اندثار مدينة سجلماسة عرفت بناء قصور متعددة بها سواء في نهاية الفترة المرينية أو فترة حكم الأشراف السعديين أو في الفترة العلوية، وقد اضطلعت هذه القصور بمهام وأدوار ووظائف متعددة لا تقل أهمية عن الإشعاع الحضاري الذي لعبته مدينة سجلماسة طيلة العصر الوسيط. غير أن السؤال الذي يطرح في هذا الصدد هو : ما موقع الأبعاد الأمنية والعسكرية للقصور الفيلالية ضمن الوظائف التي لعبتها تلك القصور بعد بنائها؟

1- ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 5، م. س، 562.

الفصل الخامس :

البعد العسكري في تخطيط القصور الفيلاية

الفصل الخامس : البعد العسكري في تخطيط القصور الفيلاية

تتميز قصور تافيلالت بتنوع منشآتها العمرانية والمعمارية التي تمثل الهندسة النموذجية لراحة تافيلالت التي تمتد على طول وادي زيز، وتعبر عن براعة الإنسان الواحي وتفاعله مع المحيط الحيوي للقصور، وكذا في التكيف مع الوسط الذي يعيش فيه. ويعكس هذا التنوع والغنى الذي يزخر به عمران قصور تافيلالت تنوع تاريخها وجغرافيتها ونمط حياة ساكنتها ومعتقداتهم الروحية وحاجاتهم للأمن والأمان. مما يبرز أهمية اختيار هذا النمط العمراني وأسلوب بنائه وتشكيله الهندسي من لدن ساكنة المنطقة ومدى تناسبه مع حياتهم الذهنية والثقافية وتلبيته لحاجياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدفاعية وتنظيم شؤونهم السياسية.

ويهدف هذا الفصل في المبحث الأول إلى إبراز الضوابط المتحكمة في إنشاء القصور بتافيلالت عبر التطرق لأشكال الملكية العقارية التي شيد عليها القصر، وكذا تخطيطه والعوامل المتحكمة في ذلك التخطيط، أما المبحث الثاني فتم تخصيصه للحديث عن الوظائف المتعددة التي اضطلعت بها قصور تافيلالت منذ بداية ظهورها، وذلك من خلال إبراز مجموع الوظائف التي يقوم بها القصر الفيلاي، مع التركيز على أهمية الوظيفة العسكرية والدفاعية في تحقيق الأمن والأمان لساكنة القصر بواحة تافيلالت.

ويقدم المبحث الثالث من هذا الفصل صورة تقريبية عن البنية العمرانية لقصور تافيلالت وإبراز المكونات المعمارية المشتركة والخاصة داخل الأسوار، وكذا ما يزخر به المجال الحيوي لفضاء القصر، فضلا عن التطرق للوظائف الأمنية والاقتصادية والسكنية التي اضطلعت بها القصور الفيلاية منذ بنائها.

1- ملكية الأرض العقارية لبناء القصر

لاشك أن دراسة تاريخ ملكية الأرض وتملك القصر أمر محفوف بمجموعة من المخاطر والمزالق، ولعل ذلك ما جعل الباحث (L. Valensi) يعتبر تاريخ تطور الملكية العقارية بالمغرب عامة بالمجال المظلم⁽¹⁾. وما يزيد من غموض هذا المجال هو غياب الإشارات المصدرية التي من شأنها أن تسعف الباحث في كشف الخبايا المتعلقة بملكية الأرض العقارية التي بنيت فوقها القصور بتافيلالت، غير أن الذي لا جدال فيه أن نظام الملكية في الواحات يبقى الأساس الذي تنبني عليه العلاقات الاجتماعية ومصدرا من مصادر التمايز فيما بين العائلات، حيث إن كثرة السكان وندرة الملكية ساهما في تعميق وترسيخ هذا التمايز من جهة، وكانت مساهمتها في بناء وتشكيل مجتمع الواحات مساهمة حاسمة من جهة أخرى⁽²⁾.

والحقيقة أن عملية تأسيس القصر وإنشائه؛ وعلى غرار المدن والحوضر الإسلامية ترتبط بشكل كبير بالمسألة العقارية⁽³⁾، ولعل ما يلفت الانتباه بقصور تافيلالت أو غيرها من القصور الصحراوية أنها قد اختلفت في أوضاع الأرض العقارية المستعملة لبناء القصر وتشبيده أول الأمر، وذلك وفق ملكية الأرض الزراعية التي كانت سائدة بالمنطقة، والتي تراوحت ما بين أراضي الجماعة وأراضي الخواص وأراضي الأحباس⁽⁴⁾ والأراضي المشاع.

وفي هذا السياق، نجد بعض القصور الفيلايلية قد شيدت فوق أرض مشاع بين مجموعة القصر التي ساهمت وشاركت في البناء، وهذا النوع ينطبق على تلك القصور التي شيدت من لدن القبائل الرحل التي استقرت واستوطنت بالمنطقة أو كذا القصور التي

1- عبد اللوي علوي أحمد، مدغرة وادي زيز: إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث، ج. 2، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1996، ص. 08.

2- عبد المجيد قدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليية الخريت، م. س، ص. 57.

3- محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية، م. س، ص. 46.

4- عبد اللوي علوي أحمد، مدغرة وادي زيز، ج. 2، م. س، صص. 08-09.

شيدت بعد اندراس سجلماسة التي "انتقل أهلها منها وتفرقوا في أرجائها فعمروا بالقرى والحصون والقصور الكبار والصغار"(1). كما أن قصورا بنيت في ملكية مشتركة يكون لكل واحد من جماعة القصر قسط ونصيب(2).

في حين انتمت أرض بعض القصور إلى فرد أو قبيلة من الجماعة المؤسسة للقصر، والتي تضطر في الحالات القصوى إلى شراء الأرض لبناء القصر، ولعل هذا النوع ينطبق على القصور المخزنية والقصبات التي شيدت من لدن السلطان أو من يمثل السلطة المركزية بالمنطقة مثل بناء السلطان المولى اسماعيل قسبة مولاي المامون التي اندرست لابنه بتيزيمي(3). ويستفاد من الرسالة التي وجهها السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام (1822-1859م) إلى ولده سيدي محمد بتاريخ 28 جمادى الثانية 1236هـ أن سلاطين الدولة العلوية أثناء توسيع القصور المخزنية بمنطقة تافيلالت يقومون بشراء الأرض من أصحابها، حيث إن السلطان في هذه الرسالة يأمر ولده بعد شراء القطعة الأرضية أن يقوم بتعويض "أربابها لموافقتها للزيادة في عرصة دارنا بآبار"(4).

كما أن هناك إشارة في إحدى الوثائق الخاصة بنسب "قصير الشرفاء"؛ رغم حدوثها؛ والذي يعتبر من قصور تيزيمي، تفيد بأن تخطيط القصور التيزيمية تم بعد "شراء البلاد بوادي عرب الصباح"(5)، حيث إن "الشرفاء الإدريسيين المشهورين أولاد بنعيسى بوادي عرب الصباح تيزيمي بأرفود تافيلالت"(6) اشتروا البلاد "واقسموها بينهم"(7).

1- ابن أبي محلي، الإصليات الخريت، م. س، ص. 20.

2- محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية، م. س، ص. 46.

3- الزباني أبو القاسم، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف، دراسة وتحقيق الزاوية رشيد، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، الطبعة الأولى، 1992، ص. 180.

4- الوثيقة رقم: 29241 بسجل الوثائق الملكية، ينظر الوثيقة رقم 2 في الملحق.

5- وثيقة خاصة بنسب شرفاء قصير الشرفاء بتيزيمي، ينظر الوثيقة رقم 6 في الملحق.

6- المصدر نفسه.

7- المصدر نفسه.

بقي أن نشير إلى أن الوقائع التاريخية المرتبطة بقصور تافيلالت، تبين بأنه في بعض الأحيان يتم تشييد القصر على أنقاض مدينة أو قصر سابق، مثل بناء القسبة السجلماسية على أنقاض مدينة سجلماسة بعد اندثارها⁽¹⁾.

كما أنه في هذا المساق، أورد ابن هلال نازلة تظهر النزاع بين الناس في عصر بمنطقة تافيلالت حول السكن والاستقرار بأحد الحصون المهدمة وإعادة بنائه، حيث "قام فريق منهم قبل هذا الزمان بنحو من ثلاثين عام إلى حصن مهذوم، فبنوه وأصلحوا منه ما وَهَيَ وسكنوه، يتصرفون فيه بأنواع التصرف، إلى الماضي -قبل عامنا هذا- قام الفريق الثاني عليهم مدعين بأن لهم في الحصن المذكور حقاً"⁽²⁾.

بقي أن نشير إلى أنه في بعض الأحيان يتم الاستيلاء على أرض القصر بالقوة أو على القصر بكاملة عنوة، مثل ما فعلت بعض قبائل الصحراء من عرب الصباح وأمازيغ حلف آيت عطا سنة 1231هـ/ عندما استولت على بعض القصور المخزنية التي تم تشييدها في عهد المولى اسماعيل بمنطقة تافيلالت، مما جعل السلطان المولى سليمان يكلف ابنه المولى ابراهيم للقيام بحركة تأديبية لهذه القبائل⁽³⁾.

صفوة القول، إن هناك تباينا واختلافا في ملكية الأرض التي بنيت عليها قصور تافيلالت، حيث يظهر مما تقدم بأن القصر إما أنه تم إنشاؤه فوق الأراضي المشاع أو على الأراضي ذات الملكية المشتركة، أو في أراض تم شراؤها، أو على أنقاض بناية سابقة عليه أو على أرض تم الاستيلاء عليها.

2- العوامل المتكئة في تخطيط القصر بتافيلالت

إن تخطيط قصور تافيلالت بحوض زيز الأسفل الذي يوفر ثروة مائية هامة للسكان ويساهم في وجود غطاء نباتي قوامه أشجار النخيل الياغة في محيط القصر الحيوي، وكذا في منطقة تجارية شكلت صلة وصل بين العالم المتوسطي والعالم الإفريقي قبل الكشوفات

1- لحسن تاوشخت، عمران سجلماسة، ج. 2، م. س، ص. 495.

2- ابراهيم بن هلال السجلماسي، نوازل ابن هلال، مخطوط بمؤسسة آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، البيضاء، م. س، [52ب].

3- أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، ج. 7، م. س، ص. 168.

الجغرافية يميّط اللثام عن أسباب تخطيط القصر الفيلاي بهذا الموضع الذي يغلب عليه طابع الانبساط. وعموما فإن العوامل التي أثرت وتحكمت في تخطيط القصور بتاڤيالات يمكن إجمالها في عوامل جغرافية، وعوامل أمنية وأخرى سوسيو اقتصادية وثقافية.

إن أهمية العامل الجغرافي في تخطيط قصور تاڤيالات يتمثل في كون موقعها ضمن الجنوب الشرقي المغربي جعل الحياة بهذه القصور الواحية تتسم بندرة الأراضي المزروعة والماء، مما حتم على السكان تخطيط القصر وسط الحقول وعدم تبذير الأراضي الزراعية، والاعتماد على الاستغلال العمودي للفضاء ببناء منازل ذات طابقين بدل الانتشار الأفقي⁽¹⁾، ويظهر استحضار العامل البيئي في تخطيط قصور تاڤيالات في إنشاء المكونات العمرانية للقصر بمواد البناء المحلية المتوفرة بكثرة كالتراب المدكوك (الطابية) وغيره.

وفي ضوء ذلك، أصبح المبدأ الأساسي للقصر هو اندماجه العضوي مع المناخ والطبيعة، مما جعل القصر الفيلاي الذي تكون على غرار المدينة الإسلامية وفق تخطيط محكم وتبدير مسبق منسجما مع الضرورات المناخية ومستجيبا لمتطلبات الإنسان الواحي الذي يعيش في هذه البيئة الجغرافية التي رسم حيزها المكاني بأسلوب حياة وتقاليده الساكنة وشكل تطوره⁽²⁾.

وأما أهمية العامل الأمني في تخطيط القصر فتتمثل في ضخامة الأسوار الخارجية وكثرة الأبراج التي تتخلها للمراقبة، بالإضافة إلى الأبواب الضخمة ذات المدخل المنعرج أو المستقيم للقصر، بالإضافة إلى تزويد مداخل الدروب بالأبواب الخشبية التي لازالت آثارها بادية للعيان في الزمن الراهن ببعض قصور المنطقة. فضلا عن بناء أبراج منعزلة للمراقبة والإعلام بأي خطر يتهدد القصر. وتجدر الإشارة إلى أن هذه العناصر سنفصل فيها القول في الفصول الموالية.

ويظهر تأثير العوامل الاقتصادية في التخطيط العمراني لقصور تاڤيالات في أن بعض هذه القصور شكل ممرا للقوافل التجارية أو ظلت تزاوّل نشاطات كثيرة في مجال

¹ - آيت حمزة محمد، مادة القصر، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للنشر والتأليف، نشر مطابع سلا، 2004، المجلد 19، ص. 6638.

² - عفيف البهنسي، الفن الإسلامي، دار طلاس للدراسة والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الثانية، 1998، ص. 116.

التجارة الصحراوية كما لو كانت سجلماصة ماتزال قائمة⁽¹⁾، مما ساهم في رسم الطابع المعماري العام لها من خلال مكوناتها المعمارية، فضلا عن الإمكانيات الفلاحية المتفردة بغابة محيط القصر من حيث اتساعها، وكذا في توفر تربة ملائمة لغرس أنواع النخيل الجيدة، ووجود مجال رعوي واسع وفسيح.

ويتجلى تأثير العوامل السوسيو ثقافية في تخطيط قصور تافيلالت في كون هذه القصور تبرز بأن العمارة نتاج تفاعل فكري بين أفراد أي مجتمع وما ترسخ لديه من قناعات⁽²⁾. كما أن أثر العامل الروحي⁽³⁾ والديني في تخطيط القصر الفيلاي يتجسد في إنشاء المسجد بكل قصر من قصور منطقة تافيلالت.

3- تخطيط القصر الفيلاي ومكوناته الأساسية

1.3 تخطيط القصر الفيلاي

تتكون القصور الفيلاية على غرار القصور الصحراوية من فضاء مشترك يشمل مكونات العمارة العسكرية من أسوار وأبواب وأبراج وشرفات وخنادق والعمارة الدينية والمدنية، ومن فضاء خاص يضم المجال السكني المتكون من المنازل وملحقاتها. وبمقارنة هذه المكونات العمرانية لقصور تافيلالت مع التخطيط الذي عرفته المدينة الإسلامية الوسيطة يمكن القول إن تخطيط قصور تافيلالت لم يخرج عن شروط تأسيس المدن الإسلامية التي أشرنا إليها في الفصل الثاني من هذا البحث.

وبالرجوع إلى التراث الفقهي ومقاصد الشريعة الإسلامية يتجلى بأن جل الشروط الواجب اتخاذها عند تخطيط المدينة الإسلامية نجدها حاضرة ومجسدة في المكونات والبنية العمرانية لقصور تافيلالت، فإذا كان أول شرط -كما جاء عند ابن الربيع- هو أن يسوق إليها الماء العذب ليشرب حتى يسهل تناوله من غير عسف⁽⁴⁾، فإن الماء متوفر بقصور تافيلالت التي تأسست بالقرب من حوض زيز الأسفل، إذ أن السكان كانوا يجلبون الماء

¹ - حسن حافيظي علوي، سجلماصة وإقليمها، م. س، ص. 128.

² - عبد اللوي علوي أحمد، مدغرة وادي زيز، ج. 1، م. س، ص. 216.

³ - عفيف البهنسي، الفن الإسلامي، م. س، ص. 118.

⁴ - ابن أبي الربيع (سليمان): سلوك المالك في تدبير الممالك، م. س، ص. 192.

العذب بالدواب إلى المنازل، كما أن الماء متوفر كذلك بجميع قصور تافيلالت، حيث نجد بمعظم القصور بئرا عموميا بساحة القصر أو بالمسجد يسمى محليا بـ "الحاسي"، بل إن كثيرا من الدور السكنية تتوفر على آبار داخل جدرانها.

وفيما يخص الشرط الثاني المتمثل في التخطيط المحكم لطرق وشوارع المدينة الإسلامية، يلاحظ أن أزقة ودروب القصر الفيلاي تشكل هيكله، فهي تعتبر بمثابة شريان القصر الذي يربط بين قلبه وبقيّة أطراف جسده فينظم بذلك حركته⁽¹⁾. والشرط الثالث لابن الربيع يتعلق بوجود مسجد جامع داخل المدينة الإسلامية، وهذا ما نجد له تجسيدا بقصور تافيلالت التي يوجد بكل قصر منها مسجد وسط القصر.

ويرتبط الشرط الرابع في تخطيط المدينة الإسلامية بالأسواق، فإنه كان حاضرا بصورة ضمنية ببعض القصور وبشكل مباشر في قصور أخرى مثل قصر أبو عام الذي شهد رواجاً كبيراً لسلع بلاد السودان⁽²⁾. وغيرها من الشروط التي ميزت المدينة الإسلامية عبر التاريخ، والتي نجدها حاضرة في جل مرافق القصر الداخلية والخارجية ومجاله الحيوي وسط الحقول أو على هوامشها.

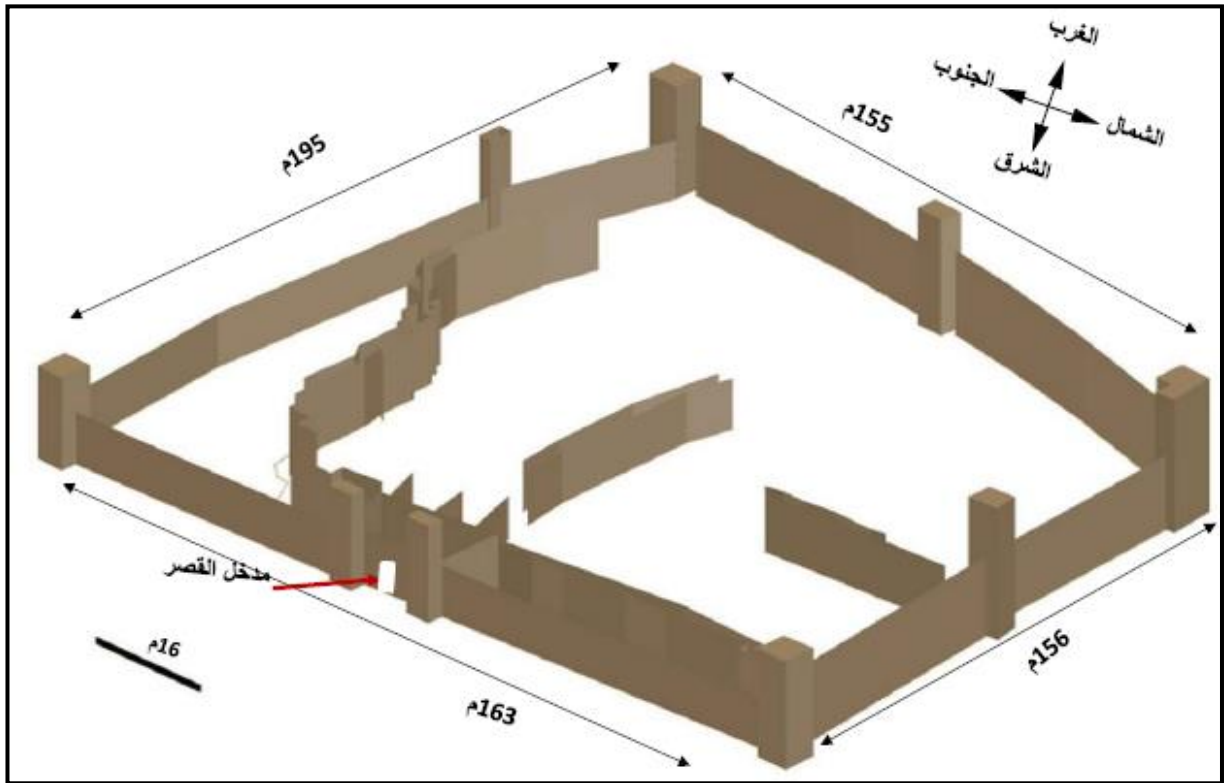
يتضح مما سبق أن تخطيط قصور تافيلالت بمرافقها المشتركة والخاصة شكلت وحدة عمرانية متكاملة الوظائف، مما جعل القصر الفيلاي يستجيب للطابع العام للعمارة الصحراوية التي لا تخرج عن إطار ضوابط العمارة العربية الإسلامية، ولا يختلف اختلافاً كبيراً عن المدينة الإسلامية، وهذا ما جعل قصور تافيلالت وتيزيمي والمعاضيد بمثابة صورة مصغرة لبعض الأحياء المُسورة بالحواسر المغربية كما يذهب إلى ذلك كثير من الباحثين⁽³⁾، والتي تندرج في سياق تخطيط المدن الإسلامية.

¹ - منى دحمون، قصر بوسمغون بولاية البيض دراسة أثرية تحليلية، رسالة لنيل درجة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2004-2005، ص. 63.

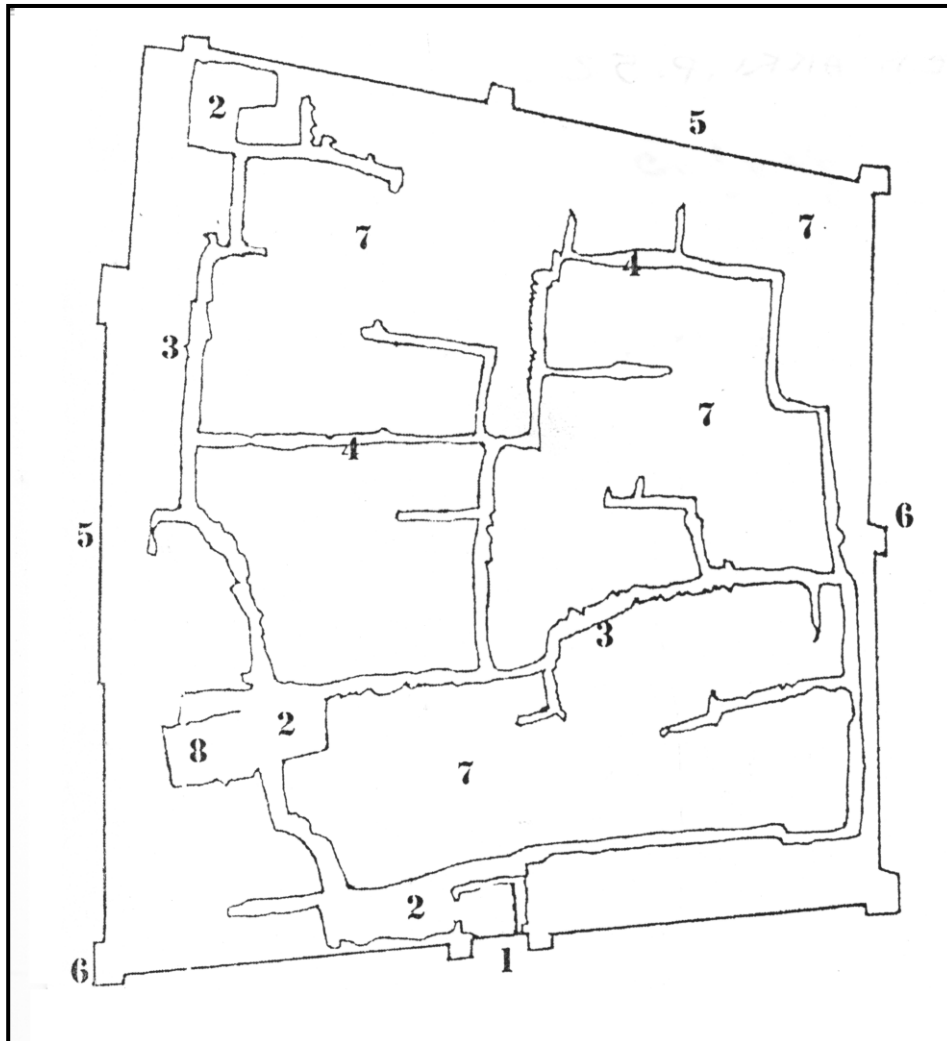
² - حسن حافيظي علوي، سجل ماسة وإقليمها، م. س، ص. 128.

³ - عوني الحاج موسى، المعاضيد، مرجع سابق، ص. 7185.

الشكل رقم 1 : تخطيط قصر أبو عام وأبعاده



المصدر : عمل شخصي 2018



الشكل رقم 2 :

المكونات العمرانية
الأساسية لقصر أبو عام

- 1-الباب الرئيسي
- 2- ممر بالقصر
- 3-الدروب الرئيسية
- 4-الزقاق
- 5-ال سور
- 6-الأبراج
- 7-الأحياء السكنية
- 8-المسجد

Source : ABA SADKI,
Urbanisme et Conservation
du patrimoine culturel
présaharien, op cit, p : 52.

2.3 المكونات الأساسية للقصر الفيلاي

يتكون النسيج العمراني لقصور تافيلالت داخل الأسوار من المجال المشترك المتمثل في الأبواب الرئيسية والساحات العمومية والأزقة والمَصْرِية والمسجد، ومجال خاص يتألف من الدور السكنية المتميزة بوحدة الواجهة، أما فضاء القصر خارج الأسوار فيضم المقابر وبعض الأضرحة والمحيط الحيوي للقصر الذي يتشكل من حقول وبساتين يانعة بأشجار النخيل أساسا. وسنركز في هذا المحور على إبراز البنية العمرانية المدنية والدينية لقصور تافيلالت، بينما مكونات العمارة العسكرية للقصر الفيلاي سنفصل القول فيها في المبحث الثالث من هذا الفصل.

1.2.3 فضاء المَصْرِية

بعد وُلُوج باب القصر يوجد بهو فسيح مغطى بخشب النخيل وجريده في الغالب الأعم عبارة عن رواق⁽¹⁾، يسمى من قبل ساكنة القصور الفيلاية بالمَصْرِية، وتتكون مصرية كل قصر، رغم اختلاف مساحتها من قصر لآخر، من عدة سَوَارٍ رباعية أم مستطيلة الأضلع وسميكة تفصل بينها ممرات ثلاثية أو ثنائية أو ممر واحد، وذلك حسب مساحة كل قصر، وتصطف على جنبات المصرية "دُكَّانَات" بمثابة كراسي تستغل من لدن السكان للجلوس، أو لإيواء عابري السبيل⁽²⁾.

وتجدر الإشارة أن المصرية لعبت أدوارا عسكرية تتمثل في كونها شكلت مقرا لإقامة "البواب" المكلف بحراسة باب القصر، وفضاء لرصد العدو ومباغتته⁽³⁾، وذلك عبر استغلال سطحها للمراقبة وحراسة مدخل القصر بفضل الثقوب المموهة بزخارف جدار

1- لحسن تاوشيخت، العمارة العلوية بتافيلالت خلال عهد المولى اسماعيل، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، الدورة الثانية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، 1990، ص. 178.

2- روجي ميمون، السكن التقليدي في واد تدغة بالمغرب، ترجمة ابراهيم الخطيب، مجلة المناهل، العدد 73-74، 2005، صص. 108-109.

3- عبد الرحمان البلعشي وآخرون، القصور والقصبات : دراسة تفصيلية لمصطلحات عمرانية، بحث لنيل دبلوم مهندس معماري، المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية، الرباط، 1992، ص. 133.

واجهة القصر والمعروف بالمزاغل (Barbacane)⁽¹⁾، كما أن للمصرية أدور "إدارية" تتجلى في احتضانها للجلسات التي تناقش فيها القبيلة شؤون تدبير القصر أو مراسم استقبال الزوار الأجانب⁽²⁾.

2.2.3 الساحة

إن الساحة عبارة عن مساحات وفضاءات مكشوفة تشكل جزءا هاما من بنية القصر، ويشكل هذا الفضاء الفسيح أهم مجالات اللقاء بين ساكنة القصر ويوفر مجالا ملائما لكل الممارسات الجماعية في القصر، لذلك تعتبر الساحات فضاءً جامعاً موحداً لساكنة القصر على غرار ما هو موجود في جل قصور المنطقة، بل وفي قصور معظم واحات بلاد المغرب في الجزائر وتونس مثل قصور بوسمغون بولاية البيض⁽³⁾ التابعة لدولة الجزائر. وتأخذ الساحات بالقصور أسماء متعددة محليا، إذ يعبر عنها من لدن ساكنة قصور المعاضيد وتيزيمي بـ "الْوَسْعَة"، وفي بعض القصور الفيلالية اسم "الساحة" و"الرحبة"، ويحمل هذا الاسم الأخير دلالة كبرى في المدينة الإسلامية، حيث إن "الرحاب" يمثل فضاء مفتوحا انفتاحا كاملا، يذكر بالساحة العامة (L'Agora) عند اليونان⁽⁴⁾ والفوروم (FORUM) في المدن الرومانية، ويقوم بوظائف تجارية ويشكل مجالا للتداول والنقاش⁽⁵⁾.

ولقصور تافيلالت ساحات مختلفة من حيث المساحة والحجم من قصر لآخر، بل إنها شبه غائبة ببعض القصور. ولقد تعددت وظائف الساحة وتنوعت حسب الفصول وحسب

1- مزغل (Barbacane) : جمع مزاغل، وهي عبارة عن فتحات رأسية ضيقة من الخارج ومتسعة من الداخل تتمركز في أعالي الأسوار والقلاع والأبراج، تطلق منها المقدوفات من رماح وسهام على المهاجمين المحاصرين، وذلك من مستويات متعددة بتعدد طوابق الأبراج. كما تعتمد المزاغل للتهوية والإضاءة والمراقبة. جمال بيلول، المصطلحات المعمارية المدنية، م. س، ص. 121.

2- آيت حمزة محمد، مادة القصر، مرجع سابق، ص. 6638.

3- دحمون منى ، قصر بوسمغون بولاية البيض دراسة أثرية تحليلية، رسالة لنيل درجة الماجستير في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ص. 66.

4- هشام جعيط، الكوفة : نشأة المدينة العربية، بيروت، 1993، ص. 107.

5- مرجع نفسه، ص. 112.

أوقات اليوم والمناسبات، إذ كانت تستغل لإقامة كل أفراح القصر⁽¹⁾ ومآتمه وكملتقى للأطفال والشبان قبيل وبعيد مغرب شمس كل يوم للعب وتبادل الحكايات⁽²⁾، كما أنه في ساحة القصر يتم الاستعداد للعمليات الحربية أو السفر، وفض النزاعات بين الفلاحين وإصلاح ذات البين إذا وقعت خصومة بين الأفراد⁽³⁾، فضلا عن مناقشة أمور الزراعة بين الفلاحين ما بين صلاتي المغرب والعشاء⁽⁴⁾.

الصورة رقم 1 : ساحة قصر العبادلة بالمعاضيد



المصدر : تصوير شخصي، شتنبر 2018.

-
- 1- روجي ميمون، السكن التقليدي في واد تدغة بالمغرب، م. س، ص. 109.
 - 2- آيت حمزة محمد، مادة القصر، معلمة المغرب، مرجع سابق، ج. 19، ص. 6638.
 - 3- دحمون منى ، قصر بوسمغون بولاية البيض دراسة أثرية تحليلية، م. س، ص. 66.
 - 4- المعاينة الميدانية لبعض قصور تافيلالت سنة 2016.

ولعل ما يلفت الانتباه في القصور الفيلائية، أنه فضلا عن الساحة العمومية، فقد انفردت القصور المخزنية بوجود ساحة داخلية وأخرى خارجية تسمى "المشور"، وهي عبارة عن ساحة كبرى شاسعة المساحة بالقصر تشيد في غالب الأحيان بجوانب مرابض الخيول وتخصص لمراسيم الاحتفال والاستقبال⁽¹⁾.

3.2.3 المسجد

تعد المساجد من العناصر المميزة للقصر، حيث لا يخلو قصر من قصور واحة تافيلالت من وجود مسجد أمام ساحة القصر أو بالقرب منها، ولا غرو في ذلك، فالمسجد؛ الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ثمانية وعشرون مرة⁽²⁾؛ مكان عبادة الله والساحة مكان تدبير شؤون الناس. وتتوفر مساجد قصور تافيلالت على جل المرافق التي تتوفر عليها باقي المساجد بالمدينة الإسلامية، من قبيل بيت الصلاة وجدار القبلة والمحراب والمنبر والميضأة والكتاب القرآني وغيرها.

وقد اختلفت مواضع هذه المساجد في قصور تافيلالت، إذ نجد بعض القصور تتوفر على المسجد في مركز القصر قرب ساحته، بينما في مساجد قصور أخرى تقع في أطراف القصر أو على الزقاق الرئيسي للقصر. وبالنسبة للمآذن بمساجد قصور تافيلالت، فقد كانت خالية منها ولم يتم إحداثها في معظم القصور إلا بعد تجديد بنائها وذلك لدواع عدة منها : صغر مساحة جل القصور مما يجعل صوت المؤذن يصل إلى جميع المنازل، إضافة إلى تفادي الإحراج الذي سيمثله صعود المؤذن إلى أعلى الصومعة على السكان المجاورين في كشف حرمة منازلهم.

4.2.3 الحوش

يُقصد بالحوش (Caravansérail) مرفق شبه عمومي يخصص للحيوانات عبارة عن فضاء غير مغطى (مكشوف) بشكل عام⁽³⁾، ومحاط بجدران يوجد غير بعيد عن الباب الرئيسي للقصر داخل قصور واحة تافيلالت، حيث إنه لكل قصر حَوْشُه الذي يتم فيه ربط

1- لحسن تاوشخت، عمران سجلماسة، ج 2، م. س، ص. 438.

2- حسين مؤنس، المساجد، سلسلة عالم المعرفة، العدد 37، يناير 1981م، ص. 13.

3- عبد الستار عثمان، التطور التاريخي لظاهرة الحوش في العمارة، مجلة عالم البناء، العدد 204، 1998، ص. 312.

الدواب، وقد كان يحق لكل قاطن بالقصر أن يضع بهذا المرفق الحيواني دوابه. كما أنه يعتبر مرفقا ضروريا لسكان القصر بحكم طبيعة أنشطتهم المعتمدة على تربية الحيوانات لما لها من فوائد كبيرة في التنقل والركوب.

وتجدر الإشارة إلى أن السكان بالقصر كانوا يقومون باقتسام الروث الذي تخلفه الدواب بالحوش بالتساوي حسب الوضع الاعتباري والانتماء القبلي لكل فرد داخل القصر⁽¹⁾. وتختلف معالم "الحوش" من قصر لآخر، إذ إن آثاره لا زالت موجودة ببعض القصور في حين طمست معالمه بقصور أخرى.

بالإضافة إلى استعمال الحوش كمرفق من لدن السكان لربط دوابهم، فقد كان يستعمل مربطا لدواب القوافل التجارية التي كانت تحط الرحال ببعض القصور التي تقع على جنبات الطرق للاستراحة أو المتاجرة، حيث إن الهندسة المعمارية للحوش —كما تؤكد الرواية الشفهية— كانت تتشكل من جناح نصف مغطى يمتد فيه النُزلاء بالقصر طيلة مدة إقامتهم التي قد تتجاوز أربعة أيام، فتتولى القبيلة مهمة توفير الطعام لهم ولدوابهم، وهذا ما يجعل الحوش على مستوى الوظيفة يقدم خدمات شبيهة بخدمات الفنادق الأصيلة التي عرفتها الحواضر المغربية خلال العصر الوسيط، غير أنه يختلف عنها من حيث تصميمه، إذ أن الحوش/الفندق بالقصور لا يحتوي على غرف كما هو الحال في فنادق المدن المغربية العتيقة⁽²⁾.

وتجدر الإشارة إلى أنه فضلا عن الحوش، نجد بعض القصور خصصت فضاء للأروية، وهي ملكية الخواص، حيث تم تجميعها في قسم خاص بعيد نسبيا عن المجال السكني. كما أن هناك أروية أخرى جنبا إلى جنب مع المنازل وداخل كل منزل يخصص قسم للدواب.

1- الرواية الشفهية ل: عبد القادر بن حسني الإدريسي الودغيري، بتاريخ 20 مارس 2012.

2 - Mezzine, Larbi, "Taqqitt de Aytaman : le recueil des règle de coutume d'un groupe de qsur de la moyen vallée de oued ziz", Université Mohammed V Faculté des Lettres et des Sciences Humains Hesperis Temuda, vol XIX, Fascicules unique 1980, p : 109.

5.2.3 الأزقة

تعتبر الأزقة أهم عناصر التخطيط العمراني للقصر التي تضمن للسكان حق المرور والوصول إلى دورهم السكنية⁽¹⁾، ويتفرع عن ساحة القصر زقاق رئيس مكشوف يصل ما بين شمال القصر وجنوبه أو ما بين شرقه وغربه يصطلح عليه محليا بـ "المحج"⁽²⁾، ويتراوح عرضه ما بين أربعة أمتار ومترين وعلوه ما بين مترين ونصف إلى أربعة أمتار. وتتفرع عن الأزقة الرئيسية بقصور تافيلالت من الجهتين اليمنى واليسرى دروبٌ تتباين في مساحتها واتساعها تنقل ساكنة القصر من المجال المشترك إلى المجال الخاص، وتحمل هذه الأزقة الثانوية (الدروب) بالقصور في غالب الأحيان أسماء قبلية ترتبط بالعائلات الكبرى التي تقطن بها. وتتميز معظم الأزقة الثانوية بقصور تافيلالت بكونها غير مكشوفة، فهي مغطاة بسقوف وهو ما يذكرنا بالساباط في المدن الأصيلة⁽³⁾، غير أنه مع سبعينات القرن العشرين استحدثت ببعض دروب القصور الفيلازية فتحات في الوسط تسمى "الضَوَايات" محليا. ويرجع سبب تسقيف هذه الدروب لحماية القصر من العواصف الرملية ومن أشعة الشمس المحرقة وللتمكن من استغلال مستواها العلوي للسكن⁽⁴⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن الأزقة بالقصور عبارة عن شوارع تنقسم إلى قسمين: الشوارع الرئيسية تعرف بالمحج والشوارع الثانوية التي يصطلح عليها بالدروب. وهذه الممرات تنتظم غالبا على صورتين⁽⁵⁾: أزقة مستقيمة يوافق امتدادها الحركة الظاهرية للشمس من الشرق نحو الغرب، وأزقة تتميز بالإلتواء والتعرج مما ينتج عنه تكسير التيارات الهوائية. كما أنها تلعب وظيفة مزدوجة تتمثل في وظيفة فضائية باعتبارها شرايين

1- عزاب خالد، فقد العمران، م. س، ص. 58.

2- البلعمشي عبد الرحمان وآخرون، القصور والقصبات، م. س، ص. 150.

3- الساباط (Corridor): عبارة عن ممر مسقوف بين جدارين وظيفته توفير الظل والحماية من أشعة الشمس للمارة. ينظر جمال بيلول، المصطلحات المعمارية المدنية، م. س، ص. 64.

4- آيت حمزة محمد، مادة القصر، معلمة المغرب، مرجع سابق، ج. 19، ص. 6639.

5- امبارك بوعصب، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت، مرجع سابق، ص. 104.

للتنقل والسير، ووظيفة تصريف المياه من خلال استعمالها كمسيلات لتصريف مياه الأمطار⁽¹⁾.

6.2.3 الدور السكنية

تمثل الدور السكنية وملحقاتها بالقصر المجال الخاص للسكان، ويتكون المجال السكني لقصور تافيلالت من مجموعة من المنازل التي تتراص كلها داخل درب تقطنه أسر متقاربة أو تجمع بينها علاقة أخرى كالدين والعرق⁽²⁾، والمنزل مكان نزول القوم وسكنهم⁽³⁾، وهو كل حيّز مبني يستعمل لإيواء عدد من الأفراد يجدون فيه السكنية والخلود للراحة، والحاجة إلى النوم، وبصفة عامة هو المسكن الذي يأوي إليه الإنسان⁽⁴⁾، له وظيفة أساسية تتمثل في السكن لذلك يعتبر المجال السكني الخلية الأساسية التي كونت النسيج العمراني للقصر، والجانب المشرق في عمارته⁽⁵⁾، ولا غرو في ذلك، حيث إن الدور السكنية تعطي للقصر طابع التماسك والوحدة مثل المدينة⁽⁶⁾.

وتتميز الدور السكنية بقصور تافيلالت؛ في تصميمها العام؛ باختلاف مساحاتها داخل القصور، وذلك راجع للوضع الاعتباري والمكانة الاجتماعية للقبيلة داخل القصر، وكذلك لعدد أفراد الأسرة القاطنة بالمنزل. حيث نجد الوحدات السكنية بالقصر تتباين في مساحتها، غير أنها لا تختلف في تصاميمها فمعظمها يأخذ الشكل المستطيل وفي حالات نادرة الشكل المربع، على نحو يجعلها متشابهة عموماً. ويرجع ذلك إلى نمط العيش وأسلوب الحياة المتبع لدى أهل القصر، والمتسم بالبساطة في التعامل مع متطلبات الحياة على غرار نمط

1- بوصلح محمد وآخرون، كُتِبَ المحافظة على التراث المعماري الطيني في الوديان المشرفة على الصحراء في المغرب، مركز صيانة وتوظيف التراث المعماري بمناطق الأطلس والجنوب (cerkas)، 2005، ص. 10.

2- البلمعشي عبد الرحمان، القصور والقصبات دراسة تفصيلية لمصطلحات عمرانية، مرجع سابق، ص. 154.

3- ابن منظور، لسان العرب، مادة نزل، م. س، ج. 50، ص. 4400.

4- حمال بيلول، المصطلحات المعمارية المدنية، م. س، ص. 25.

5- بوعصب امبارك، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت، مرجع سابق، ص. 66.

6- عفيف البهنسي، الفن الإسلامي، م. س، ص. 116.

العيش في قصور واحات تونس والجزائر⁽¹⁾، الأمر الذي يجعل سكان القصر موزعين على أركته مؤلفين مجتمعا يسوده التعاون والتكافل أوقات السلم والحرب.

ولا بد من الإشارة إلى أن منازل قصور تافيلالت تتألف غالبا من طابق أرضي وآخر علوي. وتعتبر الأبواب من المعالم الأساسية التي تتواجد بجميع الدور السكنية، وهي عبارة عن مدخل يولج إلى فضاء البيت، وتتميز أبواب منازل المعاضيد بالتكيب⁽²⁾ والانفتاح على الدروب لما لها من خصوصية. فضلا عن كون جل الأبواب بمساكن القصر الفيلاي تتسم بمدخلها المنعرج لحجب الداخل عن أنظار الخارج، إذ أن المدخل لا يؤدي مباشرة إلى داخل البيت.

كما تتميز الدور السكنية بقصور تافيلاليت وعلى غرار منازل القصور الصحراوية والواحية بمستوى كبير من الانضباط والانتظام الطوبولوجي⁽³⁾ (La topologie)، إذ يلاحظ من خلال المعاينة الميدانية بأن معظم منازل القصور الفيلاية تتكون من حجرات وغرف متشابهة ولها نفس الوظائف، حيث تتكون الدور السكنية للقصر من وحدات شبه ثابتة تتمثل في الطابق الأرضي الذي يضم السقيفة⁽⁴⁾ والصحن الذي تحيط به أروقة، والطابق العلوي الذي يصعد إليه بواسطة الدرج الذي يلتف المرحاض حوله أو بمحاذاته حسب الطريقة المعتمدة في تفرغه⁽⁵⁾، وبعد صعود الدرج يوجد السطح الذي تنتظم حوله

¹ - دحمون منى ، قصر بوسمغون بولاية البيض. مرجع سابق، ص. 43.

² - التكيب: عدم مواجهة الأبواب لبعضها البعض حفاظا على حرمة المنزل وتقادي رؤية ما بداخله. ينظر ابن الرامي (محمد بن ابراهيم)، الإعلان بأحكام البنين، تحقيق محمد عبد الستار عثمان، م. س، ص. 217.

³ - أحمد مولود ولد أيده الهلال، مدن موريتانيا العتيقة، م. س، ص. 508.

- الطوبولوجيا (La topologie) : علم البنى الهندسية.

⁴ - السقيفة: فضاء متعرج يفصل الخارج عن الداخل ودوره يتمثل في الوقوف حاجزا أمام البصر الخارجي لكي لا ينفذ أجنبي إلى حرم المسكن الداخلي، ويمكن أن يكون بسيطا أو منشعبا من حيث الاستعمال حسب قيمة المسكن بحيث ينتظم في فضاءات متصلة ويصبح مجلسا للاستقبال ولعدة أنشطة أخرى. محمود قدورة وآخرون، دليل خصوصيات عمارة الجنوب التونسي، مكتبي دراسات معمارية وعمرانية، إشراف وزارة التجهيز والإسكان والتهيئة الترابية بتونس، طبعة سنة 2003، ص. 44.

⁵ - بوعصب امبارك ، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت، مرجع سابق، ص. 175.

الغرف. وقد اعتبر أحد الدارسين أن هذا التطابق الطوبولوجي يحكم معظم مكونات ومخططات المسكن التقليدي بالبلدان الإسلامية⁽¹⁾.

والخلاصة التي ننتهي إليها أن الدور السكنية بقصور تافيلالت تبين بجلاء قدرة الإنسان الواحي على تكييف المنزل تبعاً لحاجيات ماله والمستعمل له، فهو يشيد وحدات سكنية تلبي متطلبات الحياة وتتكيف مع البيئة المحلية وتستغل المجال عمودياً وأفقياً، ولا أدل على ذلك استغلال طابقي المنزل خلال الفصول، حيث يكون الطابق الأرضي محل الإقامة نهاراً في فصل الصيف وليلاً في فصل الشتاء، بينما يكون الطابق العلوي محل الإقامة نهاراً خلال فصل الشتاء وليلاً خلال فصل الصيف.

كما أن السمة العامة للمنازل بقصور تافيلالت هي وحدة الواجهة، وهذا ما يجعل طابع التجانس والبساطة في الغالب الأعم؛ هو المهيمن على هذه التجمعات السكنية التي تتميز ببعدها الدفاعي. علاوة على أن خاصية وحدة واجهة الدور السكنية بالقصر الفيلاي تعبر عن تميز "العمارة الإسلامية بخصيصة أساسية تطلق عليها اسم خصيصة (الجَوَانِيَة)، فأى مبنى سواء أكان مسجداً أم مدرسة أم مسكناً، فإنه يحمل الطابع الجواني بمعنى أن عمارته الخارجية أقل شأنًا من عمارته الداخلية"⁽²⁾.

7.2.3 الأضرحة

تشكل الأضرحة بمنطقة تافيلالت معالم معمارية متميزة للعمارة الدينية، ولا غرو في ذلك، فقد قامت القصور الفيلاية بأدوار دينية متميزة منذ القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي⁽³⁾، وذلك ما يمكن استنتاجه من إشارة لصاحب "التشوف" خلال ترجمته للمتصوف أبي العباس التوزي، حيث ذكر أن هذا المتصوف "اعتكف ... برابطة أنبدور خارج مدينة سجلماسة"⁽⁴⁾، لذلك لا غرابة أن تنتشر داخل أسوار قصور تافيلالت وخارجها

¹ - أحمد مولود ولد أيده الهلال، مدن موريتانيا العتيقة، م. س، صص. 508-509.

² - عفيف البهنسي، فنون العمارة الإسلامية وخصائصها في مناهج التدريس، م. س، ص. 16.

³ - حسن حافيظي علوي، سجلماسة وإقليمها، م. س، صص. 120-121.

⁴ - ابن الزيات، التشوف، م. س، ص. 412.

معالم تاريخية عبارة عن أضرحة تنتسب إلى أشخاص لهم منزلة دينية رفيعة عند الناس⁽¹⁾، وعرفوا بكونهم من أهل الصلاح والعلم.

وقد شكلت منطقة تافيلالت مجالا لاستقرار عدد من الأولياء والمتصوفة الذين لا زالت قبورهم وأضرحتهم تقاوم الزمان. خاصة بعد اندراس سجلماسة في عهد الدولة المرينية، التي أدى ضعفها إلى تقديس رجالات التصوف وتكريس سلطتهم في ذهنية العامة الذين سلموا بكرامتهم الخارقة للعادة دون جدال أو تفكير⁽²⁾.

واستنادا إلى المعاينة الميدانية وبعض الننف الواردة في المصادر التاريخية، والرواية الشفهية، تمكنا من تكوين صورة عن أهل الولاية والعرفان والصلاح بالقصور الفيلالية، فقد وقفنا على حوالي 37 ضريحا⁽³⁾ تنتشر داخل أو خارج قصور تافيلالت، ويعتبر ضريح مولاي علي الشريف الذي يقع على بعد 2 كلم جنوب شرق مدينة الريصاني من أشهرها، ويحده غربا قصر أخنوس وشمالا قصبة مولاي عبد الكريم وجنوبا قصبة آبار المخزن وقصر حمو داود⁽⁴⁾، ويرجع تاريخ بناء هذا الضريح إلى عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي "خلد آثارا كثيرة في مختلف المدن المغربية من ذلك ضريح المولى علي الشريف بسجلماسة"⁽⁵⁾.

وأما بقصور المعاضيد وتيزيمي فينتشر داخل أسوارها أو بمجالها الخارجي مجموعة من الأضرحة منها خمسة بقصور المعاضيد، وحوالي سبعة عشرة ضريحا بقصور تيزيمي⁽⁶⁾، ويعد ضريح "مولاي ابراهيم" الذي يقع بجوار قصر مولاي ابراهيم

¹ - بوعصب امبارك ، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت، مرجع سابق، ص. 132.

² - محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع : أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بعين الشق، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 1999، ص. 164.

³ - بوعصب امبارك ، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت، مرجع سابق، صص. 134-137.

⁴ - مونوغرافية بلدية مولاي علي الشريف، الريصاني، م. س، ص. 7.

⁵ - الناصري، الاستقصا، ج. 7، م. س، ص. 69.

⁶ - ينظر محمد معمري، الولاية والصلاح والمجتمع بمنطقة تيزيمي، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرز، فاس، السنة الجامعية 2008-2009.

بتيزيمي⁽¹⁾ أبرز هذه الأضرحة، وقد ذهب أحد المؤلفين إلى أنه الفقيه المفتي أبو إسحاق ابراهيم بن هلال (ت 903هـ/1497م)⁽²⁾.

8.2.3 المقابر

تندرج المقابر ضمن العمارة الجنائزية التي تشكل أحد مكونات النسيج العمراني لمحيط القصور الفيلالية ومجالها الحيوي، وقد رصدنا بمحيط قصور تافيلالت تعدد المقابر، حيث إن بعض القصور يوجد بمحيطها مقابر متعددة ترجع إلى فترات تاريخية مختلفة تدل على قدم هذه القصور؛ من شأنها أن تساعد الباحثين في التأريخ لنشأة القصور الفيلالية، ولا غرو في ذلك؛ حيث إن المقابر تشكل شواهد تاريخية تعكس بعض صور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لمختلف الفترات التاريخية للأمم والشعوب في مختلف المناطق.

والحقيقة أنه إذا كان تعدد المقابر بالقصور الفيلالية يعبر عن قدم هذه القصور، فإنه يمكن أن يعبر عن مستوى من البحث عن تمايز اجتماعي⁽³⁾، يبرز ثمرة العفوية الخلاقة في عالم القبائل بتعبير هشام جعيط، حيث إن عدم تدخل السلطة في إقامة المقابر فتح الباب على مصراعيه للقبائل للتعبير عن حضورها القوي فوق الأرض⁽⁴⁾.

غير أنه بالنسبة لقصور تافيلالت، فإنه يمكن القول أن تعدد المقابر لا يعبر عن التمايز الاجتماعي، نظرا لقلّة المقابر الخاصة بمحيط القصور الفيلالية، إذ إن معظم تلك المقابر يدفن فيها عامة المسلمين من ساكنة القصور بدون تمييز، باستثناء أهل الذمة الذين كانت لهم مقابر خاصة بعيدة عن محيط القصور، ولا زالت آثارها بادية للعيان إلى الزمن الراهن مثل المقبرة اليهودية بضاحية أرفود في الطريق المؤدية لمدينة الريصاني.

1- تيزيمي: مجموعة قصور تضم نحو 36 قصرا تقع في الجنوب الشرقي للمغرب غرب الطريق الوطنية رقم 13 الرابطة بين مدينة أرفود ومكناس، تنتمي قصور هذه المنطقة إداريا إلى جماعة عرب الصباح زيز. الخلافة بوعلي، التراث المبني بمنطقة تيزيمي، بحث لنيل الماستر في التراث والتنمية، كلية الآداب سايس فاس، السنة الجامعية 2013-2014، ص. 11.

2- العلوي أحمد بن عبد العزيز، الأنوار الحسنية، م. س، ص. 58.

3- أحمد مولود ولد أيده الهلال، مدن موريتانيا العتيقة، م. س، ص. 202.

4- هشام جعيط، الكوفة، م. س، ص. 297.

والمتحصل من هذا المبحث، أن البنية العمرانية لقصور تافيلالت بمرافقها المشتركة والخاصة داخل الأسوار أو خارجها، قد شكلت وحدة عمرانية متكاملة الوظائف تستجيب للطابع العام للعمارة الصحراوية التي لا تخرج عن إطار ضوابط العمارة العربية الإسلامية، مما جعل كثيرا من الباحثين يعتبرون عمران قصور تافيلالت بمثابة صورة مصغرة لبعض الأحياء المُسورة بالحوضر المغربية التي تندرج في سياق تخطيط المدن الإسلامية رغم بعض التباينات الطفيفة فيما بينها على مستوى مكونات العمارة المدنية والدينية والعسكرية.

المبحث الثاني : وظائف القصور بتافيلالت

إذا كانت نشأة وتخطيط القصور بتافيلالت قد تحكمت فيه عوامل كثيرة ومتنوعة، فإن ذلك جاء نتيجة للوظائف والمهام التي اضطلعت بها هذه القصور منذ ظهورها بواحة تافيلالت، ومن هذه الوظائف ما تعلق بالدور العسكري والدفاعي، ومنها ما ارتبط بالوظائف الاقتصادية والسكنية والسياسية، وكذا بالوظائف الدينية والروحية كالقصور الزوايا.

1- الوظيفة العسكرية والدفاعية للقصور الفيلالية

يمثل الأمن قيمة أساسية في حياة الإنسان منذ فجر التاريخ، لذلك لا غرابة أن يعتبر الدور العسكري والمهمة الدفاعية من أهم وظائف القصور الصحراوية عامة والقصور الفيلالية خاصة، حيث إن هذه القصور وجدت لغرض دفاعي⁽¹⁾ يتم الاحتماء بها عند هجوم العدو وقت الشدة والحرب⁽²⁾، وذلك لما تحتضنه من وسائل تحصين ارتبطت بها جل القصور الصحراوية من أسوار وأبراج وأبواب وخنادق وغيرها تضافرت جميعها للقيام بالدور العسكري⁽³⁾ لساكنة القصر نتيجة لعدم استتباب الأمن⁽⁴⁾ في بعض الفترات

1- يمينة بن صغير حاضري، القصور الصحراوية بالجزائر صورة للإبداع الهندسي، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد 15، 2011، ص. 141.

2- أيوب عبد الرحمان، من قصور الجنوب التونسي، القصر القديم، النقائش والكتابات القديمة في الوطن العربي، تونس، 1988، ص. 131.

3- محمد حسن، الجغرافيا التاريخية، م. س، ص. 57.

4- أحمد مولود ولد أيده الهلال، مدن موريتانيا العتيقة، م. س، ص. 37.

التاريخية، خاصة تلك التي تعقب ضعف الدولة وانهيارها أو خلال فترات "السيبة" بعد ضعف الدولة المركزية، حيث يصبح كل شيء مباح.

وتجدر الإشارة إلى أن ما يفسر هيمنة الدور العسكري والوظيفة الدفاعية للقصور الفيلالية أنها وجدت من أجل حماية السكان ومخزونهم الغذائي⁽¹⁾ في فترات انعدام الأمن أو أثناء الصراعات الإقليمية والمحلية التي عرفتها منطقة تافيلالت بين بعض القصور المتجاورة أو بين الأحلاف القبلية أو خلال توتر العلاقة مع السلطة المركزية التي كانت توجه حركاتها العسكرية إلى المنطقة لتهدة الأوضاع أو لتأديب القبائل الثائرة.

1.1 الدور العسكري للقصور الفيلالية في الصراع مع السلطة المركزية

وفي هذا السياق، فقد ساهمت قصور تافيلالت بمنشآتها العسكرية في توفير الأمن لساكنة القصور التي ارتبط مجالها بأحداث تاريخية جسيمة ذات طابع سياسي خاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين سكان قصور تافيلالت وسلطة الدولة المغربية في نهاية العصر الوسيط أو خلال وصول الشرفاء العلويين إلى الحكم في بداية القرن السابع عشر الميلادي.

وفي ضوء ذلك نجد أنه رغم كون منطقة تافيلالت أصبحت تحظى بأهمية بالغة من قبل العلويين وصارت تعرف بـ "عمالة تافيلالت" أو "إقليم تافيلالت" أو "عمالة الصحراء"⁽²⁾ فإن ذلك لم يمنع من وقوع بعض التوترات والصراعات بين سكان قصور تافيلالت والسلطة المركزية، أسهمت العمارة العسكرية بقسط وافر في توفير الحماية لسكان القصور المناوئة لبعض السلاطين أو خلفائهم. وهكذا نجد قصر تابوعصامت خلال صراع أهله مع العلويين قد ساهم معماره العسكري في حماية ساكنته من نفوذهم قبل إخضاعهم للمنطقة بكاملها⁽³⁾.

كما أن ساكنة قصور المعاضيد بعد توتر علاقتها مع السلطة المركزية بسبب تدمير قصبة مولاي المامون التي شيدها المولى اسماعيل وقام بتولية ولده مولاي المامون الكبير "على سجلماسة ونواحيها ... وأنزل معه خمسمائة من الخيل بقلعته التي بنى له بتزيمي

1- محمد حسن، الجغرافيا التاريخية، م. س، ص. 58.

2- عبد الله استيتو، دور تافيلالت في تنظيم العلاقات، م. س، ص. 107.

3- الإفرائي، نزهة الحادي، م. س، ص. 300.

وبعد عامين مات فأبدله بمولاي يوسف⁽¹⁾، قد احتمت عدة مرات من بطش السلطة الحاكمة داخل القصور، وذلك ما يمكن استنتاجه من بعض الوقائع التاريخية، إذ أنه بعد تعيين القائد الحكماوي عاملا على تافيلالت سنة 1796م من لدن السلطان المولى سليمان، فإن المعاضيد الذين ينتمون إلى عرب "الصباح أهل التوميات لم يأمنوا فيه، ولم يخرجوا إليه"⁽²⁾. ولعل هذا ما جعل السلطان المولى سليمان يوجه حملة عسكرية تأديبية للقبائل الصحراوية بالجنوب الشرقي المغربي سنة 1231هـ بقيادة ابنه المولى ابراهيم بمن فيهم سكان المعاضيد الذين "اشتغلوا بالفساد وعظم ضررهم واستولوا على قصور المخزن التي كانت هنالك من عهد السلطان المولى اسماعيل"⁽³⁾.

هكذا يتضح من كل ما تقدم من أمثلة لقصري تابوعصامت والمعاضيد أن القصور الفيلالية لعبت دورا عسكريا هاما خلال فترات التوتر ما بين الهامش الذي تجسده الساكنة المحلية والمركز الذي تمثله السلطة المركزية للدولة القائمة.

2.1 الدور العسكري للقصور الفيلالية في الصراعات القبلية والمحلية

عرفت منطقة تافيلالت مجموعة من الصراعات الإقليمية والمحلية بين الأحلاف القبلية أو القصور المجاورة، وقد كان للماء دور كبير في إشعال فتيل هذه الصراعات، وذلك ما يتجلى في صراع أهل السيفة مع الخليفة السلطاني مولاي رشيد بعد محاولتهم تشييد سد لسقي أراضيهم والشرب منه وتوريد ماشيتهم⁽⁴⁾، كما أن الماء؛ كذلك؛ كان سبب الخلاف والنزاع والصراع بين سكان قصور المعاضيد وسكان قصور تيزيمي، وقد انتهى هذا الصراع بإبرام عقد صلح بين أهل المعاضيد وتيزيمي في أواخر عام 1338 هـ⁽⁵⁾.

1- الزباني أبو القاسم، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف، م. س، ص. 180. ينظر كذلك الناصري أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2007، المجلد الثالث، صص. 64-65.

2- الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة العلوية السعيدة، تحقيق محمد البوزيدي الشيعي، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988، ج. 1، ص. 495.

3- الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، م. س، ج. 8، ص. 130.

4- المختار السوسي، المعسول، ج. 16، م. س، ص. 352.

5- ينظر الوثيقة رقم (5) في الملحق.

وقد كان لقصور تافيلالت دور كبير في توفير الأمن والحماية للقاطنين بها، خاصة بعد تأسيس حلف آيت عطا، الذي كان يضم حوالي 38000 نسمة، عشرة آلاف منهم تعيش في بلاد آيت عطا الأصلية، في حين يستوطن الآخرون أراضي احتلوها في تافيلالت ودرعة (آيت وزّي، تنزولين، ترناتة، فزواطة، كناوة، محاميد) وتودغة وزيز وغريس وفركلة ودادس ثم الأطلس الكبير⁽¹⁾، خلال القرن السادس عشر والتي تتكون من خمس أخماس⁽²⁾، وحلف آيت يافلمان، الذي تمتد أراضيه من منخفض أودية تودغة وفركلة وغريس حتى السلسلة الرئيسية للأطلس الكبير، كانت له أهداف ومصالح متعددة في تافيلالت⁽³⁾، وكان يتكون من قبائل عربية تتمثل في عرب الصباح وعرب السفالات وقبائل أمازيغية هي: آيت مرغاد⁽⁴⁾، آيت حديدو، آيت أزذك، آيت يحيى، آيت عياش.

والجدير بالذكر أنه إذا كان حلف آيت عطا حلفا ذا طابع أمازيغي صرف، فإن حلف آيت يافلمان يتألف من قبائل عربية وأخرى أمازيغية. كما أن منطقة تافيلالت منتظمة في تحالفات كبيرة هي حلف آيت يافلمان وحلف آيت عطا اللذين سبقت الإشارة إليهما⁽⁵⁾.

أمام هذه التحالفات والصراعات القبلية التي كانت منطقة تافيلالت مسرحا لها، فقد لعبت أسوار وأبراج وأبواب وخنادق العمارة العسكرية لقصور تافيلالت دورا كبيرا في توفير الحماية والأمن لساكنة القصور من جهة، وفرضت عليها التضامن والتآزر من جهة أخرى، وذلك ما يتجلى في تأسيس قصر البروج شمال المعاضيد بتعاون بين سكان تيزيمي

1- جورج سبيلمان، آيت عطا الصحراء "وتهدئة" درعة العليا، ترجمة وتقديم امحمد احدى، مطبعة BJ PRINT، الطبعة الثانية، 2011. ص. 37.

2- آيت عطا: قبائل أمازيغية صنهاجية تتكون من خمسة أخماس أساسية هي: آيت ولال- آيت اونير، آيت واحليم، آيت يسفول- آيت علوان، آيت إعزا وأيت خليفة، آيت أنبكي. ينظر قسطنطين بن محمد، الواحات المغربية قبل الاستعمار غريس نموذجاً، مرجع سابق، ص.ص 141-142.

3- جورج سبيلمان، آيت عطا الصحراء، مرجع سابق، ص. 37.

4- يتكون آيت مرغاد من ثلاثة قبائل رئيسة هي: آيت مسري وتضم آيت امحمد وأيت واحي، وأيت أيوب التي تضم آيت علي أعيسى وأيت عمرو أعيسى، إربيين. ينظر قسطنطين بن محمد، الواحات المغربية قبل الاستعمار غريس نموذجاً، مرجع سابق، ص. 148.

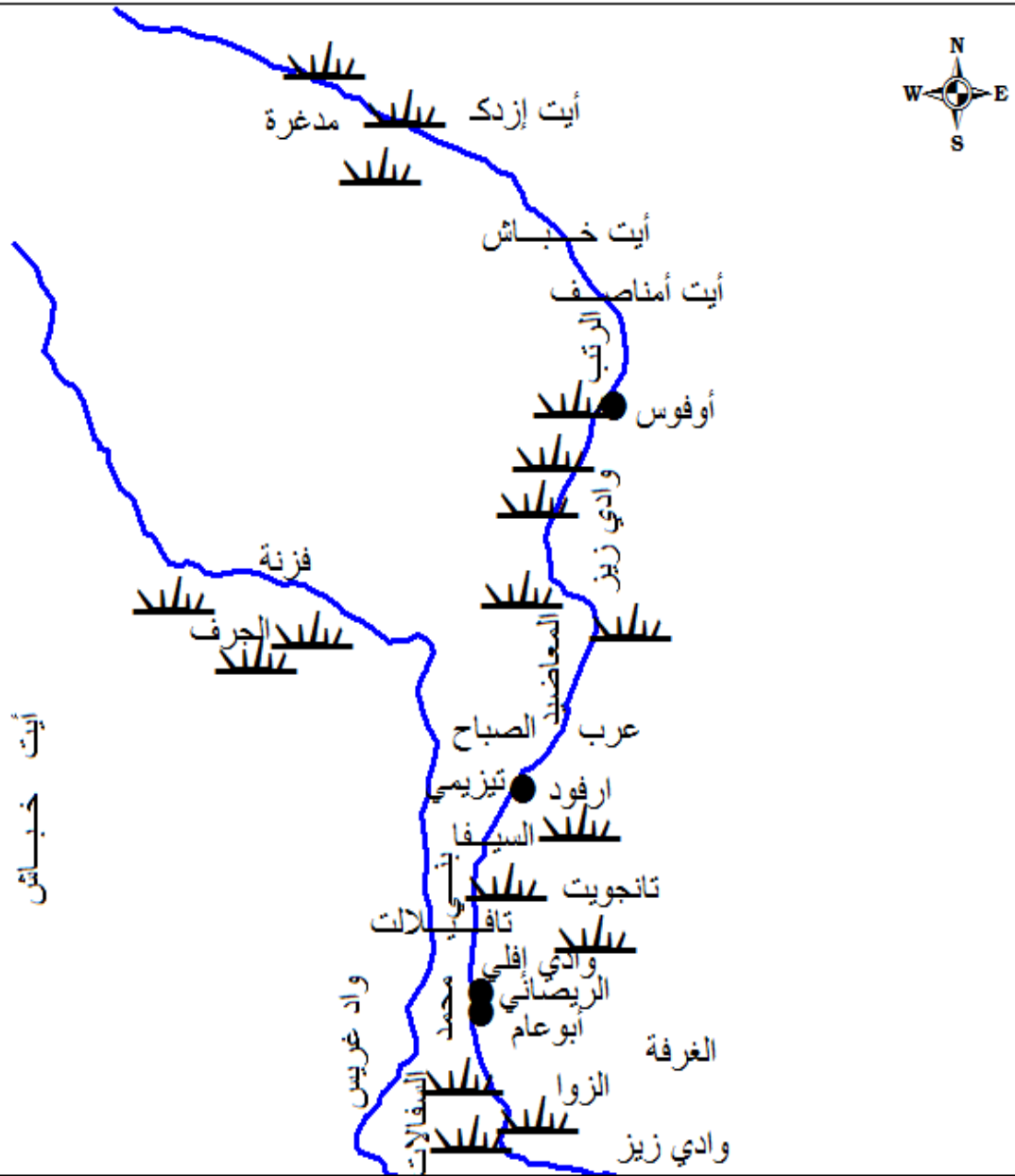
5- بوكبوط محمد، المخزن والزعامات المحلية بتافيلالت قبيل الاحتلال الفرنسي الثابت والرهانات، ضمن ندوة السلطة المركزية والزعامات المحلية بالجنوب المغربي، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 164، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، 2010، ص. 147.

والمعاضيد لمراقبة الحدود مع مناطق نفوذ آيت عطا وصد هجماتها، حيث تذكر الرواية الشفوية أن المعاضيد كانت تبعث بثلاث الرجال المسلحين للمراقبة في البرج وأولاد معطلة الثالث وأولاد عيسى الثالث. كما أن التضامن يتجلى كذلك في تشييد قصبة "أولاد الزهراء"⁽¹⁾، التي تبعد عن جنوب المعاضيد بحوالي سبعة كلم لمراقبة هجمات آيت عطا وتحركاتهم من الناحية الجنوبية⁽²⁾.

1- قصر أولاد الزهراء: يقع هذا القصر في الجنوب الشرقي من واحة المعاضيد وتيزيمي على الضفة الشرقية لوادي زيز، وينتمي إداريا لجماعة عرب الصباح زيز. وأما تاريخيا، فقد اتخذت قبائل الصباح بقصور المعاضيد وتيزيمي من قصر أولاد الزهراء مركزا لمراقبة كل الأخطار المحدقة بها وحصنا دفاعيا لمواجهة هجمات القبائل المهددة لها من أجل توفير الأمن والسلام لحياضها.

2- سعيد عبيدي، قصور المعاضيد : دراسة تاريخية وعمرانية، بحث لنيل شهادة الماستر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس فاس، السنة الجامعية 2011-2012، ص. 44.

الخريطة رقم 3 : مجال تحركات التحالفات القبلية بمنطقة تافيلالت



المصدر: روس إ. دان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي المواجهة المغربية للإمبريالية الفرنسية 1881-1912، ترجمة أحمد بوحسن، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2006، ص. 95 (بتصرف).

ويمكن القول إن الدور الأمني والوظيفة الدفاعية للعمارة العسكرية بالقصور الفيلالية بعد فرض الحماية على المغرب وخضوع المنطقة للسيطرة الاستعمارية نهائيا سنة 1934 أصبحت هذه الوظيفة تتلاشى والمنشآت العسكرية من أسوار وأبراج وأبواب وغيرها تنهار أمام قذائف المستعمر وأسلحته النارية، مما أسفر عن تدهور عمارة قصور تافيلالت، حيث "تضعف هذا القطر وتأخرت عمارته إلى الآن"(1).

2- الوظيفة الاقتصادية للقصور بتافيلالت

تعتبر الوظيفة الاقتصادية من بين المهام والأدوار التي لعبتها القصور بواحة تافيلالت منذ ظهورها، حيث إن مكونات البنية العمرانية للقصر لم تقتصر على صد الهجمات الخارجية للأعداء فقط، بل تم تشييدها كذلك لاستغلال الموارد الاقتصادية التي يزرع بها محيط القصر، والتي تتناسب مع عدد ساكنته، مما يجعل القصور بمنطقة تافيلالت عبارة عن وحدة إنتاجية تحقق الاكتفاء الذاتي لقاطنيها(2).

ونظرا لأهمية الوظيفة الاقتصادية التي تقوم بها القصور الصحراوية، فإن هناك مجموعة من الباحثين في حقل العمارة الصحراوية يعتبرون القصر ذلك "الفضاء المشترك المغلق والمقسم إلى مساحات موزعة توزيعا نوعيا، والذي تخزن فيه مجموعة بشرية ذات المصلحة الواحدة محصولها الزراعي الموسمي، وتستعمله وقت السلم"(3) لمزاولة مختلف أنشطة الحياة اليومية داخل القصر أو خارجه.

ويمكن القول إنه إذا كانت الحروب وهجمات الأعداء ترغم بعض القبائل الأمازيغية المغربية التي تقطن ببعض الجبال المحاذية للصحراء على بناء وتشيد منازلها على شكل تحصينات مشيدة بالحجارة وذات مدخل واحد للحفاظ على سرية مخازنها وما تحوزه من

1- المختار السوسي (محمد المختار)، المعسول، ج. 16، م. س، ص. 311.

2- روس إ. دان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي، م. س، ص. 44.

3- أيوب عبد الرحمان، من قصور الجنوب التونسي، م. س، ص. 131.

مخزون غذائي(1)، فإن القصور الفيلاالية في حدود علمنا- لم تعرف ظاهرة المخازن الجماعية (إكودار) التي كانت تسود بمناطق الأطلس(2)

والجدير بالملاحظة أن القصر بتافيلالت يتسم بتموقعه وسط الحقول الزراعية التي يقوم بخدمتها سكان القصور أنفسهم فضلا عن ممارسة ساكنة بعض القصور للحرف والتجارة، وذلك في إطار التنوع والتكامل الاقتصاديين(3)، وقد أدى هذا التكامل بين القصور إلى اختلاف أدوارها الاقتصادية، حيث إن بعض القصور عرفت بنشاطها التجاري مثل قصر تابوعصامت وقصر أبو عام، بينما تخصصت بعض القصور في الصنائع كقصر مولاي عبد الله الدقاق الذي اشتهر بصناعة الخزف وقصر منوكة الذي عرف بصناعة الدباغة(4). وأما قصور المعاضيد وتيزيمي، فقد ارتكزت في اقتصادها على مزاولة النشاط الزراعي بينما ظلت الحرف والصنائع من اختصاص اليهود كما تذكر الرواية الشفوية بهذه القصور.

وتتجلى أهمية الوظيفة الاقتصادية لقصور تافيلالت؛ كذلك؛ في توفر معظم الدور السكنية للقصر على مكان لتخزين التمر والحبوب وغيرها من مواد التموين، وذلك لترشيد فائض محصول السنوات المطيرة وتحقيق الأمن الغذائي للسكان خلال فترات الجفاف(5). ويتسم هذا المكان الذي يشيد في الطابق الأرضي للمنزل ويسمى محليا "بيت الخزين" باعتدال درجة حرارته. بقي أن نشير إلى أن ما يتم خزنه من مؤن بالقصر يمثل أساس ثروة الساكنة، لذلك كان يتم منع الغرباء من دخول القصور التي احتاجت لكل مكونات العمارة العسكرية لتأمين غذائها.

1 - Terrasse (H), Kasbas berbère de l'Atlas et des Oasis, op.cit, pp 35-36.

2- أحمد أوموس، في الأصول التاريخية والخصائص المعمارية للمخازن الجماعية (إكودار)، ضمن كتاب التراث المعماري بالمغرب، م. س، صص 75-100.

3- لحسن تاوشخت، واحة تافيلالت من المدينة إلى القصور، مجلة واحات المغرب، م. س، ص. 12.

4- لحسن تاوشخت، عمران سجلماسة، ج. 2، م. س، ص. 442.

5- أحمد مولود ولد أيده الهلال، مدن موريتانيا العتيقة، م. س، ص. 38.

3- الوظيفة السكنية بقصور تافيلالت

إن من أهم الوظائف وأبرزها لبناء القصور وظهورها بمنطقة تافيلالت هي وظيفة السكن⁽¹⁾، وذلك لحماية الإنسان من عوارض الطبيعة وتحقيق الأمن والسكنية لأهل الدار، وهو ما جعل الدور السكنية تعتبر فضاء خاصا بقاطنيها داخل القصر، وكذا تشغل الحيز الأكبر لمساحة قصور تافيلالت، ولعل ذلك ما جعل ابن قتيبة يشبه الدار بالقيص، فحيث يخط القميص حسب مقياس صاحبه، كذلك يبنى البيت حسب مقياس ساكنه، وبهذا يُعدُّ ابن قتيبة أول من تحدث عن المقياس الإنساني (Scale Human) في العمارة الإسلامية⁽²⁾.
وجدير بالذكر أنه إذا كانت الوظيفة السكنية بقصور تافيلالت أساسية منذ منشئها، فإن هذه الوظيفة لم تكن قارة ولا أساسية بقصور الجنوب التونسي، إذ إن الدور السكنية بهذه القصور نادرا ما استعملت للسكن⁽³⁾، كما أن سكان قصور ودان وتيشيت وشنقيط بموريطانيا كذلك لم تكن الوظيفة السكنية أساسية بالنسبة إليهم، وذلك لكون معظم ساكنة القصور لم تكن تستقر بها دائما، وإنما في الغالب الأعم كانوا من أنصاف الرحل المستقرين موسميا⁽⁴⁾.

4- الوظيفة التنظيمية والسياسية لقصور تافيلالت

يمثل القصر وحدة للتجمع البشري الأكثر أهمية بواحة تافيلالت⁽⁵⁾، فضلا عن الوظائف العسكرية والاقتصادية والسكنية، فقد كان لقصور تافيلالت وظائف تنظيمية وسياسة مهمة ساهمت في جعل القصر بعد اندراس سجلماصة يضطلع بهذه الوظائف التي تكلفت مؤسسة "الجماعة" بالقيام بها على أكمل وجه لتنظيم الحياة العامة داخل القصر وفي محيطه الحيوي.

¹ - خالد عزب، فقه العمران، م. س، ص. 79.

² - عفيف البهنسي، فنون العمارة الإسلامية وخصائصها في مجال التدريس، م. س، صص. 15-16.

³ - محمد حسن، الجغرافيا التاريخية، م. س، صص. 58-59.

⁴ - أحمد مولود ولد أيده الهلال، مدن موريتانيا العتيقة، م. س، ص. 39.

⁵ - حسن حافيظي علوي، سجلماصة وإقليمها، م. س، ص. 118.

وتتنبثق مؤسسة الجماعة من القبائل التي تقطن القصر وتنتخب لمدة معينة يتم الاتفاق عليها سلفاً⁽¹⁾ من لدن القبيلة برئاسة شيخ "يدير شؤون كل قصر من هذه القصور أمير خاص هو رئيس فريقه"⁽²⁾، وتتمثل هذه الوظائف التنظيمية والسياسية للقصور الفيلالية في كون الجماعة كانت تفرض على جميع سكان القصر بمختلف فئاتهم وانتماءاتهم المشاركة في بناء مكونات العمارة العسكرية من أبراج وأسوار، وكذا المؤسسات الدينية كالمسجد والإنتاجية العامة مثل المعصرة والفندق، علاوة على أنه لضمان تحقيق الأمن والأمان داخل القصور بواحة تافيلالت كانت الجماعة أو المشيخة تكلف ساكنة قصورها بالتناوب بحراسة بابه بالليل والنهار خاصة أوقات استتباب الأمن⁽³⁾. ولا بد من الإشارة إلى أن حراسة باب القصر لم تكن بالتناوب في جميع قصور واحة تافيلالت، بل إن بعض القصور مثل المعاضيد وتيزيمي كان يتم تعيين شخص يتكلف بحراسة الباب يعرف محلياً "بالبواب".

وغني عن البيان أنه كانت تتحكم في تنظيم القصر وشؤونه الداخلية والخارجية مجموعة من الأعراف التي تنظم مختلف الجوانب المرتبطة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فهذه الأعراف متفق عليها من لدن السكان ولا يجوز بأي حال من الأحوال انتهاكها أو تجاوزها.

وفي هذا الإطار، فقد مثلت القوانين العرفية التي تتم صياغتها من طرف مؤسسة الجماعة بقصور ووحدات الجنوب الشرقي المغربي عامة وقصور تافيلالت خاصة، المرجعية التي يعتمد عليها سكان القصر في تسييرهم وتدبيرهم العمراني ومواجهة المستجدات اليومية التي تطرح ذاتها داخل القصور وخارجها⁽⁴⁾. فانطلاقاً من مجموعة من الأعراف التي أوردها الأستاذ العربي مزين في "اتفاق الكارة"، فإن هناك أعرافاً ترتبط بالبناء. إذ أن "من أراد البناء فجاره يساعفه في ذلك البناء، ونهايته ستة ألواح، وقدّ قامة ستر فوقها"⁽⁵⁾،

¹ - آيت حمزة محمد، مادة القصر، معلة المغرب، المجلد 19، الجمعية المغربية للنشر والتأليف، نشر مطابع سلا، 2004، ص. 6639.

² - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 2، م. س، ص. 126.

³ - عبد اللوي علوي أحمد، مدغرة وادي زيز، ج. 1، م. س، ص. 186.

⁴ - البلعميشي عبد الرحمان وآخرون، القصور والقصبات: دراسة تفصيلية لمصطلحات عمرانية، م. س، ص. 115.

5 - Larbi Mezzine, Le Tafilalet, op. cit, p : 139

كما أن "الجوار في الزقاق، لا بناء لأحد من الجوار إلا إذا تراضوا عليه هو وصاحبه أي جاره"⁽¹⁾ بالإضافة إلى كون "بناء البروج أو الأسوار الإثنين على القبيلة"⁽²⁾. وغيرها من الأعراف التي أسهمت في الحفاظ على الأمن والأمان وجعلت الفرد يشعر بالحماية على نفسه ولا يخاف على ممتلكاته.

5- الوظيفة الدينية والثقافية للقصور الفيلالية

لعل من بين الوظائف التي قامت بها القصور بتاغيلالت الوظيفة الدينية والثقافية، والتي ساهمت في خلق حركة فكرية بقصور تاغيلالت التي أصبحت تشتهر كمنطقة للعلم والتقوى⁽³⁾، وذلك بفضل استقطاب العلماء ورجال الفكر للمنطقة⁽⁴⁾، وكذا نبوغ علماء من قصور تاغيلالت. وقد كانت القصور بمساجدها تقوم بهذه الوظائف التعليمية والثقافية عبر تحفيظ الطلبة القرآن الكريم وشرح المتون الأدبية وغيرها، فضلا عن ظهور القصور الزوايا التي لعبت دورا هاما في التعليم والإشراق الصوفي بقصور تاغيلالت مثل زاوية سيد أحمد بلمدني وزاوية عمار وزاوية سيدي بوبكر التي كانت نشيطة في معظمها⁽⁵⁾ وذات انتشار واسع في معظم مناطق المغرب.

والخلاصة التي ننتهي إليها هي في هذا المبحث هي أن القصور بتاغيلالت قامت بوظائف وأدوار متعددة منذ ظهورها، وهذه الوظائف متكاملة فيما بينها غير أنها جميعها تتمحور حول الأمن والأمان خاصة في فترات انعدام الأمن مما جعلها ملاذا آمنا لسكانتها التي شيدت معالم معمارية عسكرية ودفاعية لتحقيق هذه الغايات وتأدية مختلف المهام والوظائف الأمنية والاقتصادية والسكنية والتنظيمية والسياسية والدينية.

1 -Ibid, p : 139.

2 -Ibid, p : 172.

3- عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، م. س، ص. 29.

4- محمد حجي، الحركة الفكرية في عهد الدولة السعدية، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976، ص. 55.

5- لحسن تاوشت، عمران سجلماسة، ج. 2، ص. 473.

المبحث الثالث : العمارة العسكرية بالقصور الفيلالية

تعتبر مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت من أسوار وأبواب وأبراج وخنادق، من أبرز المعالم العمرانية التي شيد الإنسان الواحي بتافيلالت لتوفير الأمن بكل أبعاده وتحقيق السيادة والتفوق في مختلف الصراعات التي كانت المنطقة مسرحا لها خلال الفترة الوسيطية والحديثة والمعاصرة. كما أنها تعكس نظم الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية والعسكري، وتطورها في السلم والحرب بمنطقة تافيلالت، مما يحتم علينا أثناء دراستها تجاوز التصور التقليدي الذي ينظر إلى العمارة العسكرية نظرة ضيقة لا تراعي إلا الجانب الحربي والتحصيني درءا للمخاطر والفتن المحلية فقط، دون ربطها بالحياة الثقافية والاقتصادية والحضارية والذهنية للسكان.

وتجدر الإشارة إلى أننا في هذا المبحث سنقدم لمحة عامة عن سمات وخصائص العمارة العسكرية بقصور تافيلالت، بينما سنفصل القول حولها أكثر في الباب الثالث من هذا البحث، وتحديدًا في الفصل الموسوم بدراسة العمارة العسكرية بقصور تافيلالت من خلال نماذج.

1- الأسوار

يحيط بجميع قصور تافيلالت من جميع الجهات أسوار متصلة دون تقطع، وتعد هذه الأسوار بمثابة الحاجز الواقى لكل قصر من الاعتداءات الخارجية التي يمكن أن يتعرض لها سكانه أوقات الحرب والفتن، فضلا عن كونه يحمي المدافعين ويخفف من صدمة العدو. كما تعتبر الأسوار بقصور تافيلالت حدا فاصلا بين الفضاء الداخلي للقصر والفضاء الخارجي، مما يجعلها خير وسيلة لتدرا عن ساكنة القصور حر الصيف القائظ وبرد الشتاء القارس ولتحميهم من الرياح والغبار الذي "يسبب التهاب أعين الناس"⁽¹⁾.

وغني عن البيان، أنه على غرار أسوار قصور القسم الصحراوي لبلاد المغرب بالجزائر وتونس وليبيا، فإن معظم قصور تافيلالت تتوفر على نوعين من الأسوار : النوع الأول منها يعتبر بناء مستقلا عن الوحدات السكنية، أما النوع الثاني فيسمى بالسور الدور.

1- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 2، م. س، ص. 125.

1.1 الأسوار الخارجية

يقصد بالأسوار الخارجية الأسوار المستقلة عن الدور السكنية التي تحيط بالقصر من جميع الجهات لترد عن السكان هجمات الأعداء وتمنع العدو من شن هجومه مباشرة على الدور السكنية للقصر ويعطل من تقدمه لفتح الثغرات التي يمكنه أن ينفذ منها داخل القصر. وقد كانت هذه الأسوار تتألف في أعلاها من درب يسير عليه المحاربون، الذين يتكفون بمراقبة القصر وحماية ساكنته ويسمونه بممشى السور، وشرفات تساهم في تسهيل عملية المراقبة والدفاع.

الصورة رقم 2 : الواجهة الغربية والشمالية لسور وأبراج قصر الفيضة⁽¹⁾



ومن خلال الملاحظة الميدانية للأسوار الخارجية بقصور تافيلالت يتبين بأنها تختلف على مستوى السمك والارتفاع ومواد بناء الأساسات من قصر إلى آخر، وقد تراوح ارتفاع الأسوار بالقصور الفيلالية ما بين خمسة عشر مترا وستة أمتار. كما أن سمك الأسوار المحيطة بقصور تافيلالت يختلف من قصر لآخر، وفي بعض الأحيان من ضلع لآخر بأسوار القصر الواحد، بالإضافة إلى أن سمك الأسوار يقل كلما ارتفع بنائها، وذلك وفقا

1- المحجوب قدار، المسارات السياحية بواحات تافيلالت، بحث الماستر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس-فاس، السنة الجامعية 2011-2012، ص. 69.

للقاعدة الإسلامية عند بناء الجدران، وهي المعروفة بالحوائط الحاملة⁽¹⁾، وهكذا نجد سمك الأسوار في القاعدة يتراوح ما بين مترين و 90 سنتمتر ويتقلص إلى أن يبلغ في الأجزاء العلوية للأسوار 60 سنتمتر.

الجدول رقم 4: أبعاد أسوار بعض القصور الفيلالية

الارتفاع بالمتر	سمك السور بالمتر في القاعدة	سمك السور بالمتر في الأعلى	القصر
6	2	0.80	- قصر تابوعصامت
9	1.50	0.60	- قصر آبار
13.5	1.80	0.60	- قصر الفيضة
11.5	1.80	0.60	- قصبة أخنوس
8	1.50	0.60	- قصر القصيبة بالمعاضيد
6	0.90	0.40	- قصر اللحايين بتيزيمي
5.5	0.90	0.50	- قصر أولاد معطلة بتيزيمي

المصدر : العمل الميداني ما بين 2013 و2018

بقي أن نشير إلى أن هذه الأسوار التي تم تشييدها بالطابية (التراب المدكوك) كان سكان القصور الفيلالية يتعاونون في بنائها على نفقتهم، حيث توزع بينهم وفق نظام معين يرتضونه وتسهر عليه مؤسسة "الجماعة" التي تقوم بتدبير الحياة العامة للقصر، مما يجعل ساكنة القصور الفيلالية تحقق وحدة تضامنية بعيدا عن التنافر والحساسيات وحامية لهم من غارات وهجمات الأعداء أوقات الشدة والحرب.

2.1 السور الدور

يعتبر السور الدور بمثابة سور داخلي يحيط بجميع الدور السكنية للقصور الفيلالية التي تعرف هذا النوع من التحصين الدفاعي، ويتراوح عرض السور الدور ما بين مترين

1- محمد الجهيني، العمارة الحربية في شبه الجزيرة العربية، م. س، ص. 87.

ومترين ونصف بقصور تافيلالت، أما طوله فيختلف من قصر لأخر، وذلك حسب الشكل الهندسي الذي يتخذه كل قصر وطول أسواره الخارجية.

إن السور الدور يجعل المقتحمين للسور الخارجي للقصر في متاهة بشكل لا يمكنهم من معرفة كيفية اقتحام دور القصر التي توجد أبوابها على الدروب المتضمنة للوحدات السكنية، وغني عن البيان أن هذه الظاهرة عُرِفَت في بعض قصور الصحراء ببلاد المغرب⁽¹⁾، مما يبين مقدار التطور الذي كانت عليه العمارة العسكرية بقصور تافيلالت من أجل تحقيق الأمن للسكان وحمايتهم من كل الأخطار.

الصورة رقم 3 : السور الدور بعد تسقيفه لقصر المكابر بالمعاضيد



المصدر : تصوير شخصي سنة 2012

وجدير بالإشارة إلى أن توفر معظم القصور الفيلالية على السور الدور، خاصة القصور القبلية، يعد بمثابة فيصل يفصل بين السور الخارجي والدور السكنية التي لم تكن ملتصقة بالسور. والفصل (Espacesments séparation) من عناصر التخطيط الحربي الذي يفصل بين السور الخارجي والداخلي لتوفير الحماية وصد المعتدين أثناء مهاجمتهم للدور السكنية المجاورة للسور الخارجي⁽²⁾. وإذا كان هذه النوع من الأسوار يعرف محليا

1- يحيى بوراس ، العمارة الدفاعية في منطقة وادي مزاب، م. س، ص. 35.

2- عبد الستار عثمان، سدوس وتحصيناتها الدفاعية دراسة تاريخية أثرية معمارية (دراسة حالة)، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية 12، 1414هـ/1992م، ص. 60.

بالسور الدور وفي الاصطلاح المعماري يسمى بالفصيل فإنه في المشرق العربي يعبر عنه بالخليجين⁽¹⁾.

2- الأبواب

يعرف باب القصر بواحة تافيلالت عند السكان محليا ب "فَمَ الْقَصْرَ"، ويتم الدخول إلى كل قصر من قصور تافيلالت من باب ضخم مستقيم أو منكسر عبارة عن مدخل مقوس في اتجاه القبلة غالبا، ولا غرو في ذلك، فانفتاح الأبواب على القبلة بمنطقة تافيلالت يكاد يكون ظاهرة تشمل معظم قصورها كما سجلنا في المعاينة الميدانية، وذلك راجع للمكانة الروحية الهامة للقبلة، وكذا لما توفره من ظل ما بعد الظهر⁽²⁾.

ونظرا لما يمكن أن تشكله الأبواب من نقطة ضعف تمكن الأعداء من مهاجمة القصر واقتحامها لولوجه، فقد اهتم البناء الفيلالي بتخطيط أبواب قصوره وتشبيدها اهتماما كبيرا يعكس أهمية هذه الأبواب التي تصل داخل القصور بخارجها وتحقق منافع متعددة للسكان، وقد انعكس هذا الاهتمام في بناء عضادتي (ناحيتي) المدخل إلى مستوى الساكف بالحجارة.

وقد كانت هذه الأبواب تغلق يوميا عند غروب الشمس حتى مطلع الفجر من اليوم الموالي، من أجل توفير الأمن والحماية، والذي يتولى مهمة الإشراف عليها يعرف محليا باسم "البَّوَاب"، والذي يشترط فيه أن يكون موضع ثقة أهل القصر. حيث كان يَغْلُق باب القصر من غروب الشمس إلى مطلعها، ويتولى مهمة الإخبار بشؤون القبيلة، كما أنه عند ظهور العدو يضرب الطبل بهدف الإشعار بالخطر كما تذكر الرواية الشفوية بمنطقة تافيلالت.

ويتراوح اتساع مداخل أبواب القصور بتافيلالت ما بين 2.60 متر و 1.5 متر، بينما الارتفاع يتراوح ما بين مترين و 3.70 متر، وقد كانت تتوفر جميع هذه الأبواب على مصراع واحد أو مصراعين من خشب النخيل أو الأثل أو الصفصاف، ويتم إغلاقها بأقفال

1- نفسه، ص. 60.

2- عبد الناصر بوضيك، التراث المعماري بالجنوب المغربي نموذج منطقة سكرة إقليم ورزازات، مجلة كان التاريخية الإلكترونية، السنة الثانية، العدد السادس، دجنبر، 2009، ص. 26.

خشبية أو من الحديد، ولا شك أن وجود القفل بأبواب القصور الفيلاية يبرز طابعا عسكريا،
إذ إن السيطرة على باب القصر يعني السيطرة عليه⁽¹⁾.

الجدول رقم 5 : أبعاد أبواب بعض القصور بتافيلالت

القصور	ارتفاع الباب	عرض الباب	نوع المدخل	المصراع ⁽²⁾	حالة المصراع
- أخنوس	3.80	2.60	منكسر	مصراعان	غير موجود حاليا
- الفيضة	3.70	2.10	منكسر	مصراعان	لا زال موجود
- سيدي ملوك	3	2.10	منكسر	مصراعان	لا زال موجود
- تابوعصامت	3.30	2.10	مستقيم	مصراع واحد	لا زال موجود
أولاد بحر	2.95	2.2.0	مستقيم	مصراع واحد	لا زال موجود
- أبو عام	3.70	2	منكسر	مصراعان	لا زال موجود
- أولاد علي	2.95	2.15	منكسر	مصراع واحد	تغير موضع الباب
- الخندق	2.80	1.94	منكسر	مصراع واحد	لا زال موجود
- العبادلة	3.35	2.25	مستقيم	مصراعان	لا زال موجود

المصدر : العمل الميداني ما بين 2013 و2018

والجدير بالملاحظة أن جميع قصور تافيلالت بيزر الأسفل تتوفر على مدخل واحد، باستثناء قصور معدودة مثل قصر الدار البيضاء الذي يوجد في الطرف الشرقي لواجهة تافيلالت على بعد خمسة كلم من مدينة الريصاني، ويحده شمالا قصر الفيضة وجبل الدار البيضاء وجنوبا قصيرة الغرفة، وأما غربا فيحده قصر دار مولاي الطالب وقصر الفرخ

1- عبد اللوي علوي، مدغرة وادي زيز، ج. 1، م. س، ص. 217.

2- مصراع (Battant d'une porte): بالعامية يطلق على "دفة" الباب، وعموما للباب مصراعان أو مصراعا الباب، عادة ما يتمركز المصراعان في الوسط. جمال بيلول، معجم المصطلحات المعمارية المدنية، م. س، ص. 126.

وشرقا قصر هارون⁽¹⁾، وله "مدخلان الأول غربي والثاني شرقي وهما متوازيان كان يربطهما في الماضي زقاق تتفرع عنه باقي الأزقة"⁽²⁾.

وإذا كانت القصر الفيلاي بزيز الأسفل تتوفر على باب واحد في الغالب الأعم، فإن القصور الواحية بمناطق أخرى تتوفر على أكثر من باب واحد، كما هو الشأن بزيز الأوسط وزيز الأعلى، الذي كان لكل قصر من قصوره بابان يفتح الأول منهما على الطريق المؤدية إلى غابة القصر، بينما يفتح الباب الثاني في اتجاه الطرق والمساحات الخارجية التي ترتبط بخارج الواحة أو القصور المجاورة⁽³⁾، كما توجد قصور بواحة درعة يصل عدد أبوابها إلى خمسة، بل يصل عدد الأبواب ببعض قصور واحة تودغة إلى ستة.

وإذا كانت الأبواب بقصور تافيلالت تتسم بتقارب مقاييس أبعادها وكونها تتخلل أسوارها، فإنه اعتمادا على تخطيطها وتصميم واجهاتها يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أصناف كبرى:

- الصنف الأول: عبارة عن أبواب منكسرة تؤلف زاوية قائمة لإعاقة المهاجمين⁽⁴⁾، وهذا النوع هو الأكثر انتشارا بقصور تافيلالت، سواء بالقصور المخزنية مثل قصر أولاد عبد الحليم، أو القصور القبليّة كما هو الأمر بالنسبة لقصر أبو عام وقصر أخنوس التابع لبلدية مولاي علي الشريف أو قصر المكابر بالمعاضيد.
- الصنف الثاني: عبارة عن مدخل مستقيم غير متعرج يفتح في منتصف جدار السور الخارجي، وبجانبه برجان شاهقان في الغالب الأعم شأن القصور الزوايا بالمنطقة كقصر زاوية سيدي الغازي بن قاسم وقصر العبادلة بالمعاضيد وقصر أولاد بحر بتيزيمي.
- الصنف الثالث : مدخل القصر يفتح في قاعدة برج، حيث تعلوه غرفة لمراقبة ورمي العدو الذي يحاول التسلل للقصر تتمثل في سقف رواق المصرية، وهذا النوع يتسم

1- لحسن تاوشخت، المنجزات العمرانية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله بمنطقة تافيلالت، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، الدورة الثالثة، مركز الدراسات والبحوث العلوية، دجنبر، 1991، مطبعة الأمنية، الرباط، ص. 403.

2- نفسه، ص. 405

3- عبد اللوي علوي، مدغرة وادي زيز، ج. 1، م. س، ص. 216.

4- عفيف البهنسي، العمارة العربية الجمالية الوحدة والتنوع، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، المغرب، ص.

بقلته ويكون فيه المدخل مرتفع نسبيا عن باقي مكونات القصر العمرانية، مثل مدخل قصر أولاد علي بتيزيمي، ومدخل قصر الجبيل الذي تتخذ مصريته شكلا مستطيلا يبلغ طوله 12.80 متر وعرضه 8.20 متر وينسجم مع واجهة المدخل التي تبلغ نفس الأبعاد مما يجعل المدخل عبارة عن برج كبير يتخلله مدخل القصر في وسطه.

الصورة رقم 4 : نماذج من أبواب القصور الفيلالية

باب قصر أبو عام



باب قصر الفيضة



باب قصر تابوعصامت



باب قصر آبار



المصدر : تصوير شخصي، غشت 2018.

وفيما يخص واجهة (Façade) أبواب قصور تافيلالت، فنجد بعض القصور اقتصرت على الجانب النفعي لمدخل القصر المتمثل في حماية السكان من كل الأخطار على غرار مداخل بعض القلاع والحصون في العمائر الإسلامية، حيث اقتصرت على ستائر من القرميد وشرفات مسننة أو هرمية تعلوها، وهذا الصنف نجده حاضرا بشكل أساسي في مداخل القصور القبلية أو القصور الزوايا، بينما هناك مداخل تميزت واجهتها برؤية فنية ولمسة جمالية جعلت منها أبواب بارزة عبارة عن تحفة معمارية على غرار الأبواب الكبرى بالمدن السلطانية المغربية، إذ تم تزيينها بزخارف هندسية أو نباتية ومجموعة من العقود وغيرها، وقد تميزت أبواب القصور المخزنية بهذا الصنف من الفنية، وهو ما سنوضحه في المبحث الخاص بالتشكيلات الزخرفية للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت في هذا البحث.

3- الأبراج

تعد الأبراج بقصور تافيلالت من أهم مكونات العمارة العسكرية بها، والتي تساهم في تحصين القصر وحماية ساكنته من كل الهجمات عبر تسهيل عملية مراقبة العدو وتحركاته بمحيط القصر، فضلا عن التصدي لأي هجوم أو حصار يستهدف القصر. وفيما يخص الشكل الهندسي للأبراج بقصور زيز الأسفل فيتراوح بين الشكل المربع كما هو الحال بالأبراج الركنية لقصر تابوعصامت والشكل المستطيل كأبراج واجهة قصر أبو عام، بينما سجلنا غياب الأبراج المستديرة التي تنتشر بواحة فكيك⁽¹⁾، وكذا الأبراج المضلعة التي تزخر بها بعض المدن المغربية الأصيلة كالرباط. وإجمالا فإننا نميز بقصور تافيلالت بين الأبراج المتصلة بالأسوار والأبراج المنعزلة عنها في محيطها.

1.3 الأبراج المتصلة بالأسوار

تتميز قصور تافيلالت بوجود أبراج متعددة تتخلل أسوار القصر وتتواجد في أركانه الأربعة وفي بعض الأحيان في منتصف الأسوار الخارجية، بالإضافة إلى البرجين

1- أحمد مزيان، فجيح مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر (1845-1903)، مطبعة فجر السعادة، 1988، ص. 56.

الموجودين في مدخل مجموعة من القصور، وتتسم بارتفاعها عن بقية الأبراج الأخرى التي يتألف منها القصر.

الصورة رقم 5 : أبراج قصر آبار الركنية المتصلة بسقالة السور الشمالي



المصدر : تصوير شخصي، غشت 2018.

وفيما يخص عدد الأبراج بالقصور الفيلالية فإنها لا تقل عن أربعة أبراج بالقصر الواحد مثل قصر البروج بالمعاضيد وقصبة بن لحسن بتيزيمي، ولا يتجاوز عددها أربعة عشر برجا كما هو الحال بقصر تابوعصامت وقصر أولاد بوزيان بتيزيمي، كما سجلنا في المعاينة الميدانية لمجموعة من القصور الفيلالية.

وتختلف أبعاد أبراج القصور الفيلالية من برج لآخر داخل القصر الواحد أو بين القصور، حيث إن موضع البرج في أسوار القصر كان يتحكم في أبعاده، إذ إن الأبراج الركنية والأبراج التي توجد بجانب أبواب القصور تتميز بضخامتها مقارنة بالأبراج التي تشيد وسط الأسوار الخارجية، غير أنها على مستوى الارتفاع تكون شبه متقايسة. كما أن

معظمها اتسم بمسحته الهرمية التي تظهرها واجهاتها المائلة برفق نحو الداخل كلما ارتفعت إلى الأعلى، وهي ظاهرة تميزت بها كثير من أبراج واحات بلاد المغرب⁽¹⁾.

الصورة رقم 6: واجهات أبراج بعض القصور الفيلالية

برج وسط السور الأمامي لقصر
أولاد عبد الحليم



البرج الركني الشمالي الشرقي
لقصر مزكيدة



برج واجهة باب قصر آبار



المصدر : تصوير شخصي، غشت 2018

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأبراج كانت تدعم الأسوار من جهة وتظهر البناء بمظهر المنعة والقوة من جهة أخرى، لذلك كانت تتوزع على مراحل مختلفة، حيث يتم بين مسافة وأخرى وسط السور تشييد برج مربع أو مستطيل أكثر ارتفاعا من السور يبرز إلى خارج القصر، وقد اختلفت المسافة الفاصلة بين الأبراج بأسوار قصور تافيلالت، إذ إنها تراوحت ما بين 64 متر في بعض القصور مثل قصر أبو عام و 51 متر في قصور أخرى كقصر الفيضة وفي بعض الأحيان تقل عن 30 متر إذا كان القصر يتوفر على أبراج ركنية وله شكل مربع كقصر البروج بالمعاضيد.

وتتألف أبراج قصور تافيلالت المتصلة بالسور من طابقين أو ثلاث طوابق في بعض الأحيان يصعد إلى أجزائها العلوية بواسطة درج أو سلم خشبي متحرك يفضي إلى أعلى بحيث يشرف على الأسوار جميعها ويدور بأعلى الأبراج شرفات مسننة أو هرمية

1- بوراس (بحيى)، العمارة الدفاعية في منطقة وادي مزاب (نموذج قصر بني يزقن)، م. س، ص. 47.

الشكل، وقد كانت هذه الطوابق عبارة عن غرف يستريح فيها المكلفون بحراسة القصر ليلاً بالتناوب⁽¹⁾، والجدير بالإشارة أن مدخل غرفة البرج يفتح على ممشى السور كما هو الأمر بقصر آبار.

2.3 الأبراج المنعزلة

تميزت قصور تافيلالت بوجود أبراج منعزلة في مناطق معينة بغابتها أو في أطرافها أو مشرفة على المسالك الطرقية المؤدية إليها أو مطلة على وادي زيز، وذلك للمراقبة والإشعار بأي خطر محتمل يهدد ساكنة القصور بواحة تافيلالت. وغني عن البيان أن ظاهرة إقامة أبراج المراقبة في مواقع منعزلة كنقاط أمامية وجبهات دفاعية وجدت بواحات بلاد المغرب منذ العهود القديمة⁽²⁾ في كل من واحة فكيك والأوراس وتودغى ودرعة وغيرها. وتجدر الإشارة إلى أنه كان يتم اعتلاء هذه الأبراج بالصعود تسلقا بالحبال أو بسلم خشبي متحرك من أجل الدخول إليها عبر فتحات علوية مستطيلة.

1.2.3 برج إيردي بشمال المعاضيد

تذكر الرواية الشفهية بالمعاضيد، أن المنطقة كانت تتوفر على أبراج منعزلة في المناطق الحدودية للمراقبة والدفاع⁽³⁾، حيث إنه كان بكل برج ثمانية أشخاص. وفي هذا المقام لازال مجال قصور المعاضيد شاهدا أثريا على هذه الظاهرة، إذ إن شمال المعاضيد لازال تتوفر على برج أثري بالقرب من زرزف يفصل بين أراضي الجماعة السلالية للمعاضيد وأراضي الجماعة السلالية التابعة للدويرة. وقد كان هذا البرج مسرحا لأحداث تاريخية أبرزها وقوع معركة المعاضيد التاريخية سنة 1916م بالقرب منه، كما اضطلع بأدوار طلائعية إبان الفترة الاستعمارية.

ومن خلال المعاينة الميدانية لبرج إيردي الأثري، الذي يبعد عن قصر المعاضيد الأم بعشرة كيلومترات جهة الشمال، فإن هذا البرج الآيل للسقوط عبارة عن شكل مربع

1- عبد اللوي علوي، مدغرة وادي زيز، ج. 1، م. س، ص. 217.

2- بوراس (يحيى)، العمارة الدفاعية في منطقة وادي مزاب (نموذج قصر بني يزقن)، م. س، ص. 46.

3- عبد القادر بن حسني الإدريسي الودغيري، الرواية الشفهية بتاريخ 20 مارس 2012.

قياسه 7,20م×7,20م وعلو عشرة أمتار، ويتكون علوه من اثني عشر لوحا من التراب المدكوك الممزوج بالحصي.

الصورة 7 : الجهة الجنوبية لبرج المراقبة إيردي



الصورة 8 : الجهة الجنوبية لبرج المراقبة إيردي



المصدر: تصوير شخصي، أبريل 2012

2.2.3 برج الوادي تيزيمي

يقع برج الوادي في الجهة الجنوبية الغربية لقصور تيزيمي، بالقرب من الضفة الشرقية لوادي غريس، مما جعله يمكن من مراقبة المجال الترابي لتيزيمي مع مجال واحة حنابو، وذلك عبر رصد تحركات الأعداء المتربصين بالمنطقة خلال فترة الحماية⁽¹⁾، والذين يصطلح عليهم محليا "الفتّانة" بزعامة مبارك التوزونيني، ومن بعده أبو القاسم النكادي الذي بعد سيطرته في الهوامش الشمالية لتافيلالت على قصر "باحدي" بغتة سنة 1927م⁽²⁾ أصبح يغير على القصور المجاورة لها بمنطقة تيزيمي.

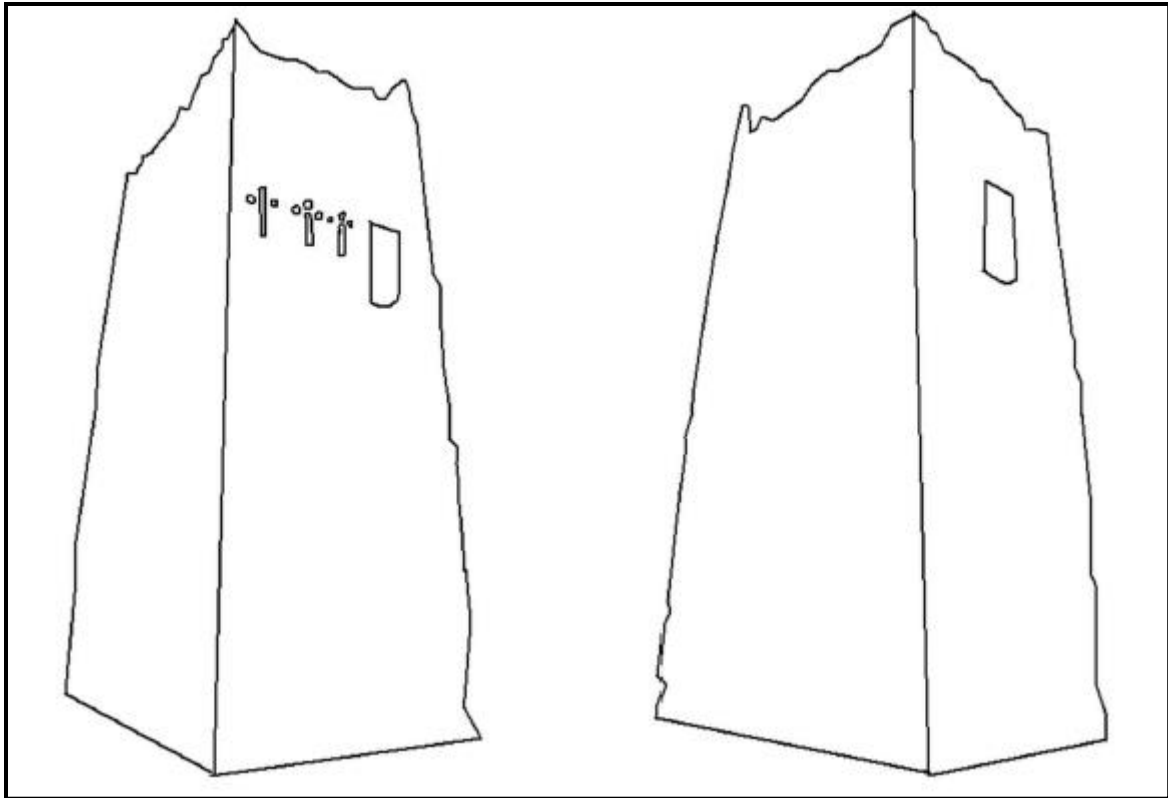
ويتخذ برج الوادي الذي يتألف من طابقين : سفلي وعلوي، شكلا مستطيلا عرضه 4.10 متر وطوله 5.25 متر، وأما ارتفاعه فيبلغ حوالي 8.50 متر، وقد تم تشييد قاعدته

1- الخلافة بوعلي، التراث المبني بمنطقة تافيلالت، م. س، ص. 113.

2- جورج سبيلمان، آيت عطا الصحراء وتهدة أفلاّن-دّزا، ترجمة وتعليق محمد بوكبوط، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 2007، ص. 83.

بالطابية، ثم بعد ذلك تم بناء باقي الجدران من الجهات الأربع بالطوب الذي يصطلح عليه محليا "القالب"، وتخترق جدران هذا البرج نوعان من الثقوب، الأولى عبارة عن فتحات رأسية ضيقة من الخارج ومتسعة من الداخل تتخذ شكل الحرف اللاتيني (T) تمكن من رصد تحركات العدو وتصويب البنادق في اتجاهه ويصطلح عليها معماريا بالمزاغل (Barbacane)، والثانية عبارة عن فتحات ضيقة مربعة الشكل ومنتظمة أفقيا تمكن من استعمال البنادق لإطلاق النار تشبه المسلحيات (Meurtrières) التي تفتح في الأسوار بالمدن المغربية الأصيلة.

الشكل رقم 3: واجهات برج الوادي بمجال قصور تيزيمي



المصدر : عمل شخصي، 2018.

3.2.3 أبراج المراقبة بغابة قصر مزكيدة

يتوفر محيط قصر مزكيدة، الذي ينتمي لمشيخة تانجيوت على بعد حوالي ستة كلم شمال مدينة الريصاني، وينتمي لسلسلة القصور العلوية التي شيدها المولى اسماعيل بواحة

تأفيلالت⁽¹⁾، على أبراج للمراقبة كثيرة في غابته، والتي كانت لها وظائف متعددة تتمثل في مراقبة تحركات العدو المتربصين بالقصر من قبائل عرب الصباح، وكذا مراقبة الغابة ومياه السقي، وقد كانت هذه الأبراج تتركز في الطريق المؤدية لقصر أولاد الزهراء وتتميز بمسحتها الهرمية، وتتخذ شكلا مستطيلا، ويبلغ علوها حوالي ستة أمتار وعرضها أربعة متر متر وطولها خمسة متر، غير أن وضعيتها في الزمن الراهن آيلة للسقوط.

الصورة رقم 9 : واجهات أبراج المراقبة بغابة قصر مزكيدة



المصدر : تصوير شخصي، نونبر 2018.

4- الخنادق

إذا كان الخندق يمثل عنصرا هاما لحماية القصر من الغارات في واحات بلاد المغرب بكل من تونس⁽²⁾ والجزائر والمغرب، فإنه يبدو ظاهريا في الزمن الراهن أن معظم القصور بتأفيلالت قد استغنت عنه نظرا لتموضعها وسط أو بجانب المساحات الزراعية على غرار القصور بمدغرة⁽³⁾.

1- لحسن تاوشخت، عمران سجلماسة، ج. 2، م. س، ص. 507.

2- محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية، م. س، ص. 53.

3- عبد اللوي علوي، مدغرة وادي زيز، ج. 1، م. س، ص. 217.

غير أن تداول مصطلح أحفير (Obstacle) محليا بمجموعة من القصور، والذي هو عبارة عن حفرة متوسطة العمق تحاط بأسوار المدن أو القصور لحمايتها من تقدم العدو⁽¹⁾، يجعلنا نتساءل هل فعلا معظم القصور الفيلالية لم تعرف هذا النوع من العمارة العسكرية رغم كونها قصور تقع في منطقة منبسطة تتمثل في سهل تافيلالت؟

لا شك أن وجود الخندق بواحات مجاورة لتافيلالت في كل من غريس وفركلة وتودغى ودرعة التي كانت القصور والقصبات يحيط بها سور خارجي وخندق⁽²⁾، فضلا عن تداول الرواية الشفوية لهذا النوع من العمارة العسكرية بتافيلالت يجعلنا لا نستبعد وجوده ببعض القصور الفيلالية، غير أن الذي نفترضه قد حصل هو إزالته وردمه للبناء مكانه في إحدى الفترات التاريخية التي يتم فيها توسيع القصر، خاصة أن جل القصور القبلية بتافيلالت كانت تعرف من حين لآخر توسعا عمرانيا، نتيجة ارتفاع الكثافة السكانية أو بفعل استقطاب سكان آخرين لتقديم الدعم والمساندة أثناء الصراعات التي شهدتها القصور فيما بينها أو مع أطراف خارجية من قبائل آيت عطا. كما أن ظاهرة ردم الخندق المحيط بالقصر شهدتها مجموعة من القصور ببلاد المغرب كالقصور الصحراوية في كل من الجزائر وتونس⁽³⁾.

في هذا المنحى، فإن ما يزكي توفر القصور الفيلالية تاريخيا على أحفير (الخندق) ما يحمله مجالها من دلالة طوبونيمية ترتبط معانيها بأحفير، وهكذا نجد دروب بعض هذه القصور الواحية تحمل أسماء تحيل في دلالتها على هذا الصنف من التحصينات العسكرية، وذلك ما يتضح في "قصر منوكة"⁽⁴⁾، الذي يوجد به درب يعرف عند ساكنة القصر باسم

1- جمال بيلول، المصطلحات المعمارية المدنية، م. س، ص. 42.

2- أحمد البوزيدي، درعة بين التنظيمات القبلية والحضور المخزني : دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية (1894-1935)، مطبعة أنفو-جرانت، فاس، 2009، ص. 468.

3- محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية، م. س، ص. 53.

4- قصر منوكة: يقع هذا القصر الذي ينتمي إداريا لجماعة بني امحمد سجلماصة على الضفة اليسرى لوادي إيفلي أو وادي الشرفاء، ويبعد عن مدينة الريصاني بحوالي 1500 متر جنوب شرق قصر أبو عام، ويعتبر هذا القصر المشهور بالدباغة في المنطقة والجنوب الشرقي أحد قصور مقاطعة وادي إيفلي. عبد الله حمادي الإدريسي، منوكة بشار وجهود دباغها في مقاومة الاستعمار، وايت دريم للطباعة والنشر، الجزائر، الطبعة الأولى، 2016، ص. 21.

"درب أحفير" يصادفه كل من يدخل إلى قصر منوكة قبل الوصول إلى المسجد بالقصر على جهة اليسار⁽¹⁾.

والجدير بالإشارة إلى أن من بين المنشآت المائية بمجال قصور تافيلالت نجد ما يسمى محليا بـ "الحفاري" وهي الأحواض التي يتم حفرها بجانب القصور لخرن مياه الفيضانات واستعمالها عند الحاجة⁽²⁾، ولا شك بأن هذه الحفر التي كانت تحيط بأسوار مجموعة من القصور الفيلائية كانت لها وظيفة دفاعية بالإضافة إلى وظيفة خزن المياه. كما أنه إلى الزمن الراهن لا زالت إحدى السواقي المارة بجانب قصر كيغلان⁽³⁾ يطلق عليها من لدن الساكنة المحلية اسم أحفير، وهذه الساقية التي تسقي المجال الحيوي للقصر تمر بمحاذاة أسواره، مما يبرز الدور الدفاعي الذي كانت تضطلع به تاريخيا لحماية ساكنة القصر وصد هجمات العدو وتوفير الأمن للسكان درءا لكل الأخطار.

والخلاصة التي نخلص إليها في هذا الفصل، الذي تمحور حول البعد العسكري في تخطيط القصور الفيلائية، أن البنية العمرانية لهذه القصور بمرافقها المشتركة والخاصة داخل الأسوار أو خارجها، شكلت وحدة عمرانية متكاملة الوظائف تستجيب للطابع العام للعمارة الصحراوية التي لا تخرج عن إطار ضوابط العمارة العربية الإسلامية، مما جعل كثيرا من الباحثين يعتبرون عمران قصور تافيلالت بمثابة صورة مصغرة لبعض الأحياء المُسورة بالحوضر المغربية التي تندرج في سياق تخطيط المدن الإسلامية رغم بعض التباينات الطفيفة فيما بينها على مستوى مكونات العمارة المدنية والدينية والعسكرية، بل إن هناك من الباحثين من اعتبر "تافيلالت نموذج مصغر عن مجموع البلاد"⁽⁴⁾ بالمغرب.

انطلاقا مما سلف، يظهر أن قصور تافيلالت قامت بوظائف وأدوار متعددة منذ ظهورها، وهذه الوظائف متكاملة فيما بينها غير أنها جميعها تمحورت حول وظيفتي الأمن والأمان، خاصة في فترات غياب الأمن وانعدامه بالمجال القروي للقصور الفيلائية، مما

1- عبد الله حمادي الإدريسي، قاعدة المغرب الأقصى قبل فاس سجلماسة ووريثتها تافيلالت تاريخا وأمجادا وجهادا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2016، ص. 237.

2- حسن حافظي علوي، سجلماسة وإقليمها، م. س، ص. 83.

3- قصر كيغلان: ينتمي هذا القصر إداريا لجماعة السفالات التي كانت تضم تاريخيا مشيخة الثلث الفوقاني (الأعلى) ومشيخة الثلث الوسطاني (الأوسط)، ومشيخة الثلث التحتاني (الأسفل) بالإضافة إلى الزوايا.

4- ابراهيم بوطالب، مرتبة إقليم تافيلالت في تاريخ المغرب، ندوة نشأة الدولة العلوية، نشر المملكة المغربية، وزارة الثقافة، الريصاني، من 23 إلى 27 مارس، 1988، صص. 26-28.

جعلها ملاذاً آمناً لساكنتها التي شيدت معالم معمارية عسكرية ودفاعية لتحقيق هذه الغايات وتأدية مختلف الوظائف الأمنية والاقتصادية والسكنية والتنظيمية والسياسية والدينية.

كما يتضح من خلال قراءتنا المعمارية لمكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت، أننا أمام قصور شملت نظاماً دفاعياً متنوعاً، اتسم بمتانة تحصيناته لتوفير الأمن والحماية لساكنة القصور، وكذا صد هجمات الأعداء، وذلك ما يتمثل أولاً في الأبواب التي كشف تخطيطها المعماري المتنوع، ما بين الأبواب المباشرة والأبواب المنكسرة بقصور تافيلالت، فضلاً عن متانة المدخل من خلال تشييد عضادتيه بالحجارة لتحمل الدفع وحركة الإغلاق والفتح يومياً، مما يدل على إبداع مشيدي المكونات المعمارية لهذه القصور وخبرتهم في مجال العمارة العسكرية بشكل أسهم في الدفاع عن السكان وتحقيق الأمن والسكينة لهم.

وارتباطاً بما سبق، نستنتج خاصية ثانية تتجلى في كون الأسوار الخارجية بقصور تافيلالت اختلفت في وظيفتها، حيث إن هناك أسوار اقتصر على "الدفاع السلبي" نظراً لعدم توفرها على ممشى السور، مما جعل وظيفتها تقتصر على منع العدو من تسلقها بفضل ارتفاعها. بينما هناك أسوار خارجية تنوعت وظيفتها بين صد الأعداء من القيام بأي محاولة للتسلل للقصر، وبين السماح للمقاتلين بالتحرك في أعلى السور بفضل توفرها على ممشى الحرس (Chemin de ronde)، كما هو الحال بالقصور المخزنية مثل قصر آبار وقصر أولاد عبد الحليم، وكذا بعض القصور القبليّة بالمعاضيد أو تابوعصامت وبعض قصور تيزيمي.

وتبرز دراسة الأبراج بقصور تافيلالت أن المنطقة عرفت تشييد أبراج متنوعة برانية وركنية، وكذا بناء أبراج في وسط الأسوار متصلة بها أو على جنبات أبواب القصور، وذلك لتدعيم أسوار القصور من جهة، وإظهار البناء بمظهر المنعة والقوة من جهة أخرى، فضلاً عن كون الفصل بين الأبراج يتم في حدود مسافة تتناسب مع الأسلحة المستعملة في الدفاع سواء كانت أسلحة تقليدية كسهام الأقواس أو أسلحة نارية كالبنادق.

تأسيساً على ما سبق، نستنتج أن العمارة العسكرية بقصور تافيلالت، ما هي إلا جانب من جوانب الحركة العمرانية للحواضر والقرى المغربية وأنظمتها الدفاعية التي تعبر عن منجزات الإنسان الواحي وحاجياته، وذلك اعتماداً على إمكانياته ووسائله المتوفرة بحثاً

عن أساليب عيش سليمة توفر له السكنية والأمن والاستقرار، وهو أمر يحمل على الاعتقاد بأن المعرفة التاريخية بالعمارة العسكرية للقصور الفيلازية على ما هي عليه الآن تبقى مبتورة، خاصة في ظل الإشكالية التي يطرحها غياب الخندق بمعظم قصورها، وفي حاجة إلى مزيد من تعميق النظر والبحث. ويظل الأمل معقودا على تطور البحث الأركيولوجي وتكامله مع العمل التوثيقي.

الفصل السادس:

القصور الفيلاية وإشكالية التصنيف

الفصل السادس : القصور الفيلالية وإشكالية التصنيف

يواجه الباحث في تاريخ وعمارة القصور الصحراوية عامة والقصور الفيلالية على نحو خاص إشكالية كبرى ترتبط بالمعايير المعتمدة بين الباحثين لتصنيف هذه القصور ودراستها تاريخيا وأثرها، وذلك نتيجة تعدد هذه المعايير وعدم وضوحها، حيث إنه رغم كون القصور الصحراوية تعبير عن منجزات الإنسان الواحي وحاجياته اعتمادا على إمكانياته ووسائله المتوفرة من أجل البحث عن أساليب عيش سليمة توفر له السكنية والأمن والاستقرار، فإن تعدد وظائف هذه القصور واختلاف ظروف نشأتها وتطورها في الزمان جعل معايير التصنيف تختلف بين الباحثين.

ويروم المبحث الأول من هذا الفصل مناقشة معايير التصنيفات المعتمدة من لدن الدارسين للقصور الصحراوية ببلاد المغرب، وإبراز إلى أي حد يمكن للباحث في عمارة القصور الفيلالية تطبيقها في دراسته؟ وأما المبحث الثاني فيهدف تقديم نماذج تصنيفية يمكن اعتمادها في دراسة القصور بتافيلالت، وذلك من خلال استعراض التصنيف الذي يركز على الشكل الهندسي للقصور الفيلالية، مع تقديم محاولة في التصنيف الطوبونيمي، وكذا التطرق بشكل مختصر للتصنيف الوظيفي الذي اعتمدت عليه مجموعة من الأبحاث في دراستها للقصور الواحية بتافيلالت. غير أنه بحكم ارتباط موضوع بحثنا بالعمارة العسكرية، فقد عملنا على تصنيف القصور الفيلالية عسكريا انطلاقا من خصائصها وسماتها المعمارية المكونة للعمارة العسكرية.

ويعتبر المحور الأخير من المبحث الثاني في هذا الفصل تطبيقا لما سبق، وذلك عبر دراسة نموذجية لتصنيف القصور بتافيلالت اعتمادا على الوظيفة التي اضطلعت بها بعد تشييدها وبنائها وذلك على غرار الدراسات السابقة التي اهتمت بعمران القصور الفيلالية، غير أن تميزنا عنها يتجلى في وضع خريطة شاملة توطن جميع هذه القصور الموجودة بمجال الدراسة التي تتموضع بزيز الأسفل، علاوة عن وضع خرائط توضيحية لكل نوع من هذه القصور الفيلالية.

المبحث الأول : المعايير المعتمدة لتصنيف القصور الصحراوية ببلاد المغرب

حاول كثير من الباحثين في دراستهم للقصور الصحراوية وضع عدة معايير لتصنيفها دون الاهتداء والوصول إلى معيار موحد لتنميط هذه القصور، إذ إن بعض الدارسين صنفوا القصور الصحراوية اعتمادا على مورفولوجيتها وشكلها العام، بينما استند باحثون آخرون على موقع القصور بالسهول أو الجبال، في حين اعتمد بعض الباحثين على التخطيط الداخلي للقصور انطلاقا من الشوارع الرئيسية والثانوية للقصر، كما أن هناك صنفا آخر من الباحثين حاول تنميط القصور الصحراوية وتصنيفها عبر التأريخ لنشأتها انطلاقا منلقى والبقايا الأثرية لهذه القصور.

وتجدر الإشارة إلى أن من أهم الدراسات التي تناولت تصنيف القصور الصحراوية وتنميطها أطروحة حملاوي علي⁽¹⁾، غير أننا لم نتمكن من الحصول عليها، ولهذا اعتمدنا في هذا المبحث على ما توفر لنا من دراسات وأبحاث، والتي من بينها مقال "القصور الصحراوية بالجزائر صور للإبداع الهندسي"⁽²⁾، وبحث علاوة عبد المجيد حول المسكن الواحاتي الجزائري⁽³⁾، علاوة عن دراسات محمد حسن حول الجغرافية التاريخية لإفريقية والمدينة والبادية التونسية خلال العصر الوسيط⁽⁴⁾.

1- قصور منطقة جبال عمور (من القرن العاشر إلى الثالث عشر الهجري)، رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1999-2000، صص. 41-54.

- حملاوي علي، نماذج من قصور منطقة الأغواط دراسة تاريخية وأثرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006.

2- يمينة بن صغير حاضري، القصور الصحراوية بالجزائر صورة للإبداع الهندسي، م. س، صص. 136-156.

3- علاوة عبد المجيد، تطور المسكن الواحاتي -منزل سي الحواس نموذجا- دراسة تاريخية أثرية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الآثار، تخصص آثار صحراوية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خضير بسكرة، الجزائر، السنة الجامعية 2007-2008، صص. 54-60.

4- محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، ج. 1، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، تونس، 1999، صص. 60-61.

- محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية، م. س، صص. 28-29.

1- التصنيف التاريخي

يقصد بالتصنيف التاريخي تنميط القصور الصحراوية اعتمادا على الفترة التاريخية التي شيدت فيها القصور بمختلف واحات بلاد المغرب، وفي هذا الصدد يعتبر المؤرخ مارتان (Martin) من أقدم الباحثين الذي صنف القصور الصحراوية اعتمادا على فترة البناء حيث نميز بين ثلاثة أصناف⁽¹⁾:

- الصنف الأول : يمتد من ما قبل التاريخ إلى سنة 100م، ويرجع لفترة الجيتوليين⁽²⁾، ويتسم هذا الصنف من القصور تشييده في أماكن مرتفعة بمواد تتكون من الحجارة الصغيرة والكبيرة.
- الصنف الثاني : يمتد من 100 إلى 600م، واصطُح عليه مارتان تسمية "اليهودي"، ويتشكل من سور شبه دائري مشيد على حجارة مسطحة وموضوعة بطريقة أفقية تشبه التقنية المستعملة في الجسور الرومانية.
- الصنف الثالث : يضم جل القصور التي شيدت بعد القرن السابع الميلادي، وقد أرجع القصور العربية وقصور القبائل الأمازيغية الزناتية إلى هذا الصنف، وذلك اعتمادا على ما تقدمه النصوص التاريخية من مادة مصدريّة ومعلومات عامة تخص هذه القصور.

وتجب الإشارة إلى أنه يصعب اعتماد هذا التصنيف في دراسة القصور الصحراوية عامة ومنطقة تافيلالت مدار هذا البحث، نظرا لكون البناء في واحات بلاد المغرب أغفل تسجيل التواريخ التأسيسية لكل قصر، فضلا عن قلة الإشارات المصدريّة التي أرخت لفترة بناء القصور الصحراوية، علاوة عن غياب أبحاث أركيولوجية تعتمد على العلوم المساعدة في ضبط التاريخ الدقيق للقصور ببلاد المغرب.

1 -Martin (A.G.P), A la frontière du Maroc, les oasis sahariennes (Gourara, Touat, Tidikelt), Alger, 1908, pp 25-59.

2- الجيتوليون : يعرفون بالجيتول أو الكيتول (Gactuli) اسم لعدة تجمعات قبلية في التاريخ القديم شغلت نطاقا واسعا من الشمال الإفريقي يمتد من المحيط الأطلسي إلى خليجي السيرت. ينظر محمد مجدوب، مادة الجيتوليون، ضمن معلمة المغرب، ج. 10، م. س، صص. 3206-3210.

2- التصنيف حسب الشكل الخارجي

اعتمد مجموعة من الدارسين الشكل الخارجي للقصور الصحراوية في دراستهم لها دراسة تصنيفية، وفي هذه المقام، قام كونار (Quenard) بتصنيف القصور الصحراوية بدوره إلى ثلاثة أنواع معتمدا على تحليلات ومنهج مارتان الكرونولوجي، غير أنه تميز عليه بإضافة التقنيات التي ترتبط بكل صنف وتميزه عن الآخر، وهكذا اعتبر كونار النوع الأول من القصور الصحراوية يرتبط بمجموع الحصون التي تتخذ شكلا مستطيلا تحيط بها أبراج من الحجارة وتتموضع على القمم الجبلية دون تحديد الفترة الزمنية التي ترجع إليها⁽¹⁾. وأما النوع الثاني عند كونار فيشمل القصور التي تتخذ شكلا مستديرا ويحيط بها سور يتقدمه خندق وتحتوي بداخلها على أبراج للمراقبة، وفيما يخص النوع الثالث فيتألف من المباني التي شيدت من الأجر النيئ (غير المشوي) وتضم أضرحة تعلوها قباب دائرية الشكل⁽²⁾.

وفي نفس السياق نجد الباحث عبد الرحمان أيوب في تصنيفه للقصور الصحراوية يعتمد على الشكل الخارجي؛ كذلك؛ والتوزيع الداخلي للمكونات المعمارية لقصور المغرب الأدنى رغم تركيزه في دراسته على القصور المخصصة للتخزين⁽³⁾، وكذا اعتباره القصور ذات الشكل المستطيل هو الأسبق زمنيا⁽⁴⁾. وإجمالا فإن عبد الرحمان أيوب يصنف القصور الصحراوية إلى ثلاثة أصناف⁽⁵⁾:

- الصنف المستطيل الأمازيغي : يتكون القصر في هذا الصنف من عدة غرف مستطيلة الشكل ومتجاورة ومبنية على سطح الأرض أو منحوتة في الحجارة، ومثال هذا الصنف قصر مطماطة وغمراسن والحدادة بتونس وقصر نالوت بليبيا.

1 -Quenard (C), Recherches historiques dans le Touat Gourara, B.L.S N° : 02, 1995, p 19.

2 -Ibid, p 29.

3- علاوة عبد المجيد، تطور المسكن الواحاتي، م. س، ص. 46.

4- يمينه بن صغير حاضري، القصور الصحراوية بالجزائر صورة للإبداع الهندسي، م. س، ص. 144.

5- أيوب عبد الرحمان، من قصور الجنوب التونسي، م. س، صص. 130-136.

- الصنف المربع الروماني : يشبه هذا الصنف الحصون البيزنطية والرباطات الإسلامية المبكرة في تخطيطه، ويعد هذا الصنف من القصور الصحراوية الأقل وجودا بالمغرب الإسلامي.

- الصنف الدائري العربي : ترجع بداية ظهوره إلى أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ويمكن هذا الصنف من القصور من الحفاظ على المواد المخزنة بطريقة أفضل⁽¹⁾.

لا مناص من الإشارة إلى أن تركيز عبد الرحمان أيوب في تصنيفه للقصور الصحراوية ببلاد المغرب على القصور المخصصة للتخزين، يطرح صعوبة في اعتماده من لدن الباحثين في هذا النوع من العمارة؛ تتمثل في خلطه بين القصور والقصبات والمخازن الجماعية المعروفة بـ "إكودَر" (Igoudar) التي ارتبط تشييدها بالمجالات التي استوطنتها الساكنة الأمازيغية بالمناطق الجبلية مثل جبال الأطلس وبعض المجالات المنبسطة المتخامة لها⁽²⁾.

3- التصنيف حسب التخطيط الداخلي للقصر

بعيدا عن مورفولوجية القصر وشكله الخارجي اعتمد بعض الباحثين في تصنيف القصور الصحراوية على التخطيط الداخلي لمرافقها ومكوناتها، وهكذا يصنف الباحث كابو راي (Aapot Ray) القصور الصحراوية إلى صنفين، الصنف الأول من القصور يتسم بأزقته الملتوية والضيقة والتي تنتهي في الغالب الأعم بدروب حادة، ويرجع هذا الصنف إلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلاد، وأما الصنف الثاني فتتميز قصوره بشوارعها المستقيمة والعريضة وتتقاطع مع بعضها البعض مشكلة زوايا قائمة، ويؤرخ لهذا الصنف من القصور الصحراوية بالقرن العاشر الهجري/الحادي عشر الميلادي⁽³⁾.

1- نفسه، ص. 133.

2- أحمد أوموس، في الأصول التاريخية والخصائص المعمارية للمخازن الجماعية (إكودار) بمناطق الأطلس، التراث المعماري بالمغرب، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الدار البيضاء، 2013، ص. 75-100.

3 -Capot (Ray), L'Afrique blanche, presse universitaire de France, Paris 1953, p 5.

واعتمادا على التخطيط الداخلي للقصر؛ كذلك؛ صنف الباحث بيسون (Bisson) القصور الصحراوية إلى أربعة أنواع دون تحديد الفترة الزمنية لكل نوع، وإنما اعتمادا على مكونات القصر الداخلية من خلال إبراز القصور التي تتوفر على قسبة والقصور التي لا تتوفر عليها⁽¹⁾.

4- التصنيف حسب الموقع والموقع الجغرافي للقصر

اعتمد هذا التصنيف الباحث التونسي حسن محمد في دراسته للقصور بإفريقية، حيث صنفها انطلاقا من موقعها وموضعها إلى صنفين هما : القصور في السهل، والتي لا تعدو أن تكون جدارا خارجيا يحيط بمنازل متراسة قائمة حول باحة متوسطة⁽²⁾، والقصر في الجبل الذي يعد عبارة عن مأوى للسكان ومخزن للحبوب⁽³⁾. وقد اعتمدا هذا التصنيف أحمد مولود في دراسته لقصور ولاتة وودان وتيشيت وشنقيط⁽⁴⁾.

بقي أن نشير إلى أن هذا التصنيف لا يمكن اعتماده في دراستنا للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت التي تندرج ضمن موضوع هذا البحث بيزر الأسفل، نظرا لكون معظم هذه القصور إن لم نقل جميعها تقع بسهل تافيلالت، والذي يطابق السهل الغربي المشترك لكل من واد زيز واغريس⁽⁵⁾.

5- تصنيف القصور حسب الأدلة الأثرية

اعتمد الباحث إشالي (Echalier) في دراسته الميدانية للقصور الصحراوية بالجنوب الغربي للجزائر على جميع المعايير السابقة والصور الجوية ذات المقاييس المختلفة، مع إضافة المعيار الزمني واللقى والبقايا الأثرية التي يتم العثور عليها بهذه

1 -Bisson (J), Le Gourara Etude de géographie humaine, Mémoire N° 3, I.R.S. Université d'Alger, SD, pp. 166-168.

نقلا عن علاوة عبد المجيد، تطور المسكن الواحاتي، م. س، ص. 47.

2- محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، ج. 1، م. س، صص. 60-61.

3- محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية، م. س، صص. 28-29.

4- أحمد مولود، مدن موريتانيا العتيقة، م. س، ص. 36.

5- محمد بريان وآخرون، المغرب مقارنة جديدة في الجغرافية الجهوية، م. س، 398.

القصور⁽¹⁾، وعلى ضوء ذلك قام إشاليي بعد الدراسة الميدانية لثلاثمائة وثلاثة وثلاثين قصرا بالجنوب الغربي للجزائر بتصنيف هذه القصور إلى ستة أصناف كبرى مع تقسيم كل صنف إلى نوعين، وقد اعتبر إشاليي الشكل الدائري للقصر هو الأقدم ومع مروم الزمن تطورت هذه المباني إلى المخطط القائم الزاوية الأصلي⁽²⁾.

ومما يلاحظ في هذا التصنيف الذي اعتمدته إشاليي أنه رغم انتقاده للتصنيفات السابقة، فإنه بدوره وقع في مجموعة من الأخطاء من قبيل خلطه بين القصر القصبية والقصر القرية، فضلا عن غياب فرق واضح بين نوعي كل صنف من الأصناف الستة التي قسم إليها القصور الصحراوية⁽³⁾.

خلاصة القول، إنه رغم تعدد التصنيفات التي قام بها الكثير من الباحثين للقصور الصحراوية بالجزائر وتونس وموريتانيا واختلافها في المعايير المعتمدة في التصنيف، فإن الدارسين لم يتمكنوا من الوصول إلى نموذج تصنيفي يمكن الباحثين من التعرف على الفترة الزمنية لكل صنف، وذلك راجع لصعوبة التأريخ لهذا النوع من العمارة الواحية، نظرا لعدم إشارة المصادر التاريخية لتاريخ بناء هذه القصور، وكذا لكون البناء في العمارة الصحراوية لم يسجل تاريخ أو فترة بداية البناء وانتهاء التشييد بكل قصر من القصور الصحراوية، باستثناء بعض القصور القليلة بواحة تافيلالت. غير أن ذلك لا يمنع من محاولة وضع أو اعتماد نماذج معينة لتصنيف القصور الفيلاية التي تعتبر مناط هذا البحث، وهو ما سنعمل على إبرازه في المبحث الموالي.

المبحث الثاني : نمو وضع نموذج تصنيفي لقصور تافيلالت

يهدف هذا المبحث مناقشة التصنيفات الممكنة في دراسة قصور تافيلالت وتصنيفها اعتمادا على معايير متعددة تتراوح بين شكلها الهندسي، أو اعتمادا على دلالاتها الطوبونيمية أو انطلاقا من الوظائف التي اضطلعت بها هذه القصور، ويعتبر هذا التصنيف الأخير هو المعتمد من لدن الباحثين الذين تطرقوا بالدراسة والتحليل لتاريخ قصور تافيلالت

1 -Echalier (J.C), Villages désertes et structures agraires anciennes du Touat, Gourara (Sahara Algérien), A.M.G, Paris, 1972, pp 27-87.

2- يمينه بن صغير حاضري، القصور الصحراوية بالجزائر صورة للإبداع الهندسي، م. س، ص. 144.

3- مرجع نفسه، صص. 143-144.

وعمارتها، غير أنه بحكم ارتباط موضوعنا بالعمارة العسكرية للقصور الفيلاية، فقد عملنا على محاولة في التصنيف العسكري لقصور مجال الدراسة انطلاقاً من الخصائص المميزة لنظامها الدفاعي ومواد بنائه وتقنيات تشييده بتايفيلات.

1- التصنيف حسب الشكل الهندسي لقصور تايفيلات

اعتماداً على العمل الميداني بقصور تايفيلات وتحديدًا بيز الأسفل، يلاحظ أن هذه القصور تختلف في أبعادها على مستوى الطول والعرض، وكذا تتباين في مساحتها، مما يجعل القصور الفيلاية تتخذ أشكالاً متعددة تتراوح بين الشكل المربع والشكل المستطيل والشكل غير المنتظم.

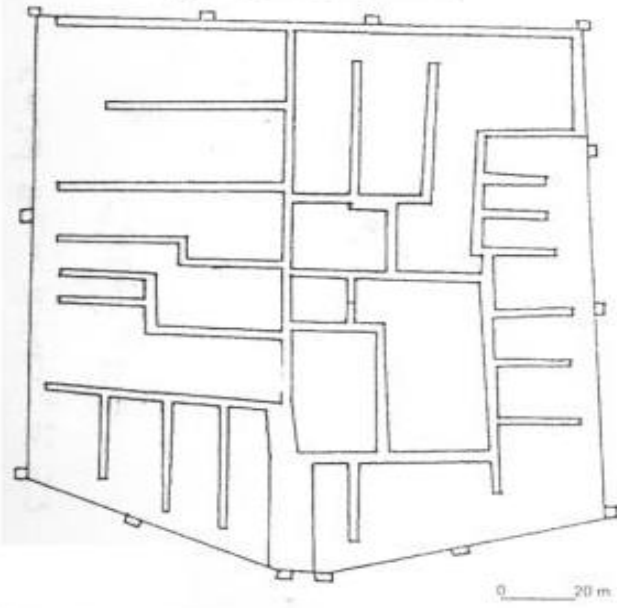
1.1 القصور ذات الشكل المستطيل بتايفيلات

تتميز القصور ذات الشكل المستطيل بقصور تايفيلات بشساعة مساحتها مقارنة بغيرها من القصور، وذلك لاستيعاب الكثافة السكانية المرتبطة بها، حيث إن معظم القصور ذات الشكل المستطيل تعتبر قصوراً قبلية مثل قصور المعاضيد "الأم" (المكابر، العبادلة، القصير) وقصور تيزيمي كقصر "أولاد علي" وقصر "الجرانة"، وكذا قصر "أخنوس" وقصر "تابوعصامت" بتايفيلات.

ويمكن هذا النوع من التخطيط للقصور المستطيل من وجود شارع رئيسي تتفرع عنه دروب متعددة من جهة اليمين والشمال مما يمكن من تلبية رغبة ساكنته، والمتمثلة في سكن كل عظم أو فخذ من قبائل القصر بدرب خاص⁽¹⁾.

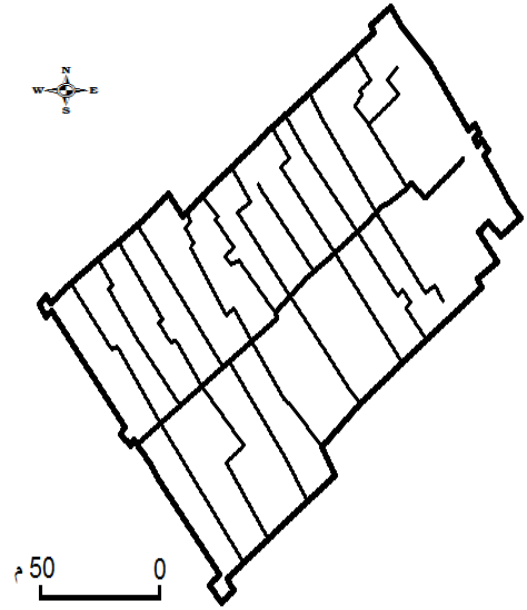
1- امبارك بوعصب، مساهمة في دراسة قصور تايفيلات، م. س، ص. 98.

الشكل رقم 5 : تصميم قصر تابوعصامت



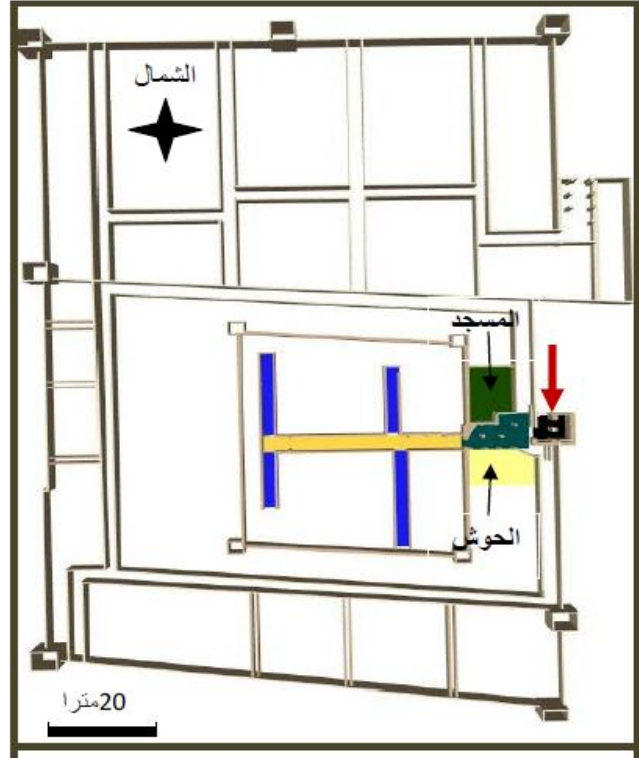
Source : El Assal Kahlid, El Basri et Malti Hicham : Les Qsour et Qasbas du Tafilalet : Etude architecturale et plan de sauvegarde, MATEUH, direction de l'architecture, Juin, 1998.

الشكل رقم 4 : تصميم قصر القصيبة بالمعازيد



المصدر : عمل شخصي، سنة 2012

الشكل رقم 6 : تصميم قصر اللهاين بتيزيمي



المصدر : الخلافة بوعلي، التراث المبني بمنطقة تيزيمي، م.س، ص. 58

2.1 القصور ذات الشكل المربع بتأفيلالت

تعتبر القصور ذات الشكل المربع سمة تميز معظم القصور السلطانية بالمنطقة، وقد أرجع أحد الباحثين الحصون والأشكال المربعة وظهور الزوايا القائمة والتخطيط العسكري واستحكام الأسوار الضخمة ووجود النخيل والجمال إلى حوض البحر الأبيض المتوسط⁽¹⁾. غير أن هذه السمة لا تمنع من وجود قصور قبلية أو قصبات تتخذ شكلا مربعا مثل قصر أولاد بحر بتيزيمي، وقصر البروج الذي يبعد عن القصر الأم للمعاضيد بمسافة تقدر بحوالي 4 كلم شمالا، ويندرج هذا القصر ضمن العمارة العسكرية التي تتغى توفير الأمن والحماية للسكان. ولا غرو في ذلك، فقد شيد قصر البروج خلال القرن التاسع عشر، من لدن أهل المعاضيد وأولاد عيسى وأولاد معطلة لمراقبة الحدود مع منطقة نفوذ آيت عطا بهدف صد الهجمات الخارجية الآتية من الشمال⁽²⁾.

وقد فسر أحد الباحثين حرص سلاطين الدولة العلوية على اتخاذ القصور المخزنية للشكل المربع لما تتطلبه المرافق والمكونات المعمارية التي يتم تشييدها داخل القصر من تنظيم محكم واستقامة تعكس جمالية القصر ومرافقه⁽³⁾، وذلك ما يتمثل في قصر الفيضة وقصر أولاد عبد الحليم وغيره من القصور المخزنية بتأفيلالت.

كما أن الذي يؤكد حرص السلاطين العلويين على بناء القصور المخزنية بشكل مربع، ما ورد في رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان (1822-1859م) إلى ابنه محمد الرابع في شأن بناء قصر كحاك وتجديد سور و شراء دور للخدم بتاريخ 19 شوال 1262هـ، حيث أمر السلطان ابنه "بإدخال النقشة التي غير محلها وإدخالها في القسبة ليستقيم تربيعها وبشرائها إن كانت ملكا لأحد كما أدنا في شراء الدويرات التي نبه عليها لينقطع الداخل وأن يجعل في محل النقشة أروى لسكنى الوصفان"⁽⁴⁾.

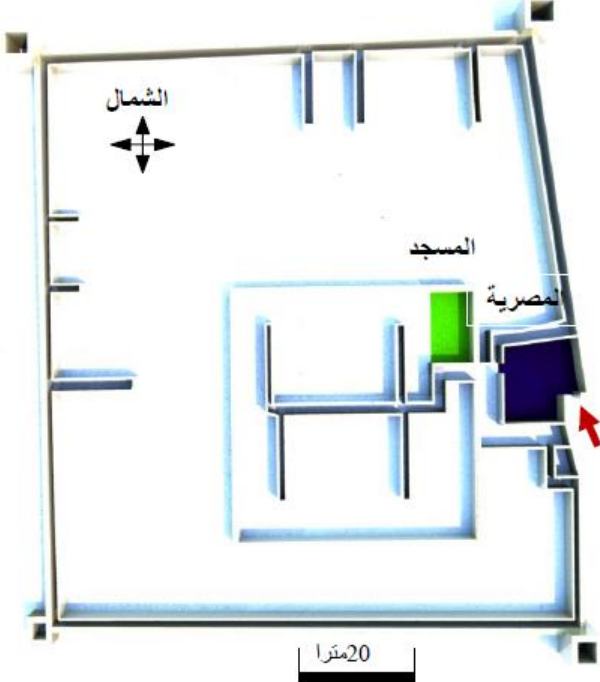
1- أحمد عبد اللوي علوي، مدغرة وادي زيز، ج. 1، م. س، ص. 213.

2- الرواية الشفهية، عبد القادر بن حسني الإدريسي الودغيري، خلال مقابلة أجريتها معه يومي 20 و21 مارس 2012م في منزله بغابة المعاضيد.

3- مبارك بوعصب، مساهمة في دراسة قصور تأفيلالت، م. س، ص. 98.

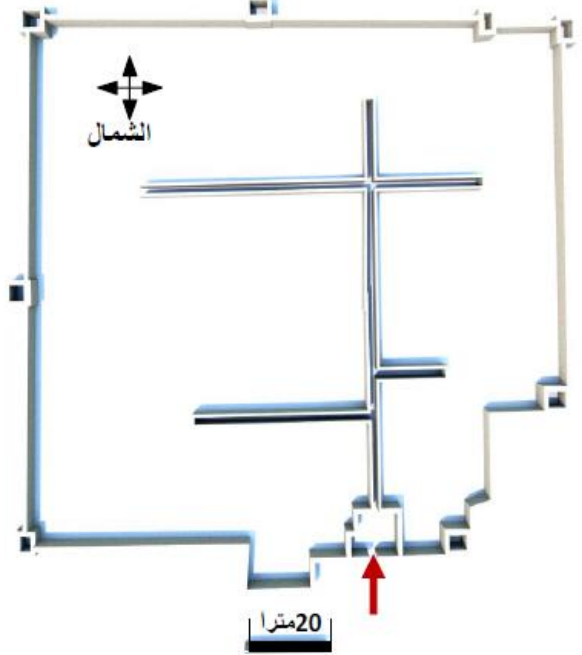
4- الوثيقة رقم 18626 بسجل الوثائق الملكية، ينظر الوثيقة رقم (3) في الملحق.

الشكل رقم 8 :تصميم قصبة بلحسن بتيزيمي



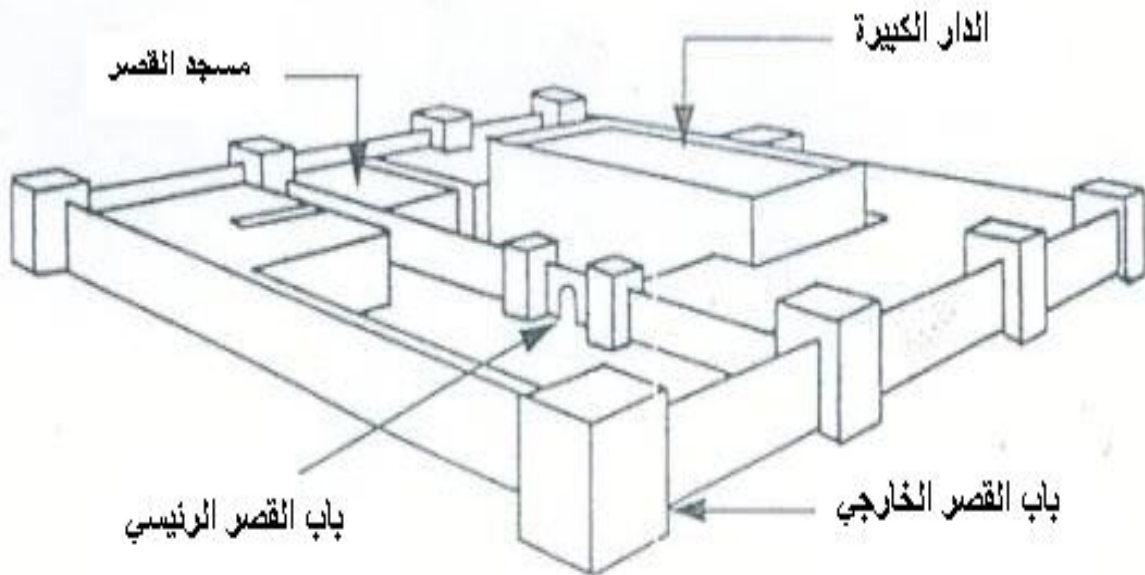
المصدر : الخلافة بو علي، التراث المبني بمنطقة تيزيمي،
م.س، ص. 54

الشكل رقم 7: تصميم قصر أولاد بحر بتيزيمي



المصدر : الخلافة بو علي، التراث المبني بمنطقة تيزيمي،
م.س، ص. 53

الشكل رقم 9 : تصميم قصر أولاد عبد الحليم

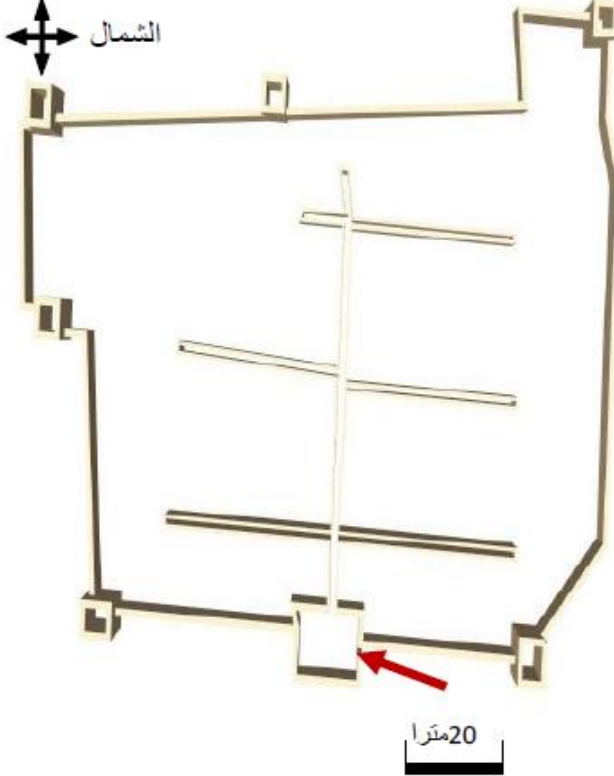


Source : El Assal Kahlid, El Basri et Malti Hicham : Les Qsour et Qasbas du Tafilalet : Etude architecturale et plan de sauvegarde, MATEUH, dirction de l'archetecture, Juin, 1998.

2.1 القصور ذات الشكل غير المنتظم بتافيلالت

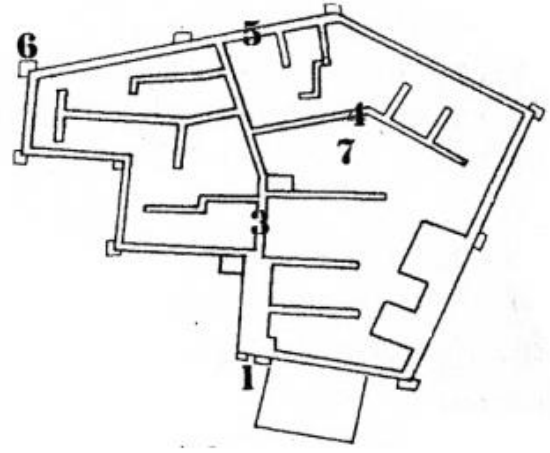
لا شك أن القصور التي تتخذ شكلا غير منتظم كانت نواتها الأولى التي شيد عليها القصر تتخذ شكلا منتظما إما مربعا أو مستطيلا أو قريبا منهما، غير أنه بفعل النمو الديمغرافي للسكان وتكاثرهم الطبيعي جعل البناء والتوسيع بالقصر أمرا لا مفر منه لاستيعاب ساكنته الجديدة، كما أن النزاعات القبلية بين مكونات القصر الاجتماعية في بعض الفترات التاريخية، أو رغبة إحدى القبائل في الاستقلالية بدرب خاص بها يؤدي إلى توسيع القصر في مختلف الجهات مما يساهم في عدم انتظام شكله. والجدير بالذكر أنه من خلال المعاينة الميدانية لمجموعة من القصور تبين بأن معظم القصور التي ارتبطت بولي صالح اتخذت شكلا غير منتظم، ومنها: قصر مولاي عبد الله الدقاق بالريصاني، قصر مولاي ابراهيم بتيزيمي.

الشكل رقم 11 : تصميم قصر مولاي ابراهيم بتيزيمي



المصدر : الخلافة بوعلي، التراث المبني بمنطقة تيزيمي، م.س، ص. 66

الشكل رقم 10 : تصميم قصر مولاي عبد الله الدقاق



- 1- باب القصر
- 3- الزقاق الرئيسي للقصر
- 4- الأزقة الثانوية (الدروب)
- 5- سور القصر
- 6- أبراج القصر
- 7- الدور السكنية للقصر

Source : El Assal Kahlid, El Basri et Malti
Hicham : Les Qsour et Qasbas du Tafilalet,
op.cit.

والخلاصة التي ننتهي إليها أن اختلاف الشكل الخارجي لقصور تافيلالت ومساحة كل قصر تحكمت فيه عوامل متعددة تتمثل في اختلاف الكثافة السكانية بكل قصر، وكذا قربه أو بعده من وادي زيز، فضلا عن تموضعه بجانب المساحات الزراعية أو وسط الغابة. كما أن معظم القصور بسهل تافيلالت تتخذ الشكل المستطيل سواء بقصور المعاضيد أو بقصور تيزيمي أو بقصور تافيلالت "الصغرى"، غير أنه مقابل ذلك يلاحظ غياب القصور ذات الأشكال الدائرية ونصف الدائرية بقصور تافيلالت على غرار ما كان سائدا بالقصور القديمة لمدغرة⁽¹⁾.

3- التصنيف حسب الدلالة الطوبونيمية لقصور تافيلالت

نهدف من خلال هذا المبحث محاولة تصنيف قصور تافيلالت اعتمادا على الطوبونيمية (Toponymie)، وذلك لكون أسماء الأماكن نتاج للتعرف على تاريخ المجال المدروس وتطور هندسته المعمارية وثقافته ساكنته، حيث إن اسم المكان؛ في الغالب الأعم؛ لا يكون فعلا فجائيا أو اعتباطيا، وإنما فعل قصدي يمتح جذوره من الثقافة المهيمنة على ساكنة ذلك المجال خلال فترة زمنية معينة⁽²⁾.

لاشك أن النظر في رسم الكلمة/التسمية للقصور الفيلالية وأصولها الاشتقاقية من الناحية اللغوية كما وردت في معاجم اللغة وقواميسها أولا، ومن الناحية الدلالية ذات الحمولة التاريخية والثقافية والاجتماعية بمقدوره أن يميظ اللثام ويكشف معاني دلالات القصور الفيلالية ويساهم في تصنيفها طوبونيميا، وهكذا ذهب أحد الباحثين⁽³⁾ إلى اعتبار أسماء القصور الأمازيغية تتكون من اسم واحد مثل أسماء قصور : تغناوت وتعزمت وغيره، وأسماء القصور العربية مزدوجة الاسم كأسماء قصور : أولاد عبد الحليم، أولاد علي، أولاد امبارك، أولاد بوزيان، أولاد سعيدان، غير أن هذه القاعدة لا تنطبق على جميع

1- أحمد عبد اللوي علوي، مدغرة وادي زيز، ج. 1، م. س، ص. 216.

2- محمد البركة، الطوبونيمية والبحث التاريخي : محاولة في تحديد اليات البحث التاريخي، العدد 24، يونيو 2014، صص. 121-125.

3- عبد اللوي علوي أحمد، مدغرة وادي زيز، م. س، ج. 1، ص. 214.

القصور الفيلازية، حيث إن هناك مجموعة من القصور تتركب من اسم واحد وعربية الأصل مثل قصر المعاضيد وقصر الفيضة وغيره.

وفي هذا الإطار، يكاد يتفق أغلب الباحثين الذين تطرقوا إلى ربط القصور الواحية بمسمياتها على أن سبب التسمية غالبا ما يعود إلى نسبتها إلى ولي صالح كان له الفضل في وجوده واستمراره أو إلى اتجاهات جغرافية معينة لمدخل القصر كالقصر الشمالي أو القصر الجنوبي، أو إلى صفة دالة على موضع القصر أو قدمه مثل القصر الفوقاني أو القصر القديم⁽¹⁾، أو نسبة إلى لون مادة بناء القصر أو نوع مواد البناء كقصر "الجبل".

كما تعزى التسمية أحيانا إلى قائد مؤسس للقصر أو إلى زعيم يرجع إليه الفضل في لم شمل سكانه، وفي بعض الأحيان يعزى الاسم إلى أصل القبيلة أو أفخاذها أو موطنها الأول الذي قدمت منه⁽²⁾. وفي أحيان أخرى ترتبط التسمية بالمجال الطبيعي والجغرافي الذي شيد في فضائه القصر، كما تتصل بحجمه من حيث الكبر والصغر وزمن بنائه من حيث القدم والحداثة، وكذا وظيفته الاقتصادية والعسكرية والاقتصادية⁽³⁾.

وبالعودة إلى قصور تافيلالت، نجد أن جميع أسباب ودلالات تسميات القصور التي تحبل بها أسماء القصور الواحية والصحراوية، والتي أشرنا إليها في الأعلى حاضرة في دلالات أسماء القصور الفيلازية، حيث إن مجموعة من قصورها اتخذت تسميتها من القبائل المؤسسة لها أو ولي صالح، بينما اتخذت بعض القصور تسميتها من موقعها وموضعها الطبوغرافي الذي شيدت فيه، في حين سميت بعض القصور بالنظر إلى حجمها مقارنة مع القصور الأخرى لواجهة تافيلالت، بينما حازت بعض القصور تسميتها اعتمادا على وظيفتها العسكرية كقصر البروج الذي يبعد عن المعاضيد بمسافة تقدر بحوالي

1- قصور منطقة جبال عمور (من القرن العاشر إلى الثالث عشر الهجري)، رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1999-2000، ص. 61.

- حملاوي علي، نماذج من قصور منطقة الأغواط دراسة تاريخية وأثرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006. نقلا عن يمينه بن صغير حاضري، القصور الصحراوية بالجزائر، م. س، ص. 138.

2- امراني محمد علوي، تافيلالت التاريخ-الإنسان-المجال، مؤسسة الأمين للتنمية، مطبعة الودغريون، الراشدية، الطبعة الأولى، 2011، ص. 36.

3- سعيد عبيدي، قصور المعاضيد دراسة تاريخية وعمرانية، م. س، 31.

4 كلم شمالا، كما نجد من هذه القصور القصابات المعروفة في النظام السكني للواحات بكونها تضم عائلات ممتدة لها مكانة اجتماعية محترمة⁽¹⁾.

جدور رقم 6: نماذج من القصور والقصابات بتافيلالت حسب التصنيف الطوبونيمي

اسم القصر نسبة إلى الحرفة والصناعة	اسم القصر نسبة الدلالة الطوبوغرافية	اسم القصر نسبة إلى الدلالة القبلية	اسم القصر نسبة إلى ولي صالح
- قصر الجير	- قصر الجبيل	- أولاد عبد الحليم	- قصر سيدي
- قصر لوجارشة (قصر	- قصر الخندق	- أولاد عبد الرحمان	الغازي بن قاسم
تصنع فيه الخوابي	- قصر أمسيقي (فم	- أولاد محمد الشرفاء	- قصر سيدي علي
والآجر)	الوادي)	- قصر أولاد القايد	بوزينة
- قصر كوحيك (قصر	- قصر تاغكة (اسم	- قصر أولاد يوسف	- قصر سيدي أحمد
كان يصنع الحايك	لحقل زراعي أو	- أولاد اسعيدان	بلمدني
الفيلاي)	ساقية)	- قصر أولاد عدو	- قصر سيدي
- قصر بومعيز (اسم	- القصر الجديد	- قصر أولاد ويلال	الغازي بن
منطقة جبلية رعوية	- القصر الفوقاني	- قصر أولاد جامع	العربي
للماعز)	- قصر تاوراغت	- قصر أولاد يحيى	- قصر سيدي
- قصر الملاح (قصر	(اسم أمازيغي	- قصر أولاد مسلم	بوزكري
كان يسكنه اليهود)	يعني الصفراء)	- قصر أولاد موسى	- قصر سيدي
- قصر منوكة (قصر	- قصر تيوجديت	- قصر أولاد المودن	بوبكر الغربي
معروف بحرفة	(كلمة أمازيغي	- قصر أولاد ليمن	- قصر سيدي
الدباغة)	تعني الجديدة)	- قصر أولاد بدلة	بوبكر الشرقي
- قصر قدارة (قصر	- قصبة حذب	- قصر أولاد علي	- قصر سيدي
يسكنه الفخارة)	الحجام	- قصر أولاد بحر	الغازي تبوبكرت
- قصر أبو عام (عرف	- قصر تريست	- قصر أولاد امبارك	- قصر مولاي عبد
القصر تاريخيا		- قصر أولاد بوزيان	الله الدقاق
بالتجارة)		- قصر أولاد معطلة	- قصر سيدي عمر

المصدر : - لحسن تاوشيخت، عمران سجلماسة، ج. 2، م. س، صص. 691-693.

- الرواية الشفوية والمعينة الميدانية للقصور الفيلالية ما بين 2014 و2018

1- العماري أحمد، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850 إلى 1902، مرجع سابق، ص. 16.

يلاحظ من خلال الجدول أن معظم قصور تافيلالت تحمل قصورها أسماء ذات دلالة قبلية، ثم تليها القصور التي تنسب إلى ولي صالح أو شيخ زاوية من الزوايا التي عرفت بها المنطقة، وفي المرتبة الثالثة نجد تلك القصور التي ارتبط أسمها بالحرفة والصناعة التي عرفت بها ساكنة القصر، وفي الأخير هناك القصور التي تحمل دلالة طبيعية أو جغرافية ترتبط بموقع وموضع القصر أو مادة البناء التي شيد بها، ولهذا فإن دراسة نموذج من كل قصر اعتمادا على التصنيف الطوبونيمي من شأنه أن يكون صورة عن هذه القصور المتشابهة الوظائف والأدوار التي لعبتها واضطلعت بها منذ بداية بنائها وهندستها.

4- التصنيف حسب الوظيفة لقصور تافيلالت

تتميز قصور تافيلالت وعلى غرار القصور الواحية لبلاد المغرب باختلاف ظروف نشأتها وتأسيسها، كما تتعدد من حيث مهامها وأدوارها التي قامت بها في المنطقة أو داخل البنية والنسق الاجتماعي الذي تنتمي إليه، واعتمادا على الدراسات السابقة لقصور تافيلالت التي أشرنا إليها في الفصل الأول من هذا البحث، يتبين أن تصنيف قصور تافيلالت وتنميطها حسب المعيار الوظيفي كشف عن وجود أربعة أصناف كبرى، فمنها صنف القصور المخزنية أو السلطانية، ومنها صنف القصور الزوايا ومنها صنف القصور القصبات، ثم أخيرا القصور القبلية أو القصور الشعبية. فما هي القصور التي تنتمي لكل صنف؟ وما هي السمات العامة التي يتسم بها كل صنف من الأصناف الأربعة للقصور الفيلاية التي تدرج ضمن مجال الدراسة؟ وما ظروف نشأة هذه القصور والوظائف والأدوار التي قامت بها هذه القصور منذ ظهورها؟

1.4 القصور المخزنية أو القصور السلطانية

يقصد بالقصور المخزنية أو القصور السلطانية مجموع القصور التي تدخل ضمن المنشآت الرسمية للسلطة الحاكمة للبلاد⁽¹⁾، والتي اتخذت مقرات للأشراف والأمراء العلويين خاصة خلفاء السلطة المركزية على منطقة تافيلالت، والذين من بينهم الأمير

1- امبارك بوعصب، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت، م. س، ص. 227.

المولى الرشيد الذي مارس مهامه كخليفة في عهد محمد الرابع بقصر أولاد عبد الحليم⁽¹⁾، إذ كان الخليفة السلطاني في تافيلالت يقطن في القصور السلطانية مثل قصر الفيضة وقصر ابار⁽²⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن القصور المخزنية التي تأسس معظمها في عهد السلطان المولى اسماعيل، والسلطان محمد بن عبد الله، والسلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام يتركز معظمها بمجال مشيخة وادي إيفلي، التي كانت تقطن قصورها غالبية الشرفاء العلويين، وتعتبر أول مشيخة في مدينة الريصاني⁽³⁾. وفي هذا السياق، تذكر المتون التاريخية أن قصور وادي إيفلي⁽⁴⁾ كان يسكن بها الأشراف العلويين، حيث إن عم السلطان مولاي يوسف (1912-1927) مولاي مهدي كان يقطن بقصر أولاد عبد الحليم سنة 1916 ثم بقصر تغمرت سنة 1917⁽⁵⁾.

والجدير بالملاحظة أن هذه القصور السلطانية أو المخزنية الفيلالية التي تتخذ شكلا هندسيا مستطيلا في الغالب الأعم، تتسم بتباين مساحتها ومورفولوجيتها، إذ يعتبر قصر

1- محمد لمراني علوي، المعمار المبني بالتراب في منطقة تافيلالت : قصور مدينة الريصاني من خلال وثيقتين محليتين تنشران لأول مرة، ضمن ندوة المعمار المبني بالتراب في حوض البحر المتوسط، منشورات كلية الآداب الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 80، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999، ص. 102.

2 - Meunié (J), Abbar cité Royale du Tafilalet, op.cit, pp 56-57.

3- محمد لمراني علوي، المعمار المبني بالتراب في منطقة تافيلالت، م. س، ص. 103.

4- وادي إيفلي أو وادي الشرفاء: تسميتان لواد واحد، وهو بمثابة ساقية كبيرة أصبحت مع مرور الزمن تحمل اسم واد أحدثها الإنسان الفيلالي منذ أو قبل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ويضم مجال وادي إيفلي في الوقت الحالي 44 قصرا يسكنها الشرفاء وغيرهم. عبد الله حمادي الإدريسي، قاعدة المغرب الأقصى قبل فاس، م. س، ص. 31-32.

5 - Doury (Paul), un échec occulté de Lyautey L'affaire du Tafilalet MAROC ORIENTAL (1917-1919), Editeur L'Harmattan, 2008, p. 31.

الدار البيضاء⁽¹⁾ أكبر هذه القصور؛ وتبلغ مساحته 70000 متر مربع، بينما لا تتجاوز مساحة قصور مخزنية أخرى 30000 متر مربع⁽²⁾.

وغني عن البيان أن القصور المخزنية بتاfileلات تعد من أجود معالم المعمار المبني بالتراب بالمنطقة سواء من ناحية صلابة البناء وقوته أو من ناحية الزخرفة والتزيين وجماليته المعمارية⁽³⁾. ولا غرو في ذلك، إذ إن دوافع بناء هذه القصور ارتبط أساسا برغبة سلاطين الدولة العلوية في وضع حد لهجمات القبائل العطوية التي كانت مصدر تعب ومشقة للدولة العلوية بالمنطقة، ومصدر رعب وفزع لسكان الواحات والjبال⁽⁴⁾، وذلك ضمانا لتوحيد المغرب وتقوية نفوذه داخليا وتأديب كل القبائل المناوئة لسلطة الدولة.

2.4 القصور الزوايا

يطلق مصطلح القصور الزوايا على تلك القصور التي انطلقت نواتها من ولي صالح أو شيخ صوفي يرجع له الفضل في وجودها واستمرارها، بفضل الوظيفة الدينية التي كانت منطلقا للتطور الروحي للقصر وشكلت عنصر تكامل بين التصوف والعلم بالقصر⁽⁵⁾، مما ساهم في خلق نهضة علمية وثقافية واقتصادية وعمرانية بقصور تافيلالت، والتي من بين

1- قصر الدار البيضاء: يقع هذا القصر في الطرف الشرقي لواحة تافيلالت على بعد خمس كلم من مدينة الريصاني، يحده شمالا «جبل» الدار البيضاء وجنوبا قصيرة الغرفة، وشرقا قصر هارون وغربا قصري دار مولاي الطالب والفرخ. وينتمي قصر الدار البيضاء؛ الذي شيد في نهاية القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي؛ إداريا لجماعة بني امحمد سجلماسة الجماعة التي تتوفر على أكبر عدد من قصور تافيلالت. لحسن تاوشخت ، عمران سجلماسة دراسة تاريخية وأثرية، م. س، ج. 2، ص. ص. 525-526.

2- أحمد الشرقاوي، إعداد التراب والتنمية المحلية بواحة تافيلالت (الريصاني ومحيطه)، أطروحة لنيل الدكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، السنة الجامعية 2012-2013، ص. ص. 187-188.

3- محمد لمراني علوي، المعمار المبني بالتراب في منطقة تافيلالت، م. س، ص. 103.

4- مولاي التقي العلوي، أصول المغاربة- القسم البربري دور الاتحاديات الأطلسية، مجلة البحث العلمي، العدد 23، ماي- غشت 1974، ص. 118.

5- سعيد واحيحي، سجلماسة/تافيلالت، م. س، ص. 215.

تجلياتها تركز أكثر من اثني عشر زاوية بالمنطقة⁽¹⁾. والتي من بينها الزاوية الغازية البوبكرية والزاوية الحفيانية وزاوية الماطي.

وقد ارتبطت نشأة القصور الزوايا بتاغيلالت بوصول تيار الطريقة الجزولية إلى منطقة تاغيلالت ما بين النصف الأول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وأواخر القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، لذلك لا غرابة أن يكون أغلب شيوخ الزوايا الفيلاية لا ينتمون من حيث الأصل إلى المنطقة وإنما وفدوا إليها⁽²⁾، بفضل تفتح المنطقة على جميع التيارات الفكرية والمذهبية الخارجية أو السنية أو الصوفية أو الشيعية⁽³⁾.

والجدير بالذكر أنه بفضل الوظائف والأدور المتعددة للقصور الزوايا، والمتمثلة في نشر العلوم الدينية وتحفيظ المتون الفقهية وتلقين الأوراد والأذكار الصوفية، فضلا عن تأطير المجاهدين وإيواء عابري السبيل وإطعامهم، فقد ساهم ذلك في كثرة مريدي الزوايا بالقصور الفيلاية والتفاف الناس حولها مما أدى إلى توسع نواة القصر وامتدادها، فأصبحت القصور الزوايا كبيرة الحجم، إذ إن مساحة بعض القصور الزوايا توازي مساحة القصور القبلية التي كانت مأهولة بالسكان.

وإذا كانت القصور المخزنية تتركز بمشيخة وادي إيفلي التابعة لجماعة بني امحمد سجلماسة، فإن القصور الزوايا تركزت في مجال جماعة السفالات التي تضم حوالي أربعين قصرا، وذلك ما يلاحظ من خلال الخريطة الدينية لقصور تاغيلالت، وكذا المعاينة الميدانية.

3.4 القصور القبلية

يقصد بالقصور القبلية أو القصور الشعبية تلك القصور المتموضعة وسط مساحات زراعية شاسعة يقوم بخدمتها وحراستها سكان القصر⁽⁴⁾ مشكلة طرازا معماريا يجمع في

1- لحسن تاوشيخت، الحركة العلمية والثقافية بتاغيلالت خلال عهد الدولة العلوية (القرنين 18-19)، ضمن ندوة الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن التاسع عشر، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 3، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، 1993، ص. 22.

2- امبارك بوعصب، مساهمة في دراسة قصور تاغيلالت، م. س، ص. 264.

3- لحسن تاوشيخت، الحركة العلمية والثقافية بتاغيلالت، م. س، ص. 23.

4- لحسن تاوشيخت، العمارة العلوية بتاغيلالت خلال عهد المولى اسماعيل، م. س، ص. 178.

ثناياه الطابع المدني والديني والعسكري، وقد كانت هذه القصور بمثابة الحزان البشري الذي يكلف بأداء مجموعة من الخدمات المخزنية⁽¹⁾ في عهد سلاطين الدولة العلوية.

وقد تميزت القصور الشعبية التي تم تأسيسها من لدن القبائل التي استقرت بالمنطقة في فترات تاريخية مختلفة خلال العصر الوسيط والحديث بتنوع تخطيطها ما بين الشكل المربع والشكل المستطيل وغير المنتظم بخلاف القصور المخزنية التي اتخذت تخطيطها الشكل المربع.

كما اتسمت القصور القبلية بتعدد وظائفها على غرار باقي أصناف القصور الفيلائية، حيث مارس سكانها الزراعة والحرف والصنائع علاوة عن التجارة، مما جعل البنية العمرانية للقصر في نمو مستمر لضمان الوظيفة السكنية لأهل القصر والدفاع عن أنفسهم في فترات الصراع مع القبائل المجاورة وصد مختلف الهجمات التي قد يتعرض لها القصر. وفيما يخص مجال تركيز القصور القبلية، فقد انتشرت في مجال واحة تافيلالت بجميع الجماعات الخمس التي تشكل مجال الدراسة بخلاف أصناف القصور الأخرى التي تركزت في مجال دون آخر، وذلك ما جعل ساكنة القصور القبلية تشكل السواد الأعظم من ساكنة قصور تافيلالت، والتي يتجاوز عدد قصورها الشعبية حوالي ثمانين قصرا، منها ثمانية وعشرين قصر بجماعة عرب الصباح زيز التي تضم قصور المعاضيد وتيزيمي.

4.4 القصور القصبية

عرف مفهوم القصبية تطورا في تاريخ المغرب، إذ اقترنت خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالدور الكبرى التي كانت في ملكية القواد الكبار⁽²⁾. غير أن ما يقصد بالقصور والقصبات بمنطقة تافيلالت ذلك الطراز المعماري الأكثر تحصينا بقصور تافيلالت، مما جعل القصور القصبية بمثابة درع عسكري يحمي القصور المخزنية بما توفرت عليه من معدات عسكرية وحصينات ومحاربين، وذلك ما توضحه بجلاء الأحجار

1- عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج. 3، م. س، صص 570-573.

2- مينة المغاري، مادة قصبية، معلمة المغرب، ج. 19، م. س، ص. 6633.

التي كانت موجودة في مداخل مجموعة من القصبات الفيلاية، إذ كان يتم استعمالها لدك البارود⁽¹⁾.

وقد عرفت منطقة تافيلالت تشييد عدد كبير من القصبات في عهد السلطان المولى اسماعيل⁽²⁾، حيث اضطلعت هذه القصبات بأدوار دفاعية وعسكرية لتأديب القبائل الثائرة، وكذا لحماية الطرق التجارية وتأمين القوافل المارة بمجال تافيلالت التي شكلت صلة وصل بين بلاد السودان وحوض البحر الأبيض المتوسط قبل أن تغير الاكتشافات الجغرافية من مسار الطرق التجارية.

وتجدر الإشارة إلى أن القصور القصبات كانت بمثابة ملحقات للقصور السلطانية بتافيلالت، ويتم التمييز في هذه القصبات بين تلك التي كانت تستعمل لخزن المؤونة وإقامة الباشا بالإشراف على الأملاك المخزنية وتنفيذ الأوامر، وبين القصبات التي اتخذت من لدن بعض الأسر الواحية مقرا سكنيا لها⁽³⁾. ويستفاد من صاحب المنزع اللطيف بأن سلاطين الدولة العلوية شيّدوا هذه القصبات بمختلف مجال تافيلالت والتي من بينها تشييد اثني عشر قصبة بوادي إيفلي⁽⁴⁾. كما يستفاد من ابن زيدان أن القصور القصبات الفيلاية كانت تمنح بواسطة ظهير سلطاني لأبناء السلاطين قصد الاستقرار بها واستغلال ما تشتمل عليه "من الأرض والديار والأشجار والنخيل والفسلان"⁽⁵⁾.

1- امبارك بوعصب، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت، م. س، ص. 276.

2- ابن زيدان، المنزع اللطيف، م. س، صص. 336-338.

3 - Meunié (J), Abbar cité Royale du Tafilalet, op.cit, p 60.

4- ابن زيدان، المنزع اللطيف، م. س، ص. 338.

5- م. ن، ص. 337.

جدور رقم 7 : نماذج من أصناف القصور الفيلالية بمجال الدراسة حسب التقسيم الوظيفي

القصور المخزنية	القصور الزوايا	القصور القبلية	القصور القصبات
- قصر آبار	- قصر زاوية قصر	- قصر تابوعصامت	- قصبة سيدي ملوك
- قصر أولاد عبد	تابوبكرت	- قصر أبو عام	- قصبة بني ميمون
الحليم	- قصر زاوية سيدي	- قصر أولاد ليমান	- قصبة الشقارنة
- قصر الفيضة	القاضي	- قصر أولاد محمد	- قصبة ترست
- قصر مزكيدة	- قصر زاوية كاوز	الشرفاء	- قصبة لوجارشة
- قصر المنصورية	- قصر زاوية سيدي	- قصر أولاد القايد	- قصبة حياتن
- قصر أولاد عيشة	بوبكر بن عمر	- قصر أولاد سعيدان	- قصبة الريصاني
- قصر بني ميمون	اللمتوني	- قصر أولاد يحيى	- قصبة توجديت
الشرفاء	- قصر زاوية	- قصر الجير	- قصبة جنان القاضي
- قصر مولاي	الماطي	- قصر أولاد عبد	- قصبة كحاك
امبارك	- الزاوية الحفيانية	الرحمان	- قصبة تعمرمت
- قصر مولاي	- قصر زاوية سيدي	- قصر منوكة	- قصبة الفرخ
المستعين	ابراهيم بن هلال	- قصر الشبيلي	- قصبة عمارة
- قصر الدار	- قصر زاوية عمار	- قصر أولاد ويلال	- قصبة مولاي أحمد
الببضاء	- زاوية سيدي علي	- قصور المعاضيد	الذهبي
- قصر كرينفود	بوزينة	- قصر أولاد بحر	- قصبة أبي القاسم
- قصر أولاد رحو	- قصر زاوية من لا	قصر أولاد امبارك	الزياني
- القصر فوقاني	يخاف	- قصر أولاد بوزيان	- قصبة الحذب
- قصر المنصورية	- زاوية سيدي المدني	- قصر أولاد معطلة	- قصبة أولاد يوسف
- قصر قصابي	- زاوية سيدي علي	- قصر أولاد علي	- قصبة بن علي
مولاي الشريف	- زاوية سيدي قاسم	- قصر أولاد طالب	- قصبة بن لحسن

1- محاولة في التصنيف العسكري لقصور تافيلالت

إذا كان تصنيف القصور الفيلالية بصفة عامة يعتبر من المسائل الشائكة والصعبة، ويطرح إشكالية كبرى تخص المعايير التي يمكن اعتمادها لدراسة تاريخ وعمارة هذه القصور، فإن محاولة تصنيف عمران قصور تافيلالت ومكوناتها المعمارية من منظور عسكري يبقى مغامرة محفوفة بالمخاطر نخوضها تأسيساً على تساؤل جوهري مؤداه إلى أي حد يجوز الارتكاز على مكونات العمارة العسكرية في تصنيف القصور الفيلالية؟

ارتباطاً بما سبق، فإن محاولة تصنيف العمارة العسكرية لقصور تافيلالت تقتضي البحث في العمران العسكري لهذه القصور في أدق التفاصيل ومن خلال زوايا ورؤى متعددة تروم ربط النظام الدفاعي للقصور الفيلالية بأسواره وأبراجه وأبوابه بالمجال الريفي والحضري (مدينة سجلماسة المندرسة)، وكذا بظروف تشييد وبناء هذه التحصينات العسكرية، وإبراز دور السكن والسكان والتنظيمات السياسية والاجتماعية للقصور الفيلالية. فضلاً عن التعرف على المواد المستعملة في بناء العمارة العسكرية وتقنيات تشييدها وغير ذلك مما يساعد على التدقيق في الهندسة المعمارية العسكرية بقصور تافيلالت بشكل يمكن من معرفة خصائصها وعناصرها المكونة لها وأهميتها في المكان الذي شيدت فيه، وذلك قصد تكوين صورة شمولية عن عمران قصور تافيلالت والتمكن من معرفة خصائص كل صنف من أصناف هذه القصور اعتماداً على مكونات عمارتها العسكرية.

وفق هذا التصور، فإن محاولتنا تصنيف عمارة القصور الفيلالية عسكرياً اقتضت البحث في موقع وموضع القصور الفيلالية، وكذا في تصميم وتخطيط أسوار وأبواب وأبراج قصور تافيلالت، علاوة عن الوقوف على مواد بنائها وتقنيات تشييدها، حيث إن من شأن رصد سمك الأسوار من القاعدة إلى الأعلى، وشكل الأبراج وانتظامها وتموضعها وأبعاد مخططاتها، بالإضافة إلى المسافة الفاصلة بين الأبراج وعلاقة الأبراج مع جوارها، وتتبع كيف يتم التنقل ما بين الأبراج وممشى الأسوار أن يمكننا من دراسة وتصنيف عمارة القصور الفيلالية عسكرياً. كما أن ملاحظة موقع الأبواب في الأسوار ونوعية مدخلها (مدخل مستقيم/مباشر، أو مدخل منكسر/متعرج) وكيف تموضعت في الأسوار (مدخل بارز

أم مدخل عادي ذي برج واحد) يساهم في تيسير عملية التصنيف العسكري للقصور الفيلالية.

واعتمادا على إفادات بعض المصادر والوثائق المخزنية، والمعاينة الميدانية لمجموعة من القصور الفيلالية عبر قيامنا بزيارات استكشافية واستطلاعات ميدانية متعددة أسعفتنا من التعرف الدقيق على هذا المشهد العمراني وهندسته المعمارية العسكرية من أبواب وأسوار وأبراج، يمكن القول بأن هذه القصور تتميز بمواصفات ارتأينا تصنيفها على النحو التالي :

- القصور ذات الأسوار والأبراج المنتظمة
- القصور المرتكزة على التحصين الطبيعي
- القصور ذات النظام الدفاعي السور الدور
- القصور الزوايا ونظامها الدفاعي المادي واللامادي
- القصور ذات النظام الدفاعي الأصلي المنشأ

صفوة القول، إنه لدراسة القصور الفيلالية يمكن اعتماد معايير متعددة في تصنيفها على غرار القصور الصحراوية لبلاد المغرب، إذ إن التمييز بين الأصناف المختلفة للقصور ببلاد المغرب عامة وواحة تافيلالت على نحو خاص ينبغي أن يتأسس على معايير متعددة أبرزها تنوع أشكالها الهندسية ومواقع تواجدها وفترة بنائها، بالإضافة إلى الدلالة الطوبونيمية ونوع العمارة ووظيفتها.

والحاصل أن موضوع كل دراسة لهذا النمط المعماري هو الذي يتحكم في معايير التصنيف، بحيث إن دراسة القصور الفيلالية من الناحية التاريخية والاجتماعية يقتضي اعتماد التصنيف الطوبونيمي مثلا، بينما الدراسة التاريخية لهذه القصور تتطلب الاعتماد على التصنيف الزمني حسب الفترات التاريخية رغم صعوبته.

وأما دراسة القصور الفيلالية من الناحية المعمارية فيتطلب التصنيف حسب الشكل الهندسي أو حسب الأبعاد الوظيفية لهذه القصور أو حسب صنف العمارة المراد دراستها، فإذا كان الباحث يروم دراسة العمارة العسكرية فإن الأمر يقتضي تصنيفا حسب هذا النوع،

وهو ما حولنا اعتماده في هذا البحث عبر محاولة وضع نموذج في التصنيف العسكري للقصور الفيلاية.

الخلاصة العامة في الباب الثاني من هذا البحث أن عمران القصور بتايفاللت قد قام على مبدأ تحقيق الأمن والسلامة للسكان، وذلك ما يتضح بجلاء في النظام الدفاعي لمكونات العمارة العسكرية من أسوار وأبواب منيعة وأبراج بالقصر الفيلاية، مما يجعل هذه المكونات تحكي بصدق جوانب مهمة من التاريخ السياسي والحربي لقصور زيز الأسفل بواحة تايفاللت وما تعرضت له من أحداث منذ نشأتها إلى الزمن الراهن. كما يقوم عمران هذه القصور على مبدأ تثبيت الروابط القبلية لتحقيق وحدة اجتماعية متماسكة متضامنة بعيدا عن التنافر والحساسيات لمواجهة وصد كل الأخطار المحدقة بالقصر، والذي يعتبر بهذه المبادئ عبارة عن مبنى ضخم تشمخ أسواره وسط الرمال كما لو كان الزمن قد غفل عنه، وتصمد أبراجه الراسخة السماء وكأنه من صنع الطبيعة لا الإنسان⁽¹⁾. ولا غرو في ذلك فقصور تايفاللت اشترك في بنائها الدين والمثل والتاريخ، فكانت بذلك من أجمل المنشآت المعمارية التي برع الإنسان الواحي في بنائها.

1- ثروت عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، مصر، ص. 83.

الباب الثالث :

دراسة العمارة العسكرية بقصور تافيلالت من خلال نماذج

تقديم :

تكتسي دراسة العمارة العسكرية بقصور تافيلالت انطلاقا من محاولة في التصنيف وفق معايير متعددة، أهمية قصوى في مجال التاريخ السياسي وأشكال التدافع والصراع بين القبائل والمجموعات البشرية التي استوطنت المنطقة، وأبدعت أشكالاً من الوجود الإنساني والثقافي والحضاري والعمراني بها. كما تتجلى هذه الأهمية في الوقوف على الخصائص المعمارية وعناصرها الدفاعية بهذه القصور، ورصد طبيعتها في المكان الذي شيدت فيه بشكل يمكن من رسم صورة شمولية عن مكونات العمارة العسكرية بمنطقة تافيلالت، والتي تعد من أوائل العمارات التي شيدتها يد الإنسان الواحي بهذه المنطقة لتوفير أمن الحياة وأسبابها وأمن المعتقد والفكر، وكذا لتحقيق السيادة والتفوق والامتداد.

ولا شك أن البحث في العمارة العسكرية بقصور تافيلالت يعكس نظم حياة الإنسان الواحي محليا وكيفية تدبيره لمجاليه وتكيفه معه على المستوى الاجتماعي والثقافي والديني والعسكري والذهني، مما جعل كل عنصر من عناصر النظام الدفاعي لهذه القصور لا يرسو في مكانه كما اتفق، بل بناء على متطلب خاص أو عام للسكان الفيلالية. مما يبرز أهمية تشييد هذا النمط العمراني، وأسلوب بنائه، وتشكيله الهندسي. وهو ما يفضي للقول إن هذا الصنف من العمارة نتاج فكر وخلاصة تجربة ومحصلة تفاعل الإنسان مع البيئة المحيطة به، علاوة على أنه يمثل رمزا للقوة والمناعة للقصور الفيلالية لصد مختلف الأخطار المحدقة بها، وبالمثل يمثل حاجة تعبر عن صراع وانتصار لسكان قصر بالمنطقة مقابل انكسار لقصر آخر في إطار الصراعات القبلية التي عرفت المنطقة طيلة العصر الحديث والفترة المعاصرة.

ولذلك فإن دراسة العمارة العسكرية بقصور تافيلالت والبحث فيها لا يكتمل إلا عبر تتبع تقنيات تشييدها ومواد البناء التي استعملت فيها، فضلا عن كشف جوانب من الرؤية الجمالية للعمارة الدفاعية بهذه القصور، والتي باتت تواجه في الزمن الراهن مجموعة من العوامل والأخطار الحقيقية، مما يحتم تمييزها عبر رد الاعتبار إليها لتقوم بأدوار أخرى تسائر متطلبات العصر من خلال استثمارها في التنمية المستدامة محليا على المستوى الثقافي والسوسيو اقتصادي والسياحي والفني.

الفصل السابع:
دراسة العمارة العسكرية بقصور تافيلالت
من خلال نماذج

الفصل السابع : دراسة العمارة العسكرية بقصور تافيلالت من خلال نماذج

لقد شكلت العمارة العسكرية بقصور تافيلالت لنفسها طابعا محليا متميزا ناتجا عن بروز جملة من المؤثرات الداخلية والخارجية التي يشكل الأمن قيمة أساسية في تشييدها، مما جعل جميع هذه القصور تتوفر على مكونات العمارة العسكرية الأساسية، لكونها تلعب دورا مهما في الدفاع وصد كل الأخطار المحدقة بها وتحقيق الطمأنينة لسكانها، كما يبرز بجلاء أهمية هذه القصور وأدوارها ووظائفها التي اضطلعت بها منذ بنائها إلى أن تلاشت وظيفتها العسكرية في الزمن الراهن.

ولاشك أن العمارة العسكرية لقصور تافيلالت تتميز بمواصفات هندسية خاصة، فهي قصور شبه مغلقة تماما عن الخارج من خلال اقتصارها في الغالب الأعم على مدخل واحد، تمثل الإطار المثالي للحياة الأصلية للإنسان الواحي وتفاعله مع مجاله للاستمرار في الحياة، كما تعكس في نشأتها ثقافة المعماري الفيلاي الذي اعتمد حدسه ودرسته وانتمائه الاجتماعي والديني، مما جعل عمارته الواحية جزء لا يتجزأ من ثقافة معمارية عميقة مستمدة من الفكر العمراني الإسلامي، وكذا استمرار وامتداد للعمارة التي تتسم بها الحواضر مع تفاوت في الأبعاد والأحجام، غير أنها على مستوى الوظائف والأشكال والتخطيط تبقى متقاربة ومتشابهة.

وانطلاقا من هذه الأهمية، فقد اختلفت التحصينات العسكرية لقصور تافيلالت باختلاف مواقع القصور وتخطيطها ومواد بنائها ووظيفتها، مما جعلنا نقوم بمحاولة في التصنيف العسكري لهذه القصور اعتمادا على معايير متعددة تتجاوز النظر إلى مكونات عمارتها العسكرية بأسوارها وأبوابها وأبراجها نظرة تظهرها وكأنها في حالة مواجهة وصراع لدرء كل الأخطار والهجمات والصراعات القبلية فقط، وإنما تصنيف ودراسة نماذج من عمارة القصور الفيلاية العسكرية باعتبارها بنية عمرانية دفاعية ترتبط بالمجال الطبيعي للسكان وذهنياتهم لحفظ الأمن والدفاع عن حياضهم، علاوة عن دراستها في ارتباط بالمستوى الاقتصادي والاجتماعي. وهو ما نهدف إلى إبراز تفاصيله ومستدقاته في هذا الفصل من خلال سبر وتحليل العمارة العسكرية لقصور تافيلالت اعتمادا على مجموعة من النماذج التصنيفية التي سبق وأن أشرنا إلى المعايير التي اعتمدناها في تصنيف عمارة هذه القصور بوحدة تافيلالت عسكريا.

المبحث الأول : القصور ذات الأسوار والأبراج المنتظمة

1- التعريف والخصائص العمرانية

1.1 التعريف والتوزيع الجغرافي

نقصد بالقصور ذات الأسوار والأبراج المنتظمة بتاfileالت مجموع القصور التي يتميز تخطيط عمارتها العسكرية وهندسة نظامها الدفاعي بانتظامه وتشابهه، وكذا تفرد بنائه من حيث الصلابة والزخرفة وتقائس الأبراج والأسوار وبروز المداخل المكونة لها. ويشمل هذا التصنيف القصور السلطانية بتاfileالت التي كان يقطن بها الخليفة السلطاني كقصر آبار المخزن وقصر الفيضة وقصر أولاد عبد الحليم(1)، وينتظم معظمها في مشيخة وادي إيفلي التي تعد أول مشيخة في مدينة الريصاني(2). كما يلاحظ بأن هذا التصنيف كذلك يضم بعض القصور التاريخية الكبرى بتاfileالت مثل قصر أبو عام الذي يقع بالقرب من مدينة سجماسة المندرسة في الواجهة الشرقية واضطلع بمهمة تجهيز القوافل قبل انطلاقها في رحلتها عبر إفريقيا جنوب الصحراء(3)، وكأن الهندسة المعمارية والنظام الدفاعي لهذا القصر مستوحى من حاضرة سجماسة قبل اندراسها.

2.1 الخصائص العمرانية المميزة لهذا الصنف

يلاحظ من خلال تتبع النظام الدفاعي لهذا النوع من القصور أن عمارتها العسكرية بخلاف باقي القصور شيدت بناء على تخطيط مسبق وتصميم قبلي يراعي موقع القصر والوظيفة التي سيضطلع بها، حيث يتم في البداية اعداد المجال الذي سيشيد عليه القصر وأخذ قياساته من طول وعرض ومساحة ورسم عناصره الأساسية قبل البناء. وما ينهض دليلا على التخطيط المسبق لمكونات العمارة العسكرية في القصور ذات الأسوار والأبراج المنتظمة، ما يستفاد من رسالة وجهها السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام (1822-1859) إلى ابنه محمد الرابع (1859-1873م) بتاريخ 19 شوال من سنة

1 - Meunié (J), Abbar cité Royale du Tafilalet, op.cit, pp 56-57.

² - محمد لمزاني علوي، المعمار المبني بالتراب في منطقة تاfileالت، م. س، ص. 103.

³ - حسن حافيظي علوي، سجماسة وإقليمها، م. س، ص. 128.

1269هـ "في شأن بناء قصر كحاك وتجديد ما تلاشى من سور سور له لرغبة أهله في ذلك وقد أدنا في بنائه على نحو ما أشار في كتابه وبين في الفصالة الواصلة صحبته، وأمرنا بإدخال النقشة التي غير محلها وإدخالها في القصة ليستقيم تربيعها"⁽¹⁾، بأن المصطلح الذي كان سائدا في تصميم بعض قصور تافيلالت خلال الفترة المعاصرة، وتحديدًا القصور المخزنية هو "الفصالة"، كما يستفاد من هذه الرسالة؛ كذلك؛ حرص السلاطين على التخطيط المربع للقصور والقصور المخزنية، مما ينهض دليلا على أن أعمال البناء وتقنيات الإنشاء للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت ذات النظام الدفاعي المنتظم لم تكن تتم بشكل عشوائي ودون تخطيط مدروس⁽²⁾، وإنما اعتمادا على تصميم وتنفيذ وقياس وحساب مسبق⁽³⁾ للمكونات المعمارية لقصور تافيلالت بصفة عامة ومكونات نظامها الدفاعي على نحو خاص.

وتجدر الإشارة إلى أن الوظيفة التي اضطلعت بها هذه القصور ذات النظام الدفاعي المنتظم حتمت عليها الحرص على التخطيط الدقيق لمكونات عمارتها العسكرية والحرص على قوة البناء وصلابته لصد مختلف الأخطار البشرية من حروب وحرائق والكوارث الطبيعية كالفيضانات التي تضرب المنطقة في بعض فترات هيجان واد زيز. وقد جمعت هذه القصور بين الوظيفة السياسية من خلال اتخاذها مقرات للأشراف والأمراء العلويين، وبين الوظيفة الاقتصادية التي أصبحت تقوم بها بعض القصور الكبرى بتافيلالت وكانت من اختصاص المدينة المدرسة سجلماصة.

وأما مكونات العمارة العسكرية للقصور الفيلالية ذات النظام الدفاعي المنتظم، فقد اتسمت بشدة تحصينها بأسوار عالية بالطابية وسميكة وذات أساس حجري، فضلا عن تدعيمها بأبراج ركنية ووسط الأسوار لتأمين حمايتها، حيث تمتاز أسوار هذه القصور في أعلاها بوجود ممشى السور أو السقالة التي تسمح للمحاربين بالتحرك في أعلى الأسوار وبين أجزائها خلف الساتر لقذف سهامهم، فضلا عن وجود مسلحات عبارة عن فتحات ضيقة في أسوار هذا الصنف من القصور تسمح للمراقبين بمراقبة تحركات المتربصين

¹ الوثيقة رقم 18626 بسجل الوثائق الملكية، ينظر الوثيقة رقم 3 بالملحق.

² امبارك بوعصب، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت، م. س، ص. 198.

³ ناصر الرباط، مفهوم العمارة في الكتابات الإسلامية في القرون الوسطى، م. س، ص. 15.

بالقصر أو المتسلقين لأسواره وإلقاء مقذوفات أو سهام صوبهم أو إطلاق النار عليهم بعد اختراع السلاح الناري.

أما الأبراج في القصور ذات النظام الدفاعي المنتظم بتاfileالت فتميزت باتخاذها شكلا مربعا في معظم الأحيان وبزخرفة أبراج واجهة القصر، علاوة عن وجود مسافة منتظمة تفصل ما بين الأبراج الملتصقة بالأسوار لا تتجاوز أربعين مترا ما بين كل برج، وقد كانت هذه الأبراج تتألف من ثلاث طوابق، حيث تم توظيف الطابق العلوي الذي كان يصعد إليه عبر الولوج من مدخل صغير والصعود في سلالم ضيقة للمراقبة وإطلاق النار على الأعداء، كان يتم الاتصال ما بين الأبراج عبر ممشى الأسوار كما هو عليه الأمر في قصر آبار الذي لا زالت آثاره شاخصة إلى يومنا هذا.

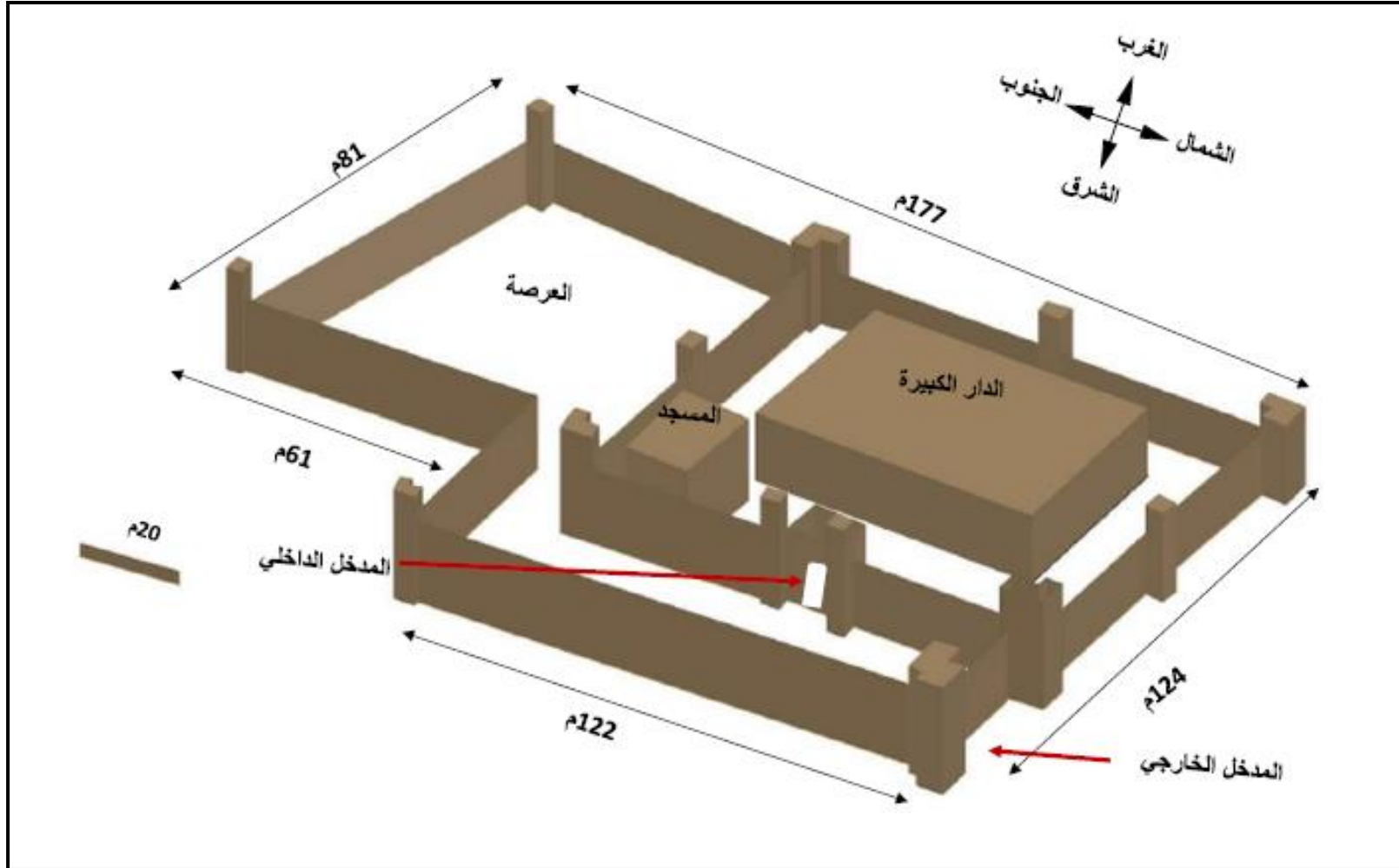
وفيما يخص الأبواب فتميزت في هذه القصور بمدخلها المنكسر واستعمال الحجارة في بناء عضادتي المدخل، فضلا عن بروزها وسط السور وتزيينها بزخرفة فنية نباتية وهندسية، وكذا إحاطتها ببرجين. وتجنبنا للتكرار فإننا سندرس قصر أولاد عبد الحليم كنموذج تفصيلي لهذا النصف من العمارة العسكرية بقصور تافيلالت.

2. قصر أولاد عبد الحليم كنموذج للقصور ذات الأسوار والأبراج المنتظمة

1.2 الموقع

ينتمي قصر أولاد عبد الحليم إداريا إلى جماعة بني محمد سجلماة وتحديدًا لمشخة وادي إفلي (وادي الشرفاء)، ويقع القصر على بعد ثلاثة كيلومتر من مدينة الريصاني، ويحده غربا قصر "أولاد عائشة" و شرقا قصر "بني ميمون الأحرار" وجنوبا "قصر أبحار" وشمالا قصر "عمارة".

الشكل رقم 12 : تخطيط وأبعاد قصر أولاد عبد الحليم ومكوناته المعمارية



المصدر : عمل شخصي، سنة 2018.

2.2 نبذة تاريخية عن القصر

يعتبر قصر أولاد عبد الحليم من القصور التاريخية بمنطقة تافيلالت، إذ إنه يعد من القصور التي عاصرت مدينة سجماسة قبل اندراسها، حيث يرجع تاريخ بنائه إلى سنة 762هـ من لدن عبد الحليم بن أبي علي الذي حكم سجماسة ما بين 762-763هـ/1361-1362(1)، إذ إنه يعد من الإقامات التي بقيت موروثة عن آخر ملوك سجماسة، فاشتره خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ولي العهد آنذاك محمد الرابع (1859-1873) بإيعاز من أبيه المولى عبد الرحمان بن هشام (1822-1859م) (2)، وذلك لإيواء ولده المولى رشيد الذي كان خليفة سلطانا بتافيلالت خلال هذه الفترة (3).

وقد عرف قصر أولاد عبد الحليم منذ تشييده خلال العصر الوسيط مجموعة من الإضافات والتعديلات التاريخية في معماره، غير أنه ظل وفيا لأصالته وفنه المعماري، إذ إن المدخل الرئيسي لهذا القصر احتفظ بزخرفته الهندسية والنباتية التي تعبر عن ازدهار الفن المعماري بالمغرب خلال فترة حكم الدولة المرينية (4). والذي يؤكد التعديلات والإضافات التي عرفها القصر في معماره هو اختلاف وتضارب القول في تاريخ بناء هذا القصر، إذ إنه في الوقت الذي أرجع المختار السوسي تاريخ بنائه إلى سنة 1264هـ/1848م بعد انتهاء البناء به على يد الفقيه الحاج محمد الزياتي (5)، وهو ما تؤكد لوحه منقوشة فوق الباب الخلفي لمسجد القصر، فإن صاحب كتاب الإتحاف يؤكد نفس القول غير أنه اعتبر عام 1264هـ/1847 هو تاريخ انتهاء الإشغال به (6). غير أن الذي لا اختلاف حوله أنه منذ الفترة المعاصرة أصبح قصر أولاد عبد الحليم المقر الفعلي لسكنى خليفة السلطان المولى الرشيد بن السلطان محمد الرابع (7).

1- حسن حافيظي علوي، سجماسة وإقليمها، م. س، ص. 122.

2 - Meunié (J), le Maroc Saharien, op.cit, vol 2, p. 915.

3- لحسن تاوشخت، عمران سجماسة، ج. 2، م. س، ص. 543.

4- حسن حافيظي علوي، سجماسة وإقليمها، م. س، ص. 122.

5- المختار السوسي، المعسول، ج. 16، م. س، ص. 348.

6- ابن زيدان عبد الرحمان، الإتحاف، ج. 5، م. س، ص. 238.

7- لحسن تاوشخت، عمران سجماسة، ج. 2، م. س، ص. 544.

3.2 الدراسة المعمارية العسكرية بقصر أولاد عبد الحليم

أ. المدخل الرئيسي

يقع المدخل الرئيس لقصر أولاد عبد الحليم وسط الواجهة الشرقية للقصر، وهو عبارة عن قوس كبير منكسر تحيط به أربعة أقواس غير نافذة، ومشيد من الحجارة والآجر، كما يحيط به برجان من جهة اليمين واليسار بارزين وبنقوش طينية ذات أشكال هندسية، ويبلغ عرض المدخل 2.16 متر وعلوه 3.15 متر، وله مصراعان مغطيان بالقصدير وصنعا من خشب الصفصاف عرض كل دفة 1.15 متر وعلوها 3,5، وأما قبل الباب فهو عبارة عن قبل حديدي عرضه 0.85 متر.

ويتسم باب مدخل قصر أولاد عبد الحليم بانفتاحه على رواق مغطى ذي شكل مستطيل عرضه 4 متر وطوله 9 متر، ويتألف من عدة أقواس منكسرة، ويتم الصعود إلى هذا البهو عبر درج يؤدي إلى الطابق العلوي خاص بالحراسة والمراقبة للبواب الذي يتولى مهمة فتح وإغلاق الباب. كما يتم هذا المدخل بزخرفته وتزيين جنباته بنقوش جصية ذات أشكال هندسية ونباتية عبارة عن عقود ومعينات وتشبيكات وزهريات يعلوها شرفة من الخشب المغطى بالقرميد للحماية من مياه الأمطار وتزيين واجهة المدخل.

الصور رقم 11 : الباب الرئيسي لقصر أولاد عبد الحليم



المصدر : تصوير شخصي، غشت 2018

الصور رقم 10 : الباب الخارجي لقصر أولاد عبد الحليم



المصدر : تصوير شخصي، غشت 2018

وغني عن البيان أن هذه التشكيلات الزخرفية التي يتسم بها باب قصر أولاد عبد الحليم وغيره من أبواب القصور السلطانية بتأفيلات تجعله يذكر كل من شاهده بأبواب المدن السلطانية المغربية بمراكش ومكناس وفاس مع تفاوت واختلاف في الحجم والأبعاد ونوع الزخرفة بكل باب.

وتجدر الإشارة إلى أن واجهة أبواب القصور ذات النظام الدفاعي المنتظم تتسم بوحدات جمالية ورؤية فنية بارزة، مما جعل هذه الأبواب تجمع بين الجانب النفعي والجانب الزخرفي على غرار الأبواب الكبرى بالحوضر المغربية السلطانية التي تشهد على ازدهار الفن المعماري خلال الفترة الوسيطية⁽¹⁾. كما أن هذه الأبواب الفارحة المنمقة لهذا الصنف من القصور جعلها تنفرد بها عن قصور صحراوية أخرى في بلاد المغرب، مثل قصور توات التي اتسمت أبوابها بالبساطة في مظهرها⁽²⁾.

بج. الأسوار

يتميز قصر أولاد عبد الحليم بشكله الهندسي المستطيل، مما يجعل أسواره الخارجية التي تحيط به من الجهة الشرقية والغربية متقايسة، إذ يبلغ طولها من كل جهة مائة متر، أما الأسوار التي تحيط بالقصر من الجهة الشمالية والجنوبية فيبلغ طول كل واحد منها في كل جهة 80 مترا. ويبلغ علو هذه الأسوار؛ من جميع الجهات المشيدة بالطابية وذات أساس حجري؛ إحدى عشر مترا وبسمك في القاعدة بحوالي يقدر بـ متر ونصف وفي الأعلى بـ متر واحد.

وقد امتازت أسوار قصر أولاد عبد الحليم وعلى غرار أسوار قصور ذات النظام الدفاعي المنتظم، مثل قصر آبار وقصر الفيضة بوجود السقالة أو ممشى السور، كما تؤكد ذلك إحدى المراسلات المخزنية بتاريخ 08 شوال 1228هـ حول سير الاشغال بقصر الفيضة، حيث تشير المراسلة إلى أن "فائدة السقالة الدوران على العسة"⁽³⁾. فضلا عن

1 -Terrasse (H), Le décor des portes anciennes du Maroc, op.cit , p. 147.

2- محمد أعفيف، توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات وتاريخها، م. س، ص. 90.

3- الوثيقة رقم 24008 بسجل الوثائق الملكية، ينظر الوثيقة رقم 4 بالملحق.

وجود عدة مسلحيات بأسوار القصر الخارجية للمراقبة وإطلاق النار على كل مهاجم للقصر.

الصورة رقم 12 : سقالة السور الشرقي لقصر أولاد عبد الحليم



الصورة رقم 13 : السور الشمالي لقصر أولاد عبد الحليم



تصوير شخصي، غشت 2018.

ج. الأبراج

تشكل الأبراج بقصر أولاد عبد الحليم عنصرا دفاعيا يتخلل الأسوار ومكملا لها، وقد أنشئت في وسط أسوار القصر وزواياه الركنية وعلى جنبات الباب الرئيسي أبراج متعددة يبلغ عددها الإجمالي اثني عشر برجاً تتوزع وفق ما يلي : ثمانية أبراج تتخلل السور الخارجي وبرجين على جنبات المدخل الرئيسي وبرجين في مدخل الدار الكبيرة، ويبلغ ارتفاع هذه الأبراج ثلاثة عشرة متراً، وقد اتخذت في الغالب الأعم شكلاً مربعاً، حيث تبلغ أبعاد الأبراج الركنية للواجهة الشرقية ثمانية أمتار، بينما أبعاد أضلاع باقي الأبراج فهو 5.5 متر. وقد كانت جدران هذه الأبراج تميل بثبات مع الارتفاع نحو الداخل مما جعل شكلها يكتسي مساحة هرمية.

الصورة رقم 15 : البرج المتصل بالسور الشمالي لقصر أولاد عبد الحليم



الصورة رقم 14 : البرج الركني الشمالي لقصر أولاد عبد الحليم



المصدر : تصوير شخصي، غشت 2018

وتتميز أبراج قصر أولاد عبد الحليم بانتظام تخطيطها وتقاسم المسافة الفاصلة بينها في الأسوار، حيث يفصل بين كل برج في أسوار الجهة الغربية والشرقية 44 متراً بينما في الجهة الشمالية والجنوبية 36 متراً. بالإضافة إلى تألفها من طابقين للمراقبة ورصد كل الأخطار، حيث كانت تتوفر على بوابة صغيرة من الداخل ويتم الربط بين الأبراج عبر

سقالة السور التي يبلغ عرضها 0.6 متر. وأخيرا فقد زينت أبراج قصور أولاد عبد الحليم خاصة أبراج الواجهة الشرقية بزخرفة هندسية طينية توجد بها فتحات عبارة عن مسلحيات يتم استعمالها لإطلاق النار على العدو. فضلا عن وجود شرفات مسننة سواء في أعلى هذه الأبراج أو في الأسوار والتي كان يحتمي من ورائها المدافعون وتسمح لهم في نفس الوقت بتسديد السهام أو إطلاق النار على المهاجمين للقصر.

خلاصة القول، أن القصور ذات النظام الدفاعي المنتظم بتاويلات مثل قصر أولاد عبد الحليم الذي اتخذناه نموذجا في هذا المبحث قد تميزت بشدة تحصين مكونات عمارته العسكرية لتوفير الحماية من كل الاعتداءات الخارجية، ولا غرو في ذلك فقد اتخذت هذه القصور مقرات للأشراف والأمراء العلويين وتحديدًا خلفاء السلطة المركزية على منطقة تاويلات، غير أنه تم تسجيل غياب الخندق في هذه القصور شأن معظم القصور الفيلائية، وذلك راجع في اعتقادنا بالنسبة لقصر أولاد عبد الحليم لمناعة النظام الدفاعي به.

المبحث الثاني : القصور المرتكزة على التحصين الطبيعي

1 - التعريف والخصائص العمرانية

نقصد بالقصور المرتكزة على التحصين الطبيعي تلك القصور التي تتميز بموقع مرتفع نسبيا على كدية أو تل مقارنة بباقي القصور التي شيدت في سهل تاويلات، مما ينجم عنه عدم التناسق ما بين العمران المدني للقصر ونظامه الدفاعي الذي يظهر هذا الصنف من القصور بواحة تاويلات في حالة استنفار دائم واستعداد للمواجهة في كل وقت وحين.

ونظرا لتموضع جميع القصور التي تدرج في مجال الدراسة بيزر الأسفل الذي يغلب على طوبوغرافيته طابع الانبساط، حيث يتراوح الارتفاع به ما بين 818 متر في أرفود 765 متر في الريصاني، فإن عدد هذا النوع من القصور قليلا حيث لا يتجاوز عددها ثلاثة قصور، غير أنها تشكل نموذجا متميزا بواحة تاويلات من حيث هندسة عمارتها العسكرية على كدية ترتفع عن الطريق بـ 12 مترا كما هو الحال بقصر الجبيل الذي ينتمي لجماعة بني امحمد سجلماصة القروية، وقصر بني فرح الذي يقع بالقرب من قصر جبيل على مسافة قريبة، بالإضافة إلى قصر تنغراس الذي ينتمي لجماعة السفالات

ويبعد عن مدينة الريصاني بحوالي 9 كلم، حيث جمعت فيه الطبيعة الجبل الذي يتموضع عليه القصر بواد غريس والغابة بالرمال مما يجعل القصر متميز في موقع وموضعه طبيعيا وتحصينيا.

ويعتمد النظام الدفاعي للقصور ذات التحصين الطبيعي في تحقيق الأمن والحماية لسكانته ضد الهجمات المحتملة أساسا على الموقع الذي يشيد عليه القصر، والذي يتسم بارتفاعه مقارنة بمواقع باقي القصور الفيلايلية الأخرى، فضلا عن شدة انحداره، مما يجعل الشكل الهندسي لهذه القصور على قلتها يكون غير منتظم في أبعاده من الجهات الأربع نظرا للتوسعات التي يعرفها القصر من جهة، وكذا لتموجات انحدار موضع هذا النمط من القصور. كما أن مواد بنائها تعرف امتزاج الحصى بالتراب كما يظهر من طابية الأسوار والأبراج.

وتتفرد هذه القصور بقلة سمك أسوارها حيث تبلغ في القاعدة 0.5 متر نظرا لتشديد القصر على قاعدة حجرية طبيعية، كما أن الأبراج تتخذ شكلا مربعا وتغيب عنها المساحة الهرمية المعهودة في باقي القصور الفيلايلية، وأما المدخل فإنه في القصور ذات النظام الدفاعي الطبيعي يكون مستقيما وبانحدار يبلغ خمسة من داخل القصر إلى الخارج على شكل برج، علاوة على كون الباب ذي مصراع واحد من خشب الأثل.

2- قصر الجبيل نموذج للقصور المرتكزة على التحصين الطبيعي

1.2 معلومات جغرافية وتاريخية

يقع قصر الجبيل شمال غرب جماعة بني امحمد سجلماسة القروية بين منطقتين مرتفعتين بحوالي 830 متر عن سطح البحر، وعلى بعد حوالي واحد كلم من الطريق الوطنية رقم 13 الرابطة بين مدينة الريصاني وأرفود، ويقدر عدد ساكنة القصر بحوالي 200 نسمة حسب الإحصاء العام للسكان والسكنى سنة 2014. وتتكون ساكنة هذا القصر تاريخيا من عناصر عربية وفنة الأحرار وبعض الأسر من آيت إزدك(1).

1 - Faure (R), Le tafilalet, , op. cit, p. 167.

ويعتبر قصر الجبيل من أقدم ما هو معروف من القصور بتافيلالت، حيث يرجع إلى القرن الخامس الهجري الموافق للحادي عشر الميلادي(1)، وما يمكن أن يعزز هذه الإشارة هو الموقع التحصيني للقصر في كدية ترتفع عن الغابة في الجهة الجنوبية باثني عشر مترا، فضلا عن موقعه الطرقي الذي يشكل محطة للاستراحة بالنسبة للقوافل التجارية التي كانت تشد الرحال من سجلماسة، فضلا عن كون موقعه المرتفع يؤهله لأن يكون جبهة دفاعية للمراقبة قبل وصول العدو للقصور المجاورة بتافيلالت. وهذا الموقع التحصيني لقصر الجبيل يجعله شبيه بموقع القلاع الوسيطية بالغرب الإسلامي مع تفاوت في الحجم والأبعاد، ومن هذه القلاع نذكر قلعة تاسغيموت التي تقع في الجنوب الشرقي مراكش فوق هضبة تندمج أساسات السور في صخور الهضبة السفلى التي تتموضع عليها القلعة(2).

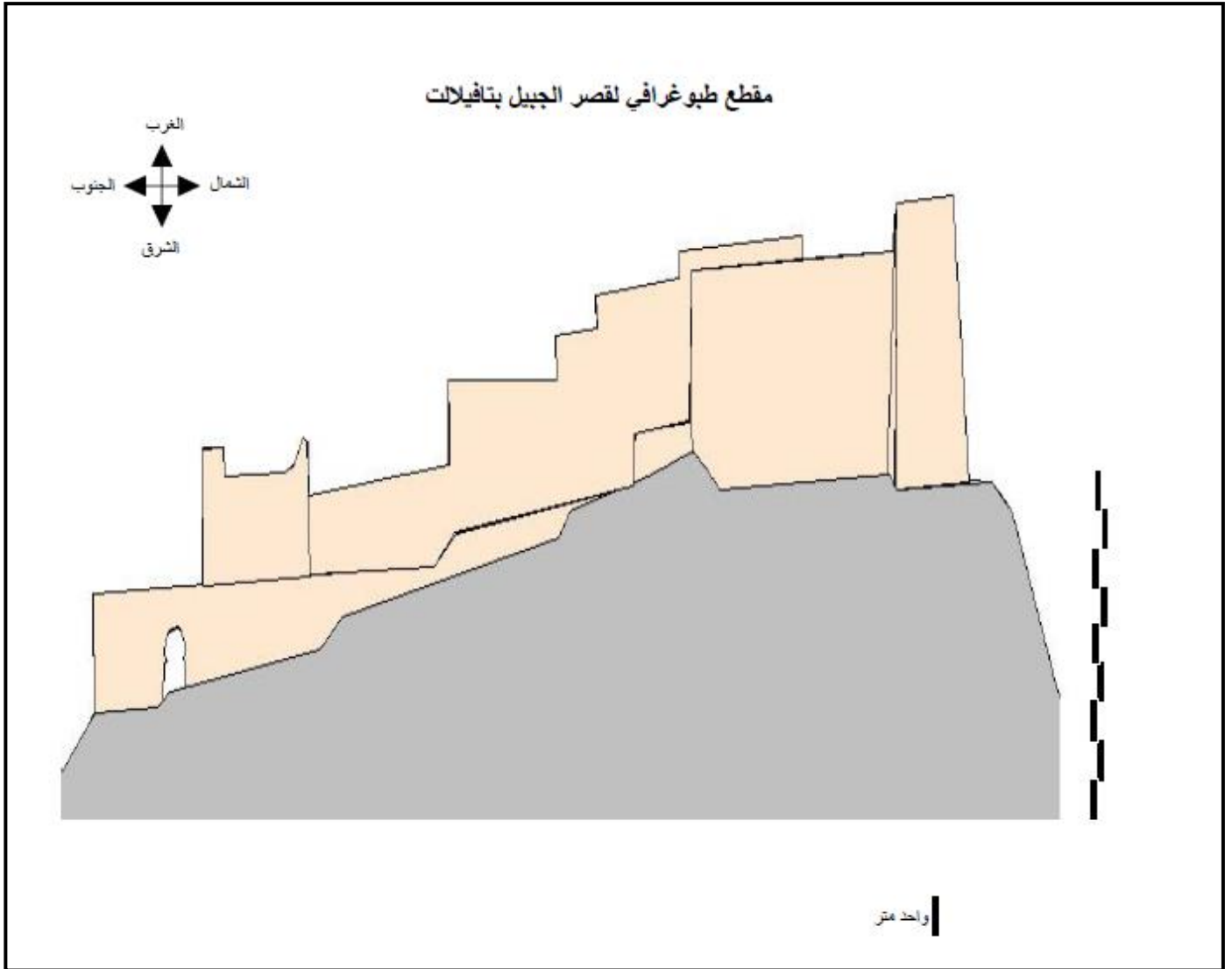
تبلغ المساحة العامة لقصر الجبيل حوالي 19825 متر مربع، ويتخذ شكلا غير منتظم نظرا لتشييد القصر فوق كدية جبلية مرتفعة، وقد عرف القصر ثلاث مراحل من التوسع، المرحلة الأولى كانت في اتجاه الشرق وكانت مساحة القصر تقدر بـ 7071 متر، والمرحلة الثانية في اتجاه الجنوب بمساحة بلغت 5449 متر، بينما توسع القصر في المرحلة الثالثة في اتجاه الغرب بمساحة بلغت 5904 متر.

وإجمالا، فإن معلوماتنا عن هذا القصر تتسم بالقلّة نظرا لشبه انعدام الاشارات التاريخية حوله، غير أن البحث الميداني الأركيولوجي والطوبونيمي لمكونات القصر العمرانية قد يسهم في إنارة الكثير من القضايا وحل العديد من الألغاز المرتبطة به وتأكيد فرضية قدم تأسيسه.

1- حسن حافيظي علوي، سجلماسة وإقليمها، م. س، ص. 120.

2 - Bassey (H), Terrasse (H), Sanctuaires et forteresses almohades, op.cit, P. 157.

الشكل رقم 13 :الموضع الطبوغرافي لقصر الجبيل بتافيلالت



المصدر : عمل شخصي، 2018.

الصورة رقم 17 : موضع الجهة الشرقية لقصر الجبيل

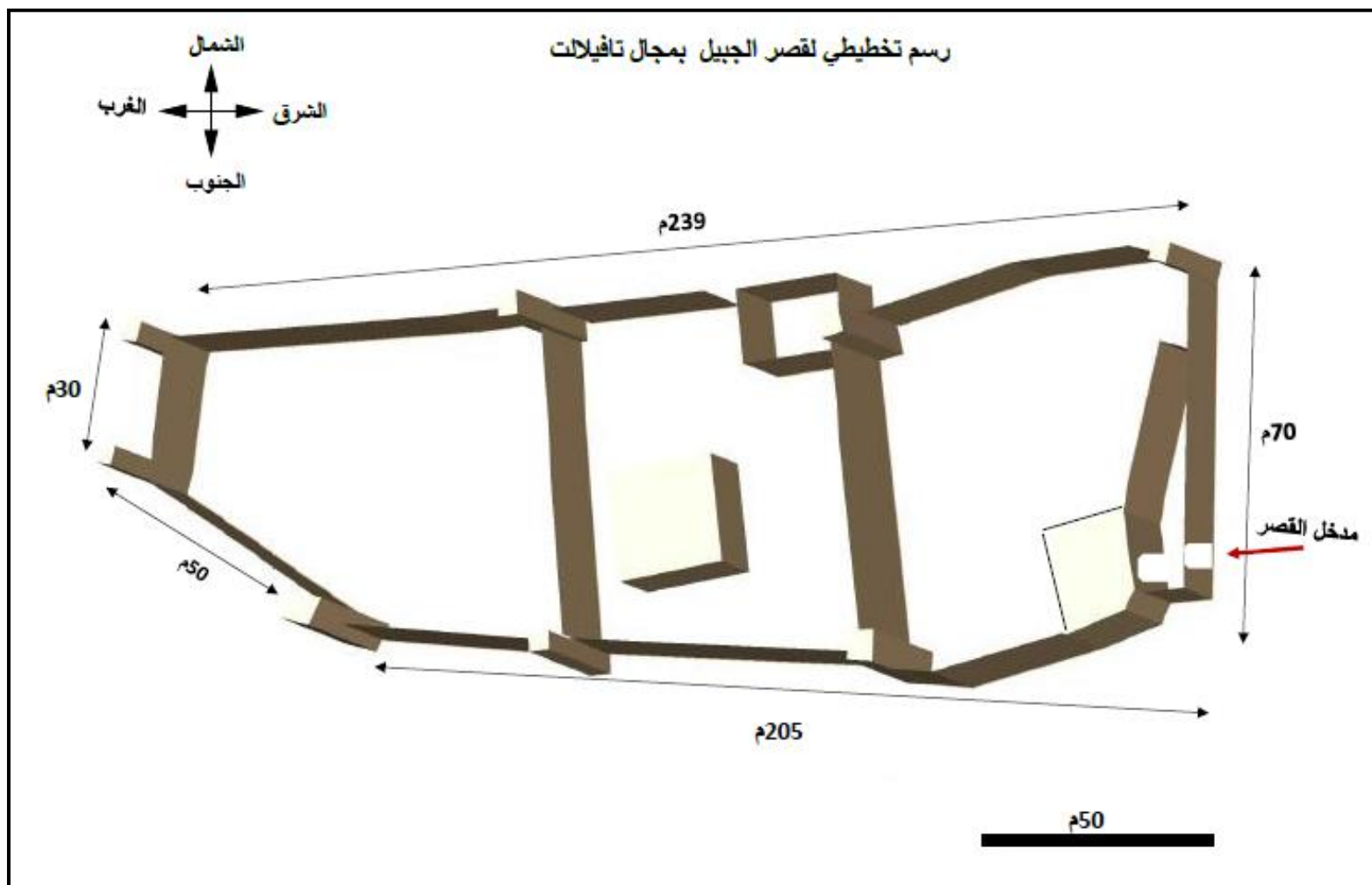


المصدر : تصوير شخصي، غشت 2018.

الصورة رقم 16 : قصر الجبيل



الشكل رقم 14: تخطيط قصر الجبيل بمجال تافيلالت



المصدر: عمل شخصي، سنة 2018.

2.2 الدراسة المعمارية العسكرية بقصر الجبيل

أ. الأسوار

يحيط بقصر الجبيل من جميع الجهات الأربع أسوار مزودة بأبراج ركنية تهدم منها البرج الجنوبي الشرقي، وقد استخدم في بناء أسوار هذا القصر بالطين والحجر نظرا لتوفر محيط القصر على مقالع للأحجار والطين، مع تشييد الأساسات بالحجر فقط حتى تتحمل تموجات الموضع الطبوغرافي للقصر وشدة انحداره، حيث تم تدعيم المواضع المقعرة في أساس الأسوار بالحجارة للحصول على قاعدة مستوية تسهل عملية البناء. وكذا من أجل تحمل ثقل بناء الأسوار التي يتراوح ارتفاعها ما بين 5 و8 متر حسب كل جهة من الجهات الأربع للقصر.

الصورة رقم 18 : سور الجهة الشرقي لقصر الجبيل



تصوير شخصي، غشت 2018.

ويبلغ مقياس طول الطابية في الألواح التي شيدت بها أسوار قصر الجبيل 1.7 متر وفي الارتفاع حوالي 0.80 متر، وهو بذلك يختلف عن المقياس السائد في وحدة الطابية بالقصور ذات النظام الدفاعي المهيكل والتي يبلغ طولها حوالي مترين وعلوها واحد متر. كما اتسمت الطابية بقصر الجبيل بمزج الحصى بالتراب وهي ظاهرة فريدة في هذا النوع من القصور المعتمد على التحصين الطبيعي بحكم توفر جنبات القصر على هذا النوع من التربة. وأما سمك السور في الجهة الشمالية فيقدر بـ 0.6 متر نظرا لارتفاعه عن الغابة بأثني عشر مترا مما يجعله محصنا ويصعب التسلق إليه من هذه الجهة، لذلك تم الاعتماد على التحصين الطبيعي.

ب. المدخل

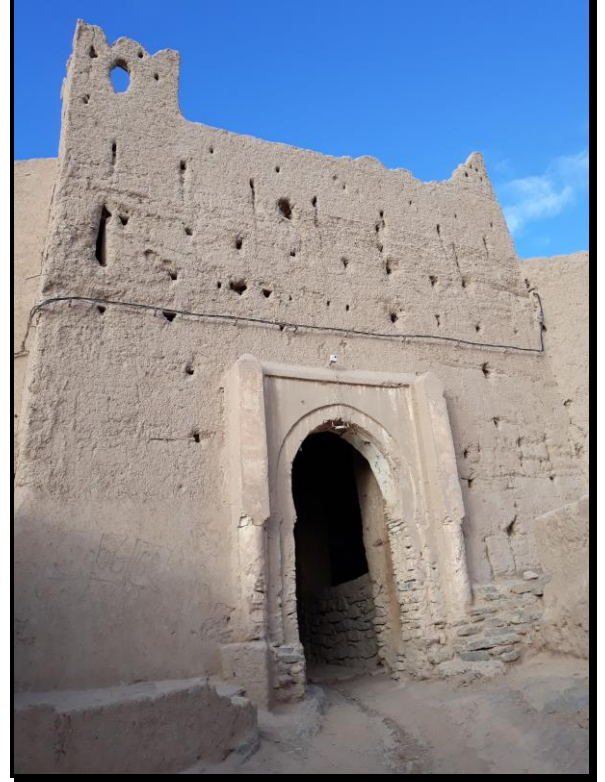
يخترق جدار سور قصر الجبيل من الجهة الشرقية في مطلع الكدية التي شيد عليها القصر مدخل مستقيم يعرج قليلا في اتجاه الشمال، ويبلغ علوه 3.10 متر وعرضه 1.9 متر وعضدتا الباب مشيدة بالحجارة، ولمدخل القصر مصراع واحد مصنوع من خشب الأثل علوه 3.10 متر وعرضه 2.10 متر وقفل هذا المدخل خشبي. وعموما فإن واجهة قصر مدخل الجبيل على شكل برج أبعاده 09 متر في العرض وارتفاعه 13 مترا، حيث يؤدي هذا المدخل إلى رواق المصرية التي تتوفر على ستة أعمدة أساسها بالحجارة، ويتخذ هذا الفضاء شكلا مستطيلا طوله 12.80 متر وعرضه 8.20 متر، وتتميز واجهة مدخل قصر الجبيل بخلوها من أي زخرفة، بحيث تتوفر على مساحيات للمراقبة وإطلاق النار أوقات الشدة والحرب.

ج. الأبراج

يتوفر قصر الجبيل على تسعة أبراج تتصل بالأسوار، ما يزال قائما منها حاليا سبعة أبراج، ويلاحظ من خلال المعاينة الميدانية أن هذه الأبراج تتميز بارتفاعها الذي يقدر بـ 13 مترا بالنسبة لبرج المدخل والبرج الركني من الجهة الشمالية الشرقية، بينما الأبراج الأخرى يبلغ ارتفاعها 11 مترا، وتتخذ هذه الأبراج شكلا مربعا وخالية من الزخارف والنقوش بخلاف أبراج القصور ذات النظام الدفاعي المنتظم. وقد بنيت هذه الأبراج على

أساسات من الحجر، كما أنها زودت بفتحات دائرية تتسع لفوهة البنادق للرمي بالنيران في أوقات الحرب وهجمات الأعداء.

الصورة رقم 19 : واجهة باب قصر الجبيل الصورة 20 : البرج الركني الشمالي الشرقي لقصر الجبيل



المصدر : تصوير شخصي، غشت 2018.

خلاصة القول إنه رغم تموضع قصر الجبيل في موقع محصن طبيعياً يتسم بارتفاعه، فإن ذلك لم يمنع من تشييد معظم مكونات العمارة العسكرية المتمثلة في سياج الأسوار والأبراج والمدخل المحصن بشكل يحقق الأمن والاستقرار للسكان وجعلهم ينعمون بحياة تتسم بالهدوء والطمأنينة. كما أن التشديد على التحصين في هذا القصر يعكس حالة من عدم الاستقرار التي كانت تعيشها المنطقة في بعض الفترات التاريخية سواء تعلق الأمر بصراع داخلي ما بين القصور المجاورة أو في صراع خارجي مع تحالفات قبلية كبرى كما سبق وأشرنا إليه.

المبحث الثالث : القصور ذات النظام الدفاعي السور الدور

1- التعريف والخصائص العمرانية

السور الدور عبارة عن زقاق متسع نسبيا بموازية مع السور الخارجي للقصر وهو زقاق مكشوف غالبا، حيث يمثل فضاء فارغا بين السور الخارجي ومنازل القصر، وللإشارة فالزقاق لا تنفتح عليه أبواب المنازل والمباني المختلفة، مما يجعل جدرانها كأنها جدار ثان يدعم السور الخارجي ويزيد من المتانة الدفاعية للقصر، وذلك لكسر قوة العدو ومنح سكان القصر مهلة إضافية للاستعداد الجيد، ويمثل الفراغ الذي يفصل السور الخارجي عن الدور السكنية عنصرا تحصينيا داخل القصر⁽¹⁾.

ويشكل السور الدور ظاهرة عُرفت بها معظم القصور الفيلالية التي تعتمد أساسا على الوظيفة السكنية ويمارس سكانها أنشطة اقتصادية فلاحية أو حرفية أو تجارية، حيث يقطن بهذه القصور قبائل ذات أفاخذ متعددة. كما أن هذه الظاهرة عُرفت في بعض قصور الصحراء بالجزائر⁽²⁾. ومما تجدر الإشارة إليه أن السور الدور يتخذ أسماء محلية متعدد فهو يسمى بقصور تيزيمي "أطراز" وبيعض القصور ب"الزيادة" نظرا لبنائه من لدن ساكنة معظم القصور وإشراك فضائه العلوي مع دورهم السكنية.

والجدير بالذكر أن للسور الدور أدوار دفاعية في غاية الأهمية تتمثل في جعل المقتحمين للسور الخارجي للقصر في متاهة بشكل لا يمكنهم من معرفة كيفية اقتحام دور القصر التي توجد أبوابها على الدروب المتضمنة للوحدات السكنية. غير أنه في العقود الأخيرة أحدثت عدة تغييرات على درب السور الدور، إذ أصبحت أبواب المنازل تفتح عليه كما تم تسقيفه بشكل أفقده قيمته الحضارية وأسهم في تشويه هذه الوحدة المعمارية للقصر ذات الوظيفة الدفاعية الشبيهة بالعمارة العسكرية للحواضر المغربية.

وفيما يخص دوافع تركيز القصور القبلية على هذا النظام الدفاعي في بناء عمارتها العسكرية التحصينية، فإنها ترتبط بالصراعات القبلية التي كانت تخوضها داخليا مع ساكنة

¹ عبد الرحمان البلعشي وآخرون، القصور والقصبات، م. س، ص. 128.

² يحيى بوراس، العمارة الدفاعية في منطقة وادي مزاب، م. س، ص. 35.

القصور المجاورة مثل صراعات أهل المعاضيد مع قصور تيزيمي أو خارجيا مع الأحلاف القبلية الكبرى الأمازيغية وتحديدًا تحالفات قبائل ايت عطا وايت يافلما. الأمر الذي جعل السور الدور يشكل أداة أساسية للدفاع عن أهالي القصور الفيلالية في حالة الحصار وفترات الحروب، مما أكسبه أهمية خاصة في حياة السكان.

وأما التخطيط العمراني لهذا النوع من القصور التي تركز على السور الدور فقد تراوح ما بين الشكل المربع والشكل المستطيل، كما أن مساحة القصر تتميز بكبرها مقارنة بمساحة أصناف القصور الأخرى. وتتراوح مداخل هذه القصور ما بين المدخل المستقيم كما هو الحال في قصر تابوعصامت التاريخي بجماعة السفالات، والمدخل المنكسر كما هو الشأن بالنسبة لقصر أبوعام التاريخي وقصر المكابر بالمعاضيد.

وتتميز القصور ذات السور الدور بأساساتها المشيدة بالحجارة وبزيادة سمك قاعدتها مما يعطيها متانة أكبر وصلابة في وجه المعتدين، ويبلغ سمك السور الدور في القاعدة، ببعض القصور 2 متر بينما في الأعلى 0.8 متر، علاوة عن تعدد الأبراج وعدم انتظام تخطيطها، إذ لا توجد مسافة محددة تفصل ما بين الأبراج مثلما يوجد في القصور ذات النظام الدفاعي المنتظم، كما أن عدد الأبراج في هذه القصور مرتفع إذ لا يقل عن ستة أبراج وتتخذ أشكالا هندسية مستطيلة أو مربعة أو غير منتظمة وذلك لتدعيم الأسوار.

2- قصر المعاضيد الأم نموذج للقصور ذات النظام الدفاعي السور الدور

1.2 الموقع الجغرافي لقصور المعاضيد ودلالة تسميتهما

1.1.2 الموقع الجغرافي لقصور المعاضيد

تطلق "المعاضيد" على مجموعة قصور واقعة شمال مدينة أرفود على بعد ثلاثة كلم، وجنوب مدينة الراشيدية على مسافة تقدر بسبعين كيلومترا (70 كلم) وعلى بعد خمسة وعشرين كيلومترا (25 كلم) شمال مدينة الريصاني. ويحدها شرقا وادي زيز في حين تمتد مساحات شاسعة من الكثبان الرملية والحمادات في جهتها الغربية. إذ توجد من حيث خطوط الطول ودوائر العرض على خط $21^{\circ}29'$ شمال خط الاستواء وخط طول $4^{\circ}17'$

غرب خط غرينيتش وبارتفاع حوالي ثمانمائة متر (800 م) على مستوى سطح البحر⁽¹⁾. كما تقع "المعاضيد" وسط غابة حقول النخيل التي تحيط بالقصر من كل الجهات⁽²⁾ على الطريق الرئيسية رقم ثلاثة عشر (13) الرابطة بين مدينتي أرفود ومكناس. وتعتبر هذه القصور أكبر قصور المغرب⁽³⁾.

وتتضمن خمسة قصور، ثلاثة منها بمثابة وحدة عمرانية⁽⁴⁾ وهي : المكابر والعبادلة ولقصير واثنان منفردان هما : المحريكية والبروج. وتنتمي قصور المعاضيد جغرافيا إلى منطقة الجنوب الشرقي للمغرب أو الجنوب الداخلي أو "مقدمة الصحراء"⁽⁵⁾ وهي من الناحية الإدارية تعد ضمن جهة درعة تافيلالت، كما تعد إقليميا ضمن إقليم الراشيدية ومحليا تابعة لجماعة "عرب الصباح زيز" التي أحدثت سنة 1961م، ويقدر عدد سكان المعاضيد حسب الإحصاء العام للسكان والسكنى سنة 2004 بحوالي 4100 نسمة وهم بذلك يمثلون 21,02 بالمائة من ساكنة الجماعة⁽⁶⁾.

1- الخريطة الطبوغرافية لأرفود، مقياس 1/100000

2- ملين سعيد، القصور والقصبات المتاخمة للصحراء، م.س، ص. 67.

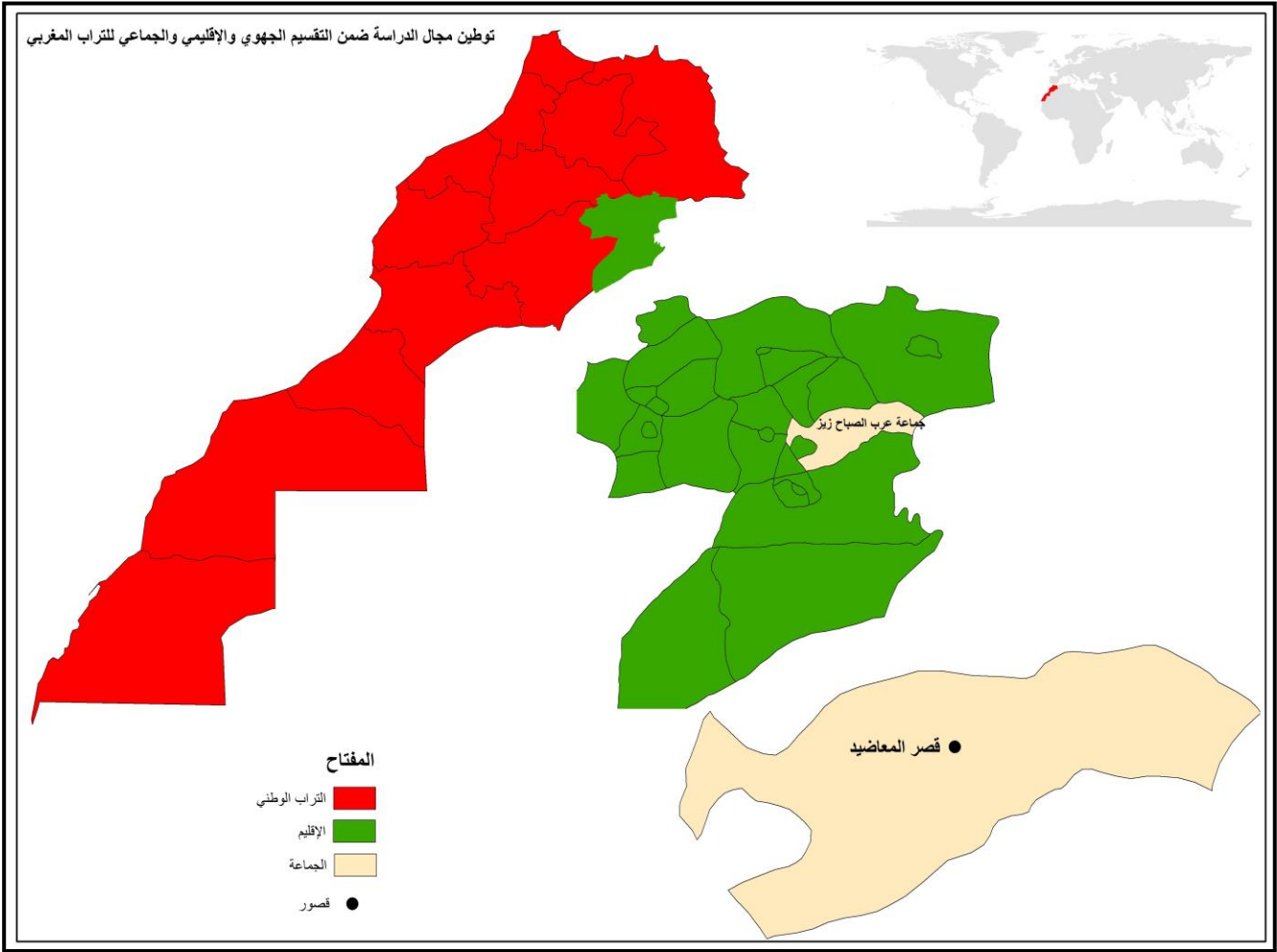
3 - Bisson (J) et Jarir (M), Ksour du Gourara et du Tafilalet : De l'ouverture de la société à la fermeture de la maison, Editions du CNRS, Annuaire de l'Afrique du Nrm, Tome XX V, 1986, pp. 329-345.

4- عوني الحاج موسى، المعاضيد، م.س، ص. 7184.

5- بريان محمد وآخرون، المغرب مقارنة جديدة في الجغرافية الجهوية، م.س، ص. 397.

6- مونوغرافية جماعة عرب الصباح زيز، إقليم الراشيدية، 2006، ص. 17.

الخريطة رقم 4 : موقع قصور المعاضيد



2.1.2 طوبونيمية قصور المعاضيد وشكلها العام

يكاد يتفق أغلب الباحثين الذين تطرقوا إلى ربط القصور الواحية بمسمياتها على أن سبب التسمية غالبا ما يعود إلى نسبتها لولي صالح أو قائد مؤسس للقصر أو زعيم يعود إليه الفضل في لم شمل سكانه. كما تعزى التسمية أحيانا إلى أصل القبيلة أو أفخاذها أو موطنها الأول الذي قدمت منه⁽¹⁾. وفي أحيان أخرى ترتبط التسمية بالمجال الطبيعي والجغرافي الذي شيد في فضائه القصر كما تتصل بحجمه من حيث الكبر والصغر وزمن بنائه من حيث القدم والحداثة، وكذا وظيفته الاقتصادية والعسكرية والاقتصادية.

1- امراني علوي محمد، تافيلالت التاريخ-الإنسان- المجال، مؤسسة الأمين للتنمية، الطبعة الأولى، مطبعة الودغريون، الراشيدية، 2011، ص. 36.

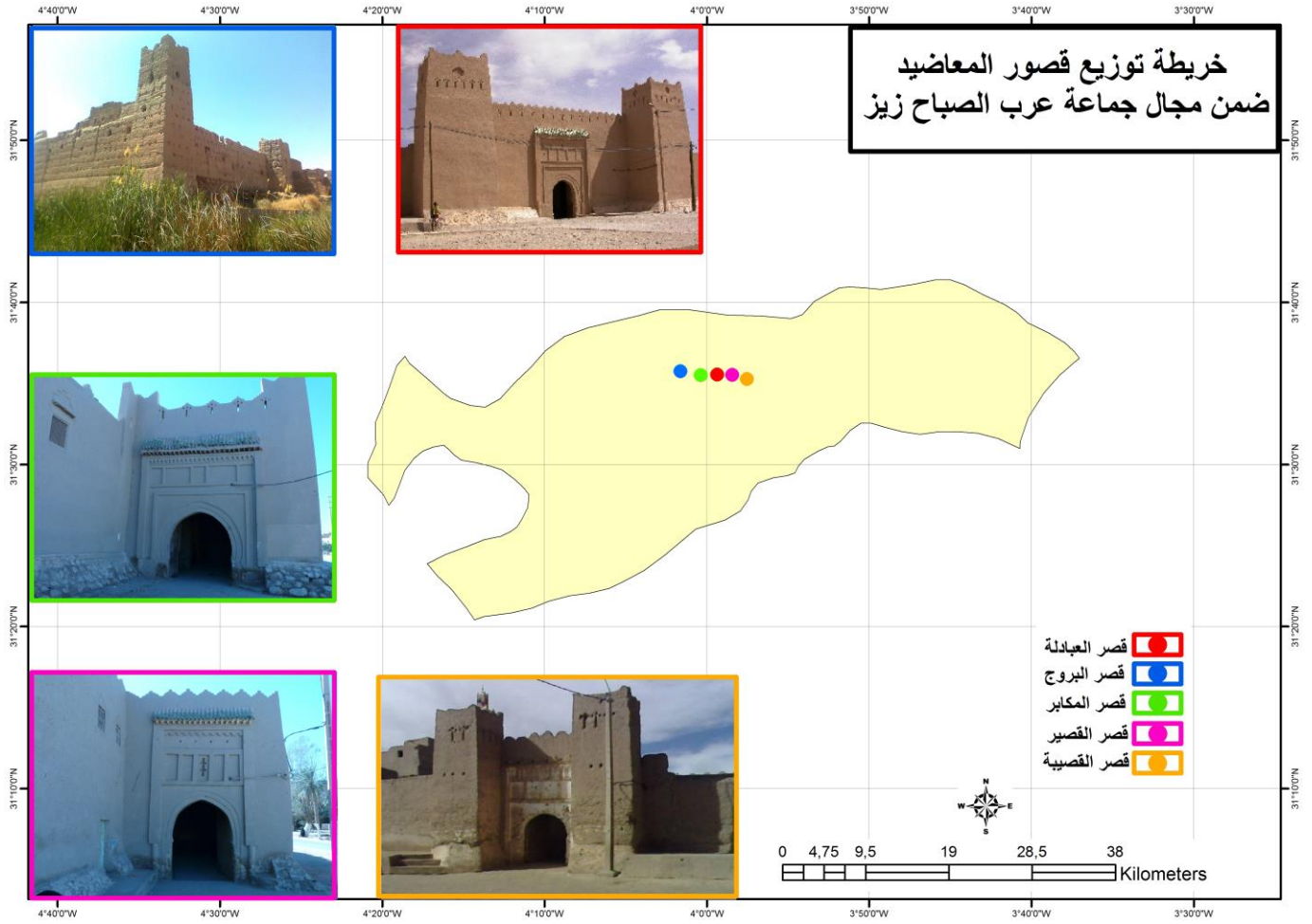
وبالعودة إلى قصور المعاضيد، نجد أن قصرين منها اتخذتا تسميتهما من القبائل المؤسسة لها وهما قصر الكابر والعبادلة. في حين سمي قصر القصير المتأخر زمنيا من حيث تأسيسه بهذا الاسم بالنظر إلى حجمه الصغير مقارنة مع القصور الأخرى المكونة للمعاضيد، بينما حاز قصر البروج هذه التسمية اعتمادا على وظيفته الدفاعية لمراقبة الحدود مع مناطق نفوذ قبائل آيت عطا⁽¹⁾. أما قصر المحيريكية فيطلق عليه أيضا قصر القصيبة المعروف في النظام السكني للوحدات بكونه يضم عائلات ممتدة لها مكانة اجتماعية محترمة⁽²⁾، وتشير الروايات الشفوية إلى أن قصر القصيبة أخذ تسمية المحيريكية فيما بعد نسبة إلى امرأة سوداء كانت تلقب بالمحريكية ومع مرور الزمن بدأ السكان ينادون مكان سكنى هذه المرأة بالمحريكية إلى أن أصبح يطلق هذا الاسم على القصيبة⁽³⁾.

1- عبد القادر بن حسني الإدريسي الودغيري، رواية شفوية بتاريخ 20 مارس 2012.

2- العماري أحمد، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850 إلى 1902، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1988، ص. 16.

3- عمراوي الحاج البشير بن الجيلالي، رواية شفوية بتاريخ 2012/04/23.

خريطة رقم 5 : توزيع قصور المعاضيد ضمن مجال جماعة عرب الصباح زيز



2.2 تأسيس قصور المعاضيد وشكلها العام

1.2.2 إشكالية تأسيس قصور المعاضيد

يصادف الباحث في مسألة تأسيس قصور المعاضيد عدة صعوبات ترتبط جُلها بغياب إشارات في المصادر التاريخية إلى الفترة الزمنية التي تكونت فيها النواة الأولى للقصور المعاضيدية الخمسة، غير أن محاولة البحث في أصول ساكنة المعاضيد والاعتماد على بعض النتف التي تقدمها المصادر المغربية المتأخرة، وبلاستناد إلى الرواية الشفهية رغم تضاربها، وكذا بقايا المقابر المتعددة المحيطة بالمعاضيد من شأنه أن يدلل العقبات المرتبطة بإشكالية تأسيس المعاضيد ويعزز فرضية تعميرها خلال حكم الدولة المرينية بعد انهيار سجلماسة في القرن الثامن الهجري الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي.

في هذا السياق يقدم الحسن الوزان إشارة في غاية الأهمية، إذ إنه بعد تخريب سجلماسة "تجمع سكانها في القصور، وتفرقوا هنا وهناك في الإقليم كله"⁽¹⁾، ومعلوم أن إقليم سجلماسة عند الحسن الوزان "يمتد على مسافة عشرين ميلا على نهر زيز من الشمال إلى الجنوب، ويشمل ما يقرب من ثلاثمائة قصر كبير وصغير، فضلا عن المداشر"⁽²⁾ وإذا علمنا بأن الميل الواحد يساوي 1340 متر فإن مساحة إقليم سجلماسة يمكن تحديدها بحوالي 36000 كلم مربع⁽³⁾ وهذا يعني أن المعاضيد تدرج ضمن إقليم سجلماسة الذي تحدث عنه الحسن الوزان.

وبحكم أن المعاضيد تعتبر إحدى مراكز استيطان عرب الصباح من عرب معقل الذين دخلوا بلاد المغرب ضمن المجموعة الهلالية التي كانت عبارة عن أخلاط من القبائل⁽⁴⁾، فإن بعض الإشارات المهمة في المصادر المغربية الحديثة تفيد بأن الاسم الذي كان يطلق على قصور المعاضيد قبل تسميتها هو "الصباح أهل التوميات" تمييزا لهم عن الصباح أهل تيزيمي⁽⁵⁾، وذلك ما تجلّى في إشارة الضعيف الرباطي إلى زيارة السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790م) لتافيلالت بقوله: "ترك المعاضيد أهل التوميات"⁽⁶⁾، ويقصد بهذه الأخيرة "قصران صغيران أو بالأحرى بنايتان توأمتان شكلتا في البداية نقطة التقاء لأهل القبيلة الرحل إذ يضعون بعض المؤن والمواد ويتركون فيها الشيوخ المسنين غير القادرين على التنقل مع رأس المال السارح"⁽⁷⁾، وتشير الرواية الشفوية إلى أن قصري التوميات كانتا خاضعتين لقبيلتي "الدخيسة" و"أولاد نصير"⁽⁸⁾ فقام

1- الوزان الفاسي الحسن، وصف إفريقيا، ج. 2، م. س، ص. 128.

2- المصدر نفسه، ج. 2، ص. 125.

3- بلبكري عبد العزيز، تافيلالت ودلالاتها في المصادر التاريخية، م. س، ص. 8.

4- أبو ضيف أحمد مصطفى، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، البيضاء، 1982، ص. 57.

5- عوني الحاج موسى، مادة المعاضيد، معلمة المغرب، ص. 7184.

6- الضعيف الرباطي محمد بن عبد السلام بن أحمد، تاريخ الدولة السعيدة، ج. 1، م. س، ص. 346.

7- عوني الحاج موسى، مادة المعاضيد، معلمة المغرب، ج. 21، ص. 7184.

8- عبد القادر بن حسني الإدريسي الودغيري، رواية شفوية بتاريخ 20 مارس 2012.

عرب الصباح بالهجوم عليهم إلى أن تم طرد سكان التوميات والإستيلاء على مجالهم من طرف قبائل المكابر والعبادلة والتغيان.

وتجدر الإشارة إلى أن ما يزكي فرضية بداية تعمير المعاضيد بعد انهيار سجلماسة وتخريبها خلال فترة حكم الدولة المرينية هو كثرة المقابر المحيطة بالمعاضيد، التي يصل عددها إلى خمسة مقابر لا تزال آثارها بادية للعيان إلى يومنا هذا. وتعد أربعة منها متقاربة، حيث توجد اثنتان منها بجانب قصر المكابر ويوجد بها ضريح "سيدي حمو بن حامد"، وقد تم تشييد مدرسة ومستوصف فوقهما خلال السنوات الأخيرة، والمقبرتان الثالثة والرابعة تقعان بـ"المَدِينَة" على مقربة من قصور المعاضيد، وأما المقبرة الخامسة التي بدأ الدفن فيها خلال القرن العشرين فهي "مقبرة الدبداية" بغابة المعاضيد، وحاليا يتم الدفن في مقبرة حديثة وهي الروضة السادسة منذ بداية تعمير المعاضيد، والتي يعتبر قصر المكابر محتضن "التوميات" أول قصر شيد بها ثم بعده قصر العبادلة، في حين نعتقد أن قصر القصيبة تأسس بعد تخريب قصبة المامون بجنوب المعاضيد، بينما شيد قصر القصير في فترة زمنية متأخرة عن تأسيس المعاضيد.

بقي أن نشير إلى الغاية من تأسيس المعاضيد في هذا الموقع الاستراتيجي وسبب استقرار عرب الصباح بها، حيث إن أهل المعاضيد حطوا الرحال بشمال غابة المعاضيد وتحديدًا بغابة "أولاد الراضي" فتعرفوا على المنطقة ومميزاتها الفلاحية⁽¹⁾، غير أن الاعتماد على العامل الفلاحي لتفسير أسباب استقرار عرب الصباح بالمعاضيد وتأسيسهم قصورا بها يبقى تفسيرًا قاصرا إذا لم نضيف إليه الموقع الاستراتيجي للمعاضيد الذي جعل منها محطة لمرور القوافل التجارية القادمة من فاس في اتجاه تافيلالت أو العكس، إذ إن التجار القادمين من فاس قبل وصولهم إلى قصر أبي عام بتافيلالت كانوا يقفون "تحت أسوار المعاضيد"⁽²⁾، بالإضافة إلى الدور الذي لعبته المعاضيد في إنعاش التجارة الفيلالية،

1- عمراوي الحاج البشير بن الجيلالي، الرواية الشفوية بتاريخ 23 أبريل 2012.

2- روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ج.1، ص. 599.

فقد شكلت كذلك إحدى أهم المحطات السلطانية لجل سلاطين الدولة العلوية، وذلك ما تجلى على سبيل المثال في زيارة السلطان الحسن الأول إلى تافيلالت سنة 1883م.⁽¹⁾

ومن هنا يتضح تضافر مجموعة من العوامل والأسباب التي أدت إلى تأسيس قصور المعاضيد بعد انهيار سجلماسة خلال القرن الثامن الهجري الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي، ومن هذه العوامل ما هو اقتصادي مرتبط بما توفره المنطقة من خيرات فلاحية بسبب وجود أراضي صالحة للزراعة وذات امتداد متميز بأجود أنواع التمور، ومصادر للمياه. ومنها ما هو استراتيجي متصل بالموقع المهم للمنطقة الذي أهلها لتكون ممرا للقوافل التجارية ومحطة سلطانية، ومنها ما هو تاريخي مرتبط بنزوح قبائل عرب الصباح التوميات وعروجهم على المنطقة واستقرارهم بها بعد تخريب سجلماسة.

2.2.2 الشكل العام لقصور المعاضيد

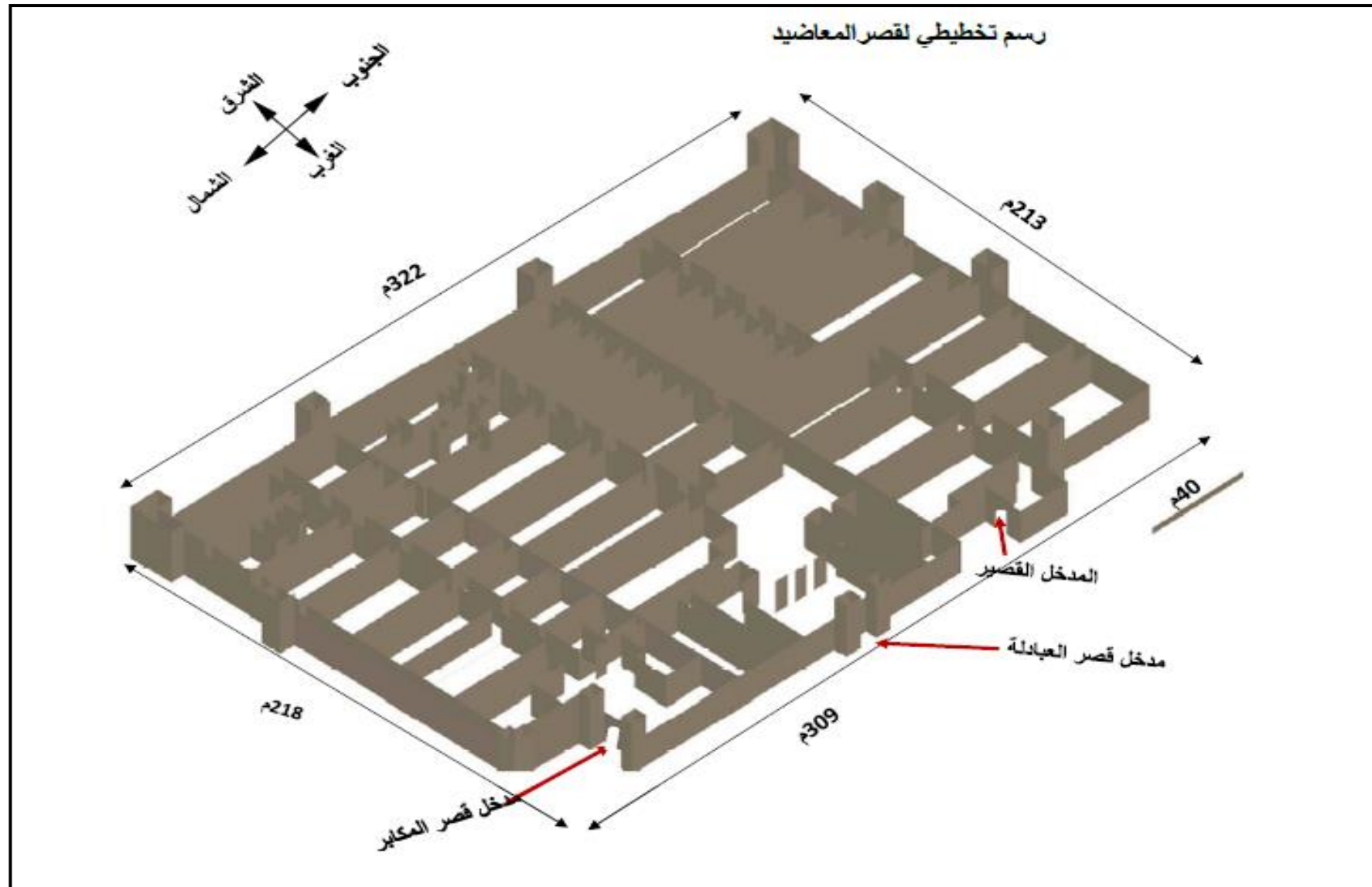
إذا كانت للقصور بمنطقة تافيلالت أشكال مختلفة وأحجام متباينة، تراوحت ما بين الشكل المستطيل والشكل المربع في الغالب الأعم⁽²⁾، فإن قصور المعاضيد التي تعتبر من أكبر القصور الواحية بالمغرب، تميل في غالبيتها إلى الشكل المستطيل، حيث إن قصور المكابر والعبادلة والقصور تشكل وحدة عمرانية شبه مستطيلة يحيط بها سور واحد رغم أن لكل قصر من القصور الثلاثة باب مستقل، كما أن هذه القصور رغم كونها تشكل وحدة عمرانية محاطة بسور إلا أن كل قصر يختلف في حجمه عن القصر الآخر. إذ يعتبر قصر العبادلة الذي يتكون من القصبة الجديدة الذي أضيف إليه قسم ثانٍ يسمى الزيادة أكبر هذه القصور التي لها شكل مستطيل، في حين أن قصر المكابر الذي يعد أول قصر شيد ذو شكل مستطيل كذلك، بينما يعد قصر القصور الذي بني في مرحلة متأخرة أصغر هذه القصور، كما يتميز بطوله الذي لا يتناسب مع عرضه.

1- عوني الحاج موسى، المعاضيد، معلمة المغرب، ج. 21، ص. 7184.
2- امبارك بوعصب، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت، م. س، ص. 118.

أما قصر القُصيبة/المحيريكية فإنه ذو شكل غير منتظم، وذلك راجع للزيادات التي عرفها هذا القصر في مراحل مختلفة بفعل الكاثر الطبيعي لساكنتها أو ربما لتوافد مهاجرين إليها خاصة بعد تدمير قصبة مولاي المامون⁽¹⁾، والواقعة جنوب قصر المعاضيد.

1- تذكر المصادر التاريخية أن السلطان المولى اسماعيل (1672-1727م) "ولى على سجلماسة ونواحيها ولده مولاي المامون الكبير، أنقله لها من مراكش ونزل معه خمسمائة من الخيل بقلعته التي بنى له بتزيمي وبعد عامين مات فأبدله بمولاي يوسف". انظر الزيانى (أبو القاسم)، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف، دراسة وتحقيق الزاوية رشيد، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، الطبعة الأولى، 1992، ص. 180. وكذلك الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2007، المجلد الثالث، ص. 64-65.

الشكل رقم 15 : تخطيط وأبعاد قصر المعاضيد الأم (المكابر، العبادلة، القصير)



المصدر : عمل شخصي، 2018.

2.3 العمارة العسكرية بقصور المعاضيد

1.2.3 الأسوار

تحاط قصور المعاضيد الأم بسور متصل دون تقطع يعتبر بمثابة الحاجز الواقى لكل قصر من الاعتداءات الخارجية التي يمكن أن يتعرض لها أي قصر من هذه القصور، فضلا عن كونه يحمي المدافعين ويخفف من صدمة العدو. كما يعتبر السور حدا فاصلا بين الفضاء الداخلي للقصر والفضاء الخارجي، إذ إن السور يقوم كذلك بحماية القصور من العواصف الرملية التي تهب في مختلف الفصول. علاوة عما يقوم به من أدوار اجتماعية كإرجاع الشارد والضال من الأطفال والعجزة والمعتوهين. وهذا ما يجعله يمنح شعورا بالطمأنينة وراحة نفسية للسكان داخل محيط السور.

وعلى غرار أسوار قصور القسم الصحراوي لبلاد المغرب والجزائر وتونس، فإن قصور المعاضيد تتوفر على نوعين من الأسوار: النوع الأول منها يعتبر بناء مستقلا عن الوحدات السكنية، أما النوع الثاني فيسمى بالسور الدور.

أ. السور المستقل عن الدور السكنية

نظرا لكون قصور المكابر والعبادلة والقصير تشكل وحدة عمرانية، فإن لها سورا خارجيا عبارة عن شكل مستطيل يحيط بمجموع المساكن بشكل متصل دون انقطاع، كما نجد بقصر القصيبة؛ كذلك؛ سور مستطيل يحيط به، في حين يتخذ سور قصر البروج شكلا مربعا. ويتميز أعلى هذه الأسوار بوجود مساحة في أعلى السور تسمى "السقالة"، والتي لا يستبعد أنها كانت تشكل ممشى للحراس فوق السور لتفقد الأحوال الأمنية، كما لا يستبعد أن تكون مجالا للتنقل من برج لآخر، خاصة إذا علمنا بأن الشرفات شكلت حاجزا وقائيا للحراس والمراقبين للعدو أثناء استشراق النظر خارج السور.

الجدول رقم 8 : مقاييس وأبعاد قصور المعاضيد ذات السور الدور بالمترا

القصور	السور الشمالي	السور الشرقي	السور الجنوبي	السور الغربي	شكل القصر
المكابر	196,40	99,10	196,40	99,10	مستطيل
العبادلة	196,40	95,50	196,40	95,50	مستطيل
القَصِير	195.88	84,90	195.88	84,90	مستطيل
القَصِيبة	98,3	210,10	137,8	193,3	غير منتظم

المصدر : البحث الميداني سنة 2012

وعموما فإن هذا النوع من الأسوار يعتبر الأكثر تواجدا بمجموعة قصور المعاضيد، كما هو الأمر بالنسبة لأسوار قصور منطقة تافيلالت وأسوار القصور الواحية بجنوب المغرب عامة. وتجدر الإشارة إلى أن علو أسوار قصور المعاضيد في الغالب الأعم يتراوح ما بين 6 و8 أمتار، وأما سمك الأسوار فيبلغ 1,5 مترا في القاعدة وينتهي في الأعلى بسمك 0,80 مترا.

الصورة رقم 21 : سور واجهة قصور المعاضيد الأم



عبيدي سعيد، قصور المعاضيد دراسة تاريخية وعمرانية، م. س، ص. 84.

كما تجب الإشارة إلى أن أسوار قصور المعاضيد قد زينت بالشرفات التي استخدمت للدلالة على النهاية العلوية للأسوار والأبراج، ومن خلال المعاينة الميدانية يظهر أن أغلب الشرفات الموجودة في أعلى معمار القصور المعاضيدية عبارة عن شرفات مسننة استخدمت لوظيفة عسكرية خاصة في الأسوار والأبراج والمداخل مما سهل عملية مراقبة تحركات العدو.

وفيما يخص أساسات أسوار قصور المعاضيد، تبين من خلال المعاينة الميدانية أن معظمها يتوفر على الأساسات التي تتعدم فيها الأحجار وتستعمل التراب المدكوك (الطابية)، وأخرى ذات أساسات مُرَصَّفة بالأحجار.

ب. السور الدور

السور الدور عبارة عن درب يلف القصر بموازاة مع السور الخارجي، نجده ممثلاً في السور الخلفي للقصر وفي الزيادة بكل من قصر المكابر والعبادلة والقصيية، حيث يشكل واجهة عالية تقوم مقام جدار السور. ويشكل السور الدور ظاهرة عُرفت بقصور المنطقة كقصر الجير وقصر أولاد ليام، كما أن هذه الظاهرة عُرفت في بعض قصور الصحراء بالجزائر، وكذا في المشرق العربي حيث يعبر عنه بالخليجين⁽¹⁾، وأما في الاصطلاح المعماري يسمى بالفصيل⁽²⁾، وهو ما سبقت الإشارة إليه، وهذا ما يبين مقدار التطور الذي كانت عليه العمارة العسكرية بقصور المعاضيد.

والجدير بالذكر أن للسور الدور أدواراً دفاعية في غاية الأهمية تتمثل في جعل المقتحمين للسور الخارجي للقصر في متاهة بشكل لا يمكنهم من معرفة كيفية اقتحام دور القصر التي تنفتح أبوابها على الدروب المتضمنة للوحدات السكنية. غير أنه في العقود الأخيرة أحدثت عدة تغييرات على درب السور الدور، إذ أصبحت أبواب المنازل تفتح عليه كما تم تسقيفه بشكل أفقده قيمته الحضارية وأسهم في تشويه هذه الوحدة المعمارية للقصر ذات الوظيفة الدفاعية الشبيهة بالعمارة العسكرية للحواضر المغربية.

1- عبد الستار عثمان، سدوس وتحصيناتها الدفاعية دراسة تاريخية أثرية معمارية، م. س، ص. 60.

2- نفسه، ص. 60.

وفي هذا الإطار، يتوفر قصر العبادلة على درب يلف القصر بموازة مع السور الخارجي؛ يقال له السور الدور؛ يوجد في السور الخلفي بطول يبلغ 205,5 مترا وفي الزيادة بطول يقدر ب 158 مترا، وعرض مدخله 2,30 مترا. وأما السور الدور في قصر المكابر فهو عبارة عن درب يحيط به بالموازة مع سورهِ الخارجي، حيث يوجد في السور الخلفي على الجهة اليسرى بعد دخول القصر بطول يقدر ب 278,50 مترا وعرض مدخله 2,80 مترا.

كما أنه يضل كل من يحاول اقتحام السور الخارجي لقصر القصيبة، ويحمي من هجمات الأعداء، ويضم هذا القصر درب السور الدور في السور الخلفي من جهة اليسار واليمين، ويبلغ عرضه 2,80 مترا وطوله 182,70 مترا. بقي أن نشير إلى أن إذا كان السور الدور يختلف في طوله ما بين القصور المعاضيدية التي يوجد بها، فإن عرضه يتميز باختلافه ما بين القصور كذلك، حيث يبلغ عرضه في قصر العبادلة 2,20 متر وفي قصر المحيركة 2,80، بينما يصل عرضه في قصر المكابر بالجهة الشرقية إلى 3 متر، وذلك راجع لكون هذه الجهة كانت الأكثر تعرضا لهجمات الأعداء أثناء الصراعات القبلية التي عرفت المنطقة.

الصورة رقم 22 : مدخل السور الدور لقصر العبادلة بالمعاضيد



عبيدي سعيد، قصور المعاضيد دراسة تاريخية وعمرانية، م. س، ص. 91.

قصارى القول، إن الأسوار بنوعيتها المستقلة و"السور الدور" تعد من أهم العناصر الدفاعية الأساسية في مجال العمارة العسكرية، التي تساهم في تحقيق الأمن وتوفير الحماية لساكنة القصر، لذلك لا عجب أن نجد هذه الأسوار تمثل في أعين أهل المعاضيد في الماضي عنصرا معماريا لا يمكن المساس به من لدن أي شخص مهما بلغت مكانته الاجتماعية من سمو، بل إن هذه الأسوار حظيت بالعناية والصيانة في أوقات السلم وحالة الأمن، إلا أن المعاينة الميدانية لهذه الأسوار في أيامنا هذه تبين كثرة "الخراجات" التي فتحت في أسوار القصور من جميع الجهات، مما بات يهدد القيمة الحضارية لهذه التحف الدفاعية. كما أنه نظرا للأضرار التي تخلفها العوامل الطبيعية والبشرية على مجال القصر، فإن كثيرا من أسوار قصور المعاضيد تتعرض يوميا للهدم بفعل تعويضها بمباني إسمنتية، وفتح مداخل أبوابها على مختلف جهات الأسوار، كما أن ما يربو من نصف سور قصر القصيبة؛ على سبيل المثال؛ من الجهة الغربية تم هدمه وطمس بنائه المشيد بالطابية وتشديد منازل إسمنتية بجانبه.

2.2.3 الأبراج

لقصور المعاضيد أبراج متعددة تتميز فيها بين نوعين من الأبراج : أبراج مدعمة لأسوار القصور وأبراج منعزلة سبقت الإشارة إليها في الفصل الخامس من هذه الأطروحة. وهكذا نجد بقصور المعاضيد أبراجا ملتصقة بجدار السور تقوم بتقوية وتدعيم جدار السور، وتعمل على صد الهجومات والمراقبة والإشعار بالأخطار الخارجية، وتتميز أبراج قصور المعاضيد بمساقطها المستطيلة القريبة من الشكل المربع في بعض الحالات. والجدول الآتي يبرز بعض الخصائص المعمارية للأبراج المعاضيدية على مستوى أبراج واجهة القصور.

جدول رقم 9 : أبعاد بعض أبراج قصور المعاضيد ووضعيتهما الراهنة

الأبراج	الطول	العرض	العلو	الشكل	عدد الشرفات	الوضعية الحالية للبرج
برج القرنية بالمكابر	6,70م	6,40	حاليا 8م	مربع	12	وضعية متدهورة
برج واجهة قصر العبادلة	5,10م	4م	14م	مستطيل	12	تم ترميمها
برج واجهة قصر القصيبة	3,10م	2,40	10,70م	مستطيل	بدون شرفات	وضعية متدهورة
برج القصير	4,70م	5,10م	8م	مستطيل	غير موجودة	تعرض للهدم

المصدر : البحث الميداني سنة 2012

من خلال معطيات الجدول، يتبين بن قواعد أبراج المعاضيد تراوحت على مستوى الشكل بين المربع والمستطيل، كما أنها تتميز بضخامتها وعلوها، وهذا ما جعل البرج يتكون من طابقين فأكثر يصعد إليها عبر درج داخلي، كما أن بعض الأبراج ؛ ومن أجل تكثيف المراقبة؛ سكنتها بعض الأسر؛ مثل برج الحمام الواقع بالجهة الركنية الشمالية الشرقية لقصر المكابر، الذي كانت تقطنه إحدى الأسر. بالإضافة إلى أن المسافة الفاصلة بين أبراج أسوار المعاضيد متساوية في الغالب، وأن أقل عدد للأبراج بالقصور المعاضيدية الأم يبلغ 16 برجا.

وفي المحصلة، يمكن أن نميز في الأبراج المعاضيدية وعلى غرار أبراج الواحات والقصور الواحية لبلاد المغرب بين أبراج ملتصقة بالأسوار أسهمت في صد الهجمات التي من شأنها أن تهدد الأمن بالمنطقة، وأبراج منعزلة مثل برج إيردي الأثري وجدت بهدف المراقبة والإخبار بالعدو ورصد تحركاته. كما أنها تميزت على مستوى الشكل الهندسي والمنظور بشكل متوسط بين الشكل الهرمي وشبه المنحرف. وهذا ما جعلها تتسم بمسحة هرمية تُظهر واجهة الأبراج المعاضيدية مائلة نحو الداخل كلما ارتفعت نحو الأعلى على شاكلة بروج القصور الصحراوية بتونس والجزائر⁽¹⁾. وقد اعتبر أحد الباحثين أن هذا الشكل في بناء الأبراج عبارة عن خدعة معمارية نتجت عن تقنيات التشييد ومواد البناء

1- يحيى بوراس، العمارة الدفاعية في منطقة وادي مزاب، م. س، ص. 47.

المستعملة محليا، إذ إنه كلما مالت جدران الأبراج نحو الداخل واقتربت من نقطة الارتكاز ازدادت مقاومة ومتانة وثباتا⁽¹⁾.

3.2.3 الأبواب

يعرف باب القصر عند السكان محليا بـ "فَمَّ الْقَصْر"، ويتم الدخول إلى كل قصر من قصور المعاضيد من باب ضخم منحرج يتوجه نحو الشمال بالنسبة لقصور المكابر والقصير والقصيبة. أما باب قصر العبادلة فيتوجه نحو الغرب.

وتتشكل أبواب القصور المعاضيدية الأم من مدخل مُقَوَّس، وتغلق بواسطة باب خشبي مصفح مصنوع من خشب الصفصاف أو الأثل، وأقفال هذه الأبواب عادة ما تكون حديدية شديدة الصلابة تُعَضَّدُ دفتي الباب. وقد كانت هذه الأبواب تغلق يوميا عند غروب الشمس حتى مطلع الفجر من اليوم الموالي، من أجل توفير الأمن والحماية، والذي يتولى مهمة الإشراف عليها يعرف محليا باسم "البَّوَّاب"، والذي يشترط فيه أن يكون موضع ثقة أهل القصر. حيث كان يُغلق باب القصر من غروب الشمس إلى مطلعها، ويتولى مهمة الإخبار بشؤون القبيلة، كما أنه عند ظهور العدو يضرب الطبل بهدف الإشعار بالخطر كما تذكر الرواية الشفوية. وهذا الظاهرة عرفت بها جميع أبواب القصور الصحراوية ببلاد المغرب مثل قصور توات التي لا يختلف نمطها كثيرا عن نظيرها في تافيلالت⁽²⁾.

وتتميز أبواب قصور المعاضيد ببروزها، إذ يوجد على جانبي كل باب برج شاهق تُتَّوَجَّه شرفات مُسَنَّنة⁽³⁾ وتوجد على أبواب قصور المعاضيد زخارف هندسية بسيطة ذات أشكال مربعة تعلوها تشكيلات طينية تتخذ أشكال أقواس تقع مباشرة قبل شريط قرميدي أخضر اللون يعلو باب القصر.

1 - Terrasse (H), Kasbas berbère de l'Atlas et des Oasis, op. cit, p. 26.

2- محمد أعيف، توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات وتاريخها، م. س، ص. 90.

3- عوني الحاج موسى، المعاضيد، معلمة المغرب، ج. 21، ص. 7185.

جدول رقم 10 : أبعاد أبواب قصور المعاضيد

قصور المعاضيد	علو المدخل	عرض المدخل	نوع المدخل	واجهة المدخل
المكابر	3,30 متر	3 متر	منكسر	الشمال
العبادة	3,35 متر	2,25 متر	مستقيم	الغرب
القصير	3,30 متر	2,30 متر	منكسر	الشمال
المحيريكة	2,80 متر	2,10 متر	مستقيم	الشمال

المصدر : البحث الميداني سنة 2012

وقد تميزت قصور المعاضيد بوجود مداخل ذات مصراع (دفة) واحد أو اثنين، كما اتسمت بوجود مداخل منكسرة وأخرى مستقيمة، وقد كان لكل قصر باب خاص به. ويمكن تقسيم مداخل القصور المعاضيدية إلى صنفين :

- الصنف الأول: عبارة عن مداخل منكسرة أو متعرج أطلق عليه المؤرخون العرب اسم المرفق أو "الباشورة"⁽¹⁾، وهذا النوع من المداخل المنكسرة يعوق هجوم الفرسان ويمنع دخولهم بسهولة في اندفاعهم مرة واحدة. كما هو الأمر بالنسبة لمداخل قصر المكابر والقصور، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الصنف من المداخل تم توظيفه من لدن المرابطين والموحدين في قصبة تاسغيموت مع اختلاف في الأبعاد والحجم بينهما⁽²⁾، وذلك لتكسير هجمات الأعداء الذين يريدون اقتحام أبواب القصور والقصبات.

- الصنف الثاني: عبارة عن مدخل مستقيم غير متعرج يفتح في جدار السور مباشرة، وبجانبه برجان شاهقان شأن مدخل قصر العبادة وقصر القصيبة وقصر البروج. بقي أن نشير إلى أن باب قصر العبادة، الذي لازالت دفتاه المصنوعتان من الخشب، والمصفح بقلعه الحديدي موجودة على جنبات المدخل، يشبه تصميم واجهة بوابة قصر أبي عام، حيث إن المدخلين يعلوهما معا ستارة من القرميد الأخضر التي تقيهما عوامل التعرية

1- عياش محمد، الاستحكامات العسكرية المرينية من خلال مدينتي فاس الجديد والمنصورة بتلمسان دراسة تاريخية وأثرية، بحث لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2005-2006، ص. 33.

2 - Basset (H), Terrasse (H), Sanctuaires et forteresses almohades, op.cit, p. 162.

المطرية، كما أن كليهما محاطان ببرجين مربعين زينت أطرافهما العلوية بنقوش هندسية طينية، بل لهما معا باب من الصفصاف يفضي إلى المصرية، وخضوعهما للتصميم نفسه يجعلنا نطرح احتمال تصميمهما من لدن مهندس معماري واحد. ومن المهم الإشارة إلى أن مدخلي قصري المكابر والقصير حولا من الجهة الشمالية إلى الجهة الغربية ابتداء من سنة 2013م. وجدير بالذكر أيضا أن أبواب قصور المعاضيد تتشكل من مدخل مقوس، باستثناء مدخل قصر البروج المستطيل الشكل، وكانت تغلق بواسطة باب خشبي ذي دفعة واحدة مثل باب قصر القصير أو دفتين بابي قصري المكابر والعبادلة.

الصورة 24 : المدخل المستقيم بقصر العبادلة

الصورة 23 : المدخل المنكسر بقصر المكابر



المصدر : تصوير شخصي، سنة 2018

وفي المحصلة يظهر أن قصور المعاضيد الأم أساسا عرفت منشآت عسكرية جد متطورة على غرار ما كان سائدا بالقصور الفيلائية ذات النظام الدفاعي المتمسم بوجود السور الدور، فقد أحيطت القصور المعاضيدية بالأسوار والأبراج بالإضافة إلى البوابات الرئيسية المحصنة التي تسهم في توفير الأمن والاستقرار والسكينة لساكنة القصور. كما أن العمارة العسكرية بقصور المعاضيد ظلت وفيه لأصالتها وشخصيتها المتميزة ونسقتها الحضاري الأصيل، الذي يعبر عن ثقافة عميقة مستمد من الفكر العمراني الإسلامي، إلى أن تعرضت للغزو الغربي الذي أدى إلى زوال الطابع المعماري الخاص بها في بعض القصور؛ نتيجة إعادة بناء المنازل الملتصقة بالأسوار وفق النمط المعماري الحديث من جهة، وانفجار القصور من جهة أخرى. كما نسجل غياب الخندق عن قصور المعاضيد

رغم وقوعها في منطقة منبسطة شأنها في ذلك شأن جل القصور التي توجد بزيز الأسفل الذي يعتبر مجال هذا البحث، وهو أمر فرضه تموقعها بين حواجز طبيعية تمثلت في إطلالها على الغابة من جل الجهات ومرور نهر زيز بالمحاذاة من قصر البروج.

المبحث الرابع : القصور الزوايا ذات النظام الدفاعي المادي واللامادي

1- التعريف والأهمية

نقصد بالقصور الزوايا ذات النظام الدفاعي المادي واللامادي مجموع القصور التي تتميز بوجود ولي صالح أو تيار صوفي تابع لزاوية من الزوايا التي عرفتها منطقة تافيلالت وترتكز في تحصينها على الجانب الروحي ولم تعط للمؤشرات المادية من أسوار وأبراج وأبواب أهمية كبرى في نظامها الدفاعي، بحكم اعتمادها على وسائل دفاعية أخرى تتمثل في القدسية التي يحظى بها أهل الصلاح والعرفان في المجتمع من جهة، ولترسخ الاعتقاد في ذهنية العامة بدور الشيخ في حماية كل من يقيم في حياض القصر من الساكنة من جهة ثانية.

لذلك نجد هذه القصور تختلف في أنظمة تحصينها عن باقي القصور التي أشرنا إليها سابقا، كما تختلف في هيكلها العام وشكلها الهندسي⁽¹⁾، إذ إن معظم أبوابها ذات مدخل مستقيم كما أنها لا تكون بارزة في وسط السور وإنما في جنباته على اليمين أو اليسار، أما الأسوار فلا تكون مرتفعة، إذ لا يتجاوز ارتفاعها ستة أمتار وأساسه يكون غير مشيد بالحجارة، أما الأبراج فذات أشكال مربعة، كما يتسم القصر بعدم انتظامه نظرا للزيادات التي يعرفها بحكم كثرة الوافدين إليه من المريدين، فضلا عن قلة سمك أسوارها مقارنة بأسوار القصور ذات النظام الدفاعي المنتظم.

وفيما يخص التوزيع الجغرافي لهذه القصور ذات النظام الدفاعي المادي واللامادي، فإنها تركزت في مقاطعة السفالات بالنسبة لدائرة الريصاني مثل قصر زاوية سيدي الغازي الذي سنتخذه نموذجا لهذا الصنف من القصور، كما يضاف إليها قصر الكساكيس الذي ارتبط بالولي سيدي محمد فتحا الملقب بـ "مول الزيتونة"، وقصير الشرفاء الذي اتصل

1- أحمد الشرقاوي، إعداد التراب والتنمية المحلية بواحة تافيلالت، م. س، ص. 190.

بالولي سيدي عبد الله بن عمر، وهذين القصرين ينتميان إلى مجموعة قصور تيزيمي و يتميزان بالتجاور فيما بينهما⁽¹⁾، حيث يتسمان بغياب الأبراج، كما أن سمك أسوارهما لا يتجاوز 0.50 متر، وباب القصرين ذي مصراع واحد لا يتجاوز 2.5 مترا.

إن عدم التركيز في هذا الصنف من القصور على المكونات المادية للعمارة العسكرية بأسوارها وأبراجها وأبوابها أساسا في تحصين القصر وحمايته، يعكس اعتماد الساهرين على الحياة العامة بالقصر على الوظيفة الدينية والتعليمية التي اضطلعت بها هذه القصور منذ تشييدها منطلقا لتوفير الحماية والتحصين لمريدي الزاوية وكذا القاطنين بها، فضلا عن اعتبار مثل هذه القصور فضاء مقدسا ينسج روابط روحية وثقافية متينة تسم كل من يلج مدخل القصر وتجعله يعيش في أمن وتسمه بالسلامة.

والذي يؤكد تمتع هذا الصنف من القصور بتأفيلات بنوع من الحرمة والاستحرام هو عدم تعرضها لهجمات من القبائل المجاورة لقصورها في حدود علمنا، حيث لم نعثر على إشارات تاريخية أو وثائق تبرز دخول القصور ذات النظام الدفاعي الروحي في نزاعات مع أي حلف قبلي بالمنطقة، ولا غرو في ذلك، فوظيفة فض النزاعات بين الأفراد والقبائل التي اضطلعت بها هذه القصور جعلتها بعيدة عن كل صراع محلي أو إقليمي، وقد فسر أحد الباحثين الدور القضائي للزاوية انطلاقا من صلاح شيخها، حيث إن صلاح الشيخ وعدله واستقلالته حيال الجميع يكسبه نفوذا، ويجعله مفضلا على كل شيوخ الزاوية⁽²⁾.

2- قصر زاوية سيدي الغازي نموذج للقصور الزوايا ذات النظام الدفاعي المادي

والأما مادي

1.2 معلومات جغرافية

يقع قصر زاوية سيدي الغازي تابوبكرت بمشيخة السفالات، يحدها شمالا زاوية سيدي قاسم وجنوبا زاوية الماطي وغربا زاوية سيدي عبد الرحمان وشرقا زاوية عمار

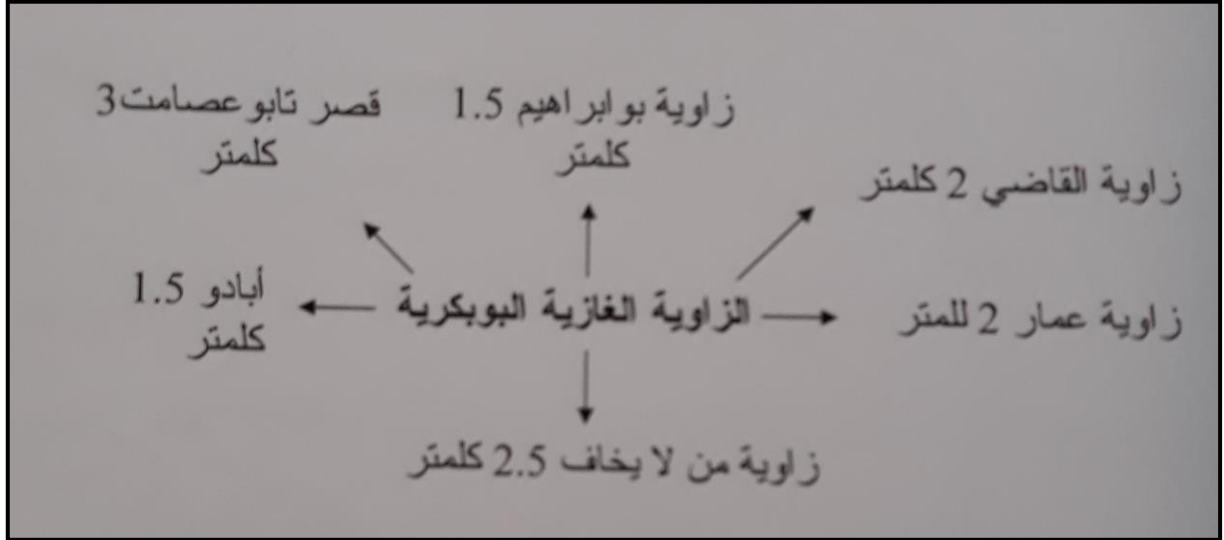
¹ - الخلافة بوعلي، التراث المبني بمنطقة تيزيمي، م. س، ص. 76.

² - عبد الله العروي، العلاقة بين الزوايا والمخزن في القرن 19، ترجمة نوال متزكي، مجلة أمل، عدد مزدوج، 22-23،

2001، ص. 15

ويبعد هذا القصر عن مدينة الريصاني بـ 12 كلم بين مجريين مائيين هما : وادي غريس وواد زيز، وقد شكل هذا الموقع عاملا مساعدا للتوفر على إمكانيات مائية هامة، كما أنه شكل ممرا للحجاج أيام ازدهار واحة تافيلالت ، مما يفسر سبب اختيار هذا الموقع من لدن المؤسسين الأوائل لهذا القصر⁽¹⁾. وتبلغ نسبة سكان قصر تابوبكرت 180 نسمة.

الشكل رقم 16 : الزاوية الغازية البوبكرية التي ينتمي إليها قصر تابوبكرت



المصدر : قيادة الريصاني، دراسة مرقونة، سنة 1982

2.2 معلومات تاريخية

يرجع تاريخ تأسيس الزاوية الغازية البوبكرية التي ارتبط بها قصر تابوبكرت إلى القرن التاسع الهجري من لدن الشريف الإدريسي الشيخ أبي القاسم الهادي⁽²⁾ الذي انتقل إلى سجلماسة، فأصبح يعرف بها باسم بسيدي الغازي بعد أن تم تناسي اسمه الأول⁽³⁾.

وقد أكسبت زاوية سيدي الغازي القصر الذي يحمل اسمها شهرة بفضل الزوار الذين يأتون لزيارة الزاوية من كل مناطق المغرب خاصة الأطلس المتوسط ودرعة والقصور المجاورة، وما يؤكد ذلك هو كثرة أملاك الزاوية بمنطقة تافيلالت مما جعلها تعد من أغنى

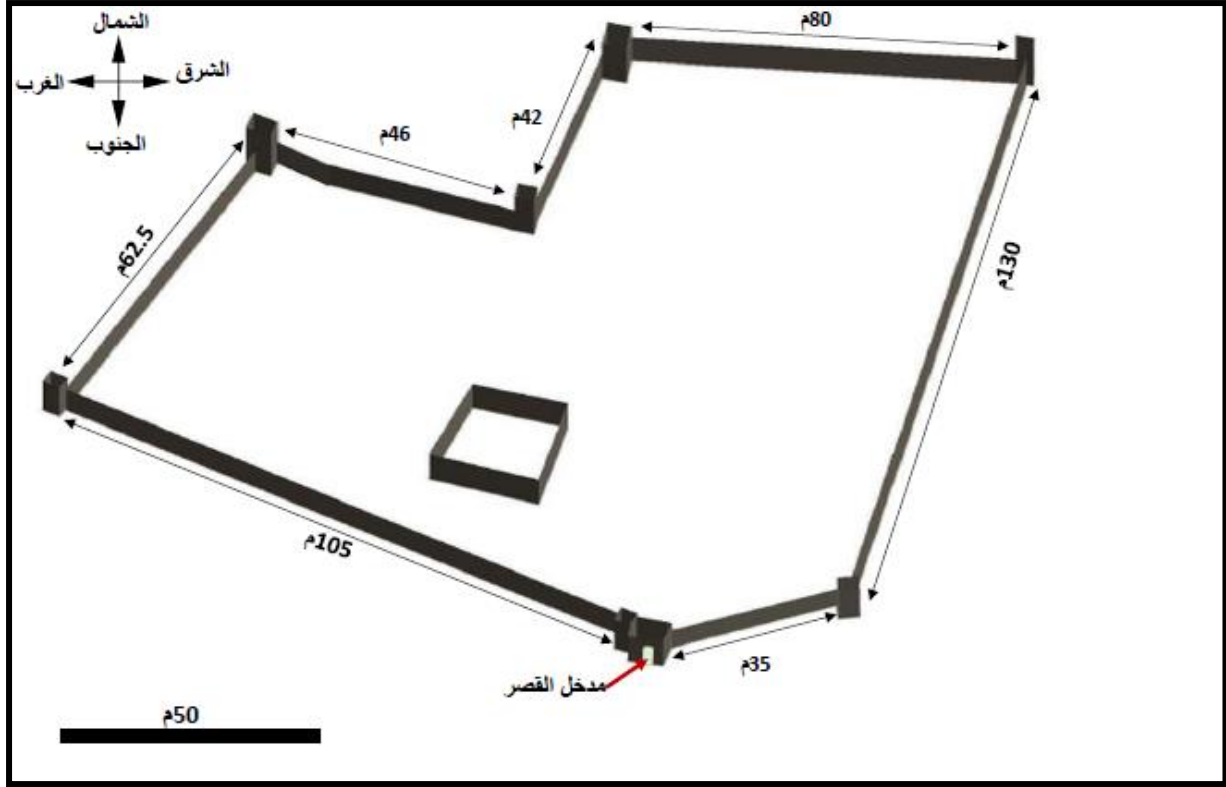
¹ - الرواية الشفوية لمقدم قصر تابوبكرت وقصر سيدي الغازي عبد العزيز الغازي بتاريخ 2015/04/18.

² - لحسن تاوشيخت، عمران سجلماسة، ج. 2، م. س، ص. 588.

³ - عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، ج. 2، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الأولى، 1979، ص. 138.

الزوايا بتافيلالت، وكذا أكسبها شهرة في مختلف مناطق المغرب الشرقي والأطلس المتوسط، وجعل لها مريدين في كل مكان.

الشكل رقم 17 : تخطيط قصر زاوية تابوبكرت



المصدر : عمل شخصي، 2018

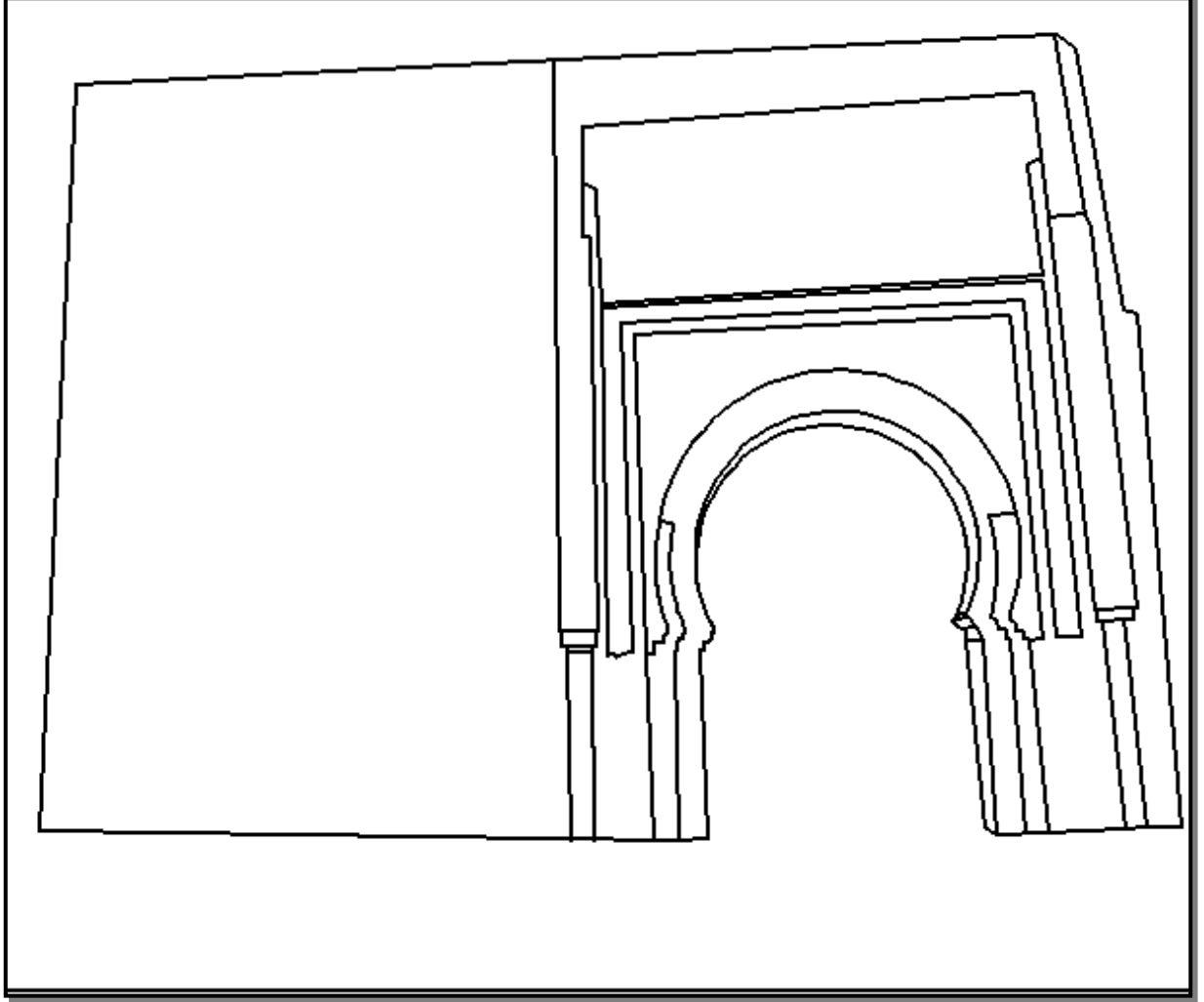
3.2 السمات العامة للعمارة العسكرية بقصر زاوية سيدي الغازي

أ. المدخل

يقع باب قصر زاوية سيدي الغازي تابوبكرت في الجهة الشرقية للقصر وهو عبارة عن مدخل في قاعدة البرج بشكل بارز عن جدار السور بحوالي 2,5 متر، ويتميز بمدخله المباشر الذي تتقابل فيه فتحته الخارجية مع الفتحة الداخلية على خط أفقي مستقيم، وقد تم استخدام الحجارة في تشييد عضاداته، أما علو المدخل فيبلغ 3,60 متر وعرضه 2,50، كما أن لمدخل القصر مصراع مصنوع من خشب الصفصاف وتم تصفيحه وأبعاده هي : العرض 2,55 وعلوه 3.65 متر. والباب لا يتضمن أي زخرفة أو نقش بخلاف القصور

ذات النظام الدفاعي المنتظم واكنه يعكس حالة الزهد التي يتسم به عالم التصوف الذي تمتح منه الزاوية الغازية بقصر تابوبكرت.

الشكل رقم 18 : باب قصر تابوبكرت



المصدر : عمل شخصي، 2018

بج. الأسوار

يتخذ قصر زاوية سيدي الغازي شكلا غير منتظم نظرا للزيادات التي عرفها القصر في بعض الفترات التاريخية لاستقطاب المريدين والزوار نظرا لوظيفته الروحية والتعليمية بالمنطقة، وقد زود القصر بسور من جميع الجهات، حيث يبلغ طول السور الشمالي 105 متر والسور الشرقي 62,5 متر والسور الغربي 130 مترا والسور الجنوبي 90 مترا. ويتميز علو أسوار القصر بعدم تقايسه، حيث يبلغ في الجهة الغربية حوالي 6,50 متر وفي

الجهة الشرقية 5.5 متر، كما يتوفر السور على سقالة تؤدي للغرف العلوية للأبراج في الجهة الشمالية الغربية. وفيما يخص سمك السور فيختلف من سور لآخر، وعموما يتراوح ما بين 1,10 متر و0,80 متر.

الصورة رقم 25: السور الغربي لقصر زاوية تابوبكرت



المصدر : تصوير شخصي، غشت، 2018.

ج. الأبراج

يتوفر قصر زاوية سيدي الغازي تابوبكرت على أبراج ركنية في زواياه الأربع من جميع الجهات، غير أن الذي بقي منها هما برج الجهة الجنوبية الغربية وبرج الجهة الشمالية الغربية، وتتخذ هذه الأبراج شكلا هندسيا مربعا، ويبلغ علوها 7 متر وعرضها 5.10 متر، وتبرز عن سمت جدار أسوار القصر بحوالي 3 متر. بالإضافة إلى ما سبق، فإن أسوار القصر تتوفر على أبراج مدعمة له من الجهة الشمالية الغربية. وقد كانت هذه الأبراج من خلال ما يظهر من ممشى السور وبرج مدخل القصر تتوفر على طابقين : طابق أرضي وطابق علوي.

الصورة رقم 26 : البرج الركني الجنوبي لقصر تابوبكرت



المصدر : تصوير شخصي، غشت 2018

خلاصة القول، أن قصر زاوية سيدي الغازي تابوبكرت يعكس في نظامه الدفاعي نموذج القصور التي تركز على الأمن الروحي بحكم القدسية التي تحظى بها في صفوف الزوار والمريدين والقاطنين بالقصر، فضلا عن الأدوار والوظائف التي اضطلعت بها هذه القصور، والتي من بينها فض النزاعات بين الأفراد والمجموعات القبلية نظرا لقداسة سيدي الغازي في الأوساط الفيلالية، فكان بهذه القدسية الملجأ والملاذ لكل المتنازعين والمتخاصمين، ولعل هذا ما جعل القصر لا يركز على التحصين الدفاعي المادي أساسا في بنية القصر الذي تتسم مكونات عمارته من أسوار وأبراج بخلوها من الأساس الحجري.

المبحث الخامس : القصور ذات النظام الدفاعي الأصلي المنشأ

1- التعريف والتوزيع الجغرافي

يقصد بالقصور ذات النظام الدفاعي الأصلي المنشأ مجموع القصور التي شيدت لغرض دفاعي صرف في أطراف الواحة أو هوامشها، وتتسم بأنظمة عسكرية معمارية خاصة جعلتها تتميز بها عن غيرها من القصور الفيلالية سواء تعلق الأمر بالموقع الذي تم

تشبيدها فيه أو على مستوى تقنيات ومواد البناء، وذلك لكون هذا الصنف من القصور يختص في مراقبة العدو المتربص بقصور تافيلالت وحراسة مجالها الحيوي وحماية ساكنتها من أي خطر يهددها.

والجدير بالإشارة أن دوافع بناء القصور ذات النظام الدفاعي الأصلي المنشأ اربطت بالصراعات القبلية المحلية والإقليمية التي كانت منطقة تافيلالت مسرحاً لها منذ اندراس سجلماسة في القرن 8هـ/14م، خاصة بعد تأسيس أحلاف قبلية وانضواء معظم ساكنة القصور الفيلالية في حلف ايت يافلما لمواجهة الحلف العطوي، الذي كان "مصدر رعب وفزع لسكان الواحات من مناطق توات إلى جبل باني، ومن وادي درعة إلى بلاد آي يت يوسي"⁽¹⁾.

وفيما يخص التوزيع الجغرافي للقصور ذات النظام الدفاعي الأصلي المنشأ، فقد انتشرت بهوامش وأطراف زيز الأسفل بواحة تافيلالت في جهة الشمال أو الجنوب، وهكذا تم تشييد قصر الخندق في موقع متطرف بالجهة الجنوبية الغربية لمنطقة تيزيمي، مما جعله عرضة عرضة لهجمات الأعداء⁽²⁾، والتي استمرت أن سيطرة أبو القاسم النكادي على المنطقة⁽³⁾. كما تم بناء قصر أولاد الزهراء بتعاون بين قبائل عرب صباح المكونة لقصور المعاضيد وتيزيمي في مفترق وادي زيز وأمربوح على تل مرتفع، وذلك لحماية المجال الحيوي لقصورهم من هجمات الحلف العطوي، ونفس الأمر ينطبق على قصر البروج الذي اتخذناه نموذجاً للدراسة في هذا الصنف من القصور الفيلالية.

2- قصر البروج نموذجاً للقصور ذات النظام الدفاعي الأصلي المنشأ

1.2 معلومات جغرافية وتاريخية

يقع قصر البروج شمال القصر الأم للمعاضيد بمسافة تقدر بحوالي 4 كلم شمالاً، وقد حاز القصر هذه التسمية اعتماداً على وظيفته العسكرية لمراقبة الحدود مع مناطق نفوذ آيت

¹ - مولاي النقي العلوي، أصول المغاربة القسم البربري، مجلة البحث العلمي، العدد 23، ماي-غشت، 1974، ص.118.

² - الخلافة بوعلي، التراث المبني بمنطقة تيزيمي، م. س، ص. 77.

³ - عبد الحميد احساين، المخزن اليوسفي والحماية، جامعة مولاي علي الشريف، جامعة مولاي علي الشريف، الدورة 13، مركز الدراسات والبحوث العلوية، 11-12 نونبر، 2005، ص. 14.

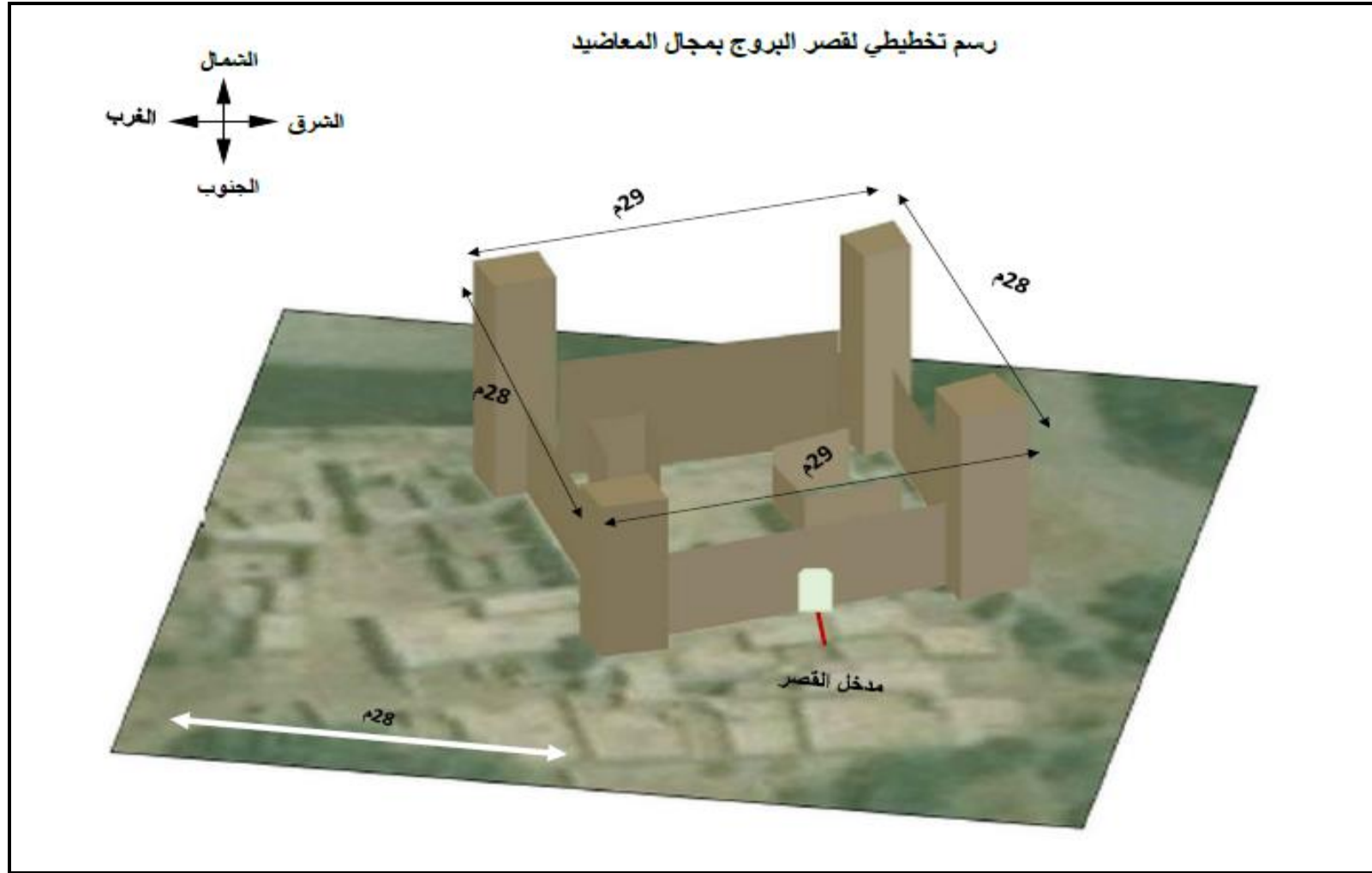
عطا كما تذكر الرواية الشفوية محليا، مما جعل من قصر البروج حصنا عسكريا للدفاع عن المجال الحيوي لساكنة قصور المعاضيد وتيزيمي وصد الهجمات والأخطار القادمة من الشمال.

وقد شيد قصر البروج في نهاية القرن الثامن عشر من لدن أهل المعاضيد وأولاد عيسى وأولاد معطلة لمراقبة مياه وادي زيز وساقيتي "البلدية" والناظورية"، اللتين تسقيان غابات قصور المعاضيد وتيزيمي وتنهلا منه، وحمايتها من هجمات قبائل آيت خباش⁽¹⁾، وفي هذا السياق كان كل قصر من قصور المنطقة يبعث بفرقة من الرجال المسلحين لمراقبة الحدود مع نفوذ قبائل آيت عطا التي كانت تغار على المنطقة. وتذكر الرواية الشفوية أن قبائل آيت عطا كانت تقوم بإسقاط السد الموجود على وادي زيز؛ والذي يصطلح عليه آنذاك بـ "الربطة"، فقام أهل المعاضيد بتعاون مع مشيخات قصور تيزيمي ببناء قصر البروج بالحجارة والجير والطابية والقالب، مما يبين تعاضد وتآزر قبائل عرب الصباح التي تستوطن المنطقة ونبذها للصراعات المحلية لمواجهة كل الأخطار المحدقة والقوى المناوئة لها.

وفيما يخص المساحة الإجمالية لقصر البروج الذي يتخذ شكلا هندسيا مربعا، فهي 528 مترا، غير أن هذا الحصن العسكري الذي شيد للدفاع عن المنطقة، تعرض للإفراغ من السكان بعد فيضان أكتوبر سنة 1994، حيث غمرت مياه فيض وادي زيز الأسفل مرافق القصر الداخلية وجعلتها عبارة عن كومة من التراب، غير أن أطلال هذا القصر خاصة الأسوار والأبراج والمدخل لا زالت شامخة تقاوم الزمان وتحتاج إلى ترميم يعيد الحياة إليها ويجعلها وجهة للسياحة الثقافية والترفيهية.

¹ - عبد القادر بن حسني الإدريسي الودغيري، رواية شفوية بتاريخ 20 مارس 2012.

الشكل رقم 19: تخطيط قصر البروج ومكونات عمارته العسكرية



المصدر : عمل شخصي، 2018

2.2 المكونات العمرانية لقصر البروج

1.2.2 الأسوار

لا تزال أسوار قصر البروج تحتفظ بجدرانها الضخمة والسميكة، رغم مظاهر التدهور التي تشكو منها، ويبلغ طول كل ضلع من السور على التوالي : الشمالي 22 مترا، الجنوبي 22 مترا، الشرقي 24 مترا والغربي 24 مترا، كما يبلغ سمك جدار السور في المتوسط 1.50 متر، ويتراجع بالتدرج كلما ارتفع البناء حيث يصل السمك في الأعلى إلى 0.80 متر؛ وفي الجهة الشمالية التي تطل على المنطقة الحدودية لقبائل آيت عطا يزداد سمك السور ليصل إلى مترين في قاعدته ومتر واحد في الأعلى.

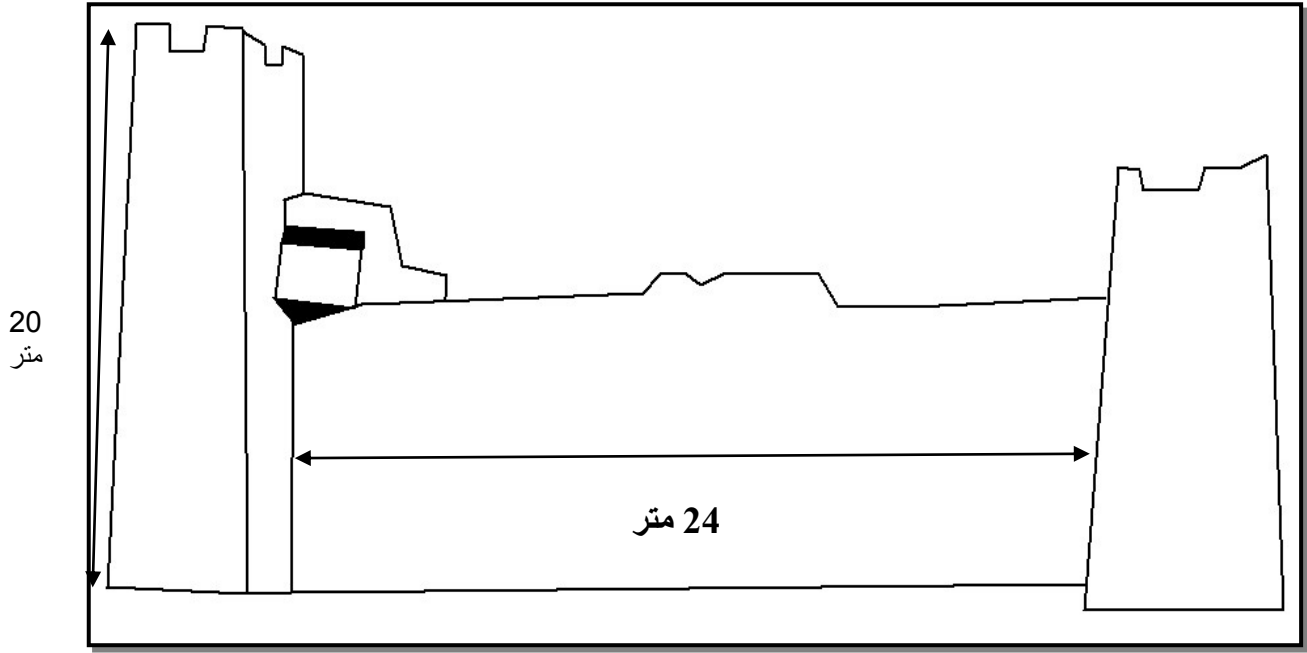
الصورة رقم 27 : سور الجهة الشرقية لقصر البروج وأبراجه الركنية بتاريخ 16

نونبر 1950



Source:<https://www.ina.fr/video/AFE02015105/inondations-au-tafilalet-video.html>

الشكل رقم 20 : سور الجهة الشرقية لقصر البروج وأبراجه الركنية



المصدر: عمل شخصي، 2018

وفيما يخص أساسات أسوار قصر البروج فإنها تمثل استثناء بحكم تشييده على ضفة وادي زيز، إذ تبين من خلال المعاينة الميدانية أنها ذات أساسات مُرَصَّفة بالأحجار يصل عمقها وعلوها إلى أربعة أمتار، بل إن أبراج هذا القصر الدفاعي يبلغ أساسها عشرة أمتار، حيث تذكر الرواية الشفهية⁽¹⁾ أنه أثناء حفر أساس هذا البرج تم الوصول في العمق إلى الحجرة التي يجدها حَقَّارو الآبار في البئر. ولا غرو في ذلك، فموقع قصر البروج على ضفة وادي زيز وتشييده لغرض دفاعي صرف، جعل أهل قصور المعاضيد وتيزيمي يشيدون أساسه بمتانة قل نظيرها في الأبراج المغربية، ولعل هذا ما جعل هذه الأبراج تقاوم الزمن وتبقى شاخصة رغم التدهور الذي أصابها.

¹ - عبد القادر بن حسني الإدريسي الودغيري، رواية شفوية بتاريخ 20 مارس 2012.

الصورة رقم 28 : السور الغربي لقصر البروج

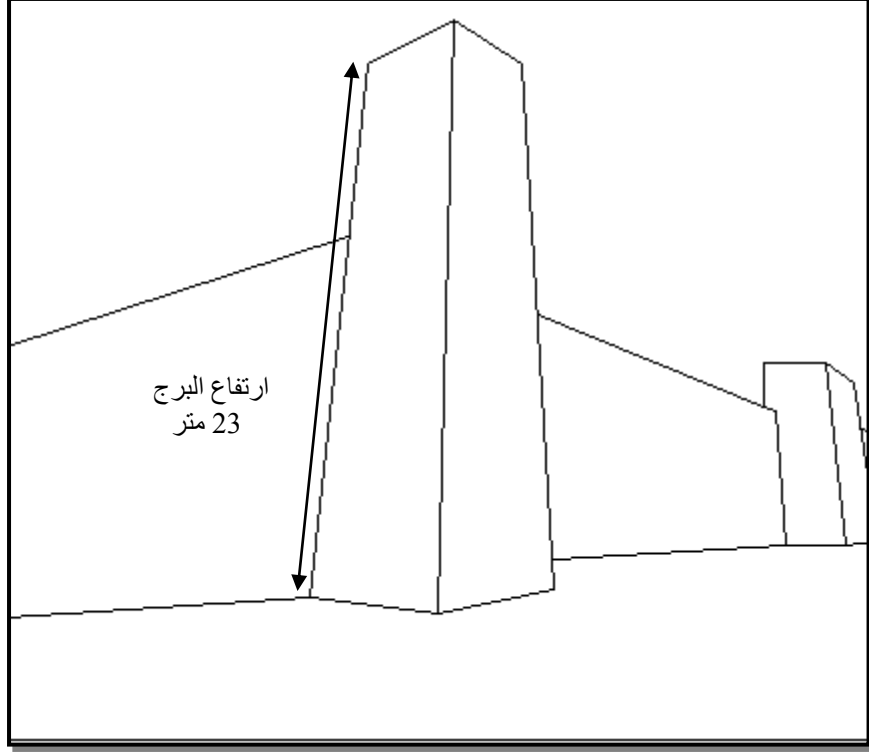


المصدر : تصوير شخصي، سنة 2012.

2.2.2 الأبراج

تتميز الأبراج الأربعة الركنية التي يتألف منها قصر البروج بتقاييسها في الأبعاد وتتخذ شكلا مربعا يبلغ طول كل ضلع خمسة أمتار، حيث إنها ذات مسقط مستطيل ومساحة هرمية تظهر واجهاتها مائلة برفق نحو الداخل كلما ارتفعت نحو الأعلى، وتبلغ علو الأبراج الموجودة في الجهة الشمالية الغربية حوالي 23 مترا، تتوزع كما يلي : عشرة أمتار تمثل قاعدة البرج وأساسه؛ مشيد بالحجارة والجير؛ وتسعة أمتار مبنية بالطابية، والأربعة أمتار الأخيرة مشيدة بالقالب. واما البرج الشمالي الشرقي للقصر فقد تعرضت واجهاته الأمامية للهدم بفعل مياه الفيض لنهر زيز خلال فيضان أكتوبر 1994.

الشكل رقم 21 : البرج الركني للجهة الغربية لقصر البروج



المصدر : رسم شخصي، 2018

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأبراج العالية التي يتميز بها قصر البروج تشبه إلى حد كبير الأبراج التي تشتهر بها قصبات جنوب الأطلس الكبير، غير أن وجه الاختلاف بينهما يكمن في تشييد هذه الأبراج وباقي مكونات القصر بالحجارة في المناطق الجبلية بالأطلس⁽¹⁾، بينما تم توظيف الطابية في بناء أبراج قصر البروج ومعظم القصور الفيلاوية مع الاقتصار على الحجارة في أساسها.

1 - Terrasse (H), Kasbas berbère de l'Atlas et des Oasis, op. cit, p 16 et 107.

الصورة رقم 29: السور الشمالي والغربي لقصر البروج



المصدر : تصوير شخصي، سنة 2012

3.2.4 مدخل القصر

يقع مدخل قصر البروج في وسط جدار السور الجنوبي، وهو عبارة عن مدخل مباشر مشيد بالحجارة ومسقف بأربعة قناطر (ساكف) من خشب النخيل، ويبلغ عرض هذا المدخل الذي كان له مصراع خشبي على يمين الداخل للقصر 1.25 متر وعلوه متران، ويلاحظ خلو هذا المدخل من غرفة الحراسة التي يوفرها رواق مصرية القصر وتوجد بالقصور ذات التصنيفات العسكرية الأخرى التي أشرنا إليها سابقا، ويرجع سبب ذلك أولا لصغر مساحة هذا القصر ولغياب فضاء المصرية به، وكذا لكون القصر بكامله عبارة عن حصن عسكري للدفاع عن حياض القصور المجاورة.

كما يلاحظ خلو واجهة مدخل القصر من أي زخرفة، بل إن المدخل عبارة عن فتحة مستطيلة الشكل ولا تتوفر على الأقواس أو العقود نصف الدائرية التي تتميز بها معظم القصور الفيلازية، مما يبرز بجلاء الطابع العسكري لهذا القصر، وكذا طغيان الهاجس الأمني الدفاعي في بنائه من لدن عرب الصباح التوميات المكونة لقصور المعاضيد وعرب الصباح تيزيمي. وهذا النوع من الأبواب تميزت به بعض مداخل قصور واحات بلاد المغارب كقصور مزاب بالجزائر⁽¹⁾، وكذا كثير من الحصون والقلاع بشبه الجزيرة العربية مثل قلعة الكوت بالدوحة في قطر⁽²⁾.

الصورة رقم 31 : البرج الجنوبي الغربي لقصر البروج

الصورة رقم 30 : مدخل قصر البروج



المصدر : تصوير شخصي، سنة 2012

وفي ضوء ما سبق، يتضح أن قصر البروج الذي يندرج في التصنيف العسكري للقصور الفيلازية ضمن القصور ذات النظام الدفاعي الأصلي المنشأ أن هذا الصنف من القصور يتميز بصغر مساحته، وبوظيفته الدفاعية الصرفة، فضلاً عن تعاون ساكنة القصور المجاورة وتضامنها في تشييد هذا الصنف من القصور لمواجهة كل الأخطار المحدقة بها والدفاع عن مجالها الحيوي وساكنة قصورها، علاوة عن تركيزها في العمارة على الوظيفة النفعية المتمثلة في التحصين وإغفالها للجوانب الفنية والتشكيلات الزخرفية في البناء، وهو ما تمثل في مدخل القصر.

¹ - يحيى بوراس، العمارة الدفاعية في منطقة وادي مزاب، م. س، ص. 50.

² - محمد رمضان، القلاع والحصون في قطر، الطبعة العربية الأولى، الدوحة، 2010، ص. 91.

من خلال هذه النماذج التي حاولت أن تحيط بالعمران العسكري لقصور تافيلالت يمكن القول على أنه بالرغم من الاختلافات الموجودة بين أصناف العمارة العسكرية لهذه القصور، والذي يدل على قدرة المعماري الفيلاي على التلاؤم مع بيئته العمرانية والاجتماعية والثقافية التي نشأ فيها، فإن القاسم المشترك بينها جميعا يتمثل في التحصين والدفاع وحفظ الأمن للسكان بواحة تافيلالت.

الأمر الذي جعلنا نخرج بنتيجة أولية في هذا المضمار مفادها أن إنشاء العمارة عمل إبداعي يستوجب مجتمعا مستقلا ومتماسكا يحمل قيم التضامن والتآزر والتفاعل مع البيئة المحلية، وهو ما جسده تعامل البناء محليا مع قصوره بعد إدراكه البنية الذهنية للمتطلبات الاجتماعية في عصره وسعيه إلى تليبيتها بكفاءة عالية ودقة متناهية تنم عن عبقرية وبراعة ودراية توظيف مواد بناء توفرها البيئة المحلية من تراب مدكوك وحجر جيرى وخشب النخيل وغيره.

وفي المحصلة، يمكن الجزم إن قصور تافيلالت بجميع أصنافها تتوفر على جميع مكونات العمارة العسكرية من أبواب وأسوار وأبراج ما عدا الخندق الذي انعدم وجوده فيما يبدو لم نجد له أثارا مادية في قصر من القصور، رغم تداوله في الرواية الشفوية باسم أحفير، غير أنه مع التطورات التي عرفت العمارة الواحية في الزمن الراهن فقد طرحت إشكالية تتمثل في أي مستقبل ينتظر العمارة العسكرية بالقصور الفيلاية في ظل اجتياح العمارة الحديثة، وانفجار القصور والأدوار السلبية المتعاضمة لتطور التمدين والتحديث على شخصيتها الحضارية وطابعها المعماري الأصيل؟ وهو ما يستوجب في الزمن الراهن إخراج هذا النوع من العمارة من دائرة النسيان، والحفر في ذاكرته، والتعرف على تقنياته ومواصفاته الهندسية والمعمارية من أجل صيانتته وإنقاذه وإعادة توظيفه بما يتناسب مع متطلبات العصر.

الفصل الثامن:

مواد وأساليب البناء في العمارة العسكرية
بقصور تافيلالت والتشكيلات الزخرفية

الفصل الثامن : مواد وأساليب البناء في العمارة العسكرية بقصور تافيلالت والتحصيلات الزخرفية

لاشك أن عمارة القصور الفيلالية وعلى غرار العمارة الصحراوية قد نشأت في بيئة تمتاز بقساوة مناخها و"شظف العيش" بها، مما جعل ساكنة قصورها تستعمل كل ما توفر لديها من وسائل للتكيف مع بيئتها وتلبية متطلباتها وحاجتها للأمن. لذلك لا غرو أن يعتمد الإنسان الواحي بقصور تافيلالت في تشييد مختلف العمارات بقصوره؛ والتي من بينها العمارة العسكرية مناط هذا البحث، على مواد البناء المحلية التي يوفرها المجال المحيط بالقصر. وتتسم هذه المواد بوفرته وقلّة تكلفتها وانسجامها مع الظروف المناخية المميزة لواحة تافيلالت.

وأما الأساليب المستعملة في تقنيات بناء مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت، فقد كانت نتيجة تفاعل الإنسان مع محيطه وثقافة شاملة استمدها البناء الفيلالي عبر التجربة والتطوير واستغلال ما توفر لديه من مواد بناء محلية تبرهن على سيادة الأصالة في هندسة العمارة العسكرية بقصور تافيلالت؛ والتي رغم طابعها الدفاعي والتحصيني لم تخل من رؤية جمالية تمثلت في الزخارف التي تزين واجهة أبواب وأبراج القصور الفيلالية، وكذا في استعمال زخارف كتابية ونباتية وهندسية في واجهة أبواب القصور وأبراجها المدعمة لها والركنية.

ونسعى في هذا الفصل إلى إبراز مواد البناء التي استعملها الإنسان الواحي في عمارته العسكرية بقصور تافيلالت وفن تشييدها على الأرض، حتى غدت مدعاة للتباهي من طرف الساكنة المحلية ومحط إعجاب من لدن مَنْ شد الرحال لزيارتها من مختلف مناطق المعمور. وإذا كانت العمارة العسكرية لقصور تافيلالت تنتمي للعمارة الترابية التي تعرف بها المناطق الجنوبية والشرقية لبلاد المغرب الجافة وشبه الجافة، فالى أي مدى تفنن البناء الفيلالي ومن يسلك مسلكهم من ذوي الصنعة الإنشائية في تشييد النظام الدفاعي لمكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت من أسوار وأبواب وأبراج ركنية وبرانية وغيرها؟

المبحث الأول : مواد البناء في العمارة العسكرية لقصور تافيلالت

استعمل الإنسان الواحي بتافيلالت في تشييد العمارة العسكرية بقصور تافيلالت مواد بناء محلية لا تخرج عن ثلاثة أصناف كبرى وهي : التراب وما يتصل به من طابية (تراب مدكوك) وطلاء لجدران الأسوار وغيرها، بمعنى تلبسها بالطين⁽¹⁾، والحجارة والمواد النباتية التي توفرها الأشجار المحلية؛ خاصة أشجار النخيل والأثل؛ التي استعملت في السقوف ومداخل الأبواب بالقصور الفيلالية، وتطلبت من معلم البناء محليا خبرة تقنية انتقلت شفويا من جيل لآخر، فضلا عن التوفر على بعض الأدوات الضرورية في هذا الصنف من الهندسة المعمارية⁽²⁾.

1- التراب ومشتقاته

1.1 التراب (Terre)

بداية، وعلى عكس ما يظن الكثيرون، فإنه إذا كان البناء المشيد بالتراب بمختلف التقنيات المطبقة عليه، قد شكل مظهرا من مظاهر التشييد المعماري المغربي الأصيل⁽³⁾، فإن المعمار المبني بالتراب امتد على طول واجهة المغرب المحيطية إلى هضبة أفغانستان وحدود الصحراء وشبه الجزية العربية وصولا إلى صحاري سوريا وإيران⁽⁴⁾ رغم أن المناطق الجنوبية للمغرب اشتهر ببناء قصورها به. وذلك ما تمثل في بناء مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت، سواء عبر تحويل التراب إلى مادة طينية تساهم في تشكل الطابية المعروفة محليا بـ "اللوح" أو "الرُكْز". أو بلحم الآجر والحجر في أساس بناء

¹ - حافظي علوي حسن، مواد البناء ببلاد المغرب من خلال كتاب "الإعلان بأحكام البنين" لابن الرامي، ضمن ندوة المعمار المبني بالتراب في حوض البحر المتوسط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 80، 1999م، ص. 54.

² - لحسن تاويخت، عمران سجلماسة، ج. 1، م. س، ص. 333.

³ - توري عبد العزيز، العمارة المغربية مادة البناء في بعض استعمالاتها عبر العصور، مجلة المناهل، العدد 74/73، فبراير 2005، ص. 14.

⁴ - ERBATI (L), l'architecture de terre dans le Maroc saharien : description des géographes et apport de l'archéologie, colloque international sur l'architecture en méditerranéenne, Rabat, 1999, p. 111.

الأسوار والأبراج وواجهة الأبواب، علاوة عن استعمال التراب كفرشة فوق السقف الخشبي.

وتظهر أهمية التراب في العمارة العسكرية بقصور تافيلالت في اعتماد جل عمليات البناء عليه، بفضل توفر سهل تافيلالت الذي يشكل منخفضا بين حمادة مسكي في الشمال وحمادة كير في الشرق وحمادة كم كم في الجنوب والجنوب الغربي⁽¹⁾ على تربة جيدة للبناء ناتجة في الأصل عن الرواسب الطينية والرملية لوادي زيز وغريس⁽²⁾، ويتخذ استعمال التراب بقصور تافيلالت على غرار معظم المناطق التي تتخذ مادة للبناء أشكالا متعددة من أبرزها الطابية والطوب⁽³⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن استعمال العمارة الترابية على نطاق واسع يرجع إلى ملاءمتها للظروف المناخية⁽⁴⁾ وتوفرها في المجال الحيوي للقصر، فضلا عن كون التراب يوفر تماسكا داخليا للجدران ويعتبر مادة سريعة الاستعمال⁽⁵⁾. لذلك لا غرابة أن تتشابه عملية استخراج التراب وتوظيفه في البناء بين جميع الشعوب والحضارات منذ القدم، وتتمثل في أخذ التراب من سطح الأرض أو من باطنها عبر استعمال أدوات يدوية بسيطة⁽⁶⁾، وتحويل مكوناته الفيزيائية عبر خلطها بمواد نباتية كالتبن أو معدنية مثل الطين أو الحصى، وذلك ضمان متانة البناء ومقاومة أكثر، فضلا عن التقليل من عوامل التجفيف⁽⁷⁾.

¹ - محمد جرير، بعض مظاهر تطور السكن القروي التقليدي في وادي زيز الأوسط والأسفل، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، العدد 1، 1986، ص. 74.

² - اكرمي عبد الكريم، المخاطر البيئية بحوض زيز السفلى (تافيلالت) نموذج الفيضانات، بحث لنيل شهادة الماستر في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرز - فاس، السنة الجامعية 2010-2011، ص. 25.

³ - ERBATI (L), l'architecture de terre dans le Maroc saharien, op.cit, p. 111.

⁴ - لحسن تاوشخت، عمران سجلماصة، ج. 1، م. س، ص. 322.

⁵ - BAZZANA (André), l'architecture de terre au moyen-âge considérations générales et exemples andalous, colloque international sur l'architecture en méditerranéenne, Rabat, 1999, p. 179.

⁶ - سمير راوي، قصبة المهديّة من خلال المصادر الأثرية والمكتوبة، رسالة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرز، فاس، السنة الجامعية 2012-2013، ص. 140.

⁷ - BAZZANA (André), l'architecture de terre au moyen-âge, op.cit, p. 179.

2.1 الأجر (Brique)

نميز في الأجر بين نوعين هما : الأجر المشوي والأجر النيئ يصطلح عليه محليا بالطوب "القالب"⁽¹⁾، وهو عبارة عن أجر يصنع من الطين، فيتم صناعته عبر وضعه في قالب من خشب ثم يُعرَّض لأشعة الشمس⁽²⁾ لبضعة ايام ثم بعدها يكون صالحا للبناء. ويعتبر أحد الباحثين أن الأجر المجفف (الطوب النيئ) يعتبر أحد العناصر الزخرفية التي انتقلت تقاليده الهندسية إلى المغرب وسجلماصة من مدينة القيروان التونسية خلال العصر الوسيط⁽³⁾. ويرجع استعمال هذه المادة في البناء لتكاليدها الزهيدة، ولكونها تمكن من تشييد الوحدات المعمارية بسرعة، وكذلك لتلاؤمها وتكيفها مع الأحوال الجوية كذلك. إذ يتميز المجال المبني بهذه المادة باعتدال درجة حرارته صيفا وشتاء. فضلا عن كونه يساعد البنائين على التشييد بسرعة⁽⁴⁾.

ويستعمل الطوب النيئ بالنسبة للعمارة العسكرية لقصور تافيلالت في زخرفة الواجهة العليا لأبواب القصر نظرا لحجمه الصغير الذي يسعف في إبداع الزخرفة الهندسية للنظام الدفاعي بالقصر الفيلاي، كما يستعمل في التشكيلات الهندسية مثل العقود والإفريزات والشرفات في أعلى الأسوار والأبراج⁽⁵⁾.

وغني عن البيان أن أحجام الطوب النيئ تختلف حسب مجالات استعماله في البناء، حيث يمكن التمييز بين ثلاثة أحجام، وهي: "قالب" صغير الحجم (10/18 سنتمتر) يستخدم في النقوش والزخارف، و"قالب" متوسط (2/22 سنتمتر) و"قالب" كبير الحجم (14/26 سنتمتر)⁽⁶⁾، وإذا كان صانع الطوب في العالم العربي الإسلامي يسمى

1 - ABDELKADER CHALKHOUNE, Épigraphe Monumentale des Oratoires et Palais du Sud-est Marocain (XV-XVIIIe siècles), op.cit , p. 365.

² - حافظي علوي حسن، مواد البناء ببلاد المغرب، مرجع سابق، ص. 55.

3 - Meunié (J), Le Maroc Saharien des origines, op.cit, p 146.

⁴ - سمير راوي، قصبة المهدية من خلال المصادر الأثرية والمكتوبة، م. س، ص. 141.

5 - Terrasse (H), Kasbas berbère, op.cit, p 51.

6 - محمد لمراني علوي، المعمار المبني بالتراب، م. س، ص. 107.

بالطواب⁽¹⁾، فإن صانعه في المجتمع الفيلاي يسمى "المعلم" وتقنية صنعه تسمى بـ"ضرب القالب"⁽²⁾، وتجدر الإشارة إلى أن هذه المهنة ما تزال موجودة بالمنطقة إلى الزمن الراهن، حيث إن مجموعة من الوحدات الفندقية بواحة تافيلالت شُيّدت منها.

3.1 الطين (Argile)

تعتبر مادة الطين من أقدم مواد البناء التي عرفها الإنسان في إنتاج عمارته الأولى في عصور ما قبل التاريخ وبعد انتقاله من الكهوف والمغارات في الجبال إلى السهول والوديان والهضاب، إذ إنه من الطين بنيت معظم المعالم العمرانية بالعالم، فظهرت وكأنها تضاريس جديدة لمادة الأرض تتلاءم مع البيئة وجمالها⁽³⁾. وللإشارة فالطين خليط من عدة مواد، منها الطمي والصخر الرملي، والرمل ومواد عضوية أخرى. ويمتلك البناؤون خبرة كبيرة لمعرفة نوع الأتربة المناسبة للاستعمال، وذلك بتحديد الأماكن في الغابة التي تلائم تربتها البناء والأماكن التي تعتبر تربتها غير مناسبة. ويتم نقل الأتربة من الحقول وإدخالها إلى القصر بواسطة "زناييل" تُحْمَل على ظهر الحمير. وبعد جمع أكوام من التراب يتم فتحها في الوسط على شكل صهريج دائري يملأ بالماء، وبعد ذلك يتم خلط التراب ورشه بالنتن، وتسمى هذه العملية بـ"تخواض العجنة".

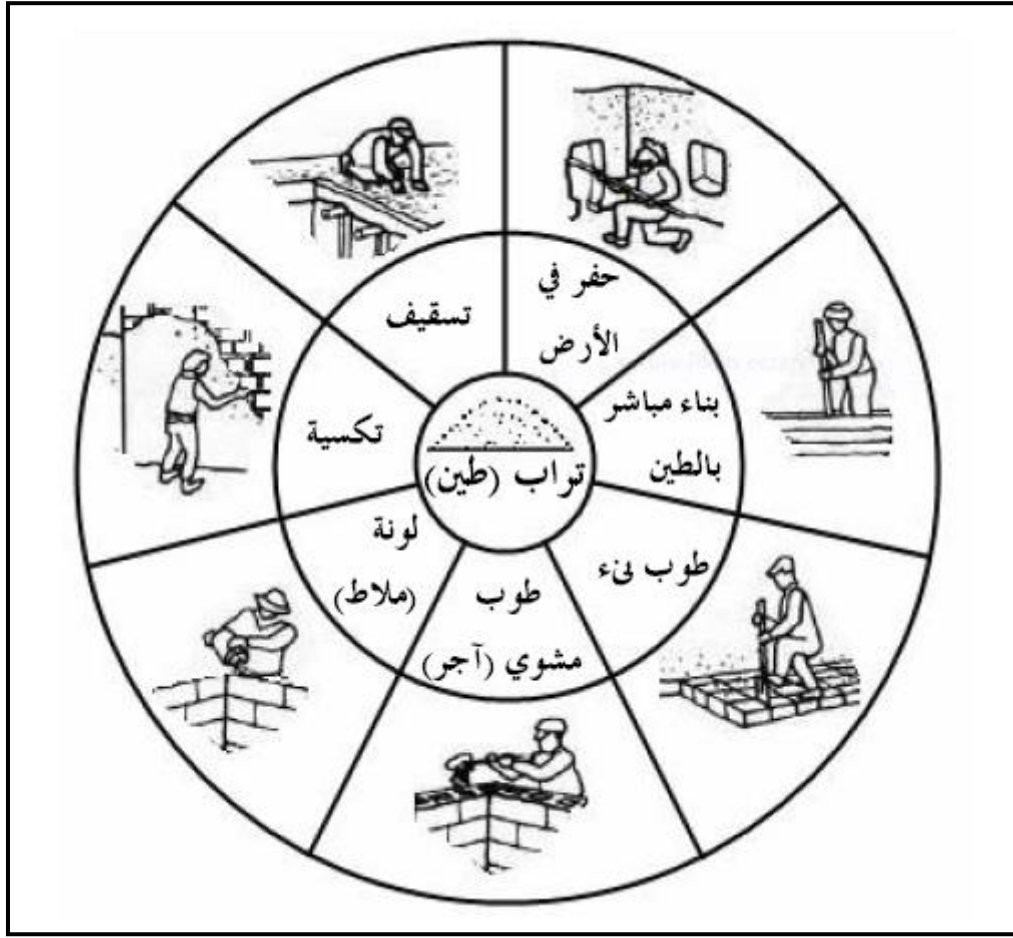
ويتم استعمال الطين في المكونات المعمارية للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت في تلبيس وطلاء جدران الأسوار المشيدة بالطابية وواجهة الأبواب والشرفات المبنية بالقالب بعد الانتهاء من بنائها، وكذا في لحم أحجار أساسات الأسوار والطوب النيئ.

1- خالد عزب، فقه العمران، م. س، ص. 525.

2 - ABDELKADER CHALKHOUNE, Épigraphie Monumentale des Oratoires et Palais du Sud-est Marocain (XV-XVIIIe siècles), Tome I, op.cit, p. 366.

3- محي الدين سلفيني، العمارة والبيئة، دار قابس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1994، ص. 145.

الشكل رقم 22 : الاستعمالات الأساسية للطين في العمارة الصحراوية⁽¹⁾



2-الحجارة (Pierre)

يحتل البناء بالحجارة في بناء مرافق القصور الفيلالية المشتركة والخاصة مادة ثانوية، وذلك بخلاف التحصينات العسكرية المرابطية والموحدية لبلاد المغرب التي اعتمدت في أسسها وفي تزيين واجهات أبوابها⁽²⁾، ولا غرو في ذلك، حيث إنه إذا كانت المواد التي استعملت في بناء القصور الفيلالية شبيهة بالمواد التي تم توظيفها في بناء مدينة سجلماسة⁽³⁾، ومعلوم أن استعمال الحجر بهذه الحاضرة المندرسية تم بشكل محدود⁽¹⁾، فإنه من البديهي أن يتسم توظيف الحجارة في الهندسة المعمارية للقصور الفيلالية بمحدوديته.

1- قبالة مبارك، تطور مواد وأساليب البناء في العمارة الصحراوية، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم الآثار، كلية العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، السنة الجامعية 2009-2010، ص. 159.

2 - Marçais (Georges) : L'architecture musulmane d'Occident, op.cit, p. 331.

³ - لحسن تاوشخت، واحة تافيلالت من المدينة إلى القصور، م. س. ، ص. 7.

وفي هذا السياق، فإن الحجارة من المواد الثانوية المستعملة في بناء مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت، إذ تستخدم في بناء أساس جدران الأسوار، وجسم الأسوار (Les courtines)، والحجارة عبارة عن كتل مختلفة الأحجام تُجلب من مقالع حوض وادي زيز الأسفل بالنسبة لقصور تافيلالت.

وبالاعتماد على المعاينة الميدانية لبعض المكونات المعمارية للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت نلاحظ أن استخدام الحجارة في المنشآت المعمارية وتوظيفها ظلا قليلا ومقتصرا على أماكن معينة تمثلت أساسا في قاعدة أسوار بعض القصور ذات النظام الدفاعي المنتظم على علو متر واحد من سطح الأرض، غير أنها شكلت استثناء في قصر البروج الذي يبلغ أساسه من الحجارة أربعة أمتار نظرا لتشييده على ضفة وادي زيز كما بينا سابقا، علاوة عن استعمالها في عضادتي أبواب بعض القصور.

ويفسر الاستعمال المحدود للحجارة بالقصور الفيلالية واحتلالها مادة ثانوية بعدة أسباب تتمثل في "ارتفاع تكاليف قلعها من المحاجر"⁽²⁾، فضلا عن صعوبة استخراجها ونقلها بالدواب من المقالع إلى فضاء البناء بالقصر، نظرا لثقلها وصعوبة حملها. حيث إن معظم مقالع المحاجر الموجودة بمنطقة تافيلالت كانت بوادي زيز، باستثناء قصر الجبيل الذي كان يتوفر على مقالع بالقرب منه نظرا لتشييده على كدية حجرية. كما أن من بين العوامل التي تفسر المحدود للحجارة بالقصور الفيلالية توفر الطابية بكثرة وقريبة جدا من محيط ومجال القصر الحيوي.

وإذا كانت الحجارة تستخدم في أسس بناء الأسوار على ارتفاع حوالي متر تحسبا لغمر مياه فيضانات نهر زيز وغريس لمعمار القصور الفيلالية، فإن الجص والجير استخدمتا في لحام مواد البناء وفي النقش والزخرفة⁽³⁾. وأخيرا فإن استعمال الحجارة اقتصر في الغالب الأعم على العمارة العسكرية بالأساس، وذلك ما يتضح بجلاء في قاعدة أسوار

1 - Terrasse (H), Note sur les ruines de Sidjilmassa, Revue Africaine, 1936, n° 368-369, p.585 .

² - حافظي علوي حسن، مواد البناء ببلاد المغرب، مرجع سابق، ص. 61.

³ - لحسن تاوشخت، عمران سجلماصة، ج. 2، ص. 432.

وأبراج قصر البروج الدفاعي الواقع شمال المعاضيد على ضفة نهر زيز الذي سبق وأشرنا إليه في الفصل السادس من هذا البحث.

3-القرميد (Tuile)

يعتبر القرميد الشكل الثاني للتراب المشوي⁽¹⁾، حيث تبدأ صناعته بغمر الصلصال في الماء مدة أربعة وعشرين ساعة، ثم يوضع الصلصال في قالب، ويعرض لأشعة الشمس لمدة كافية لتبخّر الماء منه، ثم بعد ذلك توضع القراميد بعد جفافها في الفرن لتجري عليها عملية إحراق أولي، فيستخرج بعدها ليوضع عليها طلاء المينا ثم ترجع ثانية إلى الفرن فتصبح بعد إحراقها جاهزة للاستعمال⁽²⁾. وتتمثل الغاية من استعمال القرميد في تسهيل عملية تصريف ماء المطر وتفخيم المبنى وإظهار جماليته⁽³⁾.

وقد استعمل القرميد في مداخل القصور والمساجد، وهو ما يتمثل إلى يومنا هذا في بوابات مداخل القصور الفيلاية التي يلاحظ المار بجانبها القرميد ذي اللون الأخضر في واجهاتها على غرار أبواب المدن السلطانية المغربية كفاس⁽⁴⁾. حيث إنه إذا كان البعض قد شبه القرميد المتراص في أعلى مداخل المساجد من الخارج بصفوف المصلين في تناسقها وخشوعها⁽⁵⁾، فإن استعمال القرميد في العمارة العسكرية بقصور تافيلالت قد اقتصر في وضعه على صفوف متراسة في أعلى أبواب القصور الفيلاية ليظهرها وكأنها دائما في حالة مواجهة ويظهر الجانب الفني فيها⁽⁶⁾.

¹ - سمير راوي، قصبة المهدية من خلال المصادر الأثرية والمكتوبة، م. س، ص. 142.

² - حافظي علوي حسن، مواد البناء ببلاد المغرب، م. س، ص. 59.

³ - فريد الشافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية : عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ص. 288.

⁴ - Bel (Alfred), les industries de la céramique à fés, Ed. A. Leroux, Paris, 1918, p. 177.

⁵ - نبيل فولي محمد، العمارة الإسلامية : الأصالة والإبداع والحضارة، مجلة العالمية، العدد 187، السنة 18، سبتمبر 2006، ص. 20.

⁶ - CHALKHOUNE ABDELKADER, Épigraphie Monumentale des Oratoires et Palais du Sud-est Marocain (XV-XVIIIe siècles), op.cit , p. 381.

وفيما يخص أماكن صناعة القرميد بمنطقة تافيلالت، فإنه بحكم كون المنطقة اشتهرت بمجموعة من الحرف والصنائع منذ تأسيس سجلماسة مثل صناعة الخزف⁽¹⁾، فإننا نعتقد بأن صناعة القرميد كانت تتم محليا في القصور التي اشتهرت في المنطقة ويمكن أن نستخدم عليها "القصور الحرفية" كقصر مولاي عبد الله الدقاق الذي يقع بالقرب من مدينة الريصاني على بعد حوالي كيلومتر ونصف إلى الشمال الشرقي، واشتهر بصناعة الخزف.

4-الملاط (Le mortier)

الملاط عبارة عن رابط (Lien) يستعمل للربط بين أحجار الأساس أو الآجر بالجدران⁽²⁾، وتظهر أهمية الملاط في كونه غير منفذ للماء، غير أنه مقابل ذلك يسمح بتسرب الهواء لداخل البنايات مما يجعلها تتكيف مع أحوال الطقس⁽³⁾، خاصة بقصور تافيلالت التي تتسم بشدة حرارة بيئتها.

وبالنسبة للملاط المستعمل في الربط بين الأجزاء الثلاثة لأسوار قصور تافيلالت المتمثلة في الأساسات وجسم الأسوار والشرافات، فقد اتسم بصلابته رغم بساطة مكوناته التي توفرها البيئة المحلية، حيث يتم مزج الحصى بالجير في أساسات بعض الأسوار بينما يكتفى في أساسات أسوار أخرى بمزج الطين مع التبن ووضعها بشكل تناوبي مع الحجارة على شكل طبقات رقيقة إلى أن يبلغ الأساس مداه. وفيما يخص نسب الطين والرمل والتبن فإنها تكون متفاوتة، حيث تكون نسبة الطين أو الرمل تضاعف نسبة التبن أثناء الخليط الذي يخمر مدة يوم أو يومين من قبل البناء الفيلالي قبل الشروع في استعماله، وذلك بخلاف الملاط الذي كان يستعمل مادة لاحمة لجدران أسوار الحواضر المغربية، حيث استعملت فيه

1- رحمة الحريقي، "خزف سجلماسة وأهميته في التجارة الصحراوية"، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، العدد الأول، مطابع ميثاق، الرباط، دجنبر، 1989، ص 389.

2- سمير راوي، قصبة المهدية من خلال المصادر الأثرية والمكتوبة، م. س، ص. 149.

منير أقصبي، العمارة العسكرية بفاس، م. س، ص. 205.

3- منير أقصبي، العمارة العسكرية بفاس، م. س، ص. 205.

الطين والرمل والجير مما يتطلب تخميره "أسبوعا أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه"⁽¹⁾.

5- الطلاء (L'enduit)

إذا كان الطلاء في العمارة العسكرية بالمدينة المغربية يتكون من طبقة رقيقة جدا تتكون من الرمل والجير يتم وضعها على واجهات الأسوار والأبواب بعد الانتهاء من تشييدها⁽²⁾، فإن الطلاء المستعمل في النظام الدفاعي لقصور تافيلالت عبارة عن مواد طينية تخلط بالتبن لتلييس أسوار القصور الفيلالية المشيدة بالطابية وواجهة أبوابها وأبراجها، وذلك لإعطاء النظام الدفاعي للقصور الفيلالية منظرا ورونقا هندسيا متكاملا ومتفردا عن الطرز المعمارية الأخرى، وكذا لحماية عناصر العمارة العسكرية من العوامل الطبيعية التي تساهم في تآكل جدران الأسوار وتؤثر عليها مع مرور الأيام، لذلك يتم تجديد الطلاء من حين لآخر كلما تعرض للتآكل.

6- الخشب (Le bois)

شكلت الأخشاب عنصرا مهما في العمارة الإسلامية لتغطية السقوف وإقامة القباب وتشبيد العماير⁽³⁾. وقد أشار ابن خلدون إلى أهمية الخشب في حياة سكان البدو والحضر بقوله أنه "يتخذ وقودا للنيران في معاشهم، ودعائم لما يخشى ميله من أثقالهم ... فأما أهل البدو فيتخذون منه العمد والأوتاد لخيامهم ... أما أهل الحضر فالسقف لبيوتهم والأغلاق لأبوابهم"⁽⁴⁾. لذلك لا غرو أن نجد الخشب من المواد الأولية التي استخدمت جذوعا وجريدا وسعفا في بناء سقوف ودعائم المنشآت المعمارية المدنية والدينية والعسكرية لقصور تافيلالت، ويرجع سبب ذلك لتوفر البيئة المحلية على أشجار النخيل.

وتتمثل استعمالات الخشب في العمارة العسكرية بقصور تافيلالت في أبواب القصور المصنوع بعضها بخشب النخيل وبعضها الآخر بخشب الصفصاف وصنف آخر من خشب

¹ - ابن خلدون، المقدمة، م. س، ص. 408.

² - منير أقصبي، العمارة العسكرية بفاس، م. س، ص. 206.

³ - عثمان عثمان اسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج5، ص. 321.

⁴ - ابن خلدون، المقدمة، م. س، ص. 512.

الأرز خاصة القصور السلطانية⁽¹⁾، حيث إن خشب هذا الصنف من الأشجار يعتبر من أطيب خشب الأرض⁽²⁾. كما تم استعمال الخشب بقصور تافيلالت في تقنيات البناء كالألواح الطابية وقوالب الآجر والقرميد⁽³⁾، وكذا للرفع من مقاومة العقود والأقواس بواجهة الأبواب.

ونظرا لتعدد استعمالات خشب النخيل في البناء فقد صنف المعماري الفيلاي أشكال استخدامه حسب حجم ومساحة الفضاء المراد تسقيفه على النحو الآتي:

- **المادة:** سميت بذلك لامتداد طولها المتراوح ما بين ثلاثة وسبعة أمتار، بينما يتخذ سمكها شكلا مربعا متساوي الأضلاع $0,30\text{م} \times 0,40\text{م}$ أو مختلف الأضلع ما بين $0,18\text{م} \times 0,30\text{م}$ أو $0,26\text{م} \times 0,40\text{م}$ ⁽⁴⁾.

- **الكايضة:** اقتصر استعمال هذا النوع من الخشب في سقوف منازل القصور الفيلاية على العائلات الميسورة وأروقة القصور المخزنية. والكايضة شكل مصغر من أشكال المادة بمقاييس متباينة، حيث يبلغ طولها ما بين المترين والمتر ونصف، بينما يتراوح سمكها ما بين $0,10\text{م}$ و $0,16\text{م}$.

- **الورقة:** يتراوح سمك الورقة ما بين ثلاث سنتمترات وواحد ونصف سنتمتر⁽⁵⁾. تتميز الورقة بمرافقة الكايضة، إذ يتم تصفيفها وإصاقها بأخشاب الكايضة. أما طولها فيتراوح ما بين المترين والمتر ونصف.

- **التشبيكة:** عبارة عن أخشاب صغيرة من خشب النخيل يتراوح سمكها ما بين 6 و8 سنتمتر وطولها ما بين 12 و18 سنتمتر، وتوظف أيضا التشبيكة للربط بين أخشاب الكايضة، لذلك يصطلح عليها أيضا بـ "تشبيكة الربط" كما تسمى محليا بـ "الصليبة"⁽¹⁾.

¹ - لحسن تاوشيخت، عمران سجلماسة، ج. 2، م. س، ص. 432.

2 - Paccard (Andre), Le Maroc et l'artisanat traditionnel islamique dans l'architecture, éditions Atelier, 74, T. I, p. 50.

³ - سمير راوي، قصبة المهدية من خلال المصادر الأثرية والمكتوبة، م. س، ص. 143.

⁴ - تاوشيخت لحسن، عمران سجلماسة، ج. 2، مرجع سابق، ص. 433.

⁵ - لمراني علوي محمد، المعماري المبني بالتراب في منطقة تافيلالت، م. س، ص. 111.

- الفهر: عبارة عن خشبة من النخيل ذات شكل مستطيل يتم الحصول عليه بقطع ساق النخلة بشكل طولي إلى نصفين متساويين أو إلى أربعة أقسام متساوية. ويحدد طول وسمك الفرد بحسب المكان المراد استعمالها فيه، وغالبا ما يستخدم في عتبة أبواب المنازل وسقوفها.

- الكنطرة: هي وسيلة من وسائل الدعم في أروقة مصريات القصور الفيلاية، وتتخذ الكنطرة المستخدمة في التسقيف شكلا مستطيلا يتراوح عرضه ما بين 0,20م و0,40م.

- الجريد: الجريد هو أغصان النخيل المفصصة التي يتم إعدادها للتسقيف بطريقة تقليدية، تتمثل في نزع أشواك الجريد وسعفه، فيتم تصفيفها واتقانها لتكون أشكالا مستطيلة أو مربعة في السقف.

- سعف النخيل: بعد تجريد الجريدة من سعفها، يستعمل سعف النخيل بعد ترتيب السقوف في طوابق أبراج قصور تافيلالت.

بالإضافة إلى ما سبق، فإن البناء الفيلاي لم يقتصر في البناء على خشب النخيل فقط؛ رغم هيمنة استخدامه؛ بل تم استعمال القصب بشكل محدود في تسقيف بعض طوابق الأبراج الركنية أو التي على يمين ويسار أبواب القصور بتافيلالت عوض سيقان النخيل. كما تم الاعتماد على خشب شجرة الأتل (Tamarix-aphylle) التي تنتمي لصنف الجفافيات وتحمل بواحة تافيلالت اسم "التلالية"⁽²⁾ واستطاعت التأقلم مع البيئة الصحراوية بالجنوب الشرقي⁽³⁾، بحكم تواجده في غابة واحة تافيلالت في التسقيف وصنع الأبواب.

خلاصة القول، أنه إذا كان الإنسان ابن بيئته، فإن البنائين بقصور تافيلالت جسدوا هذا القول معماريا، من خلال الاعتماد في تشييد مكونات العمارة العسكرية على مواد البيئة المحلية لتحقيق الأمن والحماية لساكنة القصور، والمتمثلة في التراب ومشتقاته والحجارة

¹ - نفسه، ص. 111.

² - أحمد عبد اللوي، مدغرة وادي زيز، ج. 1، م. س، ص. 65.

3 - Mezzine, (Larbi), Le Tafilalet contribution à l'histoire du Maroc, op.cit, p 266.

وأخشاب النخيل، مما جعل هذه المواد التي استعملت في بناء قصور تافيلالت تشبه مواد البناء التي استخدمت في بناء مدينة سجلماصة⁽¹⁾. على نحو جعل البنائين المحليين يتفنونون في تشييد معالم عمرانية ملائمة لمحيطهم الطبيعي والتاريخي وإضفاء ما أرادوه من حلة على عماراتهم وتحصيناتها الدفاعية المتنوعة الوظائف والجامعة للبناء الشاهق المُرَوَّنق والعادي المبسط والمتنوع المعقد.

المبحث الثاني : عناصر وأساليب البناء والإنشاء في العمارة العسكرية بقصور تافيلالت

يمتاز تشييد العمارة العسكرية بقصور تافيلالت بالاعتماد على مواد متوفرة محليا ولا تكلف الشيء الكثير مثل التراب والحجارة وخشب النخيل وجريده كما بينا سابقا⁽²⁾، وهذا ما جعل تشييد النظام الدفاعي للقصور الفيلائية يتسم بتجانس تقنياته وسلاسة طرق إنجازها، بشكل جعله يبسط سيطرته على مجال زيز الأسفل بواحة تافيلالت ويعمرها. مما ساهم في توفير الأمن والحماية للسكان بالقصور ومكنهم من صد هجمات الأعداء أوقات الحرب والاستقرار في فترات السلم، علاوة عن كون هذه المواد والتقنيات ساهمت؛ كذلك؛ في إضفاء وحدة عمرانية على المنطقة تجسدت في العمران الدفاعي لقصور المنطقة، داخل الأسوار وخارجها. استنادا إلى ما سلف، فما هي التقنيات والأساليب المستخدمة في بناء العمارة العسكرية بقصور تافيلالت؟

1- التصميم المعماري لمكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت

إذا كان تصميم مكونات العمارة العسكرية بالحواضر المغربية يندرج ضمن التخطيط القبلي الذي يسبق إقامة المدينة ونسيجها العمراني، ويتطلب اختيار المكان المناسب له ووضع رسوم أو مجسمات تسبق التنفيذ⁽³⁾، وذلك عبر مراعاة مجموعة من الشروط التي ترتبط بتخطيط المدينة الإسلامية سبق وأشرنا إليها في الفصل الثاني من هذا البحث، فإن بناء معظم القصور الفيلائية "لا يعتمد بتاتا على تصميم تطبيقي ولا على تعليمات مهندس معماري، وإنما فقط على خبرة البناء الذي يحدد شكل القصر وحجمه ووضعه اعتمادا على

¹ - تاو شيخت لحسن ، عمران سجلماصة، ج.2، مرجع سابق، ص. 430.

2 - Faure (Roger), Le Tafilalet, op.cit, p 138.

³ - جمال بيلول، المصطلحات المعمارية المدنية، م. س، ص. 28.

الموقع والموضع وعدد السكان المحتملين ومواد البناء المتوفرة"⁽¹⁾، وقد ساهم تناقل هذه الخبرات من جيل لآخر في جعل تصميم مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت يكون متشابهة في معظم قصور زيز الأسفل.

والجدير بالإشارة، أن تصميم بعض القصور العلوية المتأخرة خضع لتصاميم أو "فصالة"، كما يستفاد من رسالة وجهها السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام (1822-1859) إلى ابنه محمد الرابع (1859-1873م) بتاريخ 19 شوال من سنة 1269هـ "في شأن بناء قصر كحاك وتجدد ما تلاشى من سور"⁽²⁾، بأن المصطلح الذي كان سائدا في تصميم قصور تافيلالت خلال الفترة المعاصرة هو "الفصالة"، كما يستفاد من نفس الرسالة؛ كذلك؛ حرص السلاطين على التخطيط المربع للقصور والقصبات المخزنية، مما ينهض دليلا على أن أعمال البناء وتقنيات الإنشاء بالقصور المخزنية لم يكن يتم بشكل عشوائي⁽³⁾. وإجمالا، فإن تصميم العمارة العسكرية بقصور تافيلالت وعلى غرار القصور الصحراوية ببلاد المغرب لم يكن يعتمد على تصميم تطبيقي؛ باستثناء بعض القصور والقصبات السلطانية؛ وإنما يعتمد فقط على الخبراء من أهل النظر الذين يتكفون بـ "تحديد قياسات القصر من طول وعرض وسعة، وموضع الباب وقياساته ورسم العناصر الأساسية للمعلم قبل البناء، وذلك بالتشاور" كما هو الشأن بالقصور الصحراوية التونسية⁽⁴⁾.

¹ - لحسن تاوشخت، واحة تافيلالت من المدينة إلى القصور، م. س، ص. 9.

² - الوثيقة رقم 18626 بسجل الوثائق الملكية، ينظر الوثيقة رقم 3 بالملحق.

³ - امبارك بوعصب، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت، م. س، ص. 198.

⁴ - محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية، م. س، ص. 49.

2- الأساسات (Les Fondations)

الأساسات هي القاعدة الحاملة للجدران الخارجية والداخلية الرافدة، التي يقع عليها ثقل البناء⁽¹⁾. حيث إنه بعد تنظيف المجال المراد بناؤه، يشرع البناء في حفر الأساس ولذلك لضمان ثبات الأسوار والأبراج وديمومتها. وغني عن البيان أن الإنسان أدرك أهمية الأساسات منذ زمن بعيد، إذ إن المهندس المعماري الروماني فيتروفيوس (Vitruvius) الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد شرح تقنية بناء الأساسات منذ أكثر من حوالي ألفي سنة بقوله : "أن الأساسات هي الجزء الأسفل من المباني يجب أن توضع على أرض صلبة، وفي حالة عدم وجودها يجب حفر الأرض تحتها للوصول إليها"⁽²⁾.

يتم حفر الأساسات بقصور تافيلالت إلى غاية الوصول إلى الأرضية الصلبة التي باستطاعتها تحمل البناء، والجدير بالذكر أن عرض الأساس دائما يكون أكبر من سمك الجدار⁽³⁾. وأما عمق الأساسات فيختلف باختلاف طبيعة الأرض، حيث يتراوح ما بين 0,5م و0,80م⁽⁴⁾. كما أنه في حالة موقع حجري أو أرض سطحية يُكتفى بأساسات سطحية، كما هو الشأن بالنسبة لقصر "الجبيل" وقصر "تنعراس" الذين تم تشييدهما بموقع جبلي يتسم بصلابته وقاعدته المحجورة.

وفي هذا السياق، فإنه بعد حفر الأساس وبنائه جيدا يشرع في بناء جسم الأسوار (Les courtines)، وذلك عبر وضع طبقة سميكة من الملاط الذي يتم فيه خلط التراب بالتبن كمادة لاحمة لحجارة الأساس في معظم القصور الفيلالية، وهكذا تستمر عملية وضع طبقة من الحجر تتبعها طبقة من الملاط إلى أن يتم الوصول إلى الارتفاع المراد بلوغه في السور من الحجارة، ويتضح بأن المواد المستعملة محليا في الملاط تختلف عن

¹ - البلعميشي عبد الرحمان، القصور والقصبات دراسة تفصيلية لمصطلحات عمرانية، مرجع سابق، ص. 265.

² - قبالة مبارك، تطور مواد وأساليب البناء في العمارة الصحراوية، م. س، ص. 102.

³ - راوي سمير، قصبة المهدية من خلال المصادر الأثرية والمكتوبة، م. س، ص. 146.

⁴ - البلعميشي عبد الرحمان، القصور والقصبات دراسة تفصيلية لمصطلحات عمرانية، م. س، صص. 265-266.

طبيعة المواد التي تم توظيفها في الملاط لبناء أساسات أسوار الحواضر المغربية الكبرى كفاس والتي هي عبارة عن الملاط الجيري(1).

ومن خلال المعاينة الميدانية لأساسات بناء مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت خاصة الأسوار والأبراج وعضادتي الأبواب، تبين بأنها ذات أساسات مُرَصَّفة بالأحجار. إلا أننا لا حظنا في مقابل ذلك وجود أساسات يصل ارتفاعها من الحجارة أربعة متر، كما هو الحال في أسوار قصر البروج، بل إن أبراج هذا القصر الدفاعي يبلغ أساسها عشرة أمتار، حيث تذكر الرواية الشفهية(2)، أنه أثناء حفر أساس هذا البرج تم الوصول في العمق إلى الحجرة التي يجدها حَفَّارو الآبار في البئر. ولا غرو في ذلك فموقع قصر البروج على ضفة نهر زيز وتشبيده للدفاع جعل عرب الصباح التي تقطن بقصور المعاضيد يشيدون أساسه بمتانة قل نظيرها في الأبراج المغربية، ولعل هذا ما جعل هذه الأبراج تقاوم الزمن وتبقى شاخصة إلى الزمن الراهن، رغم أن مظاهر التدهور بدأت تظهر عليها مؤخرا بسبب الإهمال وقلة الصيانة أو انعدامها.

وإجمالاً، فقد مكنتنا المعاينة الميدانية من تكوين فكرة عامة عن طبيعة الجدران ونوعية المادة المكونة لها، حيث إن معظم قصور تافيلالت تكتفي بالأساس في بناء الأسوار ثم مباشرة بعدها يتم الشروع في بناء جدار الطابية ويكتفى بالحجارة في أساس الأسوار التي يتم الربط بين عناصرها في الغالب الأعم بالطين.

3- الطابية (Le pisé)

لا شك بأن الطابية التي تتم ترجمتها في اللغة الإسبانية (tapia, tapial) والبرتغالية (taipa) بأسماء متقاربة للدلالة على تقنية في البناء(3) تعتبر من أقدم أساليب التشييد في القصور الفيلائية، حيث تم الاعتماد عليها في بناء الأسوار الخارجية والداخلية والأبراج بقصور واحة تافيلالت، وتعرف محلياً بـ "الركز" أو "اللوح" أو "التابوت"، والطابية من

¹ - منير أقصبي، العمارة العسكرية بفاس، م. س، صص. 202-203.

² - الرواية الشفهية ل: عبد القادر بن حسني، مقابلة أجريتها معه يومي 20 و21 مارس 2012م في منزله بغابة المعاضيد.

³ - Jean (P) et Van Staevel, Réflexions à propos de nomenclature médiévale de l'architecture de terre en occident musulman : l'exemple du tabiya, colloque international sur l'architecture en méditerranéenne, Rabat, 1999, p. 95.

أساليب البناء المتجددة في تاريخ المغرب، والغرب الإسلامي عامة، وقد استخدمت في بناء أسوار الكثير من المدن والحوضر المغربية، فضلا عن القصور الواحية، ولعل انتشارها الواسع هو الذي دفع ابن خلدون خلال القرن 8هـ/14م إلى التعريف بها وتحديد دلالتها وكيفية استعمالها⁽¹⁾. لذلك لا غرو أن يهيمن استعمالها على العمارة العسكرية والمدنية والدينية بالغرب الإسلامي الوسيط⁽²⁾ ويستمر العمل بها في مجموعة من المناطق إلى الزمن الراهن.

وفي هذا الإطار، يعتبر العلامة ابن خلدون (732-806هـ/1332-1406م) أفصح من أبان عن كيفية التشييد بـ "اللوح"⁽³⁾، حيث "البناء بالتراب خاصة، تقام منه الحيطان بأن يُتخذ له لوحان من الخشب مُقدَّران طولاً وعرضاً باختلاف العادات في التقدير، وأوسطه أربعة أذرع في ذراعين. فيُنصَّبَان على أساس وقد بُوعِدَ ما بينهما على ما يراه صاحب البناء في عرض الأساس، ويُوصَل بينهما بأذرعَات من الخشب يربط عليها بالحبال والجدل، وتُسَدُّ الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما بلُوحين آخرين صغيرين، ثم يوضع في التراب مختلطاً بالكلس ويبلَّط بالمراكز المعدة لذلك حتى ينعم ركزه وتختلط أجزاؤه بالكلس. ثم يُزاد التراب ثانيا وثالثاً، إلى أن يمتلأ ذلك الخلاء بين اللوحين، وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسماً واحداً. ثم يُعاد نصب اللوحين على الصورة الأولى ويُركَّز كذلك إلى أن يتم وتنتظم الألواح كلها سطراً فوق سطر إلى أن ينتظم الحائط كله ملتصقاً كأنه قطعة واحدة، ويسمى "الطابية"، وصانعه "الطواب"⁽⁴⁾.

وارتباطا بالنص الخلدوني يمكن تصنيف توظيف الطابية التي تعرف باللوح أو تلوح⁽⁵⁾ إلى ثلاثة أنماط كبرى وهي⁽⁶⁾:

¹ - العربي الرباط، تقنيات بناء الأسوار المغربية من خلال النصوص العربية والأوربية والأبحاث الأثرية، ضمن الندوة الوطنية حول أسوار المدن العتيقة بتزنييت، م. س، ص. 116.

² - Jean (P) et Van Staevel, Réflexions à propos de nomenclature médiévale, op.cit, p. 95.

³ - توري عبد العزيز، العمارة المغربية مادة البناء في بعض استعمالاتها عبر العصور، مرجع سابق، ص. 19.

⁴ - ابن خلدون، المقدمة، تحقيق وتقديم وتعليق الشداوي عبد السلام، ج. 2، مرجع سابق، ص. 296.

⁵ - EREBATI (Larbi), La terre dans la construction maghrébine au moyen age, le cas des murs in tabiya, dans le jardin de Hespéride, N. 2, Rabat, Juillet, 2005, p. 34/

⁶ - العربي الرباط، تقنيات بناء الأسوار المغربية، م. س، ص. 119.

• الطابية بالطين والتراب فقط بدون إضافة أية مواد أخرى⁽¹⁾، وهذا نلاحظ استعماله في معظم القصور الفيلالية والبوادي المغربية عامة.

• الطابية الخليط وهي تتركب من التراب والرمل والجير وتضاف إليها الحصى الصغير والأجر المكسر حتى تتماسك، ورغم كون هذا النوع هو الأكثر شيوعا في بناء الأسوار بحواضر الغرب الإسلامي، إلا أننا في المعاينة الميدانية لم نقف عليه بالقصور الفيلالية.

• الطابية بالحجارة والتراب وهذه يمكن ملاحظتها في الجنوب المغربي⁽²⁾، غير أنها في القصور الفيلالية قليلة جدا واقتصر اعتمادها على قصر الجبيل، الذي تألفت طابيته من التراب والحصى الصغير، وكذا بعض الأبراج المنعزلة، كبرج المراقبة إيردي بشمال المعاضيد.

كما أن تقنية البناء بالطابية أثارت انتباه الرحالة الأجانب الذين توافدوا على المنطقة أو غيرها من مناطق المغرب، وذلك ما عبر عنه الرحالة الانجليزي جون وندوس (J. Windous) بقوله : "إن البناء عندهم لا يتم بنفس الطريقة التي تفعل أغلب الأمم، وهي وضع الأجر والحجارة فوق بعضها، بل يعمدون إلى صنع صندوق خشبي أولا ويرمون فيه الملاط ثم يذكونه بقوة ثم يسحبون الصندوق ويتركون الملاط يجف"⁽³⁾.

وفيما يخص تقنية البناء بالطابية⁽⁴⁾ لأسوار القصور الفيلالية، فإنه يتم الاعتماد على لوحان خشبيين متساويان في الطول والعرض يصطاح عليهما محليا بـ "الدفوف" ويتراوح طولهما ما بين ثلاثة متر ومترين ونصف، بينما علوهما يصل إلى متر واحد، وأما العرض فيختلف حسب سمك الجدار الذي يريد البناء تشييده، ثم بعد ذلك يتم نصب اللوح على أساس ترابي أو فوق أساس الحجارة للسور أو فوق طابية سابقة عليه، على قطع خشبية تعرف بالمنطقة بـ "الشكال"، فيتم سد جهتي اللوحين الكبيرين بلوحين صغيرين ويحددان عرض

¹ - نفسه، ص. 119.

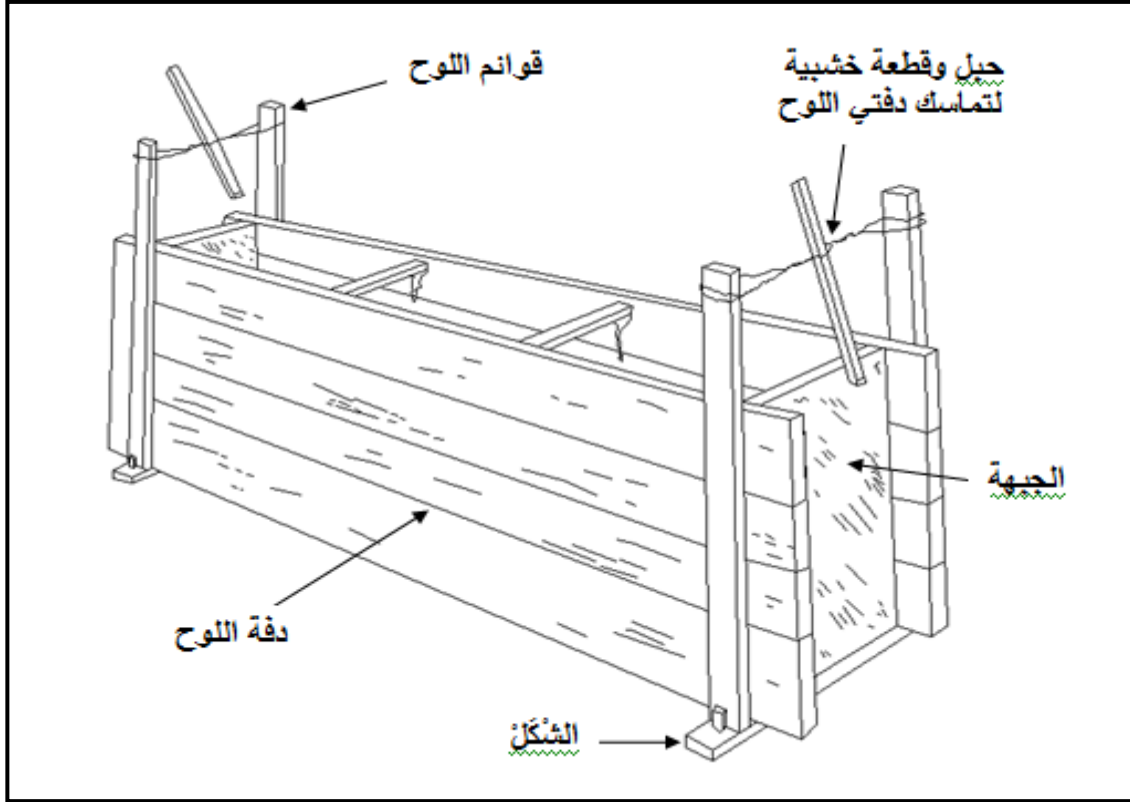
² - نفسه، ص. 119.

³ - جون وندوس، الرحلة إلى مكناس، ترجمة زهرة إخوان، مراجعة نجية العملي وفاطمة بوعبدلي، منشورات كلية الآداب مكناس، 1993، ص. 41.

⁴ - BAZZANA (André), l'architecture de terre au moyen-âge, op.cit, p. 198.

التابوت يصطلح عليهما محليا بـ "الجهة". وهكذا يتم تثبيت اللوح عبر استعمال ميزان الخيط لربط الأذرع بالحبال لضمان تماسك التابوت وتحمل عملية الركن وثقل التراب الذي قد يزيد ثقله باللوح الواحد عن 1000 كلغ⁽¹⁾.

الشكل رقم 23 : رسم اللوح لبناء جدار الطابية



Source : Bazana (A), l'architecture de terre au moyen-âge, op.cit, p. 199 (بتصرف)

بقي أن نشير إلى أن وحدة قياس جدار الطابية تبلغ في طولها 1,8 مترا وفي ارتفاعها 0,8 مترا، وهذا ما أسهم في تركيب مقاسي لجدار الطابية بالأسوار أو بالدور السكنية للقصور الفيلازية، حيث إن ارتفاع مكونات الطابق الأرضي وسط جدار وبيوت يساوي ارتفاعها ارتفاع أربعة ألواح؛ في غالب الأحيان؛ بشكل يقدر بـ $4 \times 0,8 = 3,20$ م أو $5 \times 0,8 = 4$ م⁽²⁾.

ونظرا لأهمية الدور الدفاعي والتحصيني لجدار الطابية الذي كانت تشيد منه مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت، فقد تشدد البناء المحلي بناء جدار الطابية للتأكد

¹ - الخلافة بوعلی، التراث المبني بمنطقة تيزيمي، م. س، ص. 136.

² - البلعميشي عبد الرحمان، القصور والقصبات دراسة تفصيلية لمصطلحات عمرانية، مرجع سابق، ص. 268.

من صلابته ومتانته، حيث تذكر الرواية الشفوية المتواترة بقصور تافيلالت، بأنه بعد الانتهاء من دك التراب بـ "اللوح" يتم حفر حفرة صغيرة فوق جدار الطابية وملؤها بالماء وتركها يوما كاملا، وبعد الرجوع للبناء في اليوم الموالي يلاحظ بأنه إذا ظل الماء على حاله فإن الجدار يترك، أما إذا تسرب الماء كليا أو جزئيا فيتم هدم الجدار وإعادة بنائه. والجدير بالذكر أن البناء بالطابية لازال يستعمل في تشييد العمارة الخاصة والمشاركة لقصور تافيلالت، أو لبناء الجدران التي تفصل ما بين الحقول أو ما بين الأراضي التي في ملكية الخواص⁽¹⁾.

4- الأجر النبي (Mur en Brique)

اعتمد البناء الفيلاي في بناء جدار الطوب أسلوب "الظفيرة"، وذلك عبر رص وحدات الأجر النبي بوضع لبنة ونصف لبنة في عرض الجدار، إذ تتركب صفوف الطوب على بعضها بتقنية العقدة على شاكلة اشتباك أصابع اليد على نحو يجعل الجدار المشيد بالطوب عبارة عن قطعة واحدة متماسكة⁽²⁾، خاصة بعد تلييسه بعجين الطين بعد الانتهاء من بنائه قصد تقوية الجدار والتقليل من تعرضه لعوامل التعرية، وغني عن البيان أنه إذا كان استعمال "القالب" للديكور والتزيين شائعا في الجنوب الشرقي المغربي، فإن قصور تافيلالت تميزت به عن غيرها من القصور والقصبات الواحية⁽³⁾.

يرتبط استعمال الطوب في مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت في استخدام التشكيلات الهندسية لبناء ما يتصل بالأسوار والأبراج والأبواب كالشرفات والعقود (الأقواس)، مما جعل الطوب النبي؛ المعروف محليا بالقالب؛ يستعمل كعنصر في النقوش والزخارف⁽⁴⁾ لتزيين أعلى الأسوار والأبراج ومداخل الأبواب وغيرها من عناصر العمارة العسكرية بقصور تافيلالت، ويضفي عليها قيمة جمالية رائعة، ويفرض نفسه في التزيين والزخرفة ويوحى بالإعجاب لكل من شاهده.

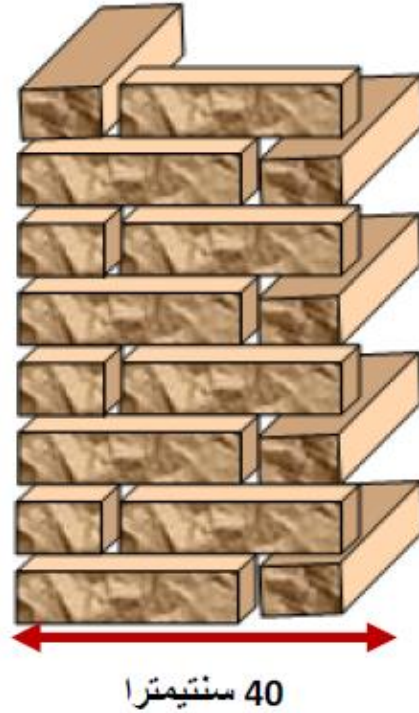
¹ - توري عبد العزيز، العمارة المغربية مادة البناء في بعض استعمالاتها عبر العصور، مرجع سابق، ص. 19.

² - بوعلي الخلافة، التراث المبني بمنطقة تيزيمي : دراسة تصنيفية وصفية، م. س، ص. 138.

3 - Meunié (J), Abbar cité Royale du Tafilalet, op.cit, p. 50.

4 - التراث المعماري في مناطق الأطلس والجنوب، قسم جرد التراث الثقافي، وزارة الشؤون الثقافية، مديرية التراث، المملكة المغربية، 1990، ص. 13.

الشكل رقم 24 : أسلوب الضفيرة المستعمل في رص لبنات الأجر النقي بقصور تافيلالت



المصدر : بو علي الخلافة، التراث المبني بمنطقة تيزيمي، م.س، ص. 138

5- السواري / الأعمدة (Colonne, Pilier)

العمود ما يدعم به السقف أو الجدار(1)، ولقد اتخذ عدة تسميات في أقطار العمارة الإسلامية، فهو عمود في المشرق، وسارية في المغرب، وشمعة في لبنان، وأسطوانة بتعبير بعض المعماربيين(2). ويتمثل توظيف السواري أو الأعمدة في العمارة العسكرية بالقصور الفيلالية في رواق مصرية القصور التي تعتبر أول ما يصادفه الزائر للقصور بعد ولوج أبوابها، وقد تم استعمال الأعمدة بكثرة في مصرية القصور على شكل صفوف متوازية، وذلك حسب مساحة هذا الرواق، حيث لا يقل عددها عن أربعة أعمدة كما هو الشأن بالنسبة لقصر الجبيل ويمكن أن يتجاوز 20 سارية إذا كانت مساحة المصرية كبيرة كما هو الشأن بقصر العبادلة بالمعازيد وقصر تابوعصامت بالريصاني.

1- يحيى وزيري، جمالية المفردات المعمارية، م. س، ص. 41.

2- السيد عبد العزيز سالم، بعض المصطلحات للعمارة الأندلسية المغربية، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، العدد 1-2، المجلد الخامس، 1388هـ/1957، ص. 241-253.

وأما شكل الأعمدة التي تم تشييدها في رواق المصرية بقصور تافيلالت فقد اتخذت شكلا مربعا تبلغ أبعاده 80 سنتمتر أو شكلا مستطيلا يبلغ طوله واحد متر وعرضه 50 سنتمتر. بينما سجلنا غياب السواري المضلعة أو الدائرية في فضاء المصرية بالقصور الفيلائية، غير أنه تم توظيف هذا النوع من السواري في العمارة المدنية كالدور السكنية للقصر، وكذا العمارة الدينية، إذ نجد سواري مجموعة من المساجد تعتمد أعمدة ثمانية الأضلع كما هو الحال بمسجد قصر المكابر بالمعاضيد. وإجمالاً فقد استعملت الأعمدة كعناصر إنشائية رافدة لحمل البنايات الأفقية أو لتوفير مجال ذو مقاسات مهمة(1).

وفيما يخص مواد بناء هذه الأعمدة، فقد اختلفت حسب مكونات العمود، حيث نجد قاعدته مشيدة بالحجارة في بعض القصور بينما في قصور أخرى تم تشييدها بالآجور النبي، أما ساق العمود فقد شيد بالآجور النبي في معظم قصور المنطقة، بينما تاج العمود تألف من جدوع النخيل.

6- الساكف (Linteau)

الساكف هو ما يقابل العتبة من أعلى الباب ويشيد إلى جانب السقوف والخرجات من الخشب(2). وتستعمل الأساكيف في الأبواب والنوافذ، وتحدد دورها في تحويل دفعات العناصر الإنشائية عن إطار الباب أو النافذة(3).

ويتكون الساكف بمداخل أبراج قصور تافيلالت الركنية أو المدعمة للأسوار أو التي على جانبي أبواب القصور الفيلائية من جهة اليمين واليسار من خشبتين أو ثلاثة يتم إدخالها في جنبات الجدار بشكل عميق يتراوح ما بين 0,49م و0,25م(4). وفوق هذه الأساكيف يُحمل الجدار ويرتكز عليها، وهذا ما يجعلها تتميز بعرضها الذي يكون مرتبطاً بعرض الجدار الذي يحمل عليها. ويتم استعمال خشب النخيل في أساكيف مداخل البرج بالقصر الفيلائي وفي حالات نادرة يتم الاعتماد على خشب الأثل.

1- عبد الرحمان البلعميشي وآخرون، القصور والقصبات، م. س، ص. 269.

2- تاوشخت لحسن، عمران سجماسة، ج. 2، ص. 434.

3- البلعميشي عبد الرحمان، القصور والقصبات، مرجع سابق، ص. 271.

4- المرجع نفسه، ص. 271.

7- العقد (Arc)

العقد عنصر معماري مقوس مؤلف من قطع حجرية ملتصقة فيما بينها، ويعتمد على نقطتي ارتكاز، ويشكل عادة فتحات البناء أو يحيط بها، وقد أخذت العقود أشكالاً كثيرة ومختلفة في العمارة الإسلامية⁽¹⁾. غير أننا نجد البناء الفيلاي في العمارة العسكرية بقصور تافيلالت فضل استعمال العقد المقوس نصف الدائري، الذي ترجع جذوره إلى الحضارة الفرعونية، حيث كان يسمى عندها بالعقد "الأوزيرى" نسبة إلى إله الموت "أوزيرس"⁽²⁾. وتجدر الإشارة إلى أنه فضلاً عن الوظيفة الزخرفية لهذه العقود، فإن لها دوراً معمارياً مهماً يكمن في مساهمتها في توزيع ثقل الجدران وفي إتاحة الإضاءة⁽³⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن العقود تنجز بالطوب النيئ⁽⁴⁾، إذ يتم وضع قالب خشبي مقوس فتوضع عليه القطع الآجورية ابتداءً من أسفل إلى أعلى بطريقة منتظمة، وبطريقة مائلة في الأجزاء المقوسة وفي أعلى العقد يوجد فراغ يسمى بمفتاح العقد يتم إغلاقه بقطع آجورية⁽⁵⁾. وينتشر استعمال العقود في مكونات العمارة العسكرية بالقصور الفيلايية في مداخل أبواب القصور وفي مداخل المصرية المفضية لساحة القصر.

¹ - جمعة قاجة أحمد، موسوعة فن العمارة الإسلامية، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2000، ص. 332.

² - عاكشة ثروة، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، م. س، ص. 101.

³ - سمير راوي، قصبة المهديّة من خلال المصادر الأثرية والمكتوبة، م. س، ص. 151.

⁴ - البلعمشي عبد الرحمان، القصور والقصبات، مرجع سابق، ص. 272.

⁵ - بوعصب مبارك، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت، مرجع سابق، ص. 205.

10- الشرفاء (Les merlons)

تعتبر الشرافة من عناصر العمارة العسكرية⁽¹⁾ التي تبنى في أعلى الأسوار ليحتمي من ورائها المدافعون، وقد كانت لها في البداية وظيفة حربية تتمثل في حماية الجند وتسمح لهم بتسديد السهام على المهاجمين، ومع تطور العمارة الإسلامية أصبحت لها وظيفة جمالية وزخرفية⁽²⁾. ويدل بناء الشرفات بمكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت على النهاية العلوية للأسوار والأبراج وكذا بعض واجهات مداخل أبواب القصور بواحة تافيلالت.

وقد تم توظيف الشرفات في العمارة العسكرية بقصور تافيلالت لتمكين رماة السهام والرماح من أداء دورهم الهجومي على غرار شرفات الأسوار بالمدينة الإسلامية⁽³⁾، فضلا عن كونها تتيح للحراس إمكانية الاحتماء بها من هجوم الأعداء عليهم بطلقات السهام والنبال. كما كان للشرفات دور في تمويه الأعداء، حيث يخيل للمهاجمين على القصور الفيلالية أن الشرفات رؤوس أشخاص واقفين على أهبة الدفاع وصد الهجمات⁽⁴⁾.

تنوعت الشرفات التي كانت تعلو عناصر العمارة العسكرية بقصور تافيلالت ما بين القصور بل وداخل القصر الواحد، حيث نجد في بعض القصور شكل شرفات الأبواب يختلف عن شكل شرفات الأسوار أو الأبراج، إذ مكنتنا المعاينة الميدانية لمجموعة من القصور من التمييز بين أنواع مختلفة من الشرفات وهي كما يلي :

● شرفات هرمية الشكل (merlons prismatique) : ينتشر استعمال هذا النوع بكثرة في مختلف القصور الفيلالية خاصة القصور ذات النظام الدفاعي المنتظم والقصور ذات النظام الدفاعي السور الدور، بينما نجدها غائبة في القصور ذات النظام الدفاعي الروحي أو القصور ذات النظام الدفاعي الأصلي المنشأ، ويعد هذا النوع من الشرفات الأكثر انتشارا في أبراج وأسوار وأبواب القصور بواحة تافيلالت، غير أنها تختلف في أحجامها ما بين القصور، حيث يتراوح ارتفاعها ما بين 30 سنتمتر و60 سنتمتر، بينما

¹ - يحيى وزيري، العمارة الإسلامية والبيئة، م. س، ص. 147.

² - مورينو مانويل جوميت، الفن الإسلامي في اسبانيا، ترجمة لطفي عبد البديع ومحمد عبد العزيز سالم، الدار المصرية للنأليف والترجمة، بدون تاريخ، ص. 488.

³ - خالد عزب، فقه العمران، م. س، ص. 188.

⁴ - يحيى بوراس، العمارة الدفاعية في منطقة وادي مزاب، م. س، ص. 140.

يتراوح طولها ما بين 35 سنتيمتر و60 سنتيمتر، وأما عرضها فكان ينسجم مع عرض جدار واجهة المدخل أو البرج أو ممشى السور الذي كان يتراوح ما بين 50 سنتيمتر و 80 سنتيمتر بالنسبة للقصور التي كانت تتوفر عليه، وهذه الأبعاد ترتبط بحجم الأجور النقي الذي شيدت به الشرفات بكل قصر بالمنطقة.

- شرفات بسيطة (merlons simples): نجدها بكثرة في أسوار قصور تافيلالت، خاصة القصور في مداخل القصور ذات النظام الدفاعي الروحي.
- شرفات هرمية مشطوفة الرأس (Les merlons prismatique aigues): هذا النوع من الشرفات لم نقف على وجوده في أسوار أو أبراج أو أبواب القصور الفيلاية.
- شرفات مسننة (Les merlons dentelés): ظهر هذا النوع من الشرفات مع الفترة العلوية⁽¹⁾، لذلك نجد هذا النوع من الشرفات بكثرة في واجهة أبواب بعض القصور بمنطقة تافيلالت مثل قصر مزكيدة.

الصورة 32 : الشرفات الهرمية بالسور الشمالي لقصر أولاد عبد الحليم



الصورة 33 : الشرفات المسننة بواجهة باب قصر مزكيدة



الصورة 34 : الشرفات الهرمية بواجهة باب قصر تابوعصامت



¹ - منير أقصبي، العمارة العسكرية بفاس، م. س، ص. 196.

وإجمالاً، فقد استعمل البناء الفيلاي في عمارته العسكرية الشرفات لوظيفة نفعية تمثلت في المساهمة في التحصين الدفاعي للقصور، ووظيفة جمالية ذات غاية فنية، مما جعل الشرفات بقصور تافيلالت على غرار شرفات أسوار وأبواب الحواضر المغربية تتخذ أشكالاً مختلفة ومتعددة. غير أن الشكل الأكثر انتشاراً بأسوار وأبراج قصور تافيلالت هو الشرفات ذات النموذج الهرمي المتدرج، وذلك على عكس أسوار المدن السلطانية كفاس ومكناس التي تعتبر الشرفات الهرمية الشكل والشرفات الهرمية المشطوفة الرأس الأكثر استعمالاً بها.

المبحث الثالث : التشكيلات الزخرفية للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت

تتميز العمارة العسكرية بقصور تافيلالت؛ رغم طابعها الدفاعي ووظيفتها الحربية والتحصينية بمجموعة من القيم الفنية والجمالية، ولا غرابة في ذلك، فجمال البناء يتجلى في تناسقه وترتيبه حسب عُرف المكان والزمان⁽¹⁾، وذلك ما يظهر في أسلوب تصميم وزخرفة أبواب القصور الفيلايية وتصميم أبراجها وشرفات أسوارها، حيث إن أسوار وأبواب وأبراج القصور الفيلايية وغيرها من مكوناتها المعمارية المدنية والدينية تتسم بخصائص هندسية فريدة تتمثل في تكيفها مع الشروط البيئية والمناخية، وتناسق أحجامها وأجزائها، بالإضافة إلى انصهارها وتكاملها مع المناظر الطبيعية لمجال القصور الواحية ومحيطها الحيوي، علاوة عن بساطة وقدم الأساليب المعمارية الموظفة في تشييدها، ثم أخيراً عدم تعقيدها في البناء والدقة في زخرفتها التي تكسوها ونقوشها التي تزينها وتضفي عليها قيمة جمالية أصيلة رائعة ونادرة⁽²⁾، جعلت البناء الفيلاي يعكس من خلالها طريقة فهمه للحياة.

1- الزخارف بأسوار قصور تافيلالت

لا شك بأنه إذا كانت الوظيفة العسكرية والدفاعية هي الأساس في بناء قصور تافيلالت بصفة عامة، كما سبق وأشرنا إليه في الفصل الخامس من هذا البحث، فإن ذلك لم

¹ - خالد عزب، فقه العمران، م. س، ص. 11.

² - إدريس الدخيسي، الفن المعماري المغربي في قصبات الجنوب، م. س، ص. 56.

يمنع من وجود مجموعة من اللمسات الفنية الواضحة في بناء وتشيد أسوار القصور الفيلاية، خاصة الأسوار الخارجية المحيطة بالدور السكنية للقصور الواحية بتاڤيلايت من جميع جهاتها لحماية ساكنتها وصد هجمات الأعداء عنهم.

وفي هذا الإطار، فإن الأسوار بقصور تاڤيلايت وإن شيدت من منطلق الحاجة إلى تحقيق الأمن والأمان، فقد ظلت تبهر النفوس وتخلب المناظر بشكل يبرز ما للخوف من دخل في تركيب الجمال⁽¹⁾، حيث إنه "لا يكاد يتميز في شموخ الأسوار وعلوها وفي تماثل المسافات بين أبراجها، وفي رشاقة شرفاتها ما هو دعوة للعناق وما أعد للدرع يوم التلاق : ففي وجه السور ألف عين للغمز ومائة شفة للهمس، وفي صدره ألف مقبرة ورمس"⁽²⁾.

وتتجلى الرؤية الجمالية في تصميم أسوار قصور تاڤيلايت في أسلوب تنظيم الفتحات التي تتخللها والناجمة عن قطع الخشب لقوالب الطابية التي توضع في الأسوار وبعد إزالتها تترك ثقباً مفتوحة تجعل الأسوار وكأنها دائماً في حالة مواجهة. كما أن تصميم الشرفات المسننة والهرمية والمستطيلة التي تتوج أعلى الأسوار بقصور تاڤيلايت توحى بالإعجاب وبالذقة المحكمة في بناء الأسوار، فضلاً عن ألوان الطين والطلاء المشرقة المستعملة في تغطية جدران الطابية التي شيدت بها الأسوار، إذ إنه في الغالب الأعم ما تستعمل ألوان صهباء وجد باهتة إلى ذهبية⁽³⁾ في تناغم تام مع المشهد البدوي لمحيط القصر الحيوي، مما يبرز بجلاء القيم الفنية والجمالية لأسوار قصور تاڤيلايت التي كانت ثمرة إبداع الإنسان المحلي وتصوره للحياة⁽⁴⁾ بشكل يبرز تفرد الفن المعماري لأسوار قصور تاڤيلايت.

2- الزخارف في مداخل قصور تاڤيلايت

تميزت مداخل أبواب قصور تاڤيلايت باختلاف حجمها وارتفاعها وعقودها، وكذا في موضعها بأسوار القصور وواجهاتها، إذ إنه رغم طابعها الدفاعي ووظيفتها العسكرية؛ فإن تصميمها لم يخل من رؤية جمالية تمثلت في زخرفة واجهاتها المتنوعة التي تعلو مدخل كل

¹ - أحمد التوفيق، مقدمة لقراءة أسوار المدن، م. س، ص. 39.

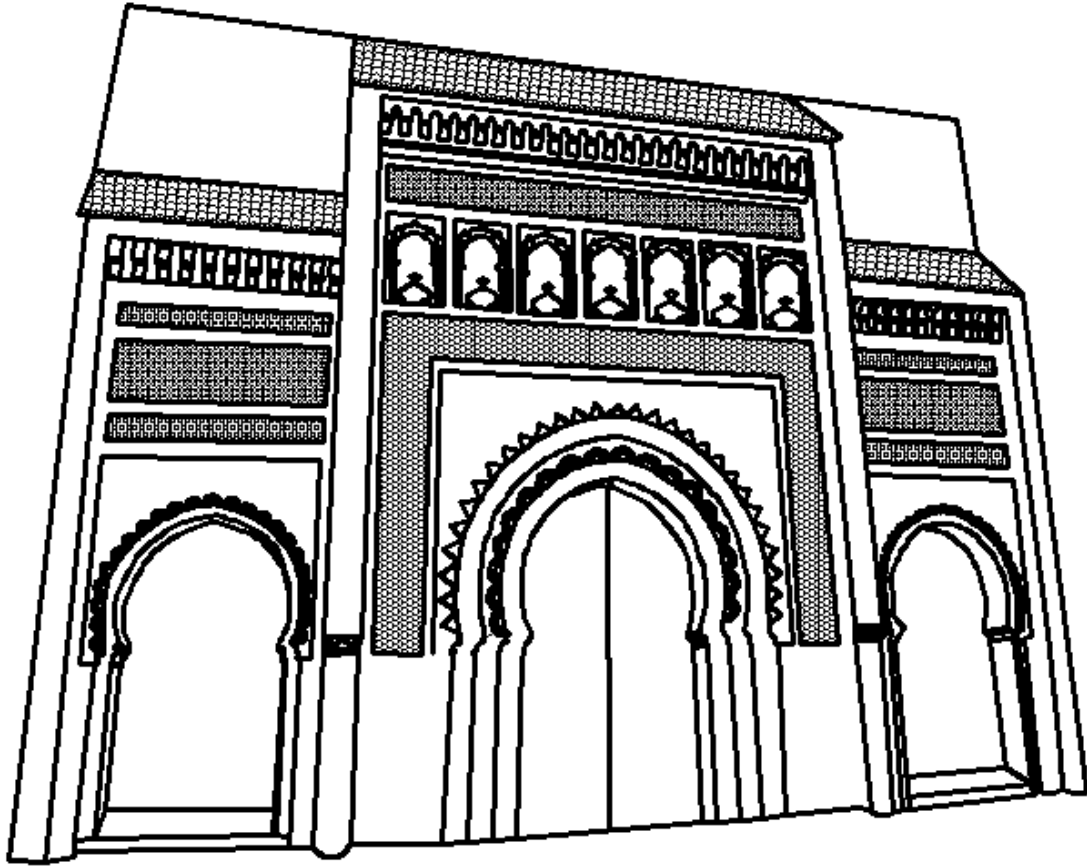
² - المرجع نفسه، صص. 39-40.

³ - ادريس الدخيسي، الفن المعماري المغربي في قصبات الجنوب، م. س، ص. 58.

⁴ - أبا صادق، إشكالية التدبير التقني والقانوني للتراث المعماري، م. س، ص. 199.

قصر من القصور الفيلازية. وتظهر الرؤية الجمالية لمداخل الأبواب بقصور تافيلالت وعلى غرار أبواب المدينة الإسلامية في تصميم المداخل الرئيسية التي كانت تعلوها في الغالب الأعم شرفات تضيف عليها شكلا جماليا لا فتا للنظر، فضلا عن الحرص على إبراز المدخل عبر جعله أكثر ارتفاعا من السور الخارجي⁽¹⁾.

الشكل رقم 25 : زخرفة واجهة باب قصر آبار



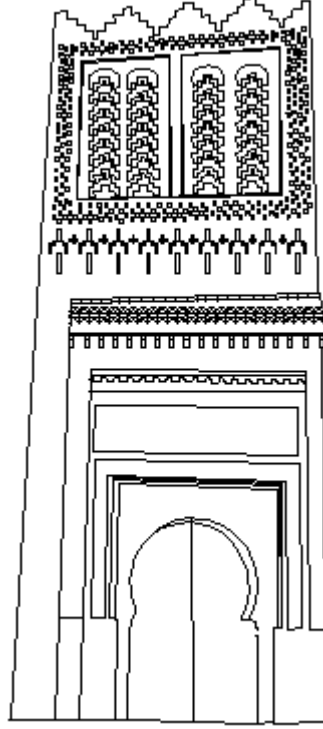
المصدر : رسم شخصي، 2018

وإجمالاً، فقد تفاوتت عظمة وزخرفة واجهات القصور بواحة تافيلالت من قصر لآخر، حيث يلاحظ من خلال المعاينة الميدانية للقصور الفيلازية بأن واجهات بعض القصور اقتصرت على الجانب النفعي المتمثل في الوظيفة العسكرية لمدخل القصر مقابل تخييب الجانب الزخرفي، بينما نجد مجموعة من القصور اتسمت واجهات مداخلها بالجمع بين الوظيفة العسكرية والفنية، التي تجلت في تزيينها بعقود منكسرة وعقود مزدوجة، فضلا عن تضمينها لزخارف هندسية عبارة أشكال معينة أو نجومات أو مربعات، وقد كانت تعلو

¹ - يحيى وزيزي، جمالية المفردات المعمارية في المجتمعات العربية والإسلامية، م. س، ص. 101.

معظم واجهات أبواب القصور الفيلاية ستائر من القرميد ذي اللون الأخضر لتفخيم واجهة القصر وإظهار جماليتها.

الشكل رقم 26 : زخرفة واجهة الباب الخارجي لقصر أولاد عبد الحليم



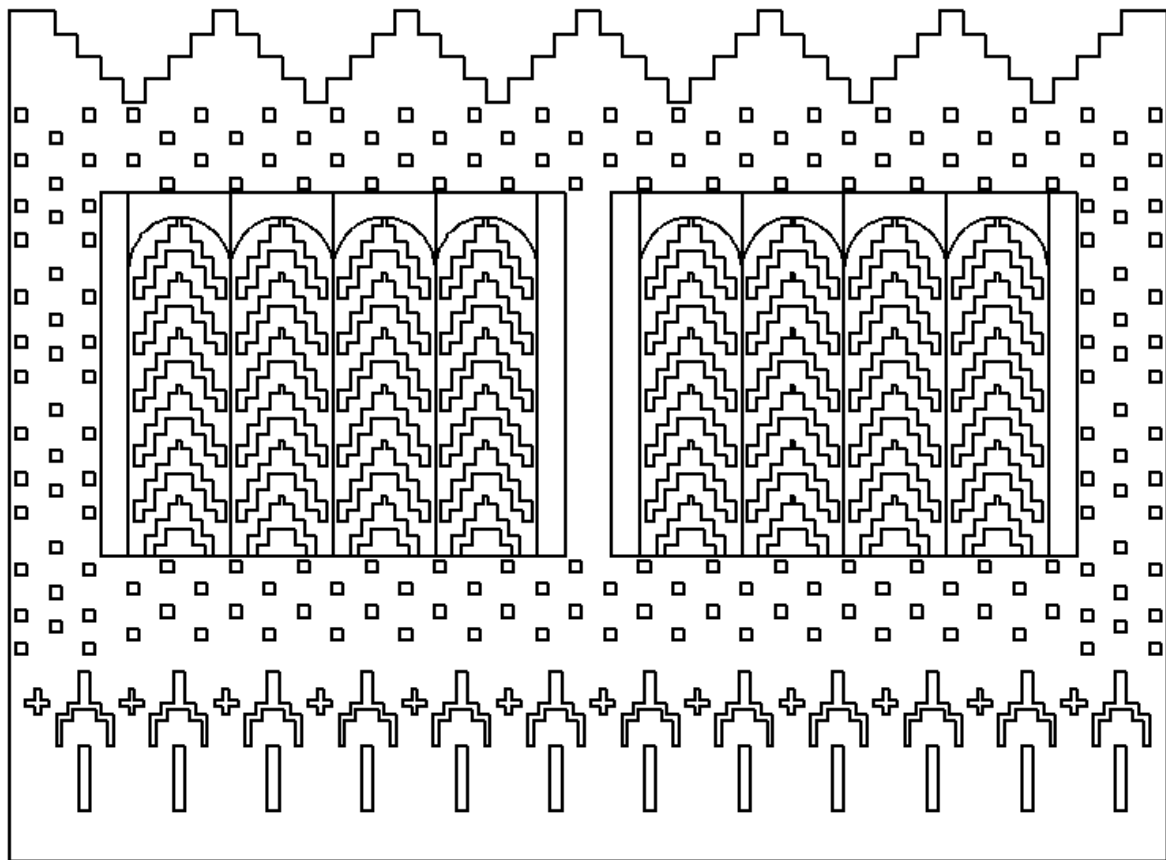
المصدر : رسم شخصي، 2018

1.2 الزخرفة الهندسية

استخدمت الزخرفة الهندسية في العمارة العسكرية بقصور تافيلالت في أبواب القصور وأسوارها وأبراجها بنفس ألوان مواد البناء المستخدمة أو ألوان الطبيعة المحيطة بالفضاء الحيوي للقصور، مما يجعل زخرفة هذه المعالم المعمارية الدفاعية في تناغم واتساق مع هندسة القصر ومكوناته العمرانية بشكل يبرز جوانب من جمال النظام الدفاعي للقصر الفيلاي ويمنحه هوية معمارية فريدة دون تعقيد في زخرفة واجهات القصور الفيلاية وعمارتها العسكرية.

وقد اتخذت الزخرفة الهندسية بواجهة القصور الفيلالية أشكالاً بسيطة متعددة عبارة عن مستقيمات ومربعات ومثلثات ومعينات وغيرها من الأشكال الهندسية⁽¹⁾ التي تمنح لساكنة القصر إحساساً بالسكون وللزائر إحساساً بالحركة بفضل تناسق أجزائها وأحجامها، وكذا انصهارها وتكاملها مع المناظر الطبيعية المحيطة بالقصر. ومن الأشكال الهندسية الأكثر شيوعاً في واجهة مداخل القصور الفيلالية أشكال مسننة وزخارف متعاقبة ومثلثات، بالإضافة إلى أشكال عبارة عن سلسلة أقواس صغيرة متعددة وخلايا معينة.

الشكل رقم 27 : الزخرفة الهندسية لأبراج قصر أولاد عبد الحليم



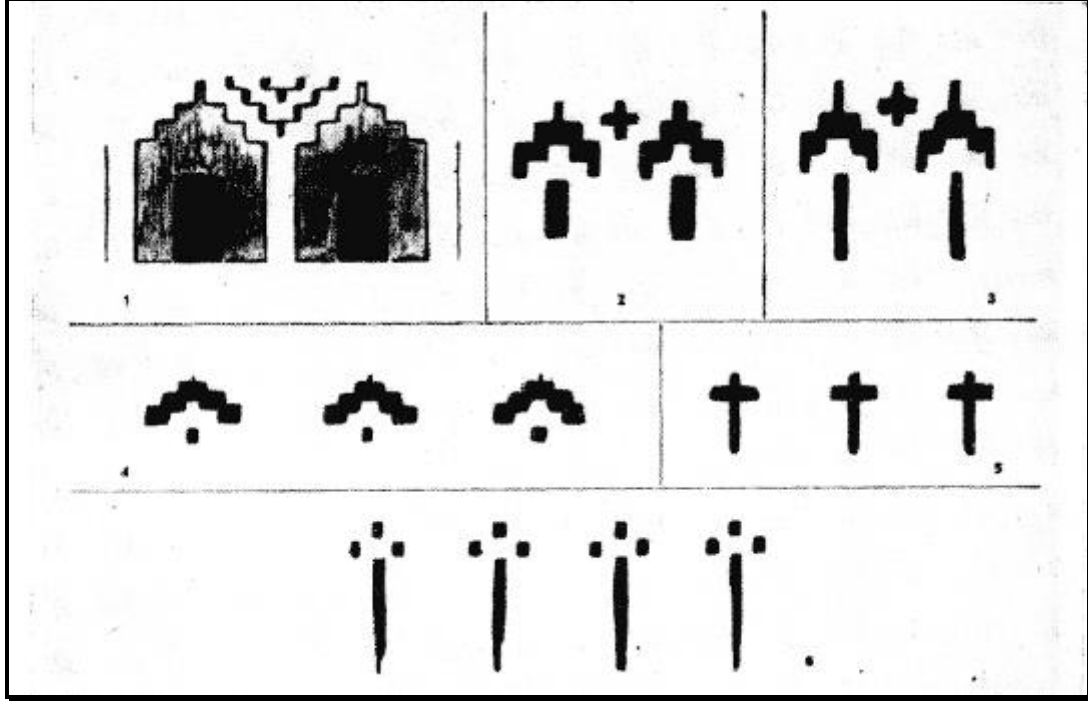
المصدر : رسم شخصي، 2018.

وتجب الإشارة إلى أن الزخارف الهندسية تكون بترتيب وتصنيف الأجر في عدة تصميمات عمودية، بحيث كل صف من الأجر يكون بمعزل عن الآخر فينتج عن هذه

1 – Meunié (J), Sur l'architecture du Tafilalt et de Sijilmasa (Maroc Saharien). In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 106^e année, N. 2, 1962. pp. 132-147.

الطريقة زخارف هندسية على شكل إطارات وإفريزات(1)، وأما أثناء وضع الأجر مائلا فيقدم زخارف هندسية متعرجة(2) أو خلايا معينة أو خلايا مثلثة.

الشكل رقم 28 : أنواع الزخارف الهندسية المستخدمة في مكونات العمارة العسكرية بالقصور الفيلالية



Source : Meunié (J), Sur l'architecture du Tafilalt et de Sijilmassa (Maroc Saharien), op.cit, p.140

2.2 الزخرفة الكتابية

إذا كانت الكتابات المنقوشة من العناصر الزخرفية الأكثر حضورا في العمارة والفنون الإسلامية التي استعملت على نطاق واسع في مختلف المعالم التاريخية والتحف الفنية(3)، فإن الزخرفة الكتابية بالعمارة العسكرية بقصور تافيلالت نجدها شبه منعدمة، بينما انتشرت هذه الزخارف الكتابية التي جمعت موضوعاتها بين المضمون الديني والمضمون

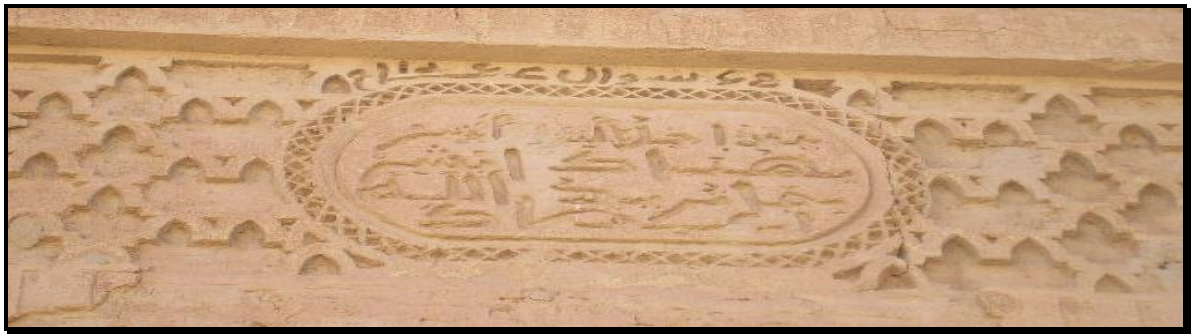
1 - Ibid , p. 140.

² - ادريس الدخيسي، الفن المعماري المغربي في قصبات الجنوب، م. س، ص. 57.

³ - الحاج موسى عوني، فن المنقوشات الكتابية في الغرب الإسلامي، مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، منشورات عكاظ، 2010، ص. 12.

التاريخي بمساجد قصور تافيلالت، وفي القبور والأضرحة المحيطة بالقصور الفيلائية⁽¹⁾، وقد نقشت تلك الكتابات في شكل إفريزات وأشرطة على مادة الجبس وفي الغالب الأعم بالخط الكوفي أو خط أندلسي مغربي⁽²⁾، ومن أبرز الكتابات التاريخية التي توجد في مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت نجد كتابة منقوشة بمدخل الدار الكبيرة بقصر آبار تشير إلى فترة تجديد بناء هذا القصر في عهد السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام (1822-1859م) بتاريخ 04 شوال 1204 هـ⁽³⁾.

الصورة رقم 35 : نقيشة بمدخل الدار الكبيرة بقصر آبار نموذج للزخرفة الكتابية بقصور تافيلالت



والجدير بالإشارة أن النقوش الكتابية بالقصور الفيلائية اقتصررت في العمارة العسكرية على القصور المخزنية، وتحديدا في واجهة أبواب الدار الكبيرة بهذه القصور، حيث نجد؛ على سبيل المثال؛ عبارة "العافية الباقية" بالدار الكبيرة في قصبة مولاي أحمد الذهبي⁽⁴⁾، وعبارة "العز لله" في الدار الكبيرة بقصر مزكيدة⁽⁵⁾.

3- الزخارف في الأبراج بقصور تافيلالت

تتمثل التشكيلات الزخرفية في العمارة العسكرية بقصور تافيلالت، التي تراوحت أشكالها بين الأبراج المربعة الشكل والأبراج المستطيلة الشكل وغير المنتظمة هندسيا، في

1 -Abdelkader Chalkhoun, Épigraphe Monumentale des Oratoires et Palais du Sud-est Marocain (XV-XVIIIe siècles), op.cit , pp. 181-246.

² - امبارك بوعصب، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت، م. س، ص. 208.

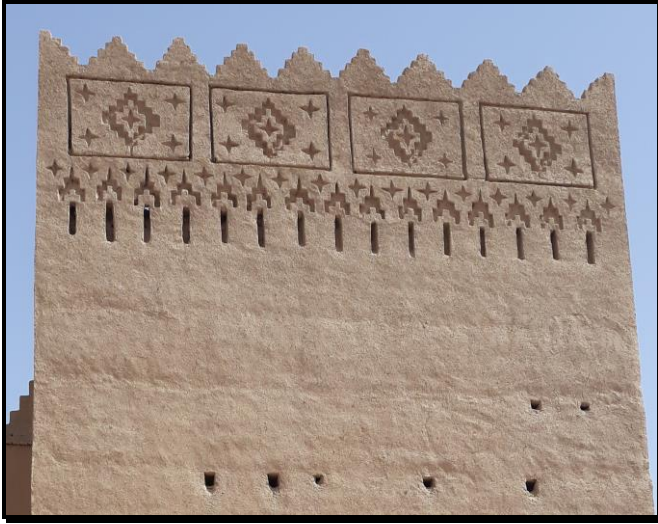
3 -Abdelkader Chalkhoun, Épigraphe Monumentale des Oratoires et Palais du Sud-est Marocain (XV-XVIIIe siècles), op.cit , p. 178.

4 - Ibid. p.170 .

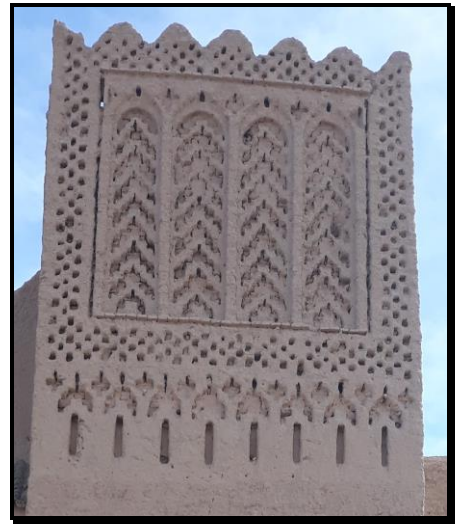
5 - Ibid. p.170 .

تصميمها الذي يعكس رؤية تشكيلة واضحة على غرار أبراج العمارة العسكرية في القصور الصحراوية ببلاد المغرب وشبه الجزيرة العربية⁽¹⁾. حيث إنه رغم الوظيفة الدفاعية للأبراج الركنية أو الأبراج المدعمة للأسوار أو غيرها من أنواع الأبراج في النظام الدفاعي لقصور تافيلالت، فإن ذلك لم يمنع البناء الفيلاي من وضع لمسات فنية تضيف قيمة وجمالية رائعة على العناصر المعمارية التي تشترك في بناء البرج من الناحية الإنشائية والدفاعية، وذلك ما يتجلى في تصميم فتحات الأبراج التي كانت مخصصة لتصويب الأسلحة الرماح والبنادق وغيرها من الأسلحة التي كانت تستعمل لصد هجمات الأعداء وغيرهم من المعتدين على حرمة القصر.

الصورة 37: زخرفة البرج الركني الشمالي لقصر أولاد عبد الحليم



الصورة 36: زخرفة برج واجهة باب قصر آبار



كما تتجلى الرؤية الجمالية لقصور تافيلالت في المسحة الهرمية التي تظهرها واجهاتها المائلة برفق نحو الداخل كلما ارتفعت إلى الأعلى، وهذه تعتبر ظاهرة اتسمت بها أبراج العمارة الدفاعية بالقصور الصحراوية مثل قصور منطقة وادي مزاب بالجزائر⁽²⁾. وتكتسب الأبراج بقصور تافيلالت تلك المسحة الهرمية نتيجة اختلاف مقاسات سمك الجدران عن الأجزاء العليا للبرج، مما يجعل عرض أساس قاعدة البرج أكثر من الجزء العلوي، وذلك تماشيا مع القاعدة الإسلامية عند بناء "الحوائط الحاملة"، والتي تجعل الجدران أقل تماسكا كلما ارتفع في البناء⁽³⁾.

¹ - يحيى وزيزي، جمالية المفردات المعمارية في المجتمعات العربية والإسلامية، م. س، ص. 101.

² - يحيى بوراس، العمارة الدفاعية في منطقة وادي مزاب، م. س، ص. 47.

³ - محمد الجهيني، العمارة الحربية في الجزيرة العربية، م. س، ص. 76.

من خلال ما سبق، يتبين أن الهندسة المعمارية لمكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت اتسمت بخصائص ومميزات تبرهن على هاجس الأمن الذي سيطر على البناء الفيلاي، وكذا على عمق أصالة العمارة الواحية في هندستها، وعلى رسوخ القيم التاريخية والحضارية والفنية التي تثير الانتباه وتبعث على الدهشة من حيث مواد بنائها، والمتمثلة في أساسها الحجري الملحوم بالحص والجير، والتراب بمشتقاته لبناء الجدران من الطابية والقوالب المستطيلة الشكل من الآجر، والطين المستعمل لتليس الجدران، الذي تضي عليه السقوف الخشبية من جذوع النخيل تناعما وتناسقا.

كما أن تقنيات إنشائها التي تجمع بين الدقة المحكمة في بناء العمارة العسكرية بقصور تافيلالت، وجمالية زخارفها، جعلت هندستها المعمارية تنسجم مع روح العمارة الصحراوية، بشكل مكن من تحقيق الأمن والأمان والتغلب على مصاعب الطبيعة وقساوتها، عبر استعمال مواد محلية في البناء متوفرة بمحيط القصر. على نحو جعل العمران العسكري بقصور تافيلالت فضاءً بكرا مفتوحا للدراسة والتناول من لدن المؤرخ والمعماري والسوسيولوجي، وغيرهم ممن يمتلكون أدوات البحث على درب العلم والمعرفة المعمارية الواحية.

وغني عن البيان أن البناء الفيلاي من خلال ما شيده في العمارة العسكرية بقصور تافيلالت وما تضمنته من رؤية جمالية وخصائص هندسية تعبر من خلال هذا الأثر المعماري عن فهمه الجمالي وإبداعه في بيئته المحلية، الأمر الذي جعل عمران قصور تافيلالت عامة والعمارة العسكرية خاصة تكتسب قيمتها انطلاقا من تنوع أشكالها المعمارية وجمال زخارفها الطينية وأدوات وتقنيات البناء التي توخت المتانة والدقة والجمالية، وهو ما يتطلب في الزمن الراهن تهمين هذه القصور، وهو ما سنعمل على تتبعه في الفصل الموالي من هذا البحث عبر محاولة الإجابة على تساؤل جوهري يتمثل في أي مستقبل ينتظر العمارة العسكرية للقصور الفيلاية في ظل اجتياح العمارة الحديثة، وانفجار القصور والأدوار السلبية المتعاضمة لمآل الحداثة على شخصيتها الحضارية وطابعها المعماري الأصيل؟

الفصل التاسع:

صيانة وترميم وتثمين العمارة العسكرية بقصور تافيلالت

الفصل التاسع : صيانة وترميم وتثمين العمارة العسكرية بقصور تافيلالت

تواجه العمارة العسكرية بقصور تافيلالت مجموعة من العوامل والأخطار الحقيقية التي من شأنها أن تحولها إلى ركام من تراب في قادم الأيام، نظرا لغياب الوعي بقيمة هذا التراث المعماري وأهميته في صيانة الذاكرة الشعبية الجماعية والهوية الحضارية لمنطقة تافيلالت، على اعتبار أن العمارة العسكرية بقصور تافيلالت التي تم تشييدها منذ مئات السنين تقدم لكل دارس صورة متكاملة عن حياة الإنسان الواحي وعمارته الريفية ، وما اتسمت به من مميزات تعكس تفاعل ساكنة القصور الفيلاالية مع محيطهم، وتصاميم معمارية شكلت نظاما دفاعيا ساهم في صد هجمات الأعداء أوقات الحرب والشدة، مما يحتم علينا في الزمن الراهن ضرورة صيانتها وإنقاذها وتثمينها.

وتروم مباحث الفصل التاسع من بحثنا الموسوم بـ "العمارة العسكرية بقصور تافيلالت : دراسة تاريخية ومعمارية" تسليط الضوء على عوامل ومظاهر تدهور التراث المعماري بقصور تافيلالت وآفاق إنقاذه ضمن سياسة رد الاعتبار للتراث بالمغرب. وذلك عبر تشخيص الوضعية الراهنة للعمارة العسكرية بالقصور الفيلاالية والعوامل التي تساهم في تدهورها، من خلال إبراز مظاهر التدهور وإمطة اللثام عن مختلف العوامل الطبيعية والبشرية المساهمة في حالة التدهور والإهمال التي باتت ترزخ تحتها القصور الفيلاالية بمختلف مكوناتها المعمارية خاصة العمارة العسكرية.

ويهدف المبحث الثاني من هذا الفصل تتبع موقع العمارة العسكرية بقصور تافيلالت ضمن سياسة رد الاعتبار والإنقاذ للمباني التاريخية التي تنهجها الدولة المغربية عبر مختلف مؤسساتها المختصة. وأما المبحث الثالث فقد تم تخصيصه للحديث عن آليات تثمين العمارة العسكرية بقصور تافيلالت من خلال إبراز أشكال تأهيل هذا التراث المعماري ليقوم بأدوار أخرى تساهم في متطلبات العصر من خلال استثماره في التنمية المستدامة محليا على المستوى الثقافي والسوسيو اقتصادي والسياحي والفني.

المبحث الأول : العمارة العسكرية بقصور تافيلالت : واقع الحال وعوامل التدهور

أولاً : واقع الحال للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت

تشكل قصور تافيلالت بعمارتها المدنية والدينية والعسكرية مكوناً رئيسياً من مكونات التراث المعماري المغربي عامة، والتراث المعماري الواحي على نحو خاص، مما جعل هذا العمران منذ ثمانينات القرن العشرين يحظى باهتمام الباحثين قصد توثيقه والمحافظة عليه، خاصة في ظل ما يعرفه في الزمن الراهن من تدهور وإهمال يتجلى في عدة مظاهر، بشكل يجعله ينذر بمستقبل كارثي في السنوات المقبلة لما تبقى من أسوار وأبراج وأبواب بقصور تافيلالت، إذا لم يتم التدخل العاجل لتثمين هذا العمران الذي يعتبر قطب الرحى في التنمية المحلية.

1. اندراس القصور

إن التمعن في الرواية الشفوية المتداولة على ألسن ساكنة القصور الفيلالية، وكذا المتنبع للمصادر التاريخية خلال العصرين الحديث والمعاصرة التي اهتمت بالتأريخ لقصور تافيلالت بشكل خاص أو بصفة عامة، وفي مقدمتها مصدر "المنزع اللطيف" للعلامة عبد الرحمان ابن زيدان، و"الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" في الجزء التاسع أساساً للناصرى، و"تاريخ الدولة السعيدة" للضعيف الرباطي، فضلاً عن بعض الوثائق المخزية المحفوظة بسجل الوثائق الملكية ومخطوط "مطالع الزهراء في ذرية بني الزهراء" لمحمد العلوي الزكي بن هاشم (ت 1270هـ/1813م)، يجد أسماء مجموعة من القصور الواردة في هذه المصادر أو الرواية الشفوية لم يعد لها وجود في الوقت الحالي، كما أن أثارها انطمست، بل وحتى موقعها لا يمكن تحديده بدقة. وإجمالاً، فإن عدد القصور التي اندرست بتافيلالت يتجاوزز المائة قصر، ذكر أحد الباحثين منها 48 قصراً⁽¹⁾.

وفي هذا الإطار نجد مجموعة من القصور والقصبات التي كانت تتوفر على مختلف مكونات العمارة العسكرية على غرار القصور المشيدة حالياً، ومن أبرز هذه القصور التي

¹ - امبارك بوعصب، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت، م. س، صص. 313-315.

اندرست وذات تاريخ عريق قصر أنبدور الذي يقع بمشيخة بني امحمد إلى الشمال الغربي من موقع سجلماسة، والذي سبق وأشرنا إليه في الفصل الرابع من هذا البحث، علاوة على قصر المنصورية الذي يقع في أقصى شمال موقع سجلماسة الأثري⁽¹⁾. بالإضافة إلى قسبة مولاي المامون التي تقع في الجهة الجنوبية لغابة المعاضيد لم يعد لها من أثر سوى ضريح أحد الأولياء "سيدي احنيي" الموجود خارج أطلال القسبة التي أصبحت كومة من تراب، نتيجة الصراع بين أهل المعاضيد ومولاي المامون ابن السلطان المولى اسماعيل⁽²⁾.

2. خراب قصر البروج بالمعاضيد

تعرض قصر البروج يوم 10 أكتوبر سنة 1994م لغمر مياه وادي زيز له بفعل ارتفاع منسوب المياه، مما أحدث خسائر جسيمة جعلت القصر خرابا، فهجر من لدن سكانه الذين تم بناء منزل تبلغ مساحته 58 متر مربع لكل عائلة بأراضي الجموع التابعة للجماعة السلالية للمعاضيد ومنحها أراض تقدر بـ 300 متر مربع. وتتجلى آثار التخريب الذي لحق قصر البروج نتيجة هذا الفيضان، في سقوط السور الشرقي والبرجين الركنيين له، فضلا عن تدهم الفضاء الداخلي للقصر الذي كان يتوفر على رواق المصرية رغم صغره، والمتألف من ساريتين ذات أضلع رباعية سمك كل ضلع منها 70 سنتمتر، ومسجد القصر وساحته ومنازله التي لم يكن يتجاوز عددها خمسة عشر منزلا، كما سجلنا في المعاينة الميدانية والرواية الشفوية.

وأما الوضعية الراهنة لقصر البروج، بعد خرابه، فتتجلى في كون بعض مرافقه أصبحت فضاء لتربية الماشية، كما أن أبراجه الشمالية آيلة للسقوط، وجميع منازل مرافقه داخل الأسوار عبارة عن كومة من التراب. وتجدر الإشارة إلى أنه رغم تعرض منطقة تافيلالت للغمر بمياه زيز في فيضانات سنة 1950 و1965، فإن قصر البروج ظل شاخصا ولم تتعرض هندسته المعمارية لأي ضرر كما يظهر فيديو مسجل خلال فترة الحماية

¹ - لحسن تاوشيخت، عمران سجلماسة، ج. 2، م. س، ص. 504.

² - سعيد عبيدي، قصور المعاضيد : دراسة تاريخية وعمرانية، م. س، ص. 38.

الفرنسية مدته دقيقة واثنان وعشرون ثانية بعنوان فيضانات تافيلالت بتاريخ 16 نونبر سنة 1950⁽¹⁾.

3. هجر مجموعة من القصور :

تعرضت مجموعة من القصور بتافيلالت خلال عقد الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين إلى الهجر من لدن السكان نتيجة تغير عقلية الساكنة المحلية التي أصبحت الموضنة عندها تتمثل في بناء الدور الفردية بمواصفات عصرية خارج أسوار القصور أو بجانبها⁽²⁾، باعتبار هذا النوع من السكن رمزا للنجاح والارتقاء الاجتماعي⁽³⁾، أو نتيجة الهجرة نحو مدن الشمال بحثا عن حياة أفضل بسبب الجفاف الذي أضر بالواحة. وفي هذا السياق فقد بلغت نسبة المنازل المهجورة ببعض القصور نسبة مائة بالمائة مثل قصر زاوية سيدي قاسم⁽⁴⁾، كما بلغ عدد القصور المهجورة بقصور تافيلالت حوالي 132 قصرا من أصل 412 قصرا لا زالت قائمة إلى وقتنا الراهن⁽⁵⁾.

¹ – www.ina.fr (Inondations au Tafilalet, le : 16 nov. 1950).

² – لحسن تاوشخت، العمارة المغربية المبنية بالتراب وتحديات المحافظة والتأهيل، هسبريس تامودا، العدد ، 2017، ص. 356.

³ – محمد حمجيق والحسن امحرزي، التراث العمراني بواحة تافيلالت بين التدهور والتجديد حالة قصر أخنوس بمدينة الريصاني، مجلة التراب والتنمية، العدد الثالث، 2016، ص. 100.

⁴ – Cherkaoui (A), Résultats des interventions de l'état au niveau de la restauration et de la réhabilitation du patrimoine architectural de l'oasis du Tafilalet, Actes du 9^{ème} colloque Maroc-allemand Meknès 2014, Publications de la Faculté des Lettres et des sciences Humaines, Université Moulay Ismail, Série Actes de colloques, 43, p.143.

⁵ – عبد العزيز بويحيوي، إسهام في التشخيص الترابي لواحات تافيلالت : المقومات التدخلات والآفاق المستقبلية، بحث لنيل شهادة الدكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس فاس، 2014، ص. 62.

جدول رقم 11: القصور المسكونة والمهجورة بمجال الدراسة

الجماعة	القصور المسكونة	القصور المهجورة	مجموع القصور
عرب صباح زيز	32	1	33
أرفود	1	0	1
السفالات	39	8	47
الريصاني	7	5	12
بني امحمد سجلماصة	58	15	73
مولاي علي الشريف	18	1	19
المجموع	155	30	185

المصدر : عبد العزيز بويحيوي، إسهام في التشخيص الترابي لوائح تافيلالت، م. س، ص. 62 (بتصرف)

4. تدهور العمارة العسكرية بقصور تافيلالت

نظرا للأضرار التي خلفها العوامل الطبيعية والبشرية على مجال القصر، فإن معظم أسوار قصور تافيلالت في مختلف الجماعات الخمس التي تندرج ضمن مجال الدراسة تتعرض يوميا للهدم بفعل تعويضها بمباني إسمنتية في الغالب الأعم، وفتح مداخل أبوابها على مختلف جهات الأسوار، حيث إن بعض القصور لم تعد تتوفر على أسوار كما هو الحال بقصر أولاد بحر الذي ينتمي لقصور تيزيمي بجماعة عرب الصباح زيز، والذي اندثرت مكوناته العسكرية من أسوار وأبراج ومدخل.

كما أن نصف سور قصر المحيريكية (القصبية) من الجهة الغربية؛ والذي صنفنا نظامه الدفاعي في الفصل السابع من هذه الأطروحة ضمن القصور ذات السور الدور؛ تم هدمه وطمس بنائه المشيد بالطابية وتشديد منازل إسمنتية بجانبه. علاوة على تلاشي النظام الدفاعي لقصر الدار البيضاء بالريصاني وغيره من القصور الفيلالية التي تشهد تدهورا يهدد بزوالها وجعلها في خطر كان على غرار القصور التي اندثرت.

وتجدر الإشارة إلى أن من بين مظاهر تدهور مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت مداخل هذه القصور التي تلاشت في كثير من القصور واندثرت وتم تعويضها

بمداخل الاسمنت المسلح، بل وتم تحويل اتجاهها من مدخل منكسر إلى مدخل مستقيم مثل ما وقع لقصر القصير وقصر المكابر بالمعاضيد سنة 2013، حيث تم إعادة بناء مدخلي ومصريتي هذين القصرين. فضلا عن طمس القيم الفنية من زخرفة هندسية ومواد بناء أصيلة لمداخل بعض القصور أثناء ترميمها، كما هو الحال لمدخل قصر "الجرانة" الذي ينتمي إداريا لبلدية أرفود وتاريخيا لقصور تيزيمي، حيث تم تغيير التخطيط والتصميم المعماري لمدخل القصر من العقد المنكسر إلى العقد العاتق.

5. خزو المباني الإسمنتية للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت

أصبحت معظم مكونات العمارة العسكرية لقصور تافيلالت تفقد طابعها العمراني الأصل نتيجة تعرض مجموعة من الأسوار والأبراج ومصريات القصور الفيلائية للهدم وتغيير بنائها بالاسمنت المسلح بدل المواد المحلية، زيادة على فتح النوافذ والأبواب في أسوار القصر على نحو أسهم في تشويه نمط البناء بالقصر وتغيير هندسته، مما أحدث ازدواجية في النظام الدفاعي للقصور الفيلائية ويجعلنا نقف أمام معمار جديد لا علاقة له بالبيئة الواحية⁽¹⁾ ويخالف خصوصيات وأصالة المعمار المحلي.

الصورة 39 : تآكل السور الغربي للقصير بالمعاضيد

الصورة 38 : تآكل السور الغربي لقصر القصيبة



المصدر: تصوير شخصي، 2013

¹ - عبد العزيز بويحيوي، التراث المعماري بالوحدات المغربية بين إشكالية التدهور وجهود رد الاعتبار واحة تافيلالت نموذجا، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 42، السنة الحادية عشرة، صيف 2018، ص. 177.

يتضح مما سبق أن الوضعية الراهنة لمكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت جد متدهوة، وتتسم بهجر السكان لمجموعة من القصور التي أصبحت شبه خالية، علاوة عن اندثار مجموعة من القصور التاريخية، وكذا تآكل الأسوار والأبراج وتشقق الجدران وانهيار السقوف للدور السكنية داخل القصور، فضلا عن اكتساح المباني الإسمنتية وغزوها للعمارة العسكرية على جنبات القصر أو في أسواره، مما أدى إلى تحول مورفولوجية القصور الفيلالية وتلاشي نظامها الدفاعي نتيجة عوامل متعددة يتداخل فيها العامل الطبيعي بالبشري وغيره.

ثانيا : عوامل تدهور العمارة العسكرية بقصور تافيلالت

إن حالة التدهور التي تعيشها مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت تساهم فيها عوامل خارجية تشمل كل ما يرتبط بالعوامل الميكانيكية والبيولوجية والفيزيو كيميائية، وعوامل داخلية تتعلق بتركيبة مواد البناء التي تم بها تشييد المكونات المعمارية للقصور الفيلالية من عمارة عسكرية ومدنية ودينية. حيث إن هذه العوامل جميعها تتداخل فيما بينها وتؤدي إلى فقدان العمارة العسكرية لقصور تافيلالت لطابعها الأصيل وهويتها الحضارية، وكذا تلاشيها وفقدانها لدورها الحضاري ووظيفتها التي اضطلعت بها ولعبتها طيلة الفترة الوسيطة والحديثة والمعاصرة.

1. العوامل الخارجية

1.1 دور الحروب في تدهور العمارة العسكرية بقصور تافيلالت

لاشك أن الحروب تعتبر من أقدم الظواهر الاجتماعية الأكثر تكرارا في تاريخ الوجود البشري، لدرجة يمكن القول معها إن تاريخ الأمم والشعوب عبر مختلف الفترات التاريخية يتسم بمتتالية السلم والحرب⁽¹⁾. وفي هذا السياق، فإن الدارس لقصور تافيلالت عامة ومعمارها العسكري أساسا يلاحظ أنه كانت للحروب والصراعات القبلية بين ساكنة القصور دور كبير في اضمحلالها وتخریب كثير منها. ولا غرو في ذلك، حيث إن تخریب مدينة سـجـلمـاسـة خلال القرن الثامن الهجري الموافق للرابع عشر الميلادي، والتي تعد أقدم

¹ - حميد تيتاؤ، الحرب والمجتمع بالغرب خلال العصر المريني، م. س، ص. 15.

حواضر المغرب في الفترة الإسلامية ارتبط في بدايته بصراع أولاد حسين مع الأحلاف بعد وفاة السلطان أبي عنان المريني سنة 762هـ/1363م⁽¹⁾.

ويتجلى دور الحروب والصراعات القبلية في بلورة واقع عمراني تمثل في تخريب وانداس مجموعة من القصور الفيلازية، بل وفي إعادة رسم معالم خريطتها العمرانية؛ على سبيل المثال؛ في ما أسفر عنه الخلاف الذي وقع بين أهل المعاضيد ومولاي المامون ابن السلطان المولى اسماعيل، والذي أفضى إلى تدمير قصبة المامون التي كان قد شيدها في الجهة الجنوبية من غابة المعاضيد، وذلك بمساعدة قبيلة الخفافة التي شيدت قصر اللحين بالقرب من القصبة التي تم تدميرها مكافأة لها على المساندة والدعم الذي قدمته لأهل المعاضيد في هذا الصراع⁽²⁾.

كما يتمثل أثر الحروب على البنية العمرانية لقصور تافيلالت وتغيير تركيبتها السكانية في استيلاء قبائل عرب الصباح وآيت عطا على بعض القصور والقصبات القبلية والسلطانية، وكذا التنكيل بساكنتها سنة 1231هـ/1815م، مما تطلب تدخل السلطة المركزية للدولة الحاكمة، ذلك أنه لما "بلغ السلطان المولى سليمان أن بعض قبائل الصحراء كعرب الصباح وبرابرة آيت عطة اشتغلوا بالفساد، وعظم ضررهم واستولوا على قصور المخزن التي هنالك من عهد السلطان م. اسماعيل، فعقد لابنه المولى ابراهيم على جيش كثيف وجهه إليهم فسار ونزل أولا على قصور العرب ونصب عليهم آلة الحرب فبدهم"⁽³⁾.

وتقدم الوثائق المخزنية معلومات مهمة تميظ اللثام عن جملة من الصراعات الداخلية التي كانت تقع بين قصور المنطقة ودورها في تحطيم النظام الدفاعي للقصر، إذ تكشف رسالة مؤرخة سنة 1309هـ الصراع الذي وقع بين الفرق (الأضداد) المكونة لقصر أخنوس وتحديدًا أولاد سيدي بلغيت وأولاد سيدي محرز وأولاد سيدي أحمد وأولاد سيدي علي بعد تحالف الكل على أولاد سيدي بلغيت من جهة، وتحالف مجموعة من القصور على

¹ - حسن حافيظي علوي، سجل ماسة وإقليمها، م. س، ص. 439.

² - الحاج موسى عوني، المعاضيد، م. س، ص. 7185.

³ - الناصري، الاستقصا، م. س، ج. 8، ص. 130.

قصر أخنوس⁽¹⁾، مما جعل أهل القصر يقومون برفع "الشكايات لسيدنا وللعمال والشرفاء وقبائل البلاد بالوسائط وبغربها وغير ما مرة إلى أن بلغ الأمر ما بلغ ووصلت أيدي الظلم رقابنا ومحارمنا ورمانا أهل الحاج هرون واكحاك وزاوية سيدي بوزكري وقصبة مولاي علي وأولاد سيدي محرز وسيدي علي وقصبة مولاي عبد الكريم عن قوس واحد في يوم من قدام ويمين وشمال واشتعلت نيران الحرب وكادت عقول نساننا وصبياننا وضعفاننا تطيش من شدة الهول وصواعق البارود"⁽²⁾.

وعلى العموم يمكن القول إن الحروب والصراعات القبلية كان لها دور كبير في تدهور الهندسة العمرانية لقصور تافيلالت ونسيج عمارتها العسكرية، غير أن هذه العمارة تلاشت أهميتها الدفاعية بعد تطور سلاح المدفعية، وذلك ما تجلّى بعد التسرب الاستعماري في منطقة المغرب الشرقي، حيث إن أسوار القصور وأبراجها ومداخلها أصبحت تتهاوى أمام قذائف مدافع المستعمر، مما أسهم في تدهور العمارة العسكرية بقصور تافيلالت، و"تضعف هذا القطر [تافيلالت] وتأخرت عمارته إلى الآن"⁽³⁾. مما يبين بجلاء آثار التدمير والتخريب الذي تعرض له النظام الدفاعي لعمارة القصور الفيلالية بعد التسرب الاستعماري للمنطقة ما بين 1912 و1934م.

2.1 العوامل البشرية

إن للعوامل البشرية دورا كبيرا في إلحاق الضرر بمعالم العمارة العسكرية بقصور تافيلالت وتخريب بعضها، حيث يساهم الإنسان الفيلالي في تدهور تراثه المعماري، بسبب الجهل مثل سوء الاستخدام وسوء التخطيط للمباني التي يعاد بناؤها نتيجة الترميم الخاطئ

1- امبارك بوعصب، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت، م. س، ص. 304.

- قصر أخنوس: ينتمي هذا القصر إداريا إلى الجماعة الحضرية لمدينة الريصاني على بعد 150 متر غرب ضريح المولى علي الشريف وتاريخيا لقطاع "واد إيفلي" (واد الشرفاء)، وتقدر مساحته بحوالي 20700 متر مربع، ويبلغ عدد سكانه حاليا حوالي 650 نسمة، وترجع تسميته باسم "أخنوس" حسب أحد الدارسين نسبة إلى مملوك المولى علي الشريف، والمسمى "أخنوس" ومعناها في اللغة العربية "الغلام" أو "الخدم". لحسن تاوشخت، عمران سجلماسة، م. س، ج. 2، ص. 572.

² - الوثيقة رقم 23266 بسجل الوثائق الملكية، ينظر الوثيقة رقم 7 بالملحق.

³ - المختار السوسي، المعسول، ج. 16، م. س، ص. 314.

أو غيره⁽¹⁾. ومن أهم مظاهر تجليات إسهام سكان تافيلالت بشكل مباشر أو غير مباشر في تدهور وتآكل تراثهم المعماري ما يلي⁽²⁾:

- التغييرات المادية في بناء الدور السكنية بالاسمنت في أسوار القصر وفتح النوافذ والأبواب عليها، علاوة عن إدخال خدمة الماء والكهرباء بشكل غير مدروس وما يرافقه من فوضى في تثبيت أسلاكه وغيرها.

- أعمال الترميم العشوائية لكثير من معالم العمارة العسكرية بقصور تافيلالت عبر استعمال مواد غير أصلية كالاسمنت الكاسح والجبس وطلاء لا علاقة له بمواد البناء الأصلية التي شيد بها النظام الدفاعي لقصور تافيلالت يؤدي إلى طمس بعض معالم الأسوار أو الأبراج أو الأبواب لقصور تافيلالت، فضلا عن تغييره وتشويه طرازه المعماري وسماته المميزة له، وهذه ظاهرة لا تقتصر على العمارة العسكرية بقصور تافيلالت، بل إنها تكاد تكون ظاهرة عامة في العمارة الصحراوية لبلاد المغرب، وذلك ما يلاحظ كذلك في قصر الشط بورقلة لدولة الجزائر كذلك⁽³⁾.

- تفتت البنيات الاجتماعية والاقتصادية التقليدية بجل قصور تافيلالت، نتيجة انحلال التنظيم الجماعي للقصور الفيلائية، والمتمثل في غياب مؤسسة "الجماعة" و"القبيلة" التي كانت تسهر على تدبير مرافق القصور الفيلائية المشتركة، وكذا المجال الحيوي لمحيط القصر من غابات وتوزيع لمياه السقي وغيرها. مما فتح الباب على مصراعيه لخرق قوانين الجماعة عبر فتح الأبواب في الأسوار وبناء دور سكنية تلتصق بالقصر، علاوة على احتلال الأبراج⁽⁴⁾ ودمج كثير منها في المنازل السكنية، بل وإعادة بنائها بالاسمنت المسلح.

- سوء تدبير النفايات وذلك بإلقائها على جنبات أسوار القصر الخارجية.

¹ - عليان جمال، الحفاظ على التراث الثقافي نحو مدرسة عربية للحفاظ على التراث الثقافي وإدارته، سلسلة عالم المعرفة، العدد 322، 2005، صص. 86-87.

² - بوصلح محمد وآخرون، كتيب المحافظة على التراث المعماري، مرجع سابق، ص. 14.

³ - بامون آمنة، صيانة وترميم القصور الصحراوية : قصر الشط بورقلة نموذجا، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في الصيانة والترميم، جامعة الجزائر 2، السنة الجامعية 2010-2011، ص. 134.

⁴ - محمد جريز، بعض مظاهر تطور السكن القروي التقليدي في واد زيز الأوسط والأسفل، م. س، صص. 88-89.

- عدم صيانة البنايات المشتركة بالقصور وإهمالها مثل ما وقع لمصرية مجموعة من القصور التي أصبحت فضاء مكشوفاً بعدما كانت عبارة عن رواق مغطى بخشب النخيل ويؤدي للفضاء الداخلي للقصر.
- فتح خراجيات في أسوار القصور على نحو أدى إلى تعدد مداخل القصور ومخارجها بشكل جعل القصر فضاء مفتوحاً على الخارج، مما أسهم في تشويه منظره.
- نهب العناصر المزخرفة كالأبواب والنوافذ المنقوشة والسقوف المزينة وبيعها، حيث إن معظم قصور تافيلالت التي كانت تتوفر إلى عهد قريب على أبواب مصنوعة من خشب النخيل أو أشجار الصفصاف أو الأثل وذات أقفال خشبية أو حديدية تم اقتلاعها وسرقتها بشكل كلي أو جزئي.
- انتشار ظاهرة السكن خارج الأسوار، التي تعرف بظاهرة انفجار القصور⁽¹⁾ بفعل النمو الديمغرافي ورغبة بعض العائلات في بناء منازل اسمنتية عوض المنازل الطينية بالقصر⁽²⁾، علاوة عن تفتت البنايات الاجتماعية وانتشار الأسرة النووية عوض الأسرة الممتدة.
- غياب الوعي بقيمة التراث المعماري لقصور تافيلالت عامة والعمارة العسكرية على نحو خاص، حيث إن اعتبار هذا النوع من العمارة ضمن البناء المشترك يجعل السكان لا يهتمون به بل ويضيفونه في كثير من الأحيان للدور السكنية الملتصقة بالأسوار.
- الاحتكاك بالعالم الخارجي عن طريق الهجرة والمدرسة ووسائل الإعلام وما صاحبه من تغيير في نمط التفكير والسلوك⁽³⁾.

¹ - انفجار القصور: هو حركة توسع للسكن القصري تتمثل في بناء منازل خارج القصر. ينظر كبيري علوي مولاي هاشم، التحولات السكنية بيزن الأوسط: انفجار القصور ومسلسل التمدين، مرجع سابق، ص. 20.

² - Cherouit Ahmed, L'Eclatement du Qsar dans la vallée du ziz et plaine du Tafilalet (province d'Er-Rachidia), mémoire de 3 eme cycle pour l'obtention du D.E.S.A.U, sous la direction de N.B. Delavergnee, institut national d'aménagement et d'urbanisme, Rabat, juin 1987, p 124.

³ - آيت حمزة محمد، القصر، معلمة المغرب، مرجع سابق، ص. 6639.

3.1 العوامل الطبيعية

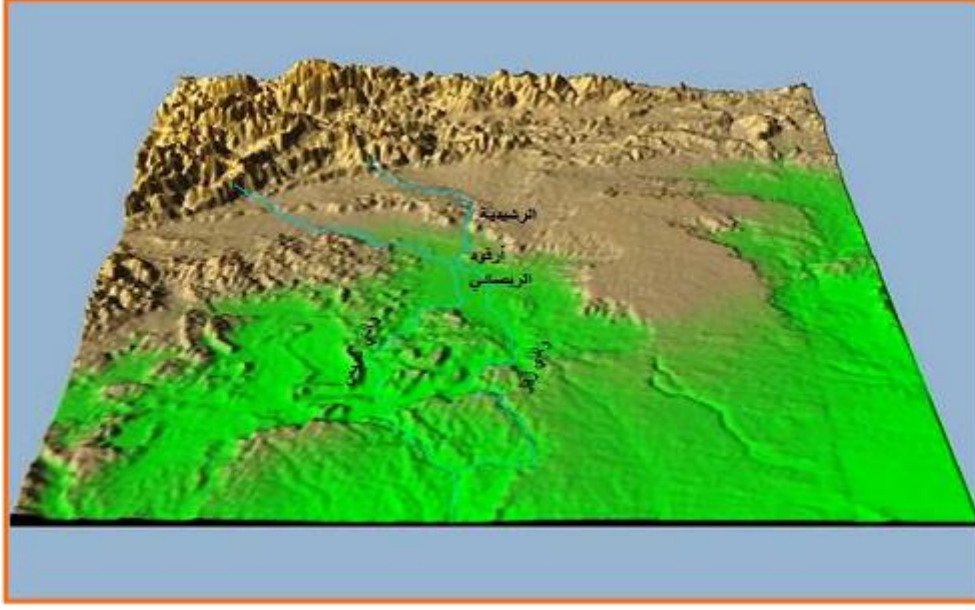
تساهم العوامل الطبيعية بشكل كبير في تدهور العمارة الواحية عامة ومعمارها العسكري خاصة وتآكلها تدريجيا أو خرابها كلياً، ونميز في هذه العوامل بين ما تحدثه سيول الأمطار من أضرار على مكونات العمارة الدفاعية بقصور تافيلالت وبين العوامل التي يصعب التحكم فيها عادة والتنبؤ بها كالزلازل والفيضانات وغيرها.

3.1.1 الفيضانات

بحكم الموقع الجغرافي لقصور تافيلالت موضوع الدراسة في زيز الأسفل وتحديدًا سهل تافيلالت الذي يشكل منخفضاً بين حمادة مسكي في الشمال وحمادة كير في الشرق وحمادة كم كم في الجنوب والجنوب الغربي⁽¹⁾، فقد تعرضت؛ منذ تأسيسها إلى يومنا هذا؛ الكثير من مبانيها للغمر بفعل الفيضانات الناتجة عن ارتفاع منسوب مياه زيز التي تحدث أضراراً جسيمة تتفاوت خطورتها من فيضان لآخر. وإذا كانت المصادر التاريخية تلوذ بالصمت اتجاه الأخطار الطبيعية التي عرفت المنطقة بشكل عام، فإن مظان الوثائق المخزنية والمحلية والذاكرة الشعبية لازالت تحتفظ بأدق التفاصيل عن الفيضانات الشهيرة التي غمرت مياهها المنطقة، وما أحدثته من تدمير وتخريب للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت.

¹ - محمد جريز، بعض مظاهر تطور السكن القروي التقليدي في واد زيز الأوسط والأسفل، م. س، ص. 74.

الصورة رقم 40 : صورة ثلاثية الأبعاد لحوض زيز وسهل تافيلالت



المصدر : اكرمي عبد الكريم، المخاطر البيئية بحوض زيز السفلى (تافيلالت)، م. س. ص. 70.

وفي هذا السياق تقدم لنا رسالة من السلطان الحسن الأول إلى عمه مولاي سليمان⁽¹⁾ بن عبد الرحمان بن هشام يخبره فيها بتقديم المساعدة لصاحبه مولاي المامون بن الهاشمي بن ملوك لإعادة بناء ما "أسقط له ما قبل داره من سور بلدتهم بالوادي"⁽²⁾. مما يبين بجلاء دور الفيضانات في تدمير المنشآت العسكرية بقصور تافيلالت خلال القرن التاسع عشر من جهة، ودور السلطة المركزية في إعادة البناء والترميم.

وفيما يخص أشهر الفيضانات وأخطرها خلال القرن العشرين نجد فيضان 1950 الذي تسبب في تدمير القصور الفيلالية وهجر بعضها، مما جعل سلطات الحماية الفرنسية تتدخل عبر شاحنات الأشغال العامة التي حملت مواد إغاثة لسكانة قصور تافيلالت التي غمرتها مياه فيضانات وادي زيز، وقد بلغت كلفة الخسائر الفادحة التي خلفها هذا الفيضان حوالي مليارين⁽³⁾.

¹ - مولاي سليمان المقصود به الخليفة السلطاني سليمان بن عبد الرحمان بن هشام بتافيلالت قبل تعيين الخليفة مولاي رشيد. ينظر استيتو عبد الله، دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والمخزن والمستعمر، م. س. ص. 107.

² - الوثيقة رقم 28290 بسجل الوثائق الملكية، ينظر الوثيقة رقم 1 بالملحق.

³ - <https://www.ina.fr/video/AFE02015105/inondations-au-tafilalet-video.html>

الصور رقم 41: الخسائر الفادحة لفيضان سنة 1950 على معمار قصور تافيلالت



Source : <https://www.ina.fr/video/AFE02015105/inondations-au-tafilalet-video.html>

كما أن من أشهر الفيضانات التي غمرت مياهها قصور تافيلالت كذلك وألحقت الضرر بنسيجها العمراني نجد فيضان يومي 5 و6 نونبر 1965، الذي تؤرخ به الذاكرة الشعبية لقصور تافيلالت، نظرا لفداحة خسائره على المنطقة، وذلك ما يتجلى في مقطع الأغنية الشعبية الآتي⁽¹⁾:

الدويرة وأرفود المعاضيد بقات حدود
طيح ليهم السدود تيطلبو الله المعبود
أولاد الزهراء ما خل ليهوا تمرة
خرجوا للكمرة تيبكيو رجل وامرة

وبالاستناد إلى هذا المقطع الغنائي الشعبي وما تذكره الرواية الشفهية بخصوص فيضان نونبر 1965، فإن المياه أحدثت أضرارا بالمباني التاريخية لقصور زيز الأسفل عامة ومدينة أرفود وقصور المعاضيد وقصر أولاد الزهراء على نحو خاص.

¹ - أشبرو مبارك ومصطفى عبد السميع، أرفود تاريخ وأعلام، بحث ميداني عن المنطقة أنجز سنة 2005، مرقون بدار الثقافة بأرفود.

أما آخر فيضانات القرن العشرين، فقد كان فيضان البروج المؤرخ ب 10 أكتوبر 1994م، والذي أحدث أضراراً جسيمة على عمران قصر البروج، إذ دمرت جميع منازل القصر وفضائه المشترك، ولا زالت آثار هذا الفيضان بادية للعيان مكونة كومة من التراب داخل أسوار القصر التي لازالت تقاوم نائبات الدهر. فتم ترحيل سكان القصر وبناء قرية نموذجية لهم شمال قصر المعاضيد الأم⁽¹⁾، بنمط معماري يختلف كلياً عن النمط المعماري الأصلي الذي شيد به عمران القصور الواحية.

3.2.1 الزلازل

رغم أن منطقة تافيلالت لا تعرف زلازل مدمرة، بحكم انتمائها للقالق الجنوب أطلسي المتميزة بنشاط زلزالي متوسط⁽²⁾، فإن قصور تافيلالت تعرف في بعض الأحيان النادرة هزات أرضية ضعيفة أو متوسطة، لعل أبرزها وأخطرها في الآن ذاته يتجلى في زلزال 23 أكتوبر 1992 بالريصاني الذي وقع في الساعة التاسعة وإحدى عشر دقيقة، حيث حدد عمق بؤرته بـ 49 كلم وبلغت درجاتها 5,2، وقد خلف هذا الزلزال أضراراً عديدة على الدور السكنية أساساً⁽³⁾.

وأما الهزة الأرضية الثانية فكانت يوم 30 أكتوبر من سنة 1992 بأرفود في الساعة العاشرة وأربعة وأربعين دقيقة، وقدرت دراجتها بـ 5,4 على سلم ريشت⁽⁴⁾. وقد أحدث هذا الزلزال تشققات متفاوتة الخطورة في جدران مباني قصور تافيلالت وجعلت السكان يُرْمُونها فيما بعد.

¹ - المولودي محمد، "تحول السكن الواحي ورهان التنمية المحلية بيزز الأوسط والأسفل"، ضمن ندوة في موضوع السكن الريفي: التحولات وآفاق التنمية، شعبة الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة، يومي 25 و26 ماي 2006، ص.6.

² - اكرمي عبد الكريم، المخاطر البيئية بحوض زيز السفلى (تافيلالت)، م. س، ص. 37.

³ - ثريا المرابط أزروال، الزلازل الكبرى بالمنطقة المغاربية ومخلفاتها على الإنسان ومحيطه، مطبعة بني يزناسن، الطبعة الأولى، 2005، ص. 193.

⁴ - المرجع نفسه، ص. 194.

1.3.3 النبع

يطلق "النبع" على ارتفاع منسوب المياه الجوفية بالمنطقة، نتيجة حالة الإشباع التي تعرفها الفرشة المائية الباطنية. وتؤدي ظاهرة النبع التي تعرفها المنطقة إلى تضرر مباني الفضاء العام والخاص لقصور تافيلالت، غير أن العمارة العسكرية بقصور المعاضيد وتيزيمي التابعة لجماعة عرب صباح زيز تعتبر الأكثر تضررا من هذا المشكل الطبيعي. حيث يساهم النبع في تآكل قواعد الجدران مما يجعل سرعة التدمير مضاعفة في الأسوار والأبراج غير المبنية في أساسها بالحجارة.

بالإضافة إلى ما تحدثه الفيضانات والزلازل ومياه "النبع" من أضرار جسيمة على مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت، فقد أسهمت مياه الأمطار بدورها في تدمير النظام الدفاعي لهذه القصور الواحية، إذ تقوم بتعرية قمة الجدران وقواعدها⁽¹⁾، كما أن لسيلان مياه الأمطار؛ كذلك؛ مفعولا تدميريا لأساس الجدران المشيدة بالطابية دون الحجارة⁽²⁾. فضلا عما تحدثه الرياح من تعرية للبناء، خاصة إذا تزامنت مع سقوط الأمطار، حيث تُسرّع من عملية تعرية المسطحات الطينية، عن طريق الزيادة في سرعة مفعول قطرات المياه، خاصة في الأماكن العلوية من الجدار⁽³⁾.

2. العوامل الداخلية

تضم العوامل الداخلية المساهمة في تدهور مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت كل ما يرتبط بالخواص الطبيعية والكيميائية للصخور كتركيبها الكيميائي والبلوري وصلابتها فضلا عن ظروف نشأة الصخور⁽⁴⁾. غير أنه لإبراز انعكاسات هذه العوامل ودورها في تدهور العمارة الواحية بقصور تافيلالت بصفة عامة يجب القيام بدراسات مخبرية لتحليل بعض عينات مواد البناء التي شيدت بها عمارة القصور الصحراوية

¹ - بوصلح محمد وآخرون، كُتيب المحافظة على التراث المعماري الطيني في الوديان المشرفة على الصحراء في المغرب، مركز صيانة وتوظيف التراث المعماري بمناطق الأطلس والجنوب (cerkas)، 2005، ص. 10

² - المرجع نفسه، ص. 10.

³ - المرجع نفسه، ص. 12.

⁴ - بامون آمنة، صيانة وترميم القصور الصحراوية، م. س، ص. 134.

العسكرية من أسوار وأبراج وأبواب وشرفات وغيرها. وهو أمر لم نتمكن من القيام به نظرا لتكلفته وعدم تخصصنا في هذا الجانب.

من خلال ما سلف يتضح أن الوضعية المتدهورة الراهنة للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت تتداخل فيها العوامل الداخلية بالعوامل الخارجية التي تشمل العوامل الطبيعية من أمطار ورياح وزلازل وفيضانات وغيرها، وعوامل بشرية ترتبط بالأنشطة التي يزاولها الإنسان عبر إدخال مواد بناء جديدة، أسهمت في اندثار وتخریب بعض المعالم العمرانية وتدهور حالتها. وهذا ما طرح إشكالية مآل معمار العمارة العسكرية بقصور تافيلالت باعتبارها رافدا من روافد الذاكرة المحلية وجزء من التراث الذي تجب حمايته من الاندثار وصيانته من الغزو الإسمنتي الكاسح له.

المبحث الثاني : استراتيجية المحافظة ورد الاعتبار للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت

إذا كان تدهور التراث الثقافي يعني ضياع الذاكرة ويعني إفقارا اقتصاديا حقيقيا لبلد من البلدان أو منطقة من المناطق⁽¹⁾، فإن الحفاظ على التراث وصيانته من التدمير والتخريب يعتبر حفاظا على الهوية الوطنية والذاكرة المحلية من الاندثار لما يمثله من قيمة تاريخية حضارية، جعلت منه عنصر فخر واعتزاز من لدن السكان، الأمر الذي يحتم على الجهات المسؤولة العمل على ترميم المكونات المعمارية للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت وإنقاذها من التخريب والاندثار، على نحو يضمن احترام الطراز المعماري الأصيل الذي يستجيب لروح العمارة الصحراوية التي تعتبر مكونا من مكونات العمارة الإسلامية.

1- عليان جمال، الحفاظ على التراث الثقافي، مرجع سابق، ص. 76.

1. موقع القصور الفيلالية ضمن القوانين التشريعية والتنظيمية العامة للحفاظ على

التراث المعماري بالمغرب

1.1 القوانين التشريعية والتنظيمية العامة للحفاظ على التراث المعماري بالمغرب

ارتبطت القوانين التشريعية والتنظيمية العامة التي تروم الحفاظ على التراث المعماري بالمغرب خلال فترة الحماية، بسياسة المقيم العام الفرنسي ليوطي (1912-1925) التي ارتكزت في ميدان التعمير حول العمل على الفصل بين المدينة العتيقة والمدينة الأوربية الحديثة، وإعادة إحياء المدينة عن طريق مدّها بالمرافق الضرورية، فضلا عن تجريب المدن الجديدة⁽¹⁾.

وفيما يخص النصوص التشريعية المرتبطة بحماية التراث خلال عهد الحماية، فقد صدر ظهير 26 نونبر 1912⁽²⁾ المتعلق بحماية المعالم التاريخية والكتابات المنقوشة ببلادنا، والذي رغم تميزه بطابع العمومية في صياغته من خلال المفهوم الواسع للمعالم التاريخية والثقافية، فإن أهم ما اتسم به يتمثل في وضع المعالم التاريخية تحت رقابة الدولة كإجراء احترازي⁽³⁾.

وفي 13 فبراير 1914⁽⁴⁾ صدر ظهير شريف آخر أحدث ما يسمى بـ"مناطق الحماية الفنية" الخاصة بالمعالم التاريخية والمواقع التي تمثل قيمة فنية أو تاريخية⁽⁵⁾،

1- عبد الواحد المهداوي، حماية التراث العمراني بالمغرب بين المقاربة الدولية والرهانات الوطنية، مجلة دفاتر جغرافية، العدد 3-4، الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرارز، فاس، 2007، ص 9.

2- ظهير 16 ذي الحجة 1330 هـ/26 نونبر 1912، الجريدة الرسمية، العدد 5، بتاريخ 1912/11/29.

3- مصطفى كنكورة، إستراتيجية المحافظة ورد الاعتبار للمدن العتيقة بالمغرب حالة مكناس من 1912 إلى بداية القرن 21، أطروحة لنيل الدكتوراه، كلية الآداب، سايس-فاس، السنة الجامعية 2009-2010، صص. 48-49.

4- ظهير 11 شعبان 1364 هـ/21 يوليوز 1945، الجريدة الرسمية، العدد 1715، بتاريخ 1945/09/7.

5- عبد الواحد المهداوي، حماية التراث بالمغرب مقاربة تاريخية وقانونية، منشورات المعهد الوطني للتهيئة والتعمير، مطبعة شالة، الرباط، 2013، ص. 64.

فضلا عن ظهور 21 يوليوز 1945⁽¹⁾ الذي وسع من دائرة الاهتمام بحماية التراث لتشمل نماذج من الهندسة المعمارية المحلية المتواجدة بالمناطق القروية⁽²⁾. ثم بعد ذلك جاء ظهور 30 يوليوز 1952 المتعلق بالتعمير⁽³⁾. وأما في 30 شتنبر 1953 فقد صدر ظهور آخر يتعلق بالتجزئات والتقسيم العقاري⁽⁴⁾. ثم أعقبه ظهور 28 يونيو 1954⁽⁵⁾ الذي تم فيه إدخال بعض التعديلات على ظهور 21 يوليوز 1945، حيث حول هذا القانون للسلطة البلدية أو السلطة المحلية المكلفة بالمراقبة مهمة إجراء بحث في مسألة ترتيب العقارات الخاصة⁽⁶⁾.

بعد حصول المغرب على الاستقلال سنة 1956، ظل العمل في مجال حماية التراث التاريخي والآثري ببلادنا مستمر بظهور 1945 المرتبط بالمحافظة على المعالم والمباني والمواقع والكتابات المنقوشة والتحف الفنية والعاديات وحماية المدن العتيقة والهندسة المعمارية القروية⁽⁷⁾. إلى حدود بداية الثمانينات من القرن الماضي، التي تمت خلالها المصادقة على الظهير الشريف رقم 1.80.341 بتاريخ 17 صفر 1401 (25 دجنبر 1980)، الذي يتضمن الأمر بتنفيذ القانون رقم 22.80 المتعلق بالمحافظة على المباني التاريخية والمناظر والكتابات المنقوشة والتحف الفنية والعاديات. ويتكون هذا الظهير من 62 فصلا⁽⁸⁾.

وغني عن القول أنه رغم استمرار المقاربة الاستعمارية في معالجة الاختلالات المجالية لقضايا التراث المعماري بالمغرب ما بين 1956 و 1980، فإن هذه المرحلة

1- ظهور 17 ربيع الأول 1332 هـ/ 13 فبراير 1914، الجريدة الرسمية، العدد 43، بتاريخ 1914/02/27.

2- عبد الواحد المهداوي، حماية التراث بالمغرب مقاربة تاريخية وقانونية، م.س، ص. 98.

3- ظهور 30 يوليوز 1952، الجريدة الرسمية، العدد 2083، بتاريخ 1952/09/26.

4- ظهور 30 شتنبر 1953، الجريدة الرسمية، العدد 2142، بتاريخ 1953/11/13.

5- ظهور 26 شوال 1373 هـ/ 28 يونيو 1954.

6- مصطفى كنكورة، إستراتيجية المحافظة ورد الاعتبار للمدن العتيقة بالمغرب، م.س، صص. 58-59.

7- عبد الواحد المهداوي، حماية التراث العمراني بالمغرب بين المقاربة الدولية والرهانات الوطنية، م.س، ص 10.

8- الظهير الشريف رقم 1.80.341 بتاريخ 17 صفر 1401 (25 دجنبر 1980) يتضمن الأمر بتنفيذ القانون رقم 22.80

المتعلق بالمحافظة على المباني التاريخية والمناظر والكتابات المنقوشة والتحف الفنية والعاديات، الجريدة الرسمية عدد

3564 بتاريخ 18 فبراير 1981، ص 73.

شهدت ميلاد أول قطاعي حكومي وصي على قضايا التراث والمتمثل في وزارة الثقافة من خلال مديرية التراث الثقافي التي عملت على تهيئة أرضية القانون المنظم للتراث المغربي في السنوات الموالية⁽¹⁾. فما موقع لحفاظ على القصور الفيلالية في ضوء هذه التشريعات؟

2.1 موقع الحفاظ على القصور الفيلالية في ضوء التشريعات والقوانين الوطنية

إذا كان المغرب قد عرف إصدار مجموعة من القوانين التي ترتبط بالحفاظ على التراث الثقافي ببلادنا منذ بداية فرض الحماية عليه سنة 1912، واستمر إصدار هذه القوانين بعد الحصول على الاستقلال؛ كما بينا سابقا، فإن بلادنا لا زالت إلى حدود الزمن الراهن تفتقر لتصور منهجي ومستقل عن المدرسة الفرنسية وأدواتها المعرفية والتقنية في حماية التراث المعماري ومعالجة إشكالاته⁽²⁾، ويزداد هذا التصور غموضا وارتباكاً عندما يتعلق الأمر بتدبير التراث المعماري الواحي المدني والديني والعسكري وتثمينه.

وفي هذا السياق، فإنه رغم إدراج الواحات الصحراوية كمواقع تاريخية منذ الفترة الاستعمارية ما بين 1943 و 1953⁽³⁾، ورغم تصنيف قصر آيت بنحدو بورزازات ضمن لائحة التراث الثقافي الإنساني منذ سنة 1987 من لدن اليونسكو، فإن قصور تافيلالت لا زالت لم تسجل أو تصنف ضمن التراث الوطني إلى حدود الزمن الراهن، حيث إن تراث المنطقة يتوفر على نص واحد فقط يتمثل في المرسوم رقم 2.17.961 الصادر بتاريخ 23 نونبر 2017، والذي تم بمقتضاه تسجيل موقع سجلماسة ضمن لائحة التراث الوطني. مما يطرح إشكالية كبرى تتمثل في كيف السبيل لضمان حماية قانونية لعمارة القصور الفيلالية في ظل غياب النصوص التشريعية المتعلقة بحماية وصيانة وإنقاذ قصور وقصبات واحة تافيلالت؟

والجدير بالذكر أن تدبير التراث المعماري الواحي عامة، وقصور تافيلالت على نحو خاص، لا زال شبه مغيب في مشاريع التنمية المحلية، كما أن تموقع معظم القصور خارج المجال الحضري يعني خروجها عن نطاق "ضابطة التهيئة" ومسطرة رخصة البناء

1- عبد الواحد المهداوي، حماية التراث بالمغرب مقارنة تاريخية وقانونية، م. س، ص. 141.

2- أبا صادقي، إشكالية التدبير التقني والقانوني للتراث المعماري، م. س، ص. 207.

3 - ABA SADKI, Urbanisme et Conservation du patrimoine culturel présaharien, op cit, p : 133.

وفرض الارتفاقات المعمارية⁽¹⁾ التي يمكن أن تساهم في الحفاظ على "حُرمة القصر" التي كانت مؤسسة "الجُمَاعَة" تسهر عليها بالقصور الفيلالية من خلال تدبير مرافقه المشتركة كمنع فتح مدخل "خَرَّاجِيَة" في أسوار القصور مثلا. إضافة إلى أن اعتبار القصر كتجمع سكاني ذي ملكية تتضمن مرافق مشتركة ومرافق خاصة يعرقل إمكانية ومسطرة الترتيب⁽²⁾.

وإذا كانت هناك مجموعة من الإشكالات القانونية والتدبيرية في تدبير عمران القصور الفيلالية المدني والديني والعسكري، فإن ذلك ينعكس على مستوى رد الاعتبار لهذه القصور، والذي لا زال يتسم بضعفه⁽³⁾ ويقتصر على بعض التدخلات المتواضعة لقصور مخزنية أو واجهة بعض القصور.

2. الجهود المبذولة لترميم العمارة العسكرية بقصور تافيلالت

يقصد بالترميم عملية تدخلية هدفها الحفاظ على المعلم الثقافي وجعله ممتدا في المستقبل عبر احترام المادة القديمة والوثائق الأصلية المكونة له⁽⁴⁾، ونظرا لكون ترميم المباني التاريخية والمعالم الأثرية؛ المقيدة في عداد الآثار وغيرها؛ يعتبر من الأمور التي تتطلب خبرة فنية وعلمية، ودقة وتجربة في هذا الميدان، فإن الحديث عن الجهود المبذولة لترميم النظام الدفاعي للقصور الفيلالية يستوجب التمييز بين عمليات الترميم التي تمت خلال القرن التاسع عشر اعتمادا على مظان الوثائق المحلية والرواية الشفوية، وبين عمليات الترميم ورد الاعتبار للعمارة العسكرية من لدن الجهات المختصة والمكلفة بالحفاظ على المباني التاريخية وإنقاذها خلال القرن العشرين والألفية الثالثة.

1.2 الجهود المبذولة لترميم العمارة العسكرية بقصور تافيلالت خلال القرن 19

تعتبر عمليات الصيانة والترميم للعمارة العسكرية والمدنية والدينية قديمة قدم التاريخ، كما أنها تعد من أهم الأمور وأكثرها دقة وتعقيدا، لما تتطلبه من تجربة راسخة

1- أبا صادقي، إشكالية التدبير التقني والقانوني للتراث المعماري، م. س، ص. 213.

2- لحسن تاوشخت، العمارة المغربية المبنية بالتراب وتحديات المحافظة والتأهيل، م. س، ص. 346.

3- عبد الواحد المهداوي، حماية التراث بالمغرب مقارنة تاريخية وقانونية، م. س، ص. 164.

4- عليان جمال، الحفاظ على التراث الثقافي، مرجع سابق، ص. 16.

وخبرة فنية وتقنيات علمية عالية المستوى⁽¹⁾، وهو ما كان الإنسان الواحي بقصور تافيلالت منذ القديم على وعي تام به من أجل ضمان استمرار نظامه الدفاعي تحقيقاً للأمن والأمان وضماناً لصد مختلف الأخطار والهجمات التي يتعرض لها أوقات الشدة والحرب.

وفي هذا السياق تقدم الوثائق المخزنية أو المحلية المحفوظة بمديرية الوثائق الملكية وترتبط بتاريخ قصور تافيلالت وعمرانها، مادة علمية مهمة تكشف مختلف الجوانب المرتبطة بإصلاح وترميم أسوار قصور تافيلالت وأبراجها ومداخلها، وكذا دورها السكنية. وقد سبق أن تطرق لهذه الوثائق كل من الأستاذ لحسن تاوشخت⁽²⁾ والأستاذ امبارك بوعصب⁽³⁾ في دراستهما حول المنطقة بشكل عام.

جدول رقم 12: جوانب من ترميم العمارة العسكرية بقصور تافيلالت في القرن 19

رقم الوثيقة	تاريخ الوثيقة	عمليات الترميم المتضمنة في الوثيقة المرتبطة بالعمارة العسكرية
19795	11 شوال عام 1263 هـ	إصلاح ما تلاشى من سور قصبة سيدي ملوك
24008	8 شوال عام 1228 هـ	إصلاح سقالة وأبراج ومصرية قصر أولاد عبد الحليم وما بين بروجها بالجير والحجارة، وكذا إصلاح قصر آبار
24009	18 شوال 1228	ترميم قصر أولاد عبد الحليم
دون رقم	8 محرم 1305 هـ/26 شتنبر 1887	ترميم قصر أولاد عبد الحليم، قصر الدار البيضاء، ترميم قصر بني ميمون، قصر تعرمت، قصبة مولاي سليمان
دون رقم	11 ذي الحجة 1311 هـ/14 يونيو 1894	إعادة بناء قصبة تغمرت

¹ - لحسن تاوشخت، العمارة المغربية المبنية بالتراب وتحديات المحافظة والتأهيل، م.س، ص. 346.

² - المرجع نفسه، صص 346-347.

³ - امبارك بوعصب، مساهمة في دراسة قصور تافيلالت، م.س، صص 322-323.

2.2 الجهود المبذولة لترميم العمارة العسكرية بقصور تافيلالت خلال القرن 20

تتمثل الجهود المبذولة لترميم القصور الفيلائية عامة وعمارتها العسكرية خاصة في انطلاق مجموعة من المخططات لتنمية العالم القروي منذ ستينيات القرن الماضي. غير أنه تجب الإشارة إلى أن حظ العمارة العسكرية بقصور تافيلالت من هذه التدخلات كان ضعيفا جدا واقتصر على واجهات بعض القصور فقط.

وإجمالاً، فإن أهم تدخلات الجهات المعنية بالحفاظ على التراث المعماري المغربي عامة والواحي خاصة، ارتبط عدة مخططات منها مخطط 1960-1964⁽¹⁾، ومخطط 1965-1967، غير أن أهم هذه المخططات تعلق بشكل فاعل ببرنامج تجديد السكن الواحي، الذي جاء ضمن المخطط الخماسي (1968-1972م)⁽²⁾، والذي أنجز بمساعدة برنامج التغذية العالمي (Programme alimentaire Mondial)⁽³⁾، حيث يعتبر من أضخم المشاريع التي عرفها PAM أو أية منظمة تابعة للأمم المتحدة، فهو عملية تترجم وعي المنظمات الدولية بالوضعية المزرية للسكن القروي والقصور والقصبات الجنوبية⁽⁴⁾.

ونظراً لأهمية هذا البرنامج التنموي، فقد اتسم بتعدد المتدخلين والفاعلين فيه، إذ أنه إلى جانب PAM ومديرية التعمير والإسكان، نجد وزارة الداخلية المسؤولة عن تنفيذ هذا البرنامج. فضلاً عن دول أجنبية مثل الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبلجيكا⁽⁵⁾. وقد كان البرنامج على مدى خمس سنوات، يهدف إلى ترميم 30000 منزل في إطار عملية

¹ - Royaume du Maroc, plan quinquennal 1960-1964 (Rabat : Ministère de l'économie Nationale, 1965).

² - Direction de statistique, L'exode rurale trait d'évolution, profils et rapport avec les milieux d'origines (Rabat : imprimerie El-Maarifal-Jadida, 2000).

³ - Verite (J), Inventaire, protection et mise en valeur des architectures traditionnelles du sud marocain, Unesco, Mars 1977.

⁴ - كبيري علوي مولاي هاشم، التحولات السكنية بـبـزـير الأوسط، مرجع سابق، ص. 36.

⁵ - Note sur les activités des PAM au faveur de l'habitant 1970, pp. 18-19.

تجديد للقصور الواحية بجنوب المغرب، وبناء 60000 سكن أصيل خاصة في المناطق الزراعية الجافة⁽¹⁾.

والجدير بالذكر أن اختيار عملية تجديد القصور وبناء وحدات سكنية أصيلة بها، ارتكز على الأهمية السياحية والفنية والتنمية الفلاحية⁽²⁾. وفي هذا الإطار؛ تم التركيز على القصور التي في الواجهة كمجموعة قصور المعاضيد التي تقع في الطريق الوطنية رقم 13 الرابطة بين مدينة مكناس وأرفود، وذلك لإظهار منظر المدخل وواجهة القصر الرئيسة⁽³⁾. وإجمالاً فقد شملت أعمال الترميم لقصور تافيلالت المنجزة في إطار البرنامج العالمي خلال المخطط الخماسي (1968-1972م) مجالين ارتبطا بقطاع الصحة ومستوى المآثر التاريخية⁽⁴⁾.

وتمثلت أهداف البرنامج على المستوى الصحي في وضع الأحجار بأزقة القصور لمنع الغبار درءاً لأمراض العيون وغيرها، علاوة عن بناء اسطبلات جماعية لمنع عيش الإنسان مع ماشيته في منزل واحد، وكذا إزالة الأزيلال وبناء الآبار التي حفرت بساحات مجموعة من قصور تافيلالت وتغطيتها⁽⁵⁾. وأما ما يتعلق بمجال إنقاذ مكونات العمارة العسكرية للقصور الفيلالية ورد الاعتبار إليها، فقد اقتصر برنامج PAM على ما يلي :

- إعادة لياسة الواجهة الرئيسة لبعض القصور مثل مجموعة قصور المعاضيد (المكابر، العبادلة، القصير).
- بناء دكاكين طينية بالتراب ومشتقاته لحجب منظر البناء الجاهز للمدارس التي توجد أمام بعض القصور.
- تزيين جنبات القصر والأبراج على مستوى القاعدة بالحجارة.

¹ – ABA SADKI, Urbanisme et Conservation du patrimoine culturel présaharien, op cit, p : 171.

² – كبريري علوي مولاي هاشم، التحولات السكنية بزيز الأوسط، مرجع سابق، ص. 38.

³ – ملين سعيد وجان هانسن، أبنية القصور والقصبات بالأودية المتاخمة للصحراء، ترجمة عبد السلام السائح، مرجع سابق، ص. 67.

⁴ – البلعميشي عبد الرحمان، القصور والقصبات دراسة تفصيلية لمصطلحات عمرانية، مرجع سابق، ص. 308.

⁵ – كبريري علوي مولاي هاشم، التحولات السكنية بزيز الأوسط، مرجع سابق، ص. 38.

يظهر من خلال ما سبق أن برنامج تجديد القصور من لدن PAM خلال سبعينات القرن الماضي ارتبط بجانبين أساسيين للقصور الفيلالية هما المجال الصحي ومجال إنقاذ المآثر التاريخية، غير أن ذلك كما وضعنا سابقا كان محدودا جدا واقتصر على قصور الواجهة دون غيرها.

كما أن من بين مخططات التنمية القروية بتاغيلالت نجد مخطط 1973-1977⁽¹⁾، الذي كان يهدف تدخله في مجال إنقاذ المباني التاريخية بالقصور الواحية إلى تعهد الأسوار الخارجية بالصيانة، وكذا تمليط بعض المنازل، علاوة عن حماية قاعدة الجدران بالحجارة، ثم أخيرا تغيير وظيفة بعض المباني بعد تجديدها⁽²⁾.

3.2 الجهود المبذولة لترميم العمارة العسكرية بقصور تافيلالت خلال القرن 21

عرف مطلع الألفية الثالثة اهتماما متزايدا لحماية التراث المعماري لقصور تافيلالت عامة وعمارته العسكرية خاصة، حيث تم تسخير ميزانيات ومجهودات هامة وإقامة مؤسسات إدارية وعلمية ومهنية مختصة تتكلف بصيانة هذا الإرث العمراني والعمل على إحيائه وتثمينه. ولا غرو في ذلك، فقد أصبح موضوع المحافظة على التراث ورد الاعتبار إليه حقلا معرفيا تتنوع فيه أساليب الاستنباط والاستقراء ووسائل الصيانة والترميم وآليات النهوض به⁽³⁾.

وقد تركزت عمليات الترميم مع الألفية الثالثة فيما يترابط بمكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت على نقط الضعف الحساسة في الإنشاءات المشيدة بالطابية وتحديدًا أساس وأعالى جدار الأسور⁽⁴⁾ والأبراج. ومن أبرز القصور التى شمل ترميمها مكونات العمارة

¹ - Royaume du Maroc, plan quinquennal 1973-1977 (Rabat : Ministère de l'économie Nationale, 1978).

² - لحسن تاوشخت، العمارة المغربية المبنية بالتراب وتحديات المحافظة والتأهيل، م.س، ص. 349.

³ - محمد طيطة، رد الاعتبار للتراث المعماري المغربي بين الحالة الراهنة والآفاق المستقبلية، ضمن ندوة المجتمع التطواني والتطور العمراني والمعماري من القرن 16 إلى القرن 20، سلسلة أعمال الندوات 15 و 16، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، الطبعة الأولى، 2009، ص. 177.

⁴ - ABA, SADKI, op cit, p : 177.

العسكرية قصر الفيضة وقصر أولاد عبد الحليم وقصر أخنوس⁽¹⁾ وقصر المعاضيد وقصر الجرانة الذي يقع على بعد حوالي 674 مترا من الطريق الوطنية رقم 13 ويندرج إداريا ضمن المجال الحضري لمدينة أرفود.

1- يراجع اتفاقية شراكة من أجل ترميم 6 قصور بإقليم الراشيدية (2009-2011) بين وزارة الإسكان والتعمير وعمالة إقليم الراشيدية والجماعات القروية التي تخضع لنفوذها القصور المرممة، المملكة المغربية، أبريل 2009، ص. ص. 1-9.

الجدول رقم 13 : القصور الفيلاوية المرممة خلال الألفية الثالثة

الجماعة	القصر المرمم	كلفة المشروع بالمليون درهم	فترة الترميم	مجال التدخل
بني امحمد سجلماصة	قصر الفيضة	*	2002	ترميم معظم مرافق القصر وتحويله لمتحف يعرف بتراث منطقة تافيلالت
	قصر أولاد عبد الحليم	5	2011-2012	ترميم المدخل الأول والثاني للقصر وأسواره وأبراجه وتلبيسها بالطين
مولاي علي الشريف	قصبه أبو القاسم الزباني	—	2002-2003	ترميم السور الغربي للقصبه وواجهة مدخل القصبه وعناصرها الزخرفية وتدعيم أجزاء البناء المتدهورة
	قصر أبو عام	5.7	2005-2008	تدعيم وتقوية أساسات أسوار القصر من الجهات الأربعة وأبراج القصر ومدخله، وكذا ترميم وصيانة المصرية
	قصبه مولا عبد الكريم	6.5	1999-2000	ترميم الشكل الخارجي للقصبه وتبليط أزقتها وإصلاح الدور السكنية
	قصر أخنوس	8	2011	ترميم واجهة القصر وأسواره
أرفود	قصر الجرانة	5.8	2002-2004	إصلاح السور الخارجي للقصر ومدخله وتدعيم أساساته بالحجارة ومعالجة التصدعات والشقوق التي تعثره، فضلا عن تلبيسه بالطين
عرب صباح زيز	قصور المعاضيد	0.80	2006-2008	واجهة القصور الأم للمعاضيد (المكابر، العبادلة، القصير)

المصدر :- الأطلس الجهوي لحصيلة الإنجاز والتعمير بجهة مكناس تافيلالت 2009-2010

- اتفاقية شراكة من أجل ترميم 6 قصور بإقليم الراشيدية (2009-2011)، م. س، ص. ص. 1-9.

- مؤسسة العمران، مكناس 2015

الصورة رقم 42 : ترميم واجهة باب قصر أولاد عبد الحليم الداخلي⁽¹⁾



الصورة رقم 43 : ترميم واجهة قصر العبدالة بالمعاضيد



المصدر : تصوير شخصي، يناير 2019

¹ - لمراني علوي عثمان، التراث المعماري الإسماعيلي بتافيلالت (القصور والقصبات)، بحث لنيل الماستر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس-فاس، السنة الجامعية 2012-2013، ص. 110.

2. المؤسسات الوطنية المعنية برد الاعتبار للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت

تتعدد المؤسسات والمصالح الإدارية التي اهتمت بترميم قصور تافيلالت والحفاظ على التراث الواحي وصيانتة بصفة عامة، وكذا رد الاعتبار إليه، وذلك عبر وضع استراتيجيات وسن تشريعات وتخصيص غلاف لتمويل برامج الإنقاذ حسب المصالح والمؤسسات المعنية كل واحدة في دائرة اختصاصها، غير أن ما يعاب على هذه التدخلات هو طابع الانتقاء الذي تتسم به، فضلا عن غياب التدبير المشترك مع الساكنة المحلية ذات الخبرة في مواد بناء وتقنيات تشييد العمارة العسكرية بالقصور الفيلاالية. وإجمالاً، فإن ترميم مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت يتسم بتعدد المتدخلين وضعف التنسيق مما يجعل دورها بعيد عن تامين هذا الصنف من العمارة وجعله يساهم في التنمية المحلية.

وفيما يخص أهم المتدخلين في ترميم القصور الفيلاالية عامة وعمارتها العسكرية على نحو خاص، نجد وزارة الثقافة⁽¹⁾، التي أشرفت على تأهيل قصر الفيضة ورد الاعتبار إليه عبر ترميم أسواره الخارجية ومدخله الرئيسي والدار الكبيرة، غير أن نقط الضعف الذي يطبع تدخل وزارة الثقافة يتمثل في عدم استمرارية تدخلها ليشمل جل قصور تافيلالت⁽²⁾، حيث اقتصر تدخلها على قصر مخزني اضطلع بأدوار سياسية بالمنطقة.

كما تدخلت الوكالة الوطنية للحد من السكن غير اللائق بدور مهم لرد الاعتبار لقصر أبو عام وقصر الفيضة من خلال تدعيم أساسات أسوار القصرين، وترميم النقط الأكثر تضرراً، فضلا عن حماية وتقوية الأسوار المحيطة بالقصرين. وأما تدخل وزارة الإسكان والتعمير والتنمية المجالية فقد شمل ترميم أربعة قصور بواحة تافيلالت وهي : قصر أبو عام، قصر أخنوس، قصر أولاد عبد الحليم، قصبة مولاي عبد الكريم، وتميزت تدخلات هذه الوزارة بعدم احترام المعايير المعتمدة في ترميم المعمار المشيد بالطابية.

وآخر المؤسسات التي تدخلت لترميم مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت نجد وكالة العمران التي أشرفت خلال شطرين على ترميم سبعة قصور وهي : قصر الفيضة، قصر أخنوس، قصر أولاد عبد الحليم، قصبة مولا عبد الكريم، قصر أبو عام،

¹ – ABA, SADKI, Urbanisme et Conservation du patrimoine culturel présaharien, op cit, p : 176.

² – لحسن تاوشخت، العمارة المغربية المبنية بالتراب وتحديات المحافظة والتأهيل، م.س، ص. 353.

واجهة قصر المعاضيد، قصر الجرانة. وقد كان نصيب التحصينات العسكرية لقصور تافيلالت من ترميمات هذه المؤسسة ضعيف جدا، إذ اقتصر على المداخل الرئيسية للقصور وواجهاتها دون اهتمام بأساسات الأسوار والأبراج المدعمة لها.

المبحث الثالث : الآفاق المستقبلية للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت

1. متطلبات وآفاق الترميم والإنقاذ

نتيجة للعوامل الطبيعية السالفة الذكر وللانفجار الديمغرافي لقصور تافيلالت وتشتت بنيتها المعمارية وتوسعها العمراني والهجرة وقلة الصيانة، فإن كثيرا من مكونات العمارة العسكرية من أسوار وأبراج وأبواب ذات القيمة التراثية والتاريخية لقصور تافيلالت، قد تعرضت للتدهور والهدم والإزالة والإهمال المتعمد أو غير المتعمد. مما بات يتطلب منا حمايتها والحفاظ عليها، وذلك بالعمل على صيانتها من الضياع وترميمها كي تبقى معلما ورمزا من معالم منطقة تافيلالت يشهد على التاريخ العريق الذي اضطلعت به منذ العهود القديمة.

وفي هذا السياق فإن متطلبات حماية العمارة العسكرية بقصور تافيلالت وآفاق ترميمها وصيانتها، مرتبط بامتلاك إرادة سياسية حقيقية؛ من لدن الفاعلين في حقل التراث؛ تتوخى تدبيرا أفضل للموارد التراثية كآلية ذات منفعة اقتصادية للسكان المحلية، ووضع حد لخطر التدهور والتخريب الذي يطال العمارة العسكرية الواحية بتافيلالت. ولذلك فإن التفكير في مصير التراث المعماري العسكري بتافيلالت عن طريق عملية المحافظة ورد الاعتبار إليه، من خلال السهر على إعطائه إمكانية الاستمرار في القيام بوظائفه اعتبارا لنسيجه العمراني التاريخي، أصبح أمرا ضروريا وملحا أكثر من أي وقت مضى، على اعتبار أن الوضع الراهن لهذا التراث أضحى يثير الانتباه.

إن واقع التراث العمراني الدفاعي بقصور تافيلالت، غدا يفرض تكاثف الجهود للحفاظ عليه ووضع الاستراتيجيات والسياسات المناسبة لتطويره بما يحافظ على أصالته وموروثه العمراني، عبر احترام المبادئ الكبرى للمحافظة على المواقع التاريخية واستثمارها، والتي نوردتها كآلاتي:

- احترام الطراز المعماري: إن ترميم المباني التاريخية وصيانتها يحتم على المختصين المحافظة على القيم الجمالية التي تميز المعمار الأصيل لقصور تافيلالت، نظرا لكون أشكاله المعمارية المشيدة بالتراب ومشتقاته من طابية وطوب وطين تعتبر أول علامة من علامات الاعتراف بتراث المنطقة⁽¹⁾.
- قابلية العودة للوضع الأصلي: وذلك باستعمال مواد بناء محلية وتقنيات تحافظ على الوضعية الأصلية للمباني في حالة ظهور مشاكل تقنية أثناء الترميم⁽²⁾.
- إعداد دليل للآثار حول مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت للتمكن من الحصول على المعلومات الدقيقة الخاصة بالنظام الدفاعي لكل قصر من القصور الفيلاية.
- وضع تشريعات وقوانين كفيلة بالحفاظ على مباني معمار قصور الجنوب الشرقي المغربي عامة وعمارتها العسكرية خاصة؛ والتي تندرج ضمنها قصور تافيلالت؛ وكذا ترتيبها وتصنيفها ضمن المعالم وطنية مقيدة في عداد الآثار، والسعي لتصنيفها تراثا عالميا من لدن اليونسكو.
- الصيانة بالطرق والوسائل العلمية الحديثة ضمن التوجهات التي تدعو إليها المنظمات والمؤسسات الدولية المختصة مثل منظمة اليونسكو⁽³⁾، والاستفادة من مركز دراسة وصيانة التراث المعماري لمناطق الأطلس وجنوب الأطلس (CHERKAS)⁽⁴⁾، وتوجيهه لخدمة تراث منطقة تافيلالت عبر توثيق تراثها وإعداد تقارير حوله وإبداء الرأي في مشاريع الترميم التي تستفيد منها بعض القصور الفيلاية باعتبارها تدخل ضمن المجال النفوذي لهذا المركز.

¹ - بوصلح محمد وآخرون، كتيب المحافظة على التراث المعماري، مرجع سابق، ص. 18.

² - المرجع نفسه، ص. 18.

³ - دليل المحافظة على التراث العمراني بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، إعداد مركز الحفاظ على التراث العمراني الخليجي المميز، الدوحة-قطر، الطبعة الأولى، 1429هـ/2008م، ص. ص. 1-31.

⁴ - CHERKAS : Centre de restauration et de réhabilitation des zones atlasiques et sud-atlasiques.

- العمل على تعزيز الأركيولوجية الوقائية للمباني التاريخية من خلال تعيين حراس للقصور الفيلائية المهجورة لحمايتها من عوامل التدهور التي يتسبب فيها الإنسان، وكذا للحفاظ على ما تبقى من مكوناتها المعمارية ومن ضمنها العمائر ذات الوظيفة العسكرية.
- الاستخدام الأمثل للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت بشكل لا يشمل تغيير جوهر القيمة الثقافية والنسيج المعماري للأسوار والأبراج والأبواب وغيرها إلا في أضيق الحدود.
- الحد من توسع المباني الإسمنتية على حساب المعمار الأصيل داخل أسوار القصر أو على جنباته.
- الربط بين قضايا المحافظة على التراث العمراني للعمارة العسكرية بقصور واحة تافيلالت والقضايا العالمية المعاصرة مثل العولمة وتنمية السياحة والتغيير المناخي. بالإضافة إلى ما سبق، فإن الحفاظ على العمارة العسكرية بقصور تافيلالت وترميمها يتطلب منا المحافظة على المواد والتقنيات التقليدية، وذلك باللجوء إلى خدمات المعلمين من أجل الصيانة، فضلا عن المحافظة على النجارة الخشبية المستعملة والزخارف الهندسية⁽¹⁾. كما أن هذا الترميم لا يجب أن يحدث أي تغيير في المبنى على مستوى شكل البنيات التاريخية القائمة أو على مستوى الجوهر. وذلك بشكل يضمن الاستفادة من المحافظة على التراث المعماري والعمراني لقصور تافيلالت واستثماره في التنمية المستدامة.

2. مقترحات عامة لترميم العمارة الترابية بواحة تافيلالت

اعتمادا على التحريات والاستطلاعات الميدانية المتكررة لبعض القصور الفيلائية التي شملها الترميم بحوض زيز الأسفل بواحات تافيلالت سواء بجماعة عرب الصباح زيز أو بلدية مولاي على الشريف بالريصاني أو غيرها من الجماعات، يلاحظ أن عمليات الترميم لمكونات العمارة الترابية العسكرية والمدنية والدينية في غالب الأحيان لا تحترم المعايير المعتمدة في ترميم المباني التاريخية، حيث إن معظم هذه الترميمات تسند لمقاولين

¹ - بوصلح محمد وآخرون، كتيب المحافظة على التراث المعماري، مرجع سابق، ص. 19.

لا خبرة لهم في هذا الميدان، مما يجعل هذه العمليات تتسم بالعشوائية وتؤدي في النهاية إلى تشويه معمار القصور الفيلازية، بل وجعل هذا المعمار آيلا للسقوط مما يعجل بانهياره واندراسه.

والجدير بالإشارة أن ترميم العمارة الطينية يخضع لعدة مقتضيات قانونية؛ أشرنا إليها سابقا؛ وتقنية توطرها ترسانة قانونية تم إنجازها من لدن مهندسين وخبراء في العمارة المشيدة بالتراب، وقد تم في هذا الصدد إصدار دراسة في الجريدة الرسمية بتاريخ 21 نونبر سنة 2013 ترتبط بضوابط البناء المضاد للزلازل المطبق على المباني المنجزة بالطين، حيث تنص هذه القوانين على سبيل المثال في الفصل السادس المعنون بنماذج البناء بالطين على ضرورة التقيد بمجموعة من الضوابط قبل بدء عملية البناء أو الترميم بالطابية (التراب المدكوك)، إذ إن "اختيار التقنية الملائمة تعتمد على عدة عوامل ذات طبيعة تكنولوجية، اقتصادية، مناخية، وثقافية"⁽¹⁾، وأهم هذه الضوابط ما يلي:

الجدول رقم 14 : ضوابط البناء بالطين

ضوابط مشروع البناء بالطين أو الترميم	اختيار مادة الطين للبناء أو الترميم
- دراسة موقع مكنم الطين بالنسبة لمكان البناء.	- تحيل الحبيبات المترسبة
- الخصائص الجيو تقنية للأرض	- تحديد حدود Atterberg
- الوقت اللازم للتنفيذ بالنسبة لكل تقنية	- تحديد قيمة أزرق الميثيلين
- الفعالية الميكانيكية المطلوبة.	- تحديد محتوى الكبريت، المواد العضوية ومحتوى الكلور
	- تجربة Proctor لتحديد الكثافة الجافة
	القصى ومحتوى الماء الأمثل (يعاد هذا الاختبار ثلاث مرات على الأقل لضمان تجانس النتائج التي تم الحصول عليها).

المصدر: الجريدة الرسمية، العدد 6206، 17 محرم 1435هـ/21 نونبر 2013، ص. ص.

7118-7119.

1- الجريدة الرسمية، العدد 6206، 17 محرم 1435هـ/21 نونبر 2013، ص. 7118.

وفي هذا السياق، قدم أحد الباحثين⁽¹⁾ اعتمادا على خبرة البنائين بالمنطقة وعلى الدراسات والتجارب المتعلقة بآليات الصيانة والإنقاذ للتراث المعماري المبني بالتراب بعض التناسيبات التي تجب مراعاتها في مكونات المادة الترابية المراد توظيفها في ترميم المعالم العمرانية للقصور الفيلازية أو غيرها من العمائر الواحية، إذ يتم أخذ التراب من ورش محلي يتم سقيه وغمره بالماء تتكون مواده من خمسة عناصر تتفاوت من حيث الأهمية وتوزع وفق ما يلي⁽²⁾:

- 62% من الرمل.

- 18% من الصلصال.

- 14% من الطمي.

- 8% من الجير.

- 6% من الحصى.

بقي أن نشير إلى أن هذه المواد تحتاج إلى التبن من أجل تماسك مكوناتها وإعطاء صلابة ومتانة للبناء خلال تمليس واجهاته بعد الانتهاء من تشييده، وذلك لضمان مقاومة أكثر لمختلف العوامل الطبيعية، حيث إن هذه المادة نجدها حاضرة في تمليس معظم جدران القصور الفيلازية سواء الأسوار أو الدور السكنية أو غيرها.

3. أليات استثمار العمارة العسكرية بقصور تافيلالت في التنمية المستدامة محليا

أخذت أهمية موضوع الاستثمار تتعاظم في الدراسات الاقتصادية والمالية والمصرفية والإدارية وغيرها من المجالات، كالمجال الثقافي الذي يعتبر استثمار التراث المعماري والعمراني فيه رافعة وقاطرة للتنمية المستدامة محليا ووطنيا ودوليا. حيث انتشرت عبر أقطار العالم العديد من التظاهرات والمناسبات الثقافية والفنية والتراثية التي تروم الاستفادة من التراث المادي واللامادي (الشفهي) وتوظيفها لأغراض اقتصادية كالسياحة، الرواج التجاري، خلق أسواق محلية وكونية لتصريف المنتج التراثي، وثقافية تتجلى في الحفاظ على الموروث الثقافي المحلي وتثمينه بشكل يحافظ على الهوية

1- أحمد الشرقاوي، إعداد التراب والتنمية المحلية بواحة تافيلالت (الريصاني ومحيطه)، م. س، ص. ص. 346-347.

2- م. ن، ص. 347.

الحضارية الخاصة. من هذا المنطق سنتوجه في هذا المبحث إلى إبراز سبل استثمار مكونات العمارة العسكرية لقصور تافيلالت تأسيساً على تساؤل جوهري مؤداه ما هي الأشكال الممكنة والمحتملة لاستثمار مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت وربطها بالتنمية المحلية؟

2.2 أشكال استثمار العمارة العسكرية لقصور تافيلالت في التنمية المستدامة

تزرخ قصور تافيلالت بتحصينات عسكرية غنية ومتنوعة تنم عن عمق تاريخي لمنطقة تافيلالت، أسهمت بشكل كبير في تأقلم الإنسان الواحي مع بيئته المحلية، وتوفير الأمن والحماية له وصد مختلف الأخطار والهجمات التي واجهته عبر التاريخ. لذا غدا من الضروري التخطيط لاستغلال هذا الموروث التراثي في سبيل تحقيق تنمية محلية مستدامة.

1.2.2 الاستثمار الاقتصادي لمكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت

قد يبدو لأول وهلة الربط بين التراث والتنمية أمراً في غاية الصعوبة، نظراً لهيمنة الرؤية الضيقة المحنطة للتراث، والتي تختزله في كونه مادة متحفية⁽¹⁾. إضافة إلى وجود نظرة أخرى معاكسة وعدائية لكل ما هو تراث منتم إلى الماضي بدعوى الحداثة والتقدم والانخراط في العولمة. في الوقت الذي يجب أن ينصب فيه الاهتمام على سبل إسهام تبني النموذج التراثي العمراني في مكافحة عولمة الاقتصاد العالمي، وفي الإمكانات التي تمنحها آليات صيانة التراث وإنقاذه في التخفيض من نسبة البطالة وخلق مناصب للشغل ذات خبرة محلية مرتبطة بالمهن والحرف المتوارثة، والتي يتم إعادة تأهيلها في معاهد خاصة مشيدة لهذا الغرض. وذلك في إطار منظور اجتماعي اقتصادي يؤطر تبني النموذج التراثي العمراني المقاوم لتداعيات العولمة والتغريب⁽²⁾.

وبدون شك أن الانطلاق من اعتبار التراث مورداً اقتصادياً ضمن خطط التنمية المستدامة، وجعله ذي جدوى اقتصادية للسكان المحلية تحد من الهجرة الداخلية بل قد

¹ - المرجع نفسه، ص. 41.

² - السيد أحمد وليد، التراث العمراني والعولمة الاقتصادية: أطروحة في حماية التراث العمراني والمجتمع والعمالة المحلية في المدينة العربية، ضمن ملخصات المؤتمر الدولي الأول للتراث العمراني في الدول الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ماي 2010، ص. 22. ينظر الموقع: www.islamicurbanheritage.org.sa.

تفضي إلى هجرة عكسية من المدن نحو القرى المحتضنة لهذا النوع من التراث، شريطة أن يترافق ذلك مع الاستثمار في البنى التحتية مع توفير حوافز ووسائل تمويل مستدامة من خلال تضافر القطاع العام والقطاع الخاص والمجتمع المدني والجمعيات المحلية المساهمة في التنمية المحلية، وكذا دعم المبادرات الرامية إلى المحافظة على التراث المعماري وتوظيفه في الاستخدامات السكنية والمرافق السياحية والثقافية⁽¹⁾. ولتنزيل هذه الرؤية على واقع الاستثمار الاقتصادي لمكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت، يلزم تضافر جهود جميع الأطراف المعنية والمساهمة في تهمين التراث المحلي وصيانتته وربطه بالتنمية المستدامة من خلال:

- الحفاظ على المهن والصنائع والحرف التقليدية التي عرفت بها القصور الفيلائية من خلال احتضان البنائين والصناع التقليديين، وإعادة تأهيلهم وتكوينهم بما يضمن استدماج المهارات والخبرات التقليدية في نمط البناء والصناعة الحديثين، عبر إحداث معهد خاص بالمنطقة يحافظ على المهن التي أوشكت على الانقراض ويبعث الروح في المهن والصنائع المنقرضة.
- بناء وإحداث مصانع تقليدية (القرميد، اللبناط الطينية، أخشاب النخيل المزخرفة، الصناعات الرخامية والمعدنية، الصناعات اليدوية المعتمدة على سعف النخيل كمادة أولية...).
- إحداث تعاونيات بأسلوب تقليدي داخل القصور الفيلائية، متخصصة في تصنيع مختلف المنتوجات المتصلة بالتمور من قبيل تجفيفها وتعليبها واستخراج عصائرها مثل مربى التمر أو غيره.
- التعامل مع العمارة العسكرية لقصور تافيلالت كمورد اقتصادي وعامل رفع للتنمية مدر للربح، وتجاوز الطابع الفلكلوري العجائبي الذي تتعامل به شركات

¹ - ينظر توصيات المؤتمر الدولي الأول للتراث العمراني في الدول الإسلامية، المنعقد بالمملكة العربية السعودية، ماي 2010، ضمن موقع: www.islamicurbanheritage.org.sa.

الإنتاج السينمائي وشبكات الفنادق ودور الضيافة التي تستغل المشاهد التراثية دون أي عائد اقتصادي في حياة السكان المحليين⁽¹⁾.

2.2.2 الاستثمار السياحي لمكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت

يتطلب الاستثمار السياحي للتحصينات العسكرية بقصور تافيلالت الانطلاق من التصور ذاته الذي انطلقنا منه في الحديث عن الاستثمار الاقتصادي، حيث تتدرج التنمية السياحية الثقافية المتوازنة لقصور تافيلالت في نفس المنظور السوسيو اقتصادي الذي أطرنا ضمنه سبل استثمار التراث سابقا. حيث تشكل مكونات العمارة العسكرية لقصور تافيلالت من أسوار داخلية أو خارجية وأبراج ركنية أو منعزلة وأبواب منكسرة أو مستقيمة مجالا سياحيا من شأنه تنمية الإمكانات البيئية والحضارية والثقافية بشكل إيجابي ضمن مشروع سياحي متكامل يتغىي حماية التراث وجلب منافع وقيم إضافية تعود بالنفع على منطقة تافيلالت وساكنتها. لاسيما وأنها تتوفر سلفا على فنادق مصنفة ودور الضيافة. ولتحقيق صناعة سياحية تساهم في النهوض بالاقتصاد المحلي وذلك على غرار الانتعاش والحيوية الاقتصادية التي حققتها السياحة لقصر آيت بنحدو بإقليم ورزازات⁽²⁾، وفي هذا السياق، فإنه ضمن المنظور الذي انتهجناه في هذا المبحث، يغدو من اللازم على القطاعين العام والخاص العمل على إنجاز المشاريع المقترحة الآتية:

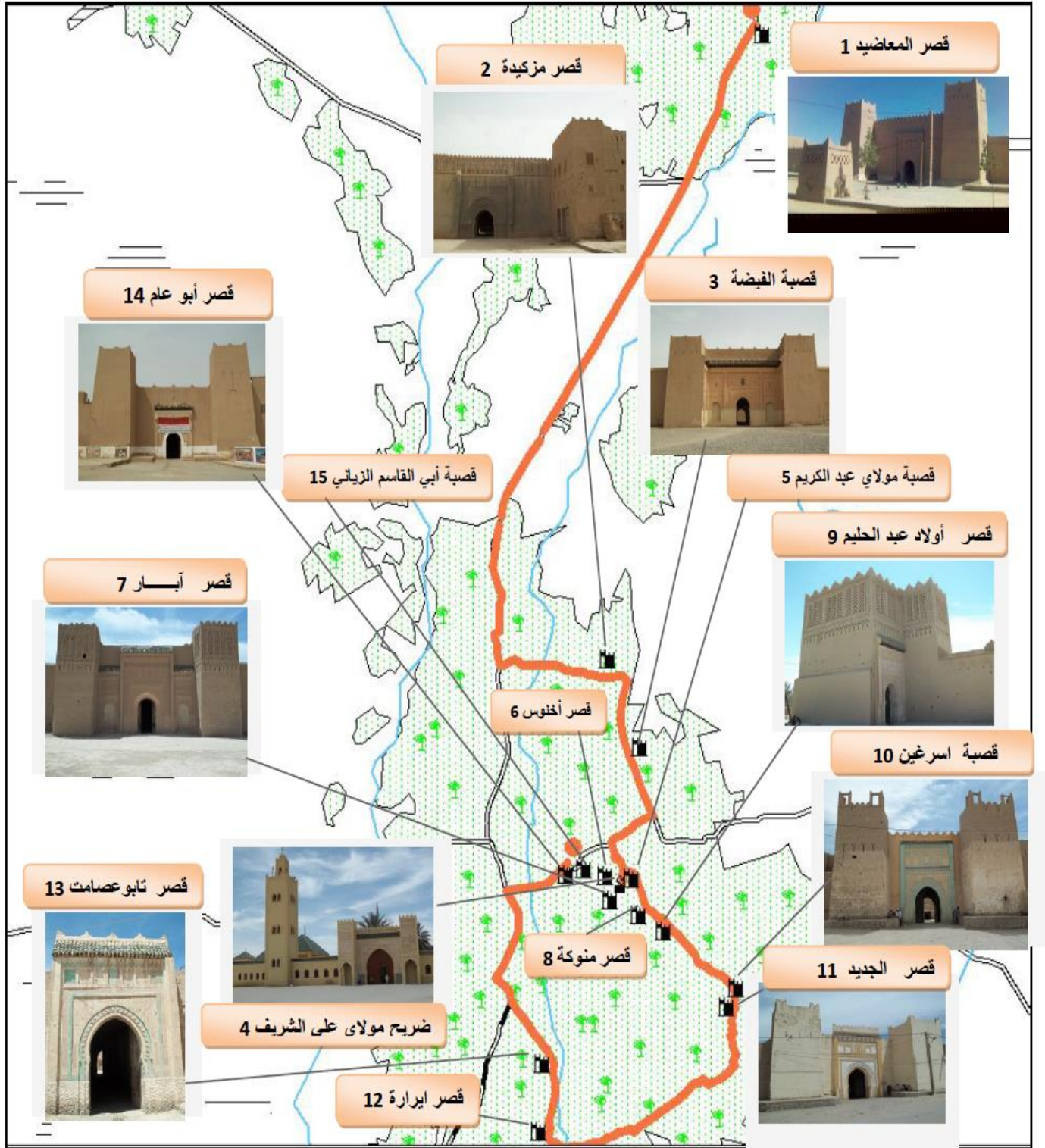
- تحويل مكونات عمارة القصور الفيلاية العسكرية والمدنية والدينية إلى مزار سياحي منظم وجذاب وإبراز مقوماتها التراثية والحضارية والثقافية والتاريخية عبر تكوين مرافقين سياحيين لتقديم معلومات عن الهندسة المعمارية للقصور الفيلاية وتاريخها.

¹ - أبا صادقي، إشكالية التدبير التقني والقانوني للتراث المعماري، م. س، ص. 208.

² - Ait Hamza (M), Patrimoinisation et touristification d'Ait Bén-Hddou, Patrimoine et tourisme culturel au Maroc, Actes du 9^{ème} colloque Maroc-allemand Meknès 2014, Publications de la Faculté des Lettres et des sciences Humaines, Université Moulay Ismail, Série Actes de colloques, 43, pp.147-153.

- استغلال القصور بمرافقها العامة كالأبواب، الأسوار، الأبراج، الساحات، الأزقة، ومرافقها الخاصة كالدور السكنية في تشكيل منتوج سياحي خصب ومتنوع ينشط السياحة الداخلية والخارجية.
- خلق مدار سياحي بزيز الأسفل يشمل القصور والقصبات التي تقع بسهل تافيلالت (جماعة عرب صباح زيز، جماعة أرفود، جماعة بني امحمد سجلماصة، جماعة الريحاني، جماعة مولاي علي الشريف، جماعة الريحاني، جماعة السفالات).
- تشجيع السياحة الثقافية الداخلية إلى قصور تافيلالت للوقوف على مكونات عمارتها العسكرية والمدنية والدينية خاصة في صفوف الناشئة من المتعلمين منذ التعليم الأولى حتى التعليم العالي لخلق شعور من الاحترام والتعلق بهذا التراث، وتدريب الإنسان منذ الطفولة على زيارة المواقع الأثرية لاكتساب سلوك حضاري اتجاه العمارة العسكرية للقصور الفيلاية.
- تنظيم مخيمات سياحية ورحلات وخرجات تشارك في العمليات الخاصة بالتنظيم والإيواء كل من الشركات الخاصة للقطاع السياحي والسكان المحليين ضمن ما يعرف بالسياحة الثقافية
- استثمار الجانب الإعلامي بمختلف مكوناته (الإعلام المرئي، المسموع، المقروء، المواقع الإلكترونية، المطويات، الملصقات الإشهارية) في التعريف بقصور تافيلالت ومكونات عمارتها العسكرية وما تتضمنه من تشكيلات زخرفية.
- إنشاء بنايات تحتية إضافية تمكن من استقبال جميع السياح والزوار من مختلف الجنسيات والانتماءات الاجتماعية.

خريطة رقم 6: مسار بعض القصور والقصبات الفيلائية⁽¹⁾



1- المحبوب قدار، المسارات السياحية بواحات تافيلالت، م.س، ص. 64.

4.2.2 الاستثمار الإبداعي والثقافي لمكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت

يشكل استثمار التراث في الحقل الثقافي والإبداعي من أهم المسؤوليات الملقة على عاتق كل المساهمين في الحفاظ على التراث وتطويره وربطه بالتنمية المستدامة، إذ يشكل التراث رأسمالا ثقافيا ضروريا للنهوض بالمنطقة. وانسجاما مع المنظور السوسيو اقتصادي الذي سلكناه سابقا، فإن كل مقومات استغلال العمارة العسكرية لقصور تافيلالت في مجال الثقافة والإبداع حاضرة بالمنطقة، وذلك ما يتجلى على مستوى الصناعة السينمائية والدرامية، حيث تم تصوير العديد من الأفلام الوطنية والدولية ذات الشهرة والصيت العالمي من قبيل الفيلم الفرنسي تحيا الحرية (vive la liberté) والفيلمين الإيطاليين: Marrakech expresse و marc polo ، وكذا أفلام مغربية مثل "منديل صفية" و"قصر السوق"، إضافة إلى مقاطع لبعض الأغاني المصورة كأغنية "تافيلالت" للفنان المغربي نعمان لحلو، غير أن استثمار قصور تافيلالت في الصناعة السينمائية مع زال ضعيف جدا مقارنة مع قصر آيت بنحدو بإقليم ورزازات الذي تم تصوير أفلام كبرى به وصلت إلى حدود سنة 2010 حوالي 16 فيلما دوليا⁽¹⁾.

والجدير بالذكر أنه ينبغي العمل على تشجيع الصناعة السينمائية ذات المنظور التاريخي والتراثي أو المواضيع المتصلة بالتاريخ الإسلامي أو المجال الواحي أو الطبيعة الصحراوية، والعمل على خلق محفزات تشجع المنتجين والسينمائيين والمخرجين العالميين والمغاربة على تصوير أشرطتهم ومنتجاتهم السينمائية بالمنطقة، وذلك من خلال بناء استوديوهات طبيعية واصطناعية بالمنطقة على غرار الجهد المبذول بهوليوود إفريقيا مدينة ورزازات. حيث إن التعريف بالخصائص العمرانية والمعمارية وتوفير بنيات تحتية، من شأنه أن يطور المجال السينمائي والثقافي بشكل عام بنفس القدر الذي يطور به المجال السياحي.

وأخيرا، فإن تصورا شموليا للاستثمار الثقافي والإبداعي للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت في التنمية المستدامة يظل مرتبطا بتطوير البحث العلمي والمعرفي من أجل

¹ – Ait Hamza (M), Patrimoinlisation et touristification d'Ait Bén-Hddou, Op.Cit, p. 151.

التوعية بإيجابيات "العمارة الصحراوية" ودورها في تحقيق متطلبات السكان واحتياجاتهم، وكذا العمل على توسيع انتشارها في الوحدات السكنية كبديل مستديم لنماذج البناء المعاصر بشكل يلبي متطلبات الثقافة والإبداع.

خلاصة القول نرى أن معاينتنا لعوامل ومظاهر تدهور العمارة العسكرية بقصور تافيلالت وآفاق إنقاذها ضمن سياسة رد الاعتبار للتراث بالمغرب، تتطلب تكثيف الجهود المبذولة لترميم العمارة العسكرية بقصور تافيلالت من طرف الجهات المختصة بالحفاظ على التراث المادي ببلادنا، وان لا تبقى في نطاق تدخلات متفرقة وجزئية لا تمتلك برنامجا متكاملًا ذو إرادة سياسية يهدف إلى الحفاظ على التراث المعماري للقصور الواحية عامة والعمارة العسكرية بتافيلالت خاصة.

كما وجب التأكيد على أن عمليات الترميم لا تحترم قوانين وتشريعات ترميم وإدارة التراث العمراني، وتحديدًا الميثاق الدولي لصيانة وترميم المعالم التاريخية الذي عقد في مدينة البندقية سنة 1964، والذي يعد المرجع الأساس لعميلتي الترميم والصيانة. وهذا ما يجعل آفاق الترميم وآليات الصيانة والإنقاذ للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت وتحسيناتها الدفاعية عبارة عن كتلة سديمية وعماء ضبابي، يحتم على جميع الأطراف بذل جهود مكثفة لإعادة الاعتبار إليه باعتباره جزءًا من الذاكرة المحلية والتراث الوطني، بل ومشروع حضاري ذا بعد ثقافي واجتماعي واقتصادي.

وغني عن البيان، أن الهدف من وراء إنقاذ العمارة العسكرية لقصور تافيلالت ليس هو ترميم مكوناتها الدفاعية وتحنيطها للعودة للحياة القديمة، وإنما الهدف هو توظيف التراث المعماري للقصور الفيلالية لصناعة ميراث الغد وتلبية الحاجيات في الراهن والمستقبل. وتتمين هذا التراث وجعله يندمج في السيرورة الثقافية والحضارية للسكان المحلية. وهذا لن يتأتى إلا عبر الاستفادة من التجارب الدولية الناجحة في إدارة المواقع الأثرية، وكذا تبني الرؤية العقلانية الشمولية المندمجة بالتصور السوسيو اقتصادي، لتحقيق تنمية مستدامة تنهض بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للسكان المحلية وتشركهم في تمثل القيمة الوظيفية والحضارية والجمالية لعمارتهم العسكرية الواحية بقصور تافيلالت، بشكل يمكنهم من صيانتها والحفاظ عليها والعمل على امتدادها في الزمان والمكان.

خاتمة

لعل ميسم المحدودية والابتسار في حقل الدراسات التاريخية والعمرانية، المهتمة بالتحصينات العسكرية عموما والعمارة العسكرية بقصور تافيلالت خصوصا، كان من دوافع خوض غمار موضوع البحث حول "العمارة العسكرية بقصور تافيلالت دراسة تاريخية ومعمارية"، وذلك في أفق إعداد دراسة تروم أن تكون وافية متكاملة، من منطلق أن العمارة إنتاج مادي لثقافة وفكر المجتمع، وتعبير عن منجزات الإنسان وحاجياته اعتمادا على إمكانياته ووسائله المتوفرة من أجل البحث عن أساليب عيش سليمة توفر له السكنية والأمن والاستقرار، وهو ما عملنا على رصده دون المجازفة بإصدار خلاصات وأحكام نهائية تجنبنا لاستخلاص نتائج مغلوبة، وإبراز تفاصيله بعد محاولة تحليل شامل لمختلف القضايا التي طرحت في موضوع البحث وأسفرت عن ما يلي :

البحث في العمارة العسكرية الفيلالية رهين بالمزاوجة بين مسعيين : أولهما توثيقي تمثل في الحرص على التعرف وجمع المادة المصدريّة من مختلف المظان مع الأخذ بعين الاعتبار التداخل بين أجناسها، والمسعى الثاني هو توسيع دائرة القراءة معرفيا ومنهجيا وابتكار الأسئلة في كل مستويات السبر والتحليل. وطبعا هو أمر تطلب العمل الميداني من جهة، والانفتاح على العلوم الإنسانية والتمكن من مفاتيحها واستثمار الإمكانيات التي توفرنا عليها من جهة أخرى.

إن البحث في موضوع "العمارة العسكرية بقصور تافيلالت دراسة تاريخية وعمرانية مقارنة" يستند إلى أسناد وأسس تمتح من جوانب دينية وتاريخية وحضارية وعلمية، نهدف من خلاله إلى إظهار وبيان بعضها وزيادة تقوية وتمتين بعضها الآخر. وفي طليعة هذه الأسناد؛ السند الديني الذي يجعل من التحصينات الدفاعية والمنشآت العسكرية مسلكا له صلة متينة بالدين الإسلامي الذي يحرم إزهاق الروح في الإسلام، مما استلزم حماية أرواح الأفراد والجماعات وذلك عبر تشييد منشآت عسكرية طلبا للأمان وتحقيقا للطمأنينة، لذلك لا عجب أن يصنف الفقهاء بناء مكونات العمارة العسكرية من أسوار وأبراج وأبواب وقلاع وحصون ضمن البناء الواجب. مما جعل العمارة الواحية الفيلالية جزء لا يتجزأ من ثقافة معمارية عميقة مستمدة من الفكر العمراني الإسلامي.

أبان البحث أن واحة تافيلالت على غرار المجالات المغربية الأخرى عرفت بناء وتشبيد معظم مكونات التحصينات الدفاعية والمعالم المعمارية العسكرية من أبواب وأسوار وأبراج وقصبات وغيرها. ويكمن القاسم المشترك بينها في التحصين والدفاع وحفظ الأمن وتحقيق الأمان للسكان والسلطة أوقات الحرب والسلم رغم اختلافها في الزمان وتطورها من حيث تقنيات التشبيد ومواد البناء والوظيفة.

وبالمثل كشف البحث أن منطقة تافيلالت بعد اندثار مدينة سجداسة عرفت بناء قصور متعددة بها سواء في نهاية الفترة المرينية أو فترة حكم الأشراف السعديين أو في الفترة العلوية، وقد اضطلعت هذه القصور بمهام وأدوار ووظائف متعددة في مختلف مناحي الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية جعلتها إلى حد ما تحافظ على الإشعاع الحضاري الذي اضطلعت به مدينة سجداسة طيلة العصر الوسيط. وهذه الوظائف متكاملة فيما بينها، غير أنها جميعها تتمحور حول تحقيق الأمن وتوفير الحماية للسكان خاصة في فترات انخرام الأمن وانعدامه بالمجال القروي للقصور الفيلائية، مما جعلها ملاذا آمنا لسكانتها التي شيدت معالم معمارية عسكرية ودفاعية لتحقيق هذه الغايات وتأدية مختلف المهام والوظائف الأمنية والاقتصادية والسكنية والتنظيمية والسياسية والدينية.

وتبين لنا من خلال دراسة البعد العسكري في تخطيط القصور الفيلائية، أن البنية العمرانية لهذه القصور بمرافقها المشتركة والخاصة داخل الأسوار أو خارجها، شكلت وحدة عمرانية متكاملة الوظائف تستجيب للطابع العام للعمارة الصحراوية التي لا تخرج عن إطار ضوابط العمارة العربية الإسلامية، مما جعل كثيرا من الباحثين يعتبرون عمران قصور تافيلالت بمثابة صورة مصغرة لبعض الأحياء المُسورة بالحوضر المغربية التي تندرج في سياق تخطيط المدن الإسلامية رغم بعض التباينات الطفيفة فيما بينها على مستوى مكونات العمارة المدنية والدينية والعسكرية.

كما يتضح من خلال تحليل مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت أننا أمام قصور شملت نظاما دفاعيا متنوعا، اتسم بمتانة تحصيناته لتوفير الأمن والحماية لسكانه القصور وكذا صد هجمات الأعداء، وذلك ما يتمثل أولا في الأبواب التي كشف تخطيطها المعماري المتنوع، ما بين الأبواب المباشرة والأبواب المنكسرة بقصور تافيلالت، فضلا

عن متانة المدخل من خلال تشييد عضادتيه بالحجارة لتحمل الدفع وحركة الإغلاق والفتح يوميا، مما يدل على إبداع مشيدي المكونات المعمارية لهذه القصور وخبرتهم في مجال العمارة العسكرية بشكل أسهم في الدفاع عن السكان وتحقيق الأمن والسكينة لهم.

وعلى صعيد آخر، توصلنا من خلال مقاربتنا للأسوار الفيلاية أن الأسوار الخارجية بقصور تافيلالت اختلفت في وظيفتها، حيث إن هناك أسوار اقتصر على "الدفاع السلبي" نظرا لعدم توفرها على ممشى السور، مما جعل وظيفتها تقتصر على منع العدو من تسلقها بفضل ارتفاعها. بينما هناك أسوار خارجية تنوعت وظيفتها بين صد الأعداء من القيام بأي محاولة للتسلل للقصر، وبين السماح للمقاتلين بالتحرك في أعلى السور بفضل توفرها على ممشى (Chemin de ronde)، كما هو الحال بالقصور المخزنية مثل قصر آبار وقصر أولاد عبد الحليم، وكذا بعض القصور القبلية بالمعاضيد أو تابوعصامت وبعض قصور تيزيمي.

وفي إطار استكمال التصور الوظيفي عن النظام العسكري الواحي تُبرز دراسة الأبراج بقصور تافيلالت أن المنطقة عرفت تشييد أبراج متنوعة برانية وركنية، وكذا بناء أبراج في وسط الأسوار متصلة بها أو على جنبات أبواب القصور، وذلك لتدعيم أسوار القصور من جهة، وإظهار البناء بمظهر المنعة والقوة، فضلا عن كون الفصل بين الأبراج يتم في حدود مسافة تتناسب مع الأسلحة المستعملة في الدفاع سواء كانت أسلحة تقليدية كسهام الأقواس أو أسلحة نارية كالبنادق.

وقد قادتنا مناقشة التصنيفات الممكنة في دراسة قصور تافيلالت وتصنيفها اعتمادا على معايير متعددة تتراوح بين شكلها الهندسي، أو اعتمادا على دلالاتها الطوبونيمية أو انطلاقا من الوظائف التي اضطلعت بها هذه القصور، إلى وضع محاولة تروم تصنيف العمارة العسكرية لقصور تافيلالت في أدق التفاصيل ومن خلال زوايا متعددة تروم ربط النظام الدفاعي للقصور الفيلاية بأسواره وأبراجه وأبوابه بالمجال الريفي والحضري (مدينة سجلماة المندرسة)، وكذا بظروف تشييد وبناء هذه التحصينات العسكرية، وإبراز دور السكن والسكان والتنظيمات السياسية والاجتماعية للقصور الفيلاية. فضلا عن التعرف على المواد المستعملة في بناء العمارة العسكرية وتقنيات تشييدها مما يساعد على

التدقيق في ماهية الهندسة المعمارية العسكرية بقصور تافيلالت بشكل يمكن من معرفة خصائصها وعناصرها المكونة لها وأهميتها في المكان الذي شيدت فيه، وذلك قصد تكوين صورة شمولية عن عمران قصور تافيلالت والكشف عن مميزات خصائص كل صنف من أصناف هذه القصور.

وقد كشف البحث أنه رغم الاختلافات الموجودة بين أنماط العمارة العسكرية لقصور واحة تافيلالت، والذي يدل على قدرة المعماري الفيلاي على التكيف مع بيئته الطبيعية والاجتماعية والثقافية التي نشأ فيها، فإن القاسم المشترك بينها جميعا يتمثل في التحصين والدفاع وحفظ الأمن للسكان بواحة تافيلالت، مما يمكن الجزم معه أن هذه القصور بمختلف أصنافها تتوفر على معظم مكونات العمارة العسكرية من أبواب وأسوار وأبراج ما عدا انعدام وجود الخندق؛ فيما يبدو؛ والذي لم نجد له أثرا مادية في قصر من القصور، رغم تداوله في الرواية الشفوية باسم أحفير، مما جعلنا نضع فرضية إزالته وردمه للبناء مكانه في إحدى الفترات التاريخية التي تم فيها توسيع القصر بالمنطقة، خاصة أن جل القصور بتافيلالت القبلية كانت تعرف من حين لآخر توسعا عمرانيا نتيجة ارتفاع الكثافة السكانية أو بفعل استقطاب سكان آخرين لتقديم الدعم والمساندة أثناء الصراعات التي شهدتها القصور فيما بينها أو مع أطراف خارجية. كما أن ظاهرة ردم الخندق المحيط بالقصر عرفت بها القصور مجموعة من المناطق ببلاد المغرب كالقصور الصحراوية بتونس.

علاوة على ذلك، أبان البحث أن الهندسة المعمارية لمكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت اتسمت بخصائص ومميزات تبرهن على هاجس الأمن الذي سيطر على البناء الفيلاي، وعلى رسوخ القيم التاريخية والحضارية والفنية التي تثير الانتباه وتبعث على الدهشة من حيث مواد بنائها، والمتمثلة في أساسها الحجري الملحوم بالطين والتبن في معظم القصور وبالجص والجير في قصور قليلة، فضلا عن التراب بمشتقاته لبناء الجدران من الطابية والقوالب المستطيلة الشكل من الآجر، والطين المستعمل لتلبيس الجدران، الذي تضيف عليه السقوف الخشبية من جذوع النخيل تناعما وتناسقا. كما اتضح أن البناء الفيلاي من خلال ما شيده في العمارة العسكرية بقصور تافيلالت وما تضمنته من رؤية جمالية وخصائص هندسية تعبر من خلال هذا الأثر المعماري عن حسه الجمالي وإبداعه في بيئته

المحلية، الأمر الذي جعل عمران قصور تافيلالت عامة والعمارة العسكرية خاصة تكتسب قيمتها انطلاقاً من تنوع أشكالها المعمارية وجمال زخارفها الطينية وأدوات وتقنيات البناء التي توخت المتانة والدقة والجمالية.

وحرصاً على المساهمة في تثمين هذا الصنف من العمارة الواحية، تبين لنا أن عوامل ومظاهر تدهور العمارة العسكرية بقصور تافيلالت وآفاق إنقاذها ضمن سياسة رد الاعتبار للتراث بالمغرب لا يرتبط بترميم مكوناتها الدفاعية وتحنيطها للعودة للحياة القديمة، وإنما الهدف هو توظيف التراث المعماري للقصور الفيلالية لصناعة ميراث الغد وتلبية الحاجيات في الراهن والمستقبل، وتثمين هذا التراث وجعله يندمج في السيرورة الثقافية والحضارية للسكان المحلية. وهذا لن يتأتى إلا عبر الاستفادة من التجارب الدولية الناجحة في إدارة المواقع الأثرية، وكذا تبني الرؤية العقلانية الشمولية المتصلة بالتصور السوسيو اقتصادي، لتحقيق تنمية مستدامة تنهض بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للسكان المحلية وتشركهم في تمثل القيمة الوظيفية والحضارية والجمالية لعمارتهم العسكرية الواحية بقصور تافيلالت، بشكل يمكنهم من صيانتها والحفاظ عليها والعمل على امتدادها في الزمان والمكان.

تأسيساً على ما سبق، نستنتج أن العمارة العسكرية بقصور تافيلالت تعتبر استمراراً وامتداداً للعمارة التي تتسم بها الحواضر المغربية بأسوارها وأبوابها وأبراجها مع تفاوت في الأبعاد والأحجام، غير أن التقنيات تبقى متقاربة والوظائف متشابهة، كما أن الأشكال والتخطيط متقارب كذلك، مما يجعل هذا الصنف من العمارة يمثل جانباً من جوانب الحركة العمرانية للحواضر والقرى المغربية وأنظمتها الدفاعية التي تعبر عن منجزات الإنسان الواحي وحاجياته، وذلك اعتماداً على إمكانياته ووسائله المتوفرة بحثاً عن أساليب عيش سليمة توفر له السكنية والأمن والاستقرار، وهو أمر يحمل على الاعتقاد بأن المعرفة التاريخية بالعمارة العسكرية للقصور الفيلالية على ما هي عليه الآن تبقى مبتورة، خاصة في ظل الإشكالية التي يطرحها غياب الخندق بمعظم قصورها، وفي حاجة إلى مزيد من تعميق النظر والبحث. ويظل الأمل معقوداً على تطور البحث الأركيولوجي وتكامله مع العمل التوثيقي.

وأخيراً، فإن هذا المجهود المتواضع ليس أكثر من مساهمة في تذليل بعض الصعوبات المنهجية المتصلة بموضوع البحث في الدراسة التاريخية والعمرانية للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت، حرصنا فيه على ملامسة بعض إشكالاته من خلال وجهة نظر لا ندعي إحاطتها بكل القضايا التي تمت معالجتها، أو صوابها وامتلأها للحقيقة المطلقة، بقدر ما هي مجرد إسهام في التعريف بمكون هام من مكونات عمارة القصور الفيلالية التي مازالت تحتاج إلى مزيد من البحث والتقصي لتكوين صورة شمولية حول جميع أصناف عمارتها، وهو ما لا يستقيم إلا بمزيد من البحث والتنقيب فيما يستقبل من الدراسات من لدن الباحثين المهتمين بتاريخ قصور تافيلالت وعمرانها.

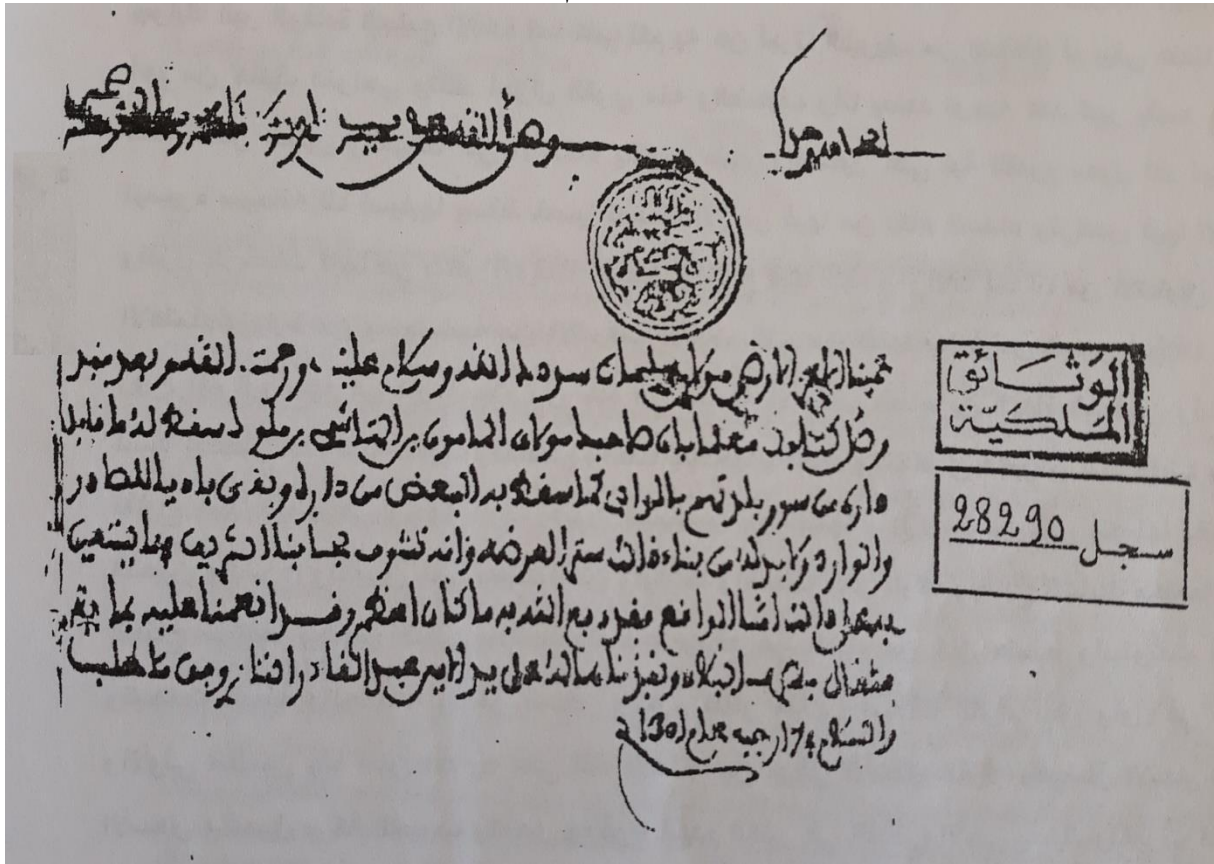
الملحق

ملحق الوثائق

الجدول رقم 15 : الوثائق الرسمية والخاصة التي تم توظيفها في البحث

رقم الوثيقة بالملحق	رقم الوثيقة بسجل الوثائق الملكية	موضوعها	تاريخها
1	28290	رسالة من السلطان الحسن الأول إلى عمه مولاي سليمان يخبره بتقديم المساعدة لصاحبه لإعادة بناء ما تهدم من سور بلدته وداره.	13 رجب عام 1303 هـ
2	29241	رسالة تبين مصاريف وسير الأعمال لبناء قصر تغمرت	متم ذي القعدة عام 1307 هـ
3	18626	رسالة تبين صائر بناء قصبة تغمرت	11 حجة الحرام عام 1311 هـ
4	24008	رسالة خاصة بسير أعمال قصر الفيضة المخزني	8 شوال عام 1228 هـ
5	وثيقة خاصة	عقد صلح بين أهل المعاضيد وأهل تيزيمي	أواخر شهر محرم 1338 هـ
6	وثيقة خاصة	وثيقة تبين نسب شرفاء قصير الشرفاء بتيزيمي	بداية القرن العشرين
7	23266	رسالة تتمحور حول الصراع الذي وقع بين الفرق المكونة لقصر أخنوس	10 ذي القعدة عام 1309 هـ

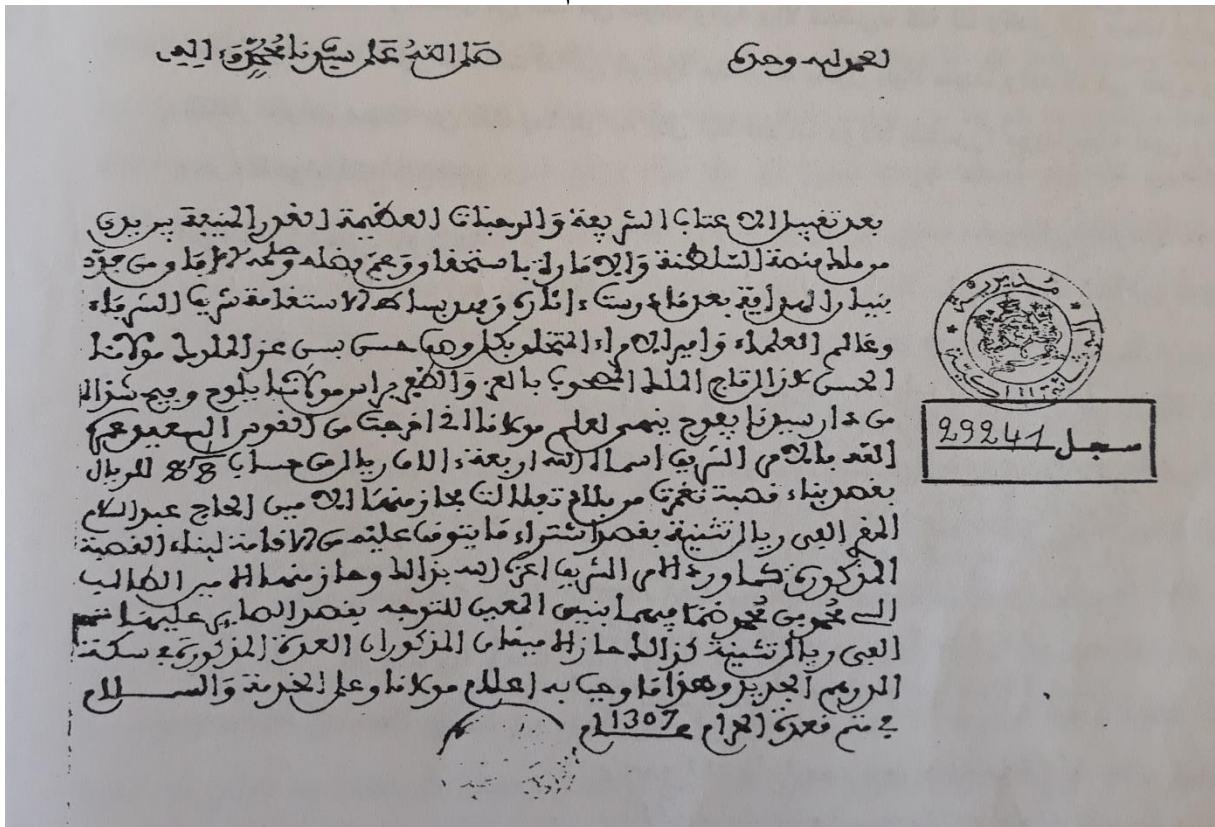
الوثيقة رقم : 1



نص الوثيقة مكتوب بالخط الإداري

الحمد لله وحده
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
عمنا الأعز الأَرْضى مولاي سليمان سددك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد فقد
وصل كتابك معلما بأن صاحبك مولاي المامون بن الهاشمي بن ملوك أسقط له ما قابل داره
من سور بلدتهم بالوادي كما سقط به البعض من داره وبقي باديها للصادر والوارد ولا بد له
من بناء ذلك سترأ لعرضه وأنه تشوف لجناينا الشريف بما يستعين به على ذلك أما الدافع
فقد دفع الله به ما كان أعظم وقد أنعمنا عليه بمائة مثقال ونفذناها له على يد الأمين عبد
القادر التازي وفق ما طلب والسلام. في 13 رجب عام 1303 هـ.

الوثيقة رقم : 2

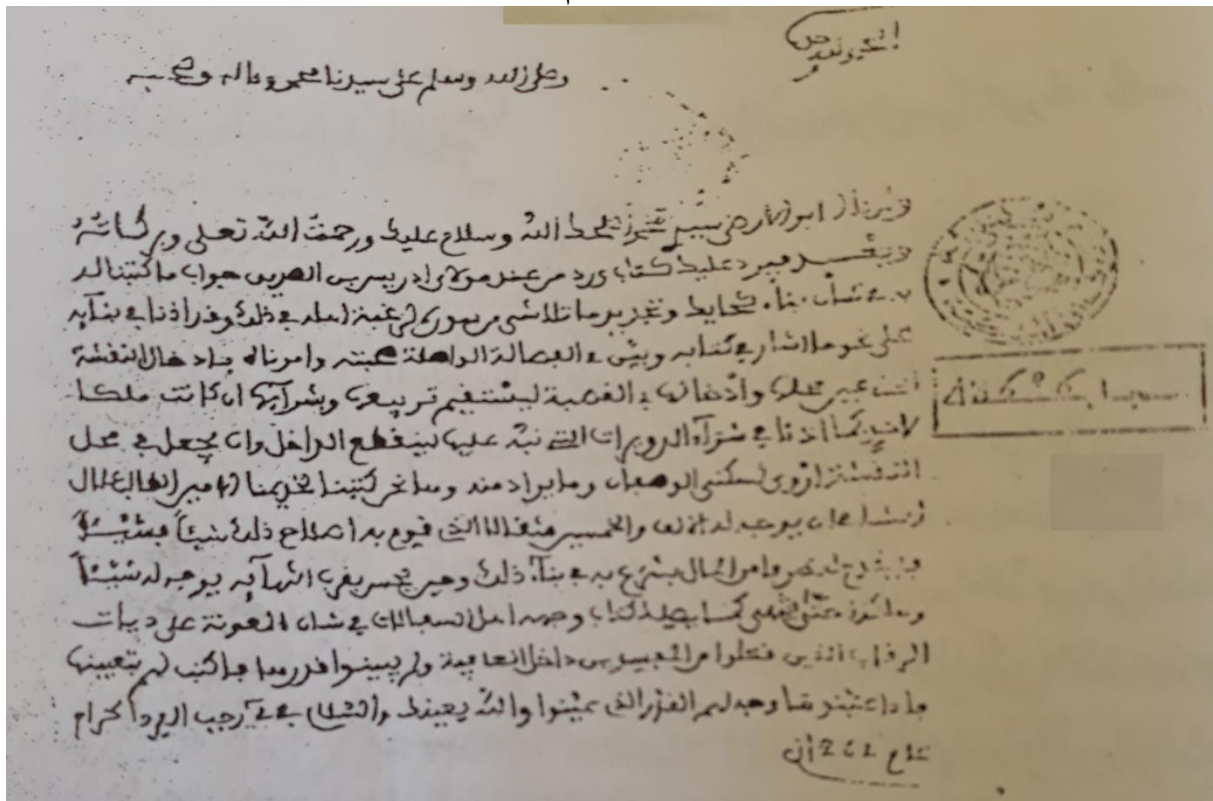


نص الوثيقة مكتوب بالخط الإداري

والحمد لله وحده
وصلى الله على سيدنا محمد وآله

بعد تقبيل الأعتاب الشريفة والرحبات العظيمة القدر المنيفة بين يدي من ملك منصة السلطنة والإمارة باستحقاق وعم بفضلته وصلحه الآفاق من جرد بنیان الهداية بعدما درست آثاره ومهد بساط الاستقامة شريف الشرفاء وعالم العلماء وأمير الأمراء المتحلي بكل وصف حسن بسن عز الملوك مولانا الحسن لا زال تاج الملك المصحوب بالعز والظفر برأس مولانا يلوح وفيح شذاه من دار سيدنا بفرح ينهي لعلم مولانا أني أخرجت من القوس السعيدة عمره الله بالأمر الشريف أسماه الله أربعة آلاف ريال من حساب 88 ريال بقصد بناء قصبة تغمرت من بلاد تافيلالت فحاز منها الأمين الحاج عبد السلام المقري ألفي ريال تنثية بقصد شراء ما يتوقف عليه من الإقامة لبناء القصبة المذكورة، كما ورد الأمر الشريف أعزه الله بذلك، وحاز منها الأمين الطالب السي محمد ضما فيهما بنيس المعين للتوجه بقصد الصاير عليها ثم ألفي ريال تنثية كذلك حاز الأمينان المذكوران العدة المذكورة في سكة الدرهم الجديد وهذا ما وجب به أعلام مولانا وعلى الخدمة والسلام. في متم قعدة الحرام عام 1307هـ.

الوثيقة رقم : 3



نص الوثيقة مكتوب بالخط الإداري

الحمد لله وحده

ولدنا الأبر الأرضى سيدي محمد أصلحك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد
فيرد عليك كتاب ورد من عند مولاي إدريس بن الصديق جواب ما كتبنا له به في شأن بناء
كحايتك وتجديد ما تلاشى من سور له لرغبة أهله في ذلك وقد أدنا في بنائه على نحو ما أشار في
كتابه وبين في الفصالة الواصلة صحبتته، وأمرنا بإدخال النقشة التي غير ملحها وإدخالها في
القصة ليستقيم تربيعها وبشرائها إن كانت ملكا لأحد كما أدنا في شراء الدويرات التي نبه عليها
لينقطع الداخل وأن يجعل في محل النقشة أروى لسكنى الوصفان وما يراد منه وها نحن كتبنا
لخديمنا الأمين الطالب علال الشامي أن يوجد له الآلف والخمسين مثقالا الذي قوم بها إصلاح ذلك
شيئا فشيئا فليدفع له طرفا من المال يشرع به في بناء ذلك وحين يحس بقرب النهاية يوجد له
شيئا، وهكذا حتى ينتهي، كما يصلك كتاب وجهه أهل السفالات بخصوص المعونة على ديات
الرقاب الذين قتلوا من المفسدين داخل العافية ولم يبينوا قدرها فاكتب لهم بتعيينها، فإذا عيها
وجد لهم القدر الذي عينوا والله يعينك والسلام. في 2 رجب الفرد الحرام عام 1262هـ.

نص الوثيقة مكتوب بالخط الإداري

الحمد لله وحده
وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً
إنسان عين السيادة ومنبع العلم والفضل والإفادة سيدنا الخليفة سيدي محمد نجل مولانا أدام
الله وجوده وعزه وبعد الإهداء الشريف في ذلك المقام وما يناسب جلال قدره من التحيات
والإكرام، فليتهي لكريم علم سيدنا أنه قد وصلنا كتاب سيدنا مولانا رشيد أصلحه الله على
تقويم بناء المواضع الذين كتب عليهم وصيف سيدنا القائد أحمد الفيضي، ثم اعلم سيدي أن
السقالة هي كالتي عندنا بأولاد عبد الحليم وبآبار وبالريصاني وغير ذلك من قصور سيدنا،
وفائدة الصقالة الدوران على العسة وهي حاصلة بهذه أما السور فهو مملس وليس فيه إلا
شيء تافه سقط تمليسه وذلك صانع في نهار فقط فلا يحتاج إلى تقويم، وأما دار أحمد
الفيضي فقد قومت موضعاً بالعدول كما أمرت سيدي وكذا أيضاً قومت كشينتها اللصقة بها
وقدر ما وجب لكل موضع مبين في الزمام الموجه لحضرة سيدنا إلا أن وصيف سيدي
أحمد المذكور أخبر على لسان سيدي أنك قلت له اجعلها في البناء كدار وصيف سيدنا محمد
الصريم رحمه الله من زليج وجبص وغير ذلك وها نحن قومناها على تلك الحالة وخارج
عن تقويمها دفوفها وليس فيها الآن إلا دفتها البرانية، وكذا قوم قوايس البروج والمصرية
والمسجد وتمليس سطح المسجد بل إعادة تمليسه وقرمود فم المسجد وتجبيصه وكذا قوم
أيضاً بناء ظفر أرض المصرية وما بين بروجها وغير ذلك بالجير والحجارة وكذا قوم
أيضاً بناء المشور الدخلاني بحضرة سيدي مولانا سليمان بجعل الأنباح بالتقاوس على
الأوجه الأربعة وتجبيص أرضه وظفر المدخل الذي بينه وبين باب الدار بالجير
والحجارة وقد جعل سقفه بخشب النخيل وإن ليس جعله من الكايزة فهي أولى وكذا قوم
أيضاً اتمام بناء الاروى وتسقيفهم ثم اعلم سيدي أن باب الدار السعيدة مقابل لكل من دخل
قصة سيدي والمسجد ولا بد سيدي من جعل ذلك سترة على باب الدار وعقد باب آخر كما
فعل بدار سيدي بالقصة الحلومية وفي ذلك ستر لباب الدار ومنفعة لسادتنا أصلحهم الله
وتوسعة لهم وها نحن قومناها على حدتها تراها سيدي في الزمام ونظراً سيدي أوسع وإن
جعلت هذه السترة فيكون خارجها (...) في 8 شوال 1228هـ.

الوثيقة رقم : 5

المملكة العربية
البحرينية
البحرينية
البحرينية
1.00

نص الوثيقة مكتوب بالخط الإداري⁽¹⁾

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد فلما أقام أولاد بنعيسى وأولاد معطلة على المعاضيد بما عندهم في الساقية البلدية بواسطة الشركة الواقع بينهم فيها لكون أهل المعاضيد لهم منها النهار ولأولاد بنعيسى وأولاد معطلا الليل على عرفهم وواقع التشاجر وكثر الخوض بينهم حتى كاد الأمر أن يفضي إلى ما لا ينبغي وترددوا في ذلك إلى الشرع المطاع أعزه الله غير ما مرة دخل بينهم ناس من أهل الخير وندبهم للصالح الذي سماه الله خيرا فانتدبوا له واصطلحوا على أن أهل المعاضيد يقبضون ماء نهارهم بالحبال عند طلوع الشمس وأولاد جلال يقبضون ماء ليلهم ابالصنيصلة عند غروب الشمس وما احتاج من الجميع لرمي التبن فيرميه بالحبال فإن كان الماء مقسوما بعضه بالصنيصلة وبعضه تحت الحبال فيؤخذ الذي بالصنيصلة عند غروب الشمس ويرمي التبن إذ ذاك بالحبال وكلفة بناء بناء سد الوادي وربط السهب تكون أثلاثا على أهل المعاضيد ثلث وعلى أولاد جلال ثلثان وكلفة حفر الساقية من أول غابة المعاضيد إلى أعلى ومن آخر الغابة إلى الأسفل على أولاد جلال فقط وكذا ربط الربطة التي تسقط بالسقي المذكورة وأما حفر الساقية بوسط الغابة فلا يكون إلا إذا ثبت ضررها بالبنية الشرعية وحينئذ يؤخذ منها ما يرتفع به الضرر عن الساقية ولا يضر بالقنوات بحضور جماعة أهل المعاضيد وكلفة ذلك تابع لكلفة حفر الساقية ولا يحدث شيء من حفر القنوات ومجاري الماء زيادة عن ما هو موجود الآن وقبل جماعة الكل ذلك ورضوه وأبرموه وأعطوا عليه حملاء ومزاريك فمن أهل المعاضيد هدي بن حماد والحاج حمان والحاج محمد بن الراضي والحاج علي بن الراضي وأبا خطر بن الحاج الحبيب وسيدي محمد بن عبد الكريم والعربي بن الحاج الطاهر والحاج المدني بن زركون والغالي بن بطيب والهاشمي بن مولود وسيدي أحمد بن العربي والصديق بن محمد

1- سعدي عبيدي، قصور المعاضيد : دراسة تاريخية وعمرانية، م. س، ص. 181، بسباس محمد، الماء والمجتمع

بتأفيلالت مجال عرب الصباح نموذجاً، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، بحث لنيل الماستر، السنة الجامعية

فتحا وعلال بن الإمام ومن أولاد معطلة آبا حنيني بن الحاج الغالي المعطلاوي والجيلالي بن علي المبارك والهاشمي بن عبد الرحمان الطالبي والعربي بن الحاج الهاشمي الهبيبي وبن المهدي اللحياني ومن أولاد عيسى العربي بن الحاج عبوا لعقبي وسيدي أحمد بن الهاشمي العلوي والعربي بن دحمان الكسكاسي والحبيب بن عبد الله البحري وسيدي أحمد بن الحاج عبيد وبن المدني كنونو البوزيانين وسيدي محمد بن الحاج المكي المولودي ومبارك بن حدا الرزيقي وتحملت كل جماعة عن إخوانها ومن هو داخل تحت أحكامها ولم يبق بينهم صراع أصلا وتباروا بالإبراء التام الشامل المطلق العام الذي لا تعقب بعده ولا قيام طال الزمن أم قصر ومن قام منهم على الآخر بدعوى يدعيها أو حجة يدلي بها فدعواه باطلة وحجة داحضة لا يلتفت إليها ولا يعمل بمقتضاها وتساقطوا بينهم جميع الدعاوي والأيمان وبينات السر والإعلان عرفوا قدرهم شهد عليهم بذلك من أشهدوه به على أنفسهم وعرفهم وهم بأنهم في أواخر فاتح ثمانية وثلاثين وثلاث مائة وألف عبد ربه تعالى... (1)

عبد ربه سبحانه وتعالى وغفر الله ولوالديه ولجميع المسلمين ... (2)

الحمد لله أديا مشافهة لدى عبد الكبير بن عرفة... (3)

الحمد لله ومن تمام ما بأعلاه أن أهل الشياحنة واهبيبات داخلون مع أهل المعاضيد في نهارهم بجزء مبين لديهم كما هو برسم بأيديهم بشهادة شهيديه صح به عبد ربه تعالى... (4)

عبد ربه سبحانه وتعالى وغفر الله ولوالديه ولجميع المسلمين ... (5)

الحمد لله أديا مشافهة لدى عبد الكبير بن عرفة... (6)

1- توقيع العدل الأول : عبد الكبير بن عرفة.

2- توقيع العدل الثاني : عبد الكبير بن عمر.

3- خطاب القاضي.

4- توقيع العدل الأول : عبد الكبير بن عرفة.

5- توقيع العدل الثاني : عبد الكبير بن عمر.

6- خطاب القاضي.

الوثيقة⁽¹⁾ رقم : 6

1- الوثيقة في حوزة السيد أشبارو مبارك أستاذ مادة اللغة العربية بثانوية مولاى رشيد لمدينة أرفود.

نص الوثيقة مكتوب بالخط الإداري⁽¹⁾

الحمد لله وحده

والصلاة والسلام على رسول الله

هذا نسب الشرفاء الإدريسيين المشهورين أولاد بنعيسى بوادي عرب الصباح تيزيمي بأرفود، تافيلالت.

فلما جاء سليمان ابن عيسى وأخوه محمد بن عيسى المدعو ضان إلى وادي عرب الصباح على يد سيدي محمد فتحا مول الزيتون دفن قرب قصر الكساكيس، وأصله من سكسكة، وتزوج سيدي محمد هذا بنت سيدي محمد بن عبد الله البحري، وولد معها ثلاثة أولاد وهم سيدي بوبكر وسيدي أحمد الطالب كسكلس وسيدي. ولما توفي أخوه سليمان طلق زوجته، ثم تزوج بها أخوه سيدي محمد المذكور، وولد معها أربعة أولاد وهم مولود وعبد العالي وبوزيان وعبد الرزاق. فلما توفي سليمان ترك مع زوجته ثلاثة أولاد وهم عبد الكريم والطاهر وأحمد بابا عبد (...)، وأعطى لأولاد بنعيسى الأرض الكائنة بين قصر أولاد بحر وقصر الشياحنة (...)، واشتروا أولاد بنعيسى البلاد من عند (...) وبن محفوظ من قصر الشياحنة إلى (...)، واقتسموها بينهم (...)، واشتروا البلاد بوادي عرب الصباح. وأما سيدي عيسى بن محمد جد الشرفاء المذكورين فهو ببلاد بونخلة بين تيساف بأوطاط أولاد الحاج وبين ميسور، وهم بني عيسى بن محمد بن ناصر بن محمد بن سليمان بن موسى بنعيسى بن لحسن بن (...) بن علي بن زيان بن يعقوب بن أحمد بن الحسن بن سليمان بن قدور بن محمد فتحا بن عبد الله بن يعلا بن محمد بن العالم بن أحمد بن محمد فتحا بن إدريس الأزهر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بن مولاتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنها بنت مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

1- محمد معمري، الولاية والصلاح والمجتمع بمنطقة تيزيمي : دراسة تاريخية اجتماعية، بحث لنيل شهادة الماستر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرارز - فاس، الموسم الجامعي 2008-2009، ص. 96.

الوثيقة رقم : 7

الوثيقة
الملكية

جل 33966

وصل الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا

في اليوم

سيرنا ومولانا الملك كلب الدارما والضعفاء واليتيم وكل الله في أرضه على سائر الأندلس إنا الله راية عملنا
مأنا المستضعفين وسيدنا محمد وآله وصحبه وسلم في شريف علم سيدنا إسماعيل الله إنا جعلنا
سيرة الأخيذ الذي تمفعوا بولك في البحر الضعفاء غرباء مساكين لا قدرة لنا على شيء وعده الباقين من
بالبحر المحو الأربعين رجلا والعمالة وقصبتها التي توشينا انتقلت ما فهم لغوات ودرهم وغيرهما
والبهاء من هنا في تحت كل أسلوب سيدنا المظهر في نهضة شاملة وتوفير وتعظيم مردن سيرة ومو
لذلك السطو على العلم جرا واسلوبنا مع أسلوب سيرة منجاش السهم معد ودير من جشم غير مورا جانم (العلم)
بالله بالهدى والوفا وأحرار واحد حسيما في ذلك سيرة محالمة أسلحة ومكاتب علم ومكاتب علم ذلك
مع علمه الشريعة وقادس مع عز وضعه بحيث لا يفر أحد من نبال منم ما يكبر صوته حذرنا على حماركم وسكونكم
في بعد ذلك وفنا هذا حيث كثرت الدعاوى وبش الفساد واقتطعت الدراء وانتشر الظلم في الشريعة وفي
حياء الوادع وفتحت الفلانة في الصغير منم والكبير منم كذا في البصيلة اعترض بها تعصب من جورهم وما
منا ضعيفا شطنا متعلقا باستراكم رجع صحة لذي الجور منم والفساد ولم تقع ملكات أسلوب سيرة ولا
مكاتب ولا قولهم في الشريعة عنا شيئا وادينا ذلك لعامل سيدنا واخوانه فلم يمتثل امر سيرة في ذلك
وما ازداد الناس علينا الفساد وشدة قتلنا وربعنا الشكاسة لسيرة والعلم والشريعة وقيلنا
البلاد بالمرسلة في غير ملامرنا إلى له بلغ الأمر ما بلغ ووصلت إليه العلم وقامنا وممارنا ورمنا
أهل الحاج سرور والتخديك وزاد منم إلى زعم وقصة مولا على وأولاد سيرة محرز وسيرة أحد وسيرة على ونصبة
مولا على الكرم عافسوا واحكامهم وجرمهم فراعهم وعينهم وشمالوا واشتعلت نيران الحرب وكادت عقولنا سيرة
وصيلنا وضعفتنا تكبير من شدة النحول وصواعنا البرود ولا حول ولا قوة الا بالله عند الله تجمع القصور
والا باليقظ ما سيدنا وعرة أسلوبنا الضعفاء غرباء مساكين لا قدرة لنا على شيء وعده الباقين من
بالبحر المحو الأربعين رجلا والعمالة وقصبتها التي توشينا انتقلت ما فهم لغوات ودرهم وغيرهما
والبهاء من هنا في تحت كل أسلوب سيدنا المظهر في نهضة شاملة وتوفير وتعظيم مردن سيرة ومو
لذلك السطو على العلم جرا واسلوبنا مع أسلوب سيرة منجاش السهم معد ودير من جشم غير مورا جانم (العلم)
بالله بالهدى والوفا وأحرار واحد حسيما في ذلك سيرة محالمة أسلحة ومكاتب علم ومكاتب علم ذلك
مع علمه الشريعة وقادس مع عز وضعه بحيث لا يفر أحد من نبال منم ما يكبر صوته حذرنا على حماركم وسكونكم
في بعد ذلك وفنا هذا حيث كثرت الدعاوى وبش الفساد واقتطعت الدراء وانتشر الظلم في الشريعة وفي
حياء الوادع وفتحت الفلانة في الصغير منم والكبير منم كذا في البصيلة اعترض بها تعصب من جورهم وما
منا ضعيفا شطنا متعلقا باستراكم رجع صحة لذي الجور منم والفساد ولم تقع ملكات أسلوب سيرة ولا
مكاتب ولا قولهم في الشريعة عنا شيئا وادينا ذلك لعامل سيدنا واخوانه فلم يمتثل امر سيرة في ذلك
وما ازداد الناس علينا الفساد وشدة قتلنا وربعنا الشكاسة لسيرة والعلم والشريعة وقيلنا
البلاد بالمرسلة في غير ملامرنا إلى له بلغ الأمر ما بلغ ووصلت إليه العلم وقامنا وممارنا ورمنا
أهل الحاج سرور والتخديك وزاد منم إلى زعم وقصة مولا على وأولاد سيرة محرز وسيرة أحد وسيرة على ونصبة
مولا على الكرم عافسوا واحكامهم وجرمهم فراعهم وعينهم وشمالوا واشتعلت نيران الحرب وكادت عقولنا سيرة
وصيلنا وضعفتنا تكبير من شدة النحول وصواعنا البرود ولا حول ولا قوة الا بالله عند الله تجمع القصور
والا باليقظ ما سيدنا وعرة أسلوبنا الضعفاء غرباء مساكين لا قدرة لنا على شيء وعده الباقين من
بالبحر المحو الأربعين رجلا والعمالة وقصبتها التي توشينا انتقلت ما فهم لغوات ودرهم وغيرهما
والبهاء من هنا في تحت كل أسلوب سيدنا المظهر في نهضة شاملة وتوفير وتعظيم مردن سيرة ومو
لذلك السطو على العلم جرا واسلوبنا مع أسلوب سيرة منجاش السهم معد ودير من جشم غير مورا جانم (العلم)

نص الوثيقة مكتوب بالخط الإداري

الحمد لله وحده
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما
سيدنا ومولانا الإمام كهف الأرامل والضعفاء والأيتام وظل الله في أرضه على ساير الأنام
أبقا الله راية عدلك مأمنا للمستضعفين وسيف قطرك قامعا للمفسدين آمين. هذا وليكن في
شريف علم سيدنا أيده الله أننا جعدة سيدي أبي الغيث الذين تخلفوا بوادي قلبي بالصحراء
ضعفاء غرباء مساكين لا قدرة لنا على شيء وعدد الباقين منا بالصحراء نحو أربعين رجلا
وأصحابنا وفصيلتنا والتي تؤوينا انتقلت من قديم لتوات ودرعة وغيرهما والباقي منهم هنا
بقي تحت ظل أسلاف سيدنا الطاهرين في نعمة شاملة وتوقير وتعظيم من لدن سيدنا
ومولانا إسماعيل هلم جرا وأسلافنا مع أسلاف سيدنا إليهم معدومين من جيشهم يخدمون
جانبهم العالي بالله بالصدق والوفاء واحدا بعد واحد حسبما نظر ذاك سيدنا في مخاطبة
أسلافه ومكاتبتهم وكانوا بسبب ذلك مع عامة الأشراف وخاصتهم به في عز ومنعة بحيث
لا يقدر واحد ان ينال منهم ما يكرهونه حذرا من علو جاهكم وسطوتكم ثم بعد ذلك في وقتنا
هذا حيث كثرت الأهواء وفشا الفساد واختلفت الآراء وانتشر الظلم في الشرفاء وقل حياء
أولادهم وظهرت الوقاحة في الصغير والكبير، من كان ذا فضيلة اعتز بها وتعصب من
جورهم ومن كان ضعيفا مثلنا متعلقا بأستاركم رجع طعمة لذوي الجور منهم والفساد ولم
تغني مكاتب أسلاف سيدنا في ذلك وما ازداد الناس علينا إلا قسوة وشدة وتمالؤا، ورفعنا
الشكايات لسيدنا وللعمال والشرفاء وقبائل البلاد بالوسائل وبغيرها وغير ما مرة إلى أن بلغ
الأمر ما بلغ ووصلت أيدي الظلم رقابنا ومحارمنا ورمانا أهل الحاج هرون واكحاك
وزاوية سيدي بوزكري وقصبة مولاي علي وأولاد سيدي محرز وسيدي علي وقصبة
مولاي عبد الكريم عن قوس واحدة في يوم واحد من قدام ويمين وشمال واشتعلت نيران
الحرب وكادت عقول نسائنا وصبياننا وضعفائنا تطيش من شدة الهول وصواعق البارود
ولا حول ولا قوة إلا بالله عند الله تجتمع الخصوم والآن بالفضل من سيدنا وبحرمة أسلافه
الطاهرين وجاه جده مولانا علي الشريف وعلم في سبيل الله أن ينظر مولانا فينا وجه الله
والرحم وخدمة أسلافنا ويأمر بتقديم ما لنا بوسط الشرفاء من بلاد (...) ويأمر مولانا
بانتقالنا من الصحراء للغرب أو للحوز أو لما اقتضاه نظر سيدنا ولو وراء البحر لأن بلادنا
في غاية جورة البقعة وأوصلها محيطتها بها وقد كرهناها لتحزب الشرفاء وتحزبهم فقد أغرو

علينا العامل ويتمونا وأمروا أهل الغرفة بجميع قصورهم وأهل واد إيفلي وأهل قصور
المخزن يصيحون ويهتكون محارمنا ويفضحون نساءنا ويروعون صبياننا وضعفائنا
وأغلقتنا أبواب قصورنا وطلبنا الشرع وجعلنا ألفت على النساء والذرية وأكد القربات ولولا
أن الله قد (...) ببركات سيدنا ولطفه لبلغه من القتل وهتك الحرمات ما تبقى غضاضته
الرحم والدهر مع أن سيدنا أمر بالتلطف مما دعانا أحد وعصينا وما قرء علينا أحد كتاب
سيدنا وارانا إياه وامتنعنا وما عصينا شرعا وما دافعنا حتى طلبنا الشرع وما استدعينا عند
القابض والقايد والأعمام والإخوان ولم يبال بنا أحد ومن يتوكل على الله فهو حسبه ولا زال
الشرفاء مصممين على الفساد والخرق الذي لا (...) وما قلنا في رسمين بالبينة السماعية
والقطعية بالعدول والقاضي هي كتابنا هذا لأننا بحول الله لا نخاطب سيدا إلا بالصدق وقد
تصدى الشرفاء لأذيتنا ببذل الرشى والطمع والإكراه للمكلف على قول الكذب والبهتان
والكتابة به لسيدنا ليضحضوا الحق بالباطل والبهتان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
ولو أمر سيدنا قاضيه بأن نخبره بالحقيقة أو يحكم بيننا ويشهد المكلفون لاتضح الحال وزال
الإشكال ويد سيدنا طويلة والحمد لله أدار الله الحق معه حيث دار وجعل فيه الرحمة
والصلاح وإذا انقطع الرجاء من كل حي ففي الله الكفاية والرجاء، وحاصله فليغتنم سيدنا
أمرنا بانتقالنا جملة فورا حتى إذا كنا عند سيدنا يصنع بنا ما بدا له وأكل السباع ولا حقارة
الذياب دان عز سيدنا وعلاه لكشف الكربات وغل العبودية والسلام. وجواب سيدنا في 10
قعدة عام 1309 هـ عبيد سيدنا وإسراء عفوه أولاد سيدي أبي الغيث بالصحراء أمن الله
وروعهم بمنه.

جرد لقصور مجال الدراسة

الجدول رقم 16 : القصور والقصبات التابعة لجماعة عرب الصباح زين

قصور تيزيمي						قصور المعاضيد	
قصر الشرفاء	22	قصر الرزيقات	14	قصر اللحائين	6	قصر المكابر	1
قصر الحساسنة	23	قصر أولاد مولود	15	قصر اهيبيات	7	قصر العبادلة	2
قصر أولاد طالب	24	قصر أولاد عبد النبي	16	قصر الجرانة	8	قصر القصير	3
قصر أولاد عقبة	25	قصر أولاد الهاشمي	17	قصر أولاد علي	9	قصر البروج	4
قصة بن علي	26	قصر الشياحنة	18	قصر الكساكيس	10	قصر المحيريكية	5
قصة بن لحسن	27	قصر مولاي ابراهيم	19	قصر أولاد بوزيان	11		
قصر الخندق	28	قصر أولاد بحر	20	قصر أولاد معطلة	12		
		قصر أولاد امبارك	21	قصر أولاد عقبة	13		

الجدول رقم 17 : القصور والقصبات التابعة لجماعة الريصاني

قصر مرزان	13	قصر هارون	9	تفروخت الجنوبية	5	دواوير القايد الرامي	1
قصر مزكيدة	14	قصر الكريان	10	تكرومت	6	سيدي بوبكر الغربي	2
قصر أوطارة	15	قصر تسرمين	11	طبحت الخير	7	تفروخت الشمالية	3
		قصر درقاوة	12	مقطع الصفي	8	سيدي بوبكر الشرقي	4

الجدول رقم 18 : القصور والقصبات التابعة لجماعة بني امحمد سجلماصة

1	قصر أولاد يوسف	17	قصر بني فرح	33	قصر الفوقاني	49	قصر تاغكة
2	دار مولاي الطالب	18	قصر تحسنوت	34	قصيرات أسرغين	50	قصر الشقارنة
3	قصر آبار المهدي	19	قصر حذب اجحام	35	تامسكنت	51	قصر الفرخ
4	قصر آبار المخزن	20	قصر جنان القاضي	36	القصبة الذهبية	52	قصر منوكة
5	بني ميمون الشرفاء	21	قصر أولاد رحو	37	قصر الشبلي	53	قصر عمار
6	قصر أولاد عبد الحيم	22	قصر ابحار	38	قصر أسرغين	54	مولاي الطاهر
7	أولاد عبد الرحمان	23	قصر توجديت	39	قصر ابحيير	55	قصر تغوين
8	أولاد محمد الشرفاء	24	قصر سيدي مهدي	40	قصر مريزيكة	56	قصر امسيفي
9	قصر أولاد القايد	25	قصر الدار البيضاء	41	قصر المنصورية	57	قصر حمودة
10	أولاد يوسف	26	مولاي امبارك	42	قصر لمراني	58	قصر تريست
11	قصر أولاد اسعيدان	27	بني ميمون الأحرار	43	قصر لعنبري	59	قصر الزيادة
12	قصر أولاد عدو	28	قصر أولاد موسى	44	قصر قدارة	60	قصر حماني
13	صبة الحاج الهاشمي	29	قصر أولاد المودن	45	قصر توراغت	61	قصر الجديد
14	قصر أولاد عيشة	30	قصر أولاد ليमान	46	قصر الجبيل	62	قصر الجير
15	قصر سيدي عمر	31	قصر أولاد بدلة	47	قصر لوجارشة	63	قصر حمو داود
16	قصر أولاد عبد القادر	32	مولاي الشريف	48	قصر لبطرنى	64	قصر الفيضة

الجدول رقم 19 : القصور والقصبات التابعة لجماعة السفالات

1	مولاي عبد الله الدقاق	10	أولاد بو علي	19	قصبة ويغلان	28	إيرارة
2	سيدي الغازي بن قاسم	11	شرفة باحاج	20	القصبة	29	كيغلان
3	زاوية من لا يخاف	12	تابوعصامت	21	أبادو	30	الماطي
4	أولادي سيدي ابراهيم	13	أولاد ويلال	22	تتغراس	31	كيواز
5	زاوية الرمل	14	أولاد جامع	23	لمطاهرة	32	أوشان
6	زاوية بن بوزينة	15	أولاد يحيى	24	تذكروت	33	عمارة
7	قصبة مولاي المدني	16	أولاد مسلم	25	سيدي علي	34	هواره
8	سيدي الغازي تبوبكرت	17	زاوية بو ابراهيم	26	تغناجوت	35	كاوز
9	سيدي الغازي بن العربي	18	زاوية القاضي	27	بوزملة	36	لكراوة

الجدول رقم 20 : القصور والقصبات التابعة لبلدية مولاي علي الشريف

اسم القصر	عدد السكان	المساحة بالمتر مربع	فترة التأسيس
قصر أبو عام	2250	27000	القرن 14م
قصر يحياتن	500	25000	؟
قصر واد الشرفاء	500	20400	القرن 20م
قصر كرينفود	700	11330	القرن 17م
قصبة الحذب الشرقية	650	11500	القرن 18م
قصبة الحذب الغربية	500	11500	القرن 18
قصر زاوية سيد قاسم	300	8880	القرن 13م
قصر تعيمرت	600	8800	القرن 17م
قصبة مولاي مستعين	700	3000	القرن 17م
قصر صوصو	700	10400	؟
قصبة مولاي اسليمان	100	4800	القرن 19م
قصر أخنوس	650	20700	القرن 14م
زاوية مولاي علي الشريف	300	9800	القرن 18
قصبة مولاي عبد الكريم	450	7000	القرن 18
قصر سيدي بوزكري	50	2500	القرن 17م
قصر الحاج هارون	85	2500	؟
قصر اكحاك	110	8380	؟
قصبة سيدي ملوك	800	21000	القرن 17م

المصدر : مونوغرافية بلدية مولاي علي الشريف، 2009، م. س، ص. 23.

قائمة المصطلحات التقنية ومقابلها باللغة الفرنسية

Terre	التراب	Murailles	أسوار
Rempart	جدار	Frise	إفريز
Cloison	جدار فاصل	Brique	الأجر
Pierre	الحجارة	Brique crue	آجر مجفف (نيئ)
Branche de palmier	جريد	Brique cuite	آجر مشوي
Moellon	حجر الدبش	Fondation	أساس
Caravansérail	حوش	Baie	أشبار
Obstacle	احفير	Bastions	باستيونات
Fossé	خنادق	Porte en chicane	باشورة
Le bois	الخشب	Ecoinçon	بنيقة
Corrido	ساباط	Tour	برج
Colonne, Pilier	السواري/الأعمدة	Tours de flanquement	أبراج مراقبة الباب
Rideau	سجف	Portes	أبواب
Parapet	سائرة	Chapiteau	تاج
Linteau	ساكف	Forteresse	حصن
Voussoir	صنجة	Passage souterrain	دهليز
Style	طراز	Socles, Contreforts	دعامات
Les courtines	جسم السور	Parapet	دروة
Tresse	ضفيرة	Pilier	ركيزة
Argile	طين	Décoration	زخرفة

Les merlons	الشرفات	Piédroits	عضادات
Merlons prismatique	شرفات هرمية الشكل	Arc	عقد
Merlons simples	شرفات بسيطة	Seuil	عتبة
Merlons prismatique aigues	شرفات هرمية مشطوفة الرأس	Arc cintré	عقد نصف دائري
Merlons dentelés	شرفات مسننة	Tamarix-aphylle	شجرة الأثل
Espacements séparation	فصل	Canonnières	كوات الرمي
Mur de peu de hauteur	فصيل	Niches aveugles	كوات غير نافذة
Tuile	قرميد	Niche, Bais	كوة
Casbah	قصبة	Entrée	مدخل
Forteresse, Citadelle	قلعة	Mâchicoulis	مقذف
Koraja	قورجة	Crapaudine	رتاج
L'enduit	الطلاء	Embrasures	فتحات السهام
Pisé	طابية	Plâtre	جبس
Baliste	منجنيق	Plafond, Plancher	سقف
Façade	واجهة	Stalactites	مقرنصات
Loquet	مزلاج	Meurtrières	المسلحيات
Le mortier	الملاط	Couloir coudé	ممر ملتوي
Chemin de ronde	ممشى الحرس	Battant d'une porte	مصراع
Barbacane	مزاغل		

البيبلوغرافيا

❖ الوثائق

- وثائق مركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني.
- وثائق الخزانة الحسنية بالرباط.
- وثائق المديرية الملكية بالرباط.

❖ المخطوطات

- ابراهيم بن هلال السجلماسي، نوازل ابن هلال، مخطوط بمؤسسة آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، البيضاء، رقم ms229_M7.html.
- ابن أبي محلي أحمد، الإصليات الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت، مخطوط بالخزانة الحسنية، الرباط، رقم : 100.
- ابن أبي محلي أحمد، تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة، مخطوط بالخزانة الحسنية، الرباط، رقم : 12163.

❖ المصادر:

- ابن الأزرق أبو عبد الله محمد الأندلسي، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق محمد عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1977، ج2.
- أكنسوس أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، تحقيق أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش، الطبعة الأولى، دون تاريخ الطبع، ج.1.

- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي)، تحفة النظار في غرائب الأمصار، شرح طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1987.
- التطيلي عيسى بن موسى بن أحمد، القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر، تحقيق محمد النمينج، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية و العلوم و الثقافة -إيسيسكو-، 1420هـ/1999م.
- ابن الحاج أبو عبد الله محمد، نوازل ابن الحاج التجيبي القرطبي، دراسة وتحقيق الدكتور أحمد شعيب اليوسفي، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، الطبعة الأولى، 2018، 3ج.
- ابن حوقل (أبي القاسم ابن حوقل النصبي)، صورة الأرض، دار صادر بيروت، الطبعة الثانية، 1928.
- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمان)، المقدمة، تحقيق وتقديم وتعليق عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون، مكتبة الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2005، الجزء الثاني.
- ابن الرامي، الإعلان بأحكام البنين، دراسة أثرية معمارية، تحقيق عثمان عبد الستار محمد، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2002.
- ابن زيدان (عبد الرحمان)، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، مطابع إديال، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1990، الجزء الخامس.
- ابن زيدان مولاي عبد الرحمان، المنزع اللطيف في مفاخر المولى اسماعيل ابن الشريف، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، مطبعة إديال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1993.
- الإفرائي (الصغير)، نزهة الحادي بأخبار الملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق الشادلي عبد اللطيف، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1998.
- ابن أبي الربيع (سليمان): سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق ناجي التكريني، بيروت، دار الأندلس 1981.

- الحميري ابن عبد المنعم، الروض المعطار في أخبار الأقطار، بيروت، الطبعة الأولى، 1984.
- رحلة الأسير مويط، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار المناهل للطباعة والنشر المملكة المغربية، وزارة الثقافة، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، 1990.
- ابن الزيات (يوسف بن يحيى التادلي)، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، 1984.
- الزباني (أبو القاسم)، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، مطبعة دار المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، 1992.
- السوسي (محمد المختار)، إلغ قديما وحديثا، هيا للطلع وعلق عليه محمد بن عبد الله الروداني، المطبعة الملكية، الرباط، 1966.
- _____، المعسول، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1991، الجزء 16.
- شارل دو فوكو، التعرف على المغرب 1883-1884، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، الطبعة الأولى، 1999.
- الضعيف الرباطي (محمد بن عبد السلام بن أحمد)، تاريخ الدولة السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان (1633-1822م)، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشخي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1988 الطبعة الأولى، جزآن.
- أبو عبيد الله البكري، المسالك والممالك، ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992.
- العلوي المدغري أحمد بن عبد العزيز، الأنوار السنية في نسبة من بسجلماسة من الأشراف المحمدية، تحقيق عبد الكريم الفيلاي، الرباط، 1972.

- ابن فرحون اليعمرى المالكي، الديباج المذهب، دار الكتب العلمية، طبعة بيروت، دون تاريخ الطبع، ج 1.
- القادري محمد الطيب، كتاب التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادي عشر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، 1981.
- أبو القاسم الطبراني، المعجم الصغير، ج. 2، المكتب الإسلامي، دار عمار - بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ / 1985م.
- مجهول برتغالي، وصف المغرب أيام مولاي أحمد المنصور، تعريب محمد مزين وعبد الرحيم بنحادة، مراكش، 1995.
- مارمول كاريخال، افريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بن جلون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار نشر المعرفة، مطابع المعرفة الجيدة، الرباط، 1988-1989م، الجزء الثالث.
- المقدسي أبو حامد، الفوائد النفيسة الباهرة في بيان حكم شوارع القاهرة في مذاهب الأئمة الأربعة، تحقيق الدكتور آمال العمري، إصدار هيئة الآثار المصرية، 1988.
- الماوردي أبو الحسن، تسهيل النظر وتعجيل الظفر بأخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق محيي هلال السرحان، مراجعة حسن الساعاتي، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
- الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1955، الأجزاء 6-7-8.
- الوزان الفاسي (الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي)، وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، جزءان.

- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى التلمساني (ت.914هـ/1508م)، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تخريج مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1981، ج.7.

❖ المراجع والدراسات العامة باللغة العربية

- أبو ضيف أحمد مصطفى، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبنو مرين، البيضاء، 1982.
- احدى امحمد، دراسة سوسيو اقتصادية لأعراف الجنوب نموذج عرف تديرين (آيت شاكر) بمنطقة الرتب، مطبعة المتقي برينتر، المحمدية، الطبعة الأولى، 2007.
- أزروال ثريا المرباط، الزلازل الكبرى بالمنطقة المغاربية ومخلفاتها على الإنسان ومحيطه، مطبعة بني يزناسن، الطبعة الأولى، 2005.
- استيتو عبد الله، دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والمخزن والمستعمر، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2013.
- أعفيف محمد، توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات وتاريخها، سلسلة رسائل وأطروحات منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط رقم 70، مطبعة أبي رقرق، الرباط، الطبعة الأولى، 2014.
- البسيري أحمد، الأساليب التكتيكية العسكرية عبر تاريخ الحروب المغربية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2016.
- بريان محمد وآخرون، المغرب مقارنة جديدة في الجغرافية الجهوية، ترجمة علي آيتا حماد وادريس البوشاري، دار طارق للنشر، الدار البيضاء، 2006.

- البركة محمد، الطوبونيمية والبحث التاريخي : محاولة في تحديد اليات البحث التاريخي، العدد 24، يونيو 2014.
- بنميرة عمر، النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (القرنان 9 و 14هـ/14 و 15م)، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1989.
- بنمنصور عبد الوهاب، أعلام المغرب العربي، ج. 2، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الأولى، 1979.
- بوربية رشيد، أسوار المدن الإسلامية في العصر الوسيط، ترجمة عريب مختار، مجلة الجامعة، العدد 18، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1983.
- البوزيدي أحمد، التاريخ الاجتماعي لدرعة من مطلع القرن 17 إلى مطلع القرن 20 دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية، مطابع آفاق، سلا، طبعة 1994.
- البوزيدي أحمد، درعة بين التنظيمات القبلية والحضور المخزني : دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية (1894-1935)، مطبعة أنفو-برانت، فاس، 2009.
- بوتشيش ابراهيم القادري، إسهامات في التاريخ الاقتصادي - الاجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط، مطبعة فضالة، المحمدية، 1998.
- بوتشيش ابراهيم القادري، حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 2006.
- بوتشيش ابراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين : المجتمع - الذهنيات - الأولياء، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، الطبعة الثانية، 2004.

- بوكبوط محمد، مقاومة الهوامش الصحراوية للاستعمار (1880-1938م) صفحات مجهولة من صمود قبائل التخوم الشرقية من تافيلالت وواد نول، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2005.
- بيومي علي محمود، القيمة المعمارية والفن التشكيلي، دار الراتب الجامعية، بيروت- لبنان، 2002.
- تيتاو حميد، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2010.
- جعيط هشام، الكوفة : نشأة المدينة العربية، بيروت، 1993.
- جون وندوس، الرحلة إلى مكناس، ترجمة زهرة إخوان، مراجعة نجية العملي وفاطمة بوعبدلي، منشورات كلية الآداب مكناس، 1993.
- الجحاني الحبيب، المجتمع العربي الإسلامي الحياة الاقتصادية والاجتماعية، عالم المعرفة، العدد 319، سبتمبر، 2005.
- حناوي محمد، النظام العسكري بالأندلس في عصري الخلافة والطوائف، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2003.
- حجي محمد، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج. 2، مطبعة فضالة، المحمدية، 1978.
- حافظي علوي حسن، سجل ماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة الأولى، 1997.

- حمادي الإدريسي عبد الله، قاعدة المغرب الأقصى قبل فاس سجل ماسة ووريثتها تافيلالت تاريخا وأمجادا وجهادا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2016.
- حمادي الإدريسي عبد الله، منوكة بشار وجهود دباغيتها في مقاومة الاستعمار، وايت دريم للطباعة والنشر، الجزائر، الطبعة الأولى، 2016.
- دياش بيدرو، البرتغاليون في المغرب عمارة وعمران من سنة 1415 إلى سنة 1769، ترجمة أحمد محفوظ، لشبونة 2000.
- روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، جزءان.
- روس إ. دان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي المواجهة المغربية للامبريالية الفرنسية (1881-1912)، ترجمة أحمد بوحسن، مراجعة عبد الأحد السبتي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2006.
- سبيلمان جورج، آيت عطا الصحراء و "تهدة" درعة العليا، ترجمة وتقديم امحمد احدى، مطبعة BJ PRINT، الطبعة الثانية، 2011.
- سيمو بهيجة، الإصلاحات العسكرية بالمغرب 1844-1912، المطبعة الملكية بالرباط، 2000، عدد الصفحات 572.
- سلقيني محي الدين، العمارة والبيئة، دار قابس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1994.
- شاوش صالح وبن شريف مريامة، رحلة في تراث المغرب العربي، ترجمة محمد هشام بن شريف ومراجعة عبد السلام يخلف، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2014.
- عبد اللوي علوي أحمد، مدغرة وادي زيز: إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1996.

- العماري أحمد، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850 إلى 1902، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1988.
- العمراني محمد، المغرب زمن العلويين الأوائل، مطابع الرباط نت، الطبعة الأولى، 1435 هـ/2013م.
- العوني عبد الحميد، تافيلالت وسجل ماسة قبل 4000 سنة أقدم مملكة في شمال إفريقيا (1378 ق.م)، المطبعة الأورو متوسطية المغربية، 2009.
- فتحي ليسير، تاريخ الزمن الراهن عندما يطرق المؤرخ باب الحاضر، دار محمد علي للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 2012.
- الفيلاي عبد الكريم، التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، دار الطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006، الجزء السابع.
- فتحة محمد، النوازل الفقهية والمجتمع : أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بعين الشق، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 1999.
- القبلي محمد وآخرون، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2011.
- قسطنطين بن محمد، الواحات المغربية قبل الاستعمار : غريس نموذجاً، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2005.
- القدوري عبد المجيد، ابن أبي محلي : الفقيه النائر ورحلته الإصلييت الخريت، منشورات عكاظ، الرباط، 1991.
- محمود اسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1985.

- محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع : فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2004.
- محمد حسن، المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصي، ج. 1، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، تونس، 1999.
- المريني عبد الحق، الجيش المغربي عبر التاريخ، مطبعة المعارف الجديدة بالرباط، 1997، عدد الصفحات 565.
- امراني محمد علوي، تافيلالت التاريخ-الإنسان- المجال، مؤسسة الأمين للتنمية، مطبعة الودغريون، الراشيدية، الطبعة الأولى، 2011.
- مزين محمد، فاس وباديتها: مساهمة في دراسة تاريخ المغرب السعدي (1549-1637م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 12، الرباط، 1986، جزءان.
- مزيان أحمد، فجيح مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر (1845-1903م)، مطبعة فجر السعادة، 1988.
- واحيحي سعيد، مهدوية ابن أبي محلي الفيلاي ومخطوطه "تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة"، مطبعة Rabat Net Maroc، الطبعة الأولى، 2009.
- واحيحي سعيد، تافيلالت الكبرى مقارنة ببليوغرافية، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، جلعة محمد الخامس، السويسي الرباط، 2011.

❖ المراجع والدراسات حول العمارة والفنون

- اقصابي منير، العمارة العسكرية بفاس عبر التاريخ، إفريقيا الشرق، المغرب، 2015.
- باسيليون بابون مالدونادو، العمارة في الأندلس عمارة المدن والحصون، ترجمة علي إبراهيم منوفي، مراجعة وتقديم محمد حمزة الحداد، ج. 1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005.
- بيرتون بيچ، البرج في العمارة الإسلامية الحربية، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981.
- البهنسي عفيف، الفن الإسلامي، دار طلاس للدراسة والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الثانية، 1998.
- البهنسي عفيف، العمارة العربية الجمالية الوحدة والتنوع، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، المغرب.
- البهنسي عفيف، فنون العمارة الإسلامية وخصائصها في مناهج التدريس، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، 1423هـ/2003م.
- بوعصب مبارك، المراسلات والوثائق السلطانية خلال العصر العلوي : مساهمة في دراسة الخط المجوهر وسماته الفنية، مطبعة الأمنية الرباط، 2013.
- بوصلح محمد وآخرون، كُتيب المحافظة على التراث المعماري الطيني في الوديان المشرفة على الصحراء في المغرب، مركز صيانة وتوظيف التراث المعماري بمناطق الأطلس والجنوب (cerkas)، 2005.
- بيلول جمال، المصطلحات المعمارية المدنية، إفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الأولى، 2014.

- تاو شيخت لحسن، عمران سجل ماسة دراسة تاريخية وأثرية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2008، جزءان.
- الجهيني محمد، العمارة الحربية في الجزيرة العربية، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، الطبعة الأولى، 2008.
- حملاوي علي، نماذج من قصور منطقة الأغواط دراسة تاريخية وأثرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006.
- رمضان محمد، القلاع والحصون في قطر، الطبعة العربية الأولى، الدوحة، 2010.
- روجي ميمون، السكن التقليدي في واد تدغة بالمغرب، ترجمة ابراهيم الخطيب، مجلة المناهل، العدد 73-74، 2005.
- سالم السيد عبد العزيز، المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، 1986.
- الشافعي فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية : عصر الولاية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970.
- عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 128، أغسطس 1988.
- عثمان عثمان اسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، 5 أجزاء، الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 1992.
- عزب خالد، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، ط1. 1418هـ.
- عزب خالد، فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2013.

- عكاشة ثروت، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، مصر، دون تاريخ الطبع.
- عليان جمال، الحفاظ على التراث الثقافي نحو مدرسة عربية للحفاظ على التراث الثقافي وإدارته، سلسلة عالم المعرفة، العدد 322، 2005.
- عوني الحاج موسى، فن المنقوشات الكتابية في الغرب الإسلامي، مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، منشورات عكاظ، 2010.
- فرحات حليلة وعبد الأحد السبتي، المدينة في العصر الوسيط (قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي)، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1994م.
- الكحلاوي محمد، الفن الإسلامي المفهوم والنشأة والجماليات، منشورات كارم الشريف، تونس، الطبعة الأولى، 2010.
- ملين سعيد وجان هانسن، القصور والقصبات المتاخمة للصحراء، ترجمة السائح عبد السلام، وزارة السكنى للملكة المغربية، الرباط، 1992.
- المهداوي عبد الواحد، حماية التراث بالمغرب مقارنة تاريخية وقانونية، منشورات المعهد الوطني للتهيئة والتعمير، مطبعة شالة، الرباط، 2013.
- المهداوي عبد الواحد، دليل التراث الثقافي والطبيعي بالمغرب، منشورات مرايا، الطبعة الأولى، 2011.
- مؤنس حسين، المساجد، سلسلة عالم المعرفة، العدد 37، يناير 1981م.
- مورينو مانويل جوميت، الفن الإسلامي في اسبانيا، ترجمة لطفي عبد البديع ومحمد عبد العزيز سالم، الدار المصرية للتأليف والترجمة، بدون تاريخ.

- الهلال أحمد مولود ولد أيّده، مدن موريتانيا العتيقة قصور ولاتة وودان وتيشيت وشنقيط، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2014.
- وزيري يحيى، العمارة الإسلامية والبيئة: الروافد التي شكلت التعمير الإسلامي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 304، يونيو 2004.
- وزيري يحيى، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مكتبة مدبولي للطباعة والنشر، مصر، 1999.

❖ المراجع باللغات الأجنبية :

- Barrucand (M), L'architecture de la Qasba de Moulay Ismail Meknes, Editions Maghrébine, Casablanca, 1980.
- Bel (Alfred), Les industries de la céramique à fés, Ed. A. Leroux, Paris, 1918.
- Bisson (J), Le Gourara Etude de géographie humaine, Mémoire N° 3, I.R.S. Université d'Alger, SD.
- Capot (Ray), L'Afrique blanche, presse universitaire de France, Paris 1953.
- Camp Gabriel, Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du nord et du Sahara, édition Doin, Paris ,1974.
- Direction de statistique, L'exode rurale trait d'évolution, profils et rapport avec les milieux d'origines (Rabat : imprimerie El-Maarifal-Jadida, 2000).
- Doury (Paul), un échec occulté de Lyautey L'affaire du Tafilalet MAROC ORIENTAL (1917-1919), Editeur L'Harmattan, 2008.
- Echaliier (J.C), Villages désertes et structures agraires anciennes du Touat, Gourara (Sahara Algérien), A.M.G, Paris, 1972.
- Faure (R), Le Tafilalet étude d'un secteur traditionnel d'irrigation, Paris, 1969.

- Hensens (J), Habitat rural traditionnel des oasis présahariennes, le qsar : problèmes de rénovation, Bulletin Economique et Social du Maroc, N 114, Juillet- Septembre, 1969.
- Verite (J), Inventaire, protection et mise en valeur des architectures traditionnelles du sud marocain, Unesco, Mars 1977.
- Gautier (E.F), Le passé de l'Afrique du Nord, Paris, 1964
- Gendre (J), Tafilalet, R.G.M, 3-4ème, Trimestre, Mai-Août, 1992.
- Marçais (Georges) : L'architecture musulmane d'Occident : Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile. Paris, édit. Arts et Métiers Graphiques, 1954.
- Martin (A.G.P), A la frontière du Maroc, les oasis sahariennes (Gourara, Touat, Tidikelt), Alger, 1908.
- Mezzine, Larbi, le Tafilalet contribution à l'histoire du Maroc au 17 et 18^e siècle, Rabat, 1987.
- Meunié (J), Le Maroc Saharien des origines à 1670, Paris, Klincksieck, 1982, 2 vol, 990 p.
- LWIKI (T), Sur le titre libyco-Berbère, Etudes Maghrébines et Soudanaises, Varsovie, 1983.
- Terrasse (H), Kasbas berbères de l'Atlas et des Oasis, éd. Horizons de France, 1938.
- Paccard (Andre), Le Maroc et l'artisanat traditionnel islamique dans l'architecture, éditions Atelier, 74, T. I,
- Royaume du Maroc, plan quinquennal 1960-1964 (Rabat : Ministère de l'économie Nationale, 1965).
- Royaume du Maroc, plan quinquennal 1973-1977 (Rabat : Ministère de l'économie Nationale, 1978).
- Quenard (C), Recherches historiques dans le Touat Gourara, B.L.S N° : 02, 1995.

❖ المقالات باللغة العربية :

- أبا صادقي، إشكالية التدبير التقني والقانوني للتراث المعماري بمنطقة محمية المحيط الحيوي
لواحاح الجنوب الشرقي: (نموذج القصور)، ضمن كتاب التراث المعماري بالمغرب، منشورات
المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة دراسات وأبحاث رقم 37، (ص. 195-227).
- أحساين عبد الحميد، المخزن اليوسفي والحماية، جامعة مولاي علي الشريف، جامعة مولاي علي
الشريف، الدورة 13، مركز الدراسات والبحوث العلوية، 11-12 نونبر، 2005، (ص. 14-20).
- استيتو محمد، الاعتبارات الحيوية والبيئية والصحية في اختطاط المدن المغربية الإسلامية : مدينة
فاس أنموذجا، ندوة السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب : الائتلاف والاختلاف، سلسلة
ندوات رقم 2، كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة، 2013، (ص. 597-620).
- أشيرو مبارك ومصطفى عبد السميع، أرفود تاريخ وأعلام، بحث ميداني عن المنطقة أنجز سنة
2005، مرقون بدار الثقافة بأرفود، (ص. 1-21).
- أوموس أحمد، في الأصول التاريخية والخصائص المعمارية للمخازن الجماعية (إكودار) بمناطق
الأطلس، التراث المعماري بالمغرب، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة،
الدار البيضاء، 2013، (ص. 75-100).
- يزضيك عبد الناصر، التراث المعماري بالجنوب المغربي نموذج منطقة سكورة إقليم ورزازات،
مجلة كان التاريخية الإلكترونية، السنة الثانية، العدد السادس، دجنبر، 2009، (ص. 115-
134).
- بلكري عبد العزيز، تافيلالت ودلالاتها في المصادر التاريخية، مجلة واحة تافيلالت، العدد الأول،
1999، (ص. 4-24).

- بنعبد الله عبد العزيز، القصبات والقلاع الاسماعيلية، دعوة الحق، العدد 268، مارس 1988، (ص. 108-113).
- بوعصب امبارك، إشكالية البحث في التراث المعماري الواحي: دراسة نموذجية للقصور والقصبات والمخازن الجماعية بواحات طاطا، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 27، يناير-2017، (ص. 111-124).
- بوكبوت محمد، المخزن والزعامات المحلية بتافيلالت قبيل الاحتلال الفرنسي الثوابت والرهانات، ضمن ندوة السلطة المركزية والزعامات المحلية بالجنوب المغربي، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 164، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، 2010، (ص. 147-148).
- بوطالب ابراهيم، مرتبة إقليم تافيلالت في تاريخ المغرب، ضمن ندوة نشأة الدولة العلوية الشريفة، مطابع ميثاق المغرب، الرباط، 1988، (ص. 27-32).
- بوتشيش ابراهيم القادري، مخطوط "توازل ابن الحاج" مصدر جديد في تاريخ المجال القروي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، البادية المغربية عبر التاريخ، منشورات كلية الآداب الرباط، 1999، (ص. 29-42).
- بويحيوي عبد العزيز، التراث المعماري بالواحات المغربية بين إشكالية التدهور وجهود رد الاعتبار واحة تافيلالت نموذجا، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 42، السنة الحادية عشرة، صيف 2018، (ص. 172-186).
- التوفيق أحمد، مقدمة لقراءة أسوار المدن، ضمن الندوة الوطنية حول أسوار المدن العتيقة بتزنيت، مديرية التراث الثقافي، 1989، (ص. 39-42)

- تزلي عبد السلام، جوانب من المسألة المائية بيزز الأوسط (الرشيدية)، ضمن ندوة واحدة تافيلالت، مطبعة تافيلالت، العدد الأول، 1999، (ص. 147-158).
- التوري عبد العزيز، العمارة المغربية مادة البناء في بعض استعمالاتها عبر العصور، مجلة المناهل، العدد 74/73، فبراير 2005، (ص. 11-41).
- التوري عبد العزيز، مداخلة تمهيدية، ضمن الندوة الوطنية حول أسوار المدن العتيقة بتزنيت، مديرية التراث الثقافي، 1989، (ص. 23-25).
- تاوشخت لحسن، واحة تافيلالت بين الأمس واليوم، ضمن ندوة المجال والمجتمع بالواحات المغربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، سلسلة الندوات رقم 6، 1993، (ص. 7-34).
- تاوشخت لحسن، المنجزات العمرانية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله بمنطقة تافيلالت، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، الدورة الثالثة، مركز الدراسات والبحوث العلوية، دجنبر، 1991، مطبعة الأمنية، الرباط، (ص. 193-419).
- تاوشخت لحسن، واحة تافيلالت من المدينة إلى القصور، مجلة واحات تافيلالت، العدد الأول، السنة الأولى، أكتوبر 2014، (ص. 2-12).
- تاوشخت لحسن، العمارة العلوية بتافيلالت خلال عهد المولى اسماعيل، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، الدورة الثانية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، 1990، (ص. 178-190).
- تاوشخت لحسن، الحركة العلمية والثقافية بتافيلالت خلال عهد الدولة العلوية (القرنين 18-19)، ضمن ندوة الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن التاسع عشر، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 3، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، 1993، (ص. 22-57).

- تاوشخت لحسن، العمارة المغربية المبنية بالتراب وتحديات المحافظة والتأهيل، هسبريس تامودا، العدد، 2017، (ص.335-359).
- تيليوا مصطفى، مقارنة أنتروبولوجية لساكنة تافيلالت خلال فترة ما قبل التاريخ، مجلة واحة تافيلالت، العدد الثاني، 2000، (ص.12-21).
- جرير محمد، بعض مظاهر تطور السكن القروي التقليدي في وادي زيز الأوسط والأسفل، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، العدد 1، 1986، (ص.83-90).
- جرير محمد، بعض مظاهر تحولات العالم القروي بواحة تافيلالت الكبرى، ضمن ندوة المجال والمجتمع بالوحدات المغربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، سلسلة الندوات رقم 6، 1993، (ص.51-62).
- حافظي علوي حسن، مواد البناء ببلاد المغرب من خلال كتاب "الإعلان بأحكام البنين" لابن الرامي، ضمن ندوة المعمار المبنى بالتراب في حوض البحر المتوسط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 80، 1999م، (ص. 51-90).
- حاضري يمينه بن صغير، القصور الصحراوية بالجزائر صورة للإبداع الهندسي، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد 15، 2011، (ص.136-157).
- حميق محمد وامحرزي الحسن، التراث العمراني بواحة تافيلالت بين التدهور والتجديد حالة قصر أخنوس بمدينة الريصاني، مجلة التراب والتنمية، العدد الثالث، 2016، (ص.85-110).
- الدخيسي ادريس، الفن المعماري المغربي في قصبات الجنوب، مجلة الفنون، العدد 2، السنة 8، شتنبر 1981، (ص. 52-58).

- الرباطي العربي، تقنيات بناء الأسوار المغربية من خلال النصوص العربية والأوربية والأبحاث الأثرية، ضمن الندوة الوطنية حول أسوار المدن العتيقة بتزنييت، مديرية التراث الثقافي، 1989، (ص. 115-120).
- الرباط ناصر، مفهوم العمارة في الكتابات الإسلامية في القرون الوسطى، مجلة عالم الفكر، العدد 4، المجلد 34، أبريل-يونيو 2006، (ص. 7-36).
- أبو زيد حواد، المدينة القديمة لفاس: تراث وركيزة للتنمية، ضمن مجلة دفاتر جغرافية، العدد 3-4، مطبعة أنفو برانت، 2007، (ص. 35-44).
- محمد زنيبر، مساهمة الصحراء في بناء الدولة المغربية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد 21-22، الطبعة الأولى 1418-1998، (ص. 77-95).
- سالم السيد عبد العزيز، بعض المصطلحات للعمارة الأندلسية المغربية، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، العدد 1-2، المجلد الخامس، 1388هـ/1957، (ص. 241-253).
- عبد الستار عثمان، التطور التاريخي لظاهرة الحوش في العمارة، مجلة عالم البناء، العدد 204، 1998، (ص. 10-13).
- شاكور الميلود وآيت حمزة محمد، تقرير عن رحلة إلى تافيلالت، مجلة جغرافية المغرب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد 6، 1982، (ص. 62-67).
- طيطة محمد، رد الاعتبار للتراث المعماري المغربي بين الحالة الراهنة والآفاق المستقبلية، ضمن ندوة المجتمع التطواني والتطور العمراني والمعماري من القرن 16 إلى القرن 20، سلسلة أعمال الندوات 15 و16، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، الطبعة الأولى، 2009، (ص. 175-182).

- عبد الستار عثمان، سدوس وتحصيناتها الدفاعية دراسة تاريخية أثرية معمارية (دراسة حالة)، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية 12، 1414هـ/1992م، (ص.9-86).
- العروي عبد الله، العلاقة بين الزوايا والمخزن في القرن 19، ترجمة نوال متزكي، مجلة أمل، عدد مزدوج، 22-23، 2001.
- العلوي مولاي التقي، أصول المغاربة- القسم البربري دور الاتحاديات الأطلسية، مجلة البحث العلمي، العدد 23، ماي- غشت 1974، (ص.115-134).
- قاري لطف الله، جولة مع كتب فقه العمران التراثية المطبوعة، مجلة الفيصل، العدد 300، أغسطس- سبتمبر، 2001، (ص. 113-120).
- القاسمي هاشمي العلوي، تافيلالت : التاريخ والواقع، مجلة واحة تافيلالت، العدد الثاني، يناير، 2000، (ص.5-11).
- كرا عز الدين، جوانب من العمارة العسكرية البرتغالية بالمغرب، مجلة الذاكرة الوطنية، العدد 14، سنة 1431هـ/2010، (ص. 59-68).
- لمراني علوي محمد، المعماري المبني بالتراب في منطقة تافيلالت، قصور مدينة الريصاني من خلال وثيقتين محليتين تنشران لأول مرة، ضمن ندوة المعمار المبني بالتراب في حوض البحر المتوسط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 80، 1999م، (ص.99-116).
- محمد مزيان، المغرب في الأدبيات الكولونيالية الفرنسية ومشروعية الغزو والإلحاق، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد 17، المجلد الخامس، صيف 2016، (ص.107-132).
- مجدوب محمد، مختصر تاريخ موريطانيا قبل السيطرة الرومانية، ضمن مجلة بحوث، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، العدد السادس، 1995، (ص. 155-166).

- مجدوب محمد، جبال الأطلس قبل التوسع الروماني، ضمن ندوة الجبل في تاريخ المغرب، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس فاس، 1994.
- امراني علوي محمد، القصور بالجنوب المغربي، مجلة المناهل، السنة 31، العدد 88، يناير 2011، (ص. 213-224).
- المنوني محمد، الحصون والقلاع العسكرية كفن أصيل في العمارة الإسلامية، مجلة الفنون، العدد 2، السنة الرابعة، دجنبر 1977م، (ص. 108-113).
- المولودي محمد، مركز أرفود: المقومات الحضرية والتنمية المحلية، مجلة دفاتر جغرافية، مطابع أنفو برانت، فاس، العدد الأول، 2002، (ص. 47-58).
- المولودي محمد، السياحة والتنمية المحلية بيزر الأسفل، مجلة دفاتر جغرافية، مطابع أنفو برانت، فاس، العدد الثاني، 2005، (ص. 19-32).
- المولودي مَحمد، "تحول السكن الواحي ورهان التنمية المحلية بيزر الأوسط والأسفل"، ضمن ندوة في موضوع السكن الريفي: التحولات وآفاق التنمية، شعبة الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة، يومي 25 و 26 ماي 2006، (ص. 1-15).
- المهداوي عبد الواحد، حماية التراث العمراني بالمغرب بين المقاربة الدولية والرهانات الوطنية، ضمن مجلة دفاتر جغرافية، العدد 3-4، 2007، (ص. 7-12).
- نيقولا ف.ج، أصل ومعنى كلمة حرطاني ومرادفاتها اللغوية، ترجمة محمد الغرايب وعبد العزيز بلفايدة، ضمن ندوة الرق في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، 2010، (ص. 221-230).
- وزير يحيى، "جمالية المفردات المعمارية في المجتمعات العربية الإسلامية سلطنة عمان أنموذجا"، مجلة عالم الفكر، العدد 4، المجلد 34، أبريل-يونيو 2006، (ص. 87-160).

- وورقية عبد الرزاق، أهمية التراث الفقهي في تفسير التهيئة العمرانية للمدن العتيقة، مجلة دفاتر جغرافية، كلية الآداب ظهر المهرار فاس، العدد 3-4، 2007، (ص.13-20).

❖ المقالات باللغات الأجنبية

- Ait Hamza (M), Patrimoinlisation et touristification d'Ait Bén-Hddou, Patrimoine et tourisme culturel au Maroc, Actes du 9ème colloque Maroc-allemand Meknès 2014, Publications de la Faculté des Lettres et des sciences Humaines, Université Moulay Ismail, Série Actes de colloques, 43, pp.147-153.
- BASSET (H) et TERRASSE (H), Sanctuaires et forteresses almohades, in Hespèris, 1924, pp. 9-92.
- BASSET Henri et TERRASSE Henri, Sanctuaires et forteresses almohades (suite). Le ribât de Tit. Le Tasghimout, in Hespèris, 1927, pp. 117-172.
- BAZZANA (André), l'architecture de terre au moyen-âge considérations générales et exemples andalous, colloque international sur l'architecture en méditerranéoïde, Rabat, 1999, pp. 169-202.
- Bisson (J) et Jarir (M), Ksour du Gourara et du Tafilalet : De l'ouverture de lasociété à la fermeture de la maison, Editions du CNRS, Annuaire de l'Afrique du Nrm, Tome XX V, 1986, pp. 329-345.
- Cherkaoui (A), Résultats des interventions de l'état au niveau de la resturation et de la réhabitation du patrimone architecural de l'oasis du Tafilalet, Actes du 9ème colloque Maroc-allemand Meknès 2014, Publications de la Faculté des Lettres et des sciences Humaines, Université Moulay Ismail, Série Actes de colloques, 43, pp.137-145.
- Jean (P) et Van Staebel, Réflexions à propos de nomenclature médiévale de l'architecture de terre en occident musulman : l'exmple du tabiya, colloque international sur l'architecture en méditerranéoïde, Rabat, 1999, p. 95-110.
- Joly, F- Promenade dans les palmeraies, Confluent, n° 8, Juin/Juillet, 1960

- ERBATI (L), l'architecture de terre dans le Maroc saharien : description des géographes et apport de l'archéologie, colloque international sur l'architecture en méditerranéenne, Rabat, 1999, pp. 111-120.
- EREBATI (Larbi), La terre dans la construction maghrébienne au moyen âge, le cas des murs in tabiya, dans le jardin de Hespéride, N. 2, Rabat, Juillet, 2005.
- GAUTIER-DALCHE (J), Châteaux et peuplement dans la péninsule ibérique (X-XIII siècle) : Flaran 1. Châteaux et peuplement en Europe occidentale du Xe au XVIIe siècle, Premières journées internationales du centre culturel de l'abbaye de Flaran (Gers), Auch, 1979, pp. 93-107.
- Linarès, voyage au Tafilalet avec s.m. le sultan Moulay Hassan en 1893, pp. 1-60. Extrait du « Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc » (Nos III et IV 1932).
- Mezzine, Larbi, "Taqqitt de Aytaman : le recueil des règles de coutume d'un groupe de qsur de la moyenne vallée de oued ziz", Université Mohammed V Faculté des Lettres et des Sciences Humaines Hesperis Temuda, vol XIX, Fascicule unique 1980.
- Meunié (J), Recherches archéologiques dans la kasaba de Tasghimout, Hespèris, Tome XXXVIII, 1951, pp. 365-380.
- Meunié (J) et Charles (ALLAIN), La forteresse almoravide de Zagor, Hespèris, Tome XLIII, 1956, pp.305-324.
- Meunié (J), Abbar cité Royale du Tafilalet, Hespèris, Tome XLVI, 1959, pp. 7-72.
- Meunié (J), Architectures et habitats du Dadès, Maroc Présaharien, Paris, Librairie C. Klincksieck, 1962, pp. 321-322.
- Meunié (J), Sur l'architecture du Tafilalet et de Sijilmasa (Maroc Saharien). In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 106^e année, N. 2, 1962. pp. 132-147.
- Note sur les activités des PAM au faveur de l'habitant 1970.

- Terrasse (H), Villages et Kasbas berbère dans l'Atlas et des Oasis, in Hespèris, 1938, p. 581-589.
- Terrasse (H), Note sur les ruines de Sijilmassa, Revue Africaine, N° 368-369, 3e et 4^e Trim. 1936, pp. 581-589.
- Terrasse (H), Le décor des portes anciennes du Maroc, Hespèris, 1923, pp.147-174.
- Puigadeau (o. Du), Arts et coutmes des Maures (II), Hespèris-Tamuda, tome IX, 1968, pp. 329-413.

❖ التقارير والدراسات التقنية والإدارية

- التراث المعماري في مناطق الأطلس والجنوب، قسم جرد التراث الثقافي، وزارة الشؤون الثقافية، مديرية التراث، المملكة المغربية، 1990.
- الأطلس الجهوي لحصيلة الإنجاز والتعمير بجهة مكناس تافيلالت 2009-2010.
- الجريدة الرسمية، العدد 5، بتاريخ 1912/11/29.
- الجريدة الرسمية، العدد 43، بتاريخ 1914/02/27.
- الجريدة الرسمية، العدد 1715، بتاريخ 1945/09/7.
- الجريدة الرسمية، العدد 2083، بتاريخ 1952/09/26.
- الجريدة الرسمية، العدد 3564 بتاريخ 18 فبراير 1981.
- الجريدة الرسمية، العدد 6206، بتاريخ 21 نونبر 2013.
- اتفاقية شراكة من أجل ترميم 6 قصور بإقليم الراشيدية (2009-2011) بين وزارة الإسكان والتعمير وعمالة إقليم الراشيدية والجماعات القروية التي تخضع لنفوذها القصور المرممة، المملكة المغربية، أبريل 2009.

- محمود قدورة وآخرون، دليل خصوصيات عمارة الجنوب التونسي، مكتبي دراسات معمارية وعمرانية رقية كيو ورضا الرقيق، إشراف وزارة التجهيز والإسكان والتهيئة الترابية (إدارة التعمير)، الجمهورية التونسية، طبعة سنة 2003.
- المندوبية السامية للتخطيط، الإحصاء العام للسكن والسكان 1994، 2004، 2014.
- مونوغرافية بلدية مولاي علي الشريف، 2009.
- مونوغرافية جماعة عرب الصباح زيز، 2008.
- مونوغرافية جماعة بني امحمد سجلماسة، 1998.
- المصلحة التقنية التابعة لبلدية مولاي علي الشريف سنة 1996.
- وزارة إعداد التراب الوطني والبيئة والتعمير والإسكان، إعداد التراب الوطني والتعمير، الحوار الوطني حول إعداد التراب: خلاصات تركييبية للمنتديات الجهوية، 2000.

❖ البحوث والرسائل والأطروحات الجامعية باللغة العربية

- بوراس يحيى، العمارة الدفاعية في منطقة وادي مزاب (نموذج قصر بني يزقن) من القرن 10هـ/16م إلى القرن 13هـ/19م دراسة وصفية تحليلية ومقارنة، بحث لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2001-2002.
- البلعميشي عبد الرحمان وآخرون، القصور والقصبات: دراسة تفصيلية لمصطلحات عمرانية، بحث لنيل دبلوم مهندس معماري، المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية، الرباط، 1992.
- البوزيدي أحمد، التاريخ الاجتماعي لدرعة من مطلع القرن 17 إلى مطلع القرن 20م، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الحديث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1988م، جزءان.
- بوعلي الخلافة، التراث المبنى بمنطقة تيزيمي : دراسة تصنيفية وصفية، بحث لنيل شهادة الماستر المتخصص، كلية الآداب، سايس-فاس، السنة الجامعية 2013-2014.

- بسباس محمد، الماء والمجتمع بتاڤيلا لت مجال عرب الصباح نموذجاً، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، بحث لنيل الماستر، السنة الجامعية 2013-2014.
- بامون آمنة، صيانة وترميم القصور الصحراوية : قصر الشط بورقلة نموذجاً، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في الصيانة والترميم، جامعة الجزائر 2، السنة الجامعية 2011-2010.
- بوعصب امبارك، مساهمة في دراسة قصور تاڤيلا لت من سقوط سجلماسة إلى نهاية القرن العشرين التاريخ والمعمار، أطروحة دكتوراه مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، ساس فاس، السنة الجامعية 2010-2011.
- بويحيوي عبد العزيز، إسهام في التشخيص الترابي لواحات تاڤيلا لت : المقومات التدخلات والآفاق المستقبلية، بحث لنيل شهادة الدكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ساس فاس، 2014.
- تملين ابتسام، آثار الاحتلال الفرنسي على تاڤيلا لت في عهد الحماية : دراسة في البنيات السياسية والاجتماعية وتحولاتها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، السنة الجامعية 2016-2017.
- حافظي علوي حسن، واحات بلاد المغرب من القرن 4 هـ / 10م إلى القرن 8 هـ / 14م، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ، مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية 2004-2005، ثلاثة أجزاء.
- راوي سمير، قصبة المهديّة من خلال المصادر الأثرية والمكتوبة، رسالة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرار، فاس، السنة الجامعية 2012-2013.

- الشرقاوي أحمد، إعداد التراب والتنمية المحلية بواحة تافيلالت (الريصاني ومحيطه)، أطروحة لنيل الدكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، السنة الجامعية 2012-2013.
- علاوة عبد المجيد، تطور المسكن الواحاتي -منزل سي الحواس نموذجاً- دراسة تاريخية أثرية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الآثار، تخصص آثار صحراوية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خضير بسكرة، الجزائر، السنة الجامعية 2007-2008.
- عياش محمد، الاستحكامات العسكرية المرينية من خلال مدينتي فاس الجديد والمنصورة بتلمسان دراسة تاريخية وأثرية، بحث لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2005-2006.
- فيسة محمد رابح، المنشآت المرابطية في مدينة ندرومة دراسة تاريخية أثرية، رسالة لنيل الماجستير في الآثار، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2005.
- قدار المحبوب، المسارات السياحية بواحات تافيلالت، بحث لنيل شهادة الماستر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس-فاس، السنة الجامعية 2011-2012.
- قبابلة مبارك، تطور مواد وأساليب البناء في العمارة الصحراوية، مذكرة مكملية لنيل شهادة الماجستير في علم الآثار، كلية العلوم الإنسانية، جامعة محمد خضير، بسكرة، الجزائر، السنة الجامعية 2009-2010.
- كبييري علوي مولاي هاشم، التحولات السكنية بزيز الأوسط: انفجار القصور ومسلسل التمدين، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، السنة الجامعية 2004-2005.

- اكريمي عبد الكريم، المخاطر البيئية بحوض زيز السفلى (تأفيلالت) نموذج الفيضانات، بحث لنيل شهادة الماستر في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرارز - فاس، السنة الجامعية 2010-2011.
- كنكورة مصطفى، إستراتيجية المحافظة ورد الاعتبار للمدن العتيقة بالمغرب حالة مكناس من 1912 إلى بداية القرن 21، أطروحة لنيل الدكتوراه، كلية الآداب، سايس-فاس، السنة الجامعية 2009-2010.
- لموكي محمد، العمارة العسكرية بمدينة فاس خلال العصرين المريني والسعدي، أطروحة مرقونة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادال الرباط، السنة الجامعية 2008-2009.
- لمراني علوي عثمان، التراث المعماري الإسماعيلي بتأفيلالت (القصور والقصبات)، بحث لنيل الماستر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس-فاس، السنة الجامعية 2012-2013.
- معمري محمد، الولاية والصالح والمجتمع بمنطقة تيزيمي دراسة تاريخية اجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرارز، فاس، بحث الماستر، السنة الجامعية 2008-2009.
- ميوسي محمد، تأفيلالت من أطروحة التراجع والأزمة إلى أطروحة التحول والاستمرار : أداء الواحات بين المقاربتين المشهدية والشمولية : أي تنمية؟، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2002.
- واحيحي سعيد، سجلماسة/ تأفيلالت من اندراس المدينة إلى واحة القصور : 796هـ/1393م إلى أواخر القرن 11هـ/17م (دراسة تاريخية، اجتماعية، ثقافية)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرارز فاس، السنة الجامعية 2005-2006.

❖ البحوث والرسائل والأطروحات الجامعية باللغات الأجنبية

- ABA, SADKI, Urbanisme et Conservation du patrimoine culturel présaharien, Cas des ksour du Tafilalet, Mémoire de troisième cycle (DESAU), Ministère de l'Aménagement du territoire, Rabat, Juillet 2003.
- Ahda (M'hamed), Structures sociales et économiques du noire du tafilalt aux XVII-XVIII siècle : le poids des relations avec l'Afrique noire (Bilad -es-soudan), Université Toulouse le Mirail, 1990.
- BEL HASSANE (A), Evolution de l'habitat ksourien dans le Tafilalet, le cas du ksar el Bouiya, Mémoire pour l'obtention du diplôme d'architecte, ISACF, 1991.
- Ben Akki Said, Diagnostic du projet de rehabilitation du ksar abou'Am a Rissani, mémoire de 3^{ème} cycle pour l'obtention du D.E.S.A.U, sous la direction de Touria Belhoussine, institut national d'aménagement et d'urbanisme, Rabat, decembre,2008.
- CHALKHOUNE ABDELKADER, Épigraphie Monumentale des Oratoires et Palais du Sud-est Marocain (XV-XVIIIe siècles), Thèse de doctorat en histoire de L'art, Tome I, Université de Toulouse le Mirail, 1995.
- Cherouit Ahmed, L'Eclatement du Qsar dans la vallée du ziz et plaine du Tafilalet (province d'Er-Rachidia), mémoire de 3^{ème} cycle pour l'obtention du D.E.S.A.U, sous la direction de N.B. Delavergnee, institut national d'aménagement et d'urbanisme, Rabat, juin 1987.
- El Assal Khalid, El Basri et Malti Hicham : Les Qsour et Qasbas du Tafilalet : Etude architecturale et plan de sauvegarde, MATEUH, Direction de l'architecture, Juin, 1998.
- Kafas (Samir), Les fortifications et l'architecture militaire au temps des Saadiens, thèse de troisième cycle, Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine, Rabat, 2006.
- MARGAT, Jean, Mémoire explicatif de la Carte hydrogéologique au 1/50000 de la plaine du Tafilalt, Edition du service géologique du Maroc, Rabat, 1962.

❖ المعاجم والموسوعات:

- آيت حمزة محمد، مادة القصر، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للنشر والتأليف، نشر مطابع سلا، 2004، المجلد 19 (ص. 6639-6640).
- اعشي مصطفى، مادة اليمس، ضمن معلمة المغرب، ج 20، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، نشر مطابع سلا، 1425هـ/2004م، (ص. 6912-6915).
- احدي محمد، مادة الصباح، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، مطابع سلا، 1423هـ/2002، ج. 16، (صص. 5482-5483).
- بنعبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة الصحراء، مطبعة فضالة، 1976، ملحق 1.
- التوري عبد العزيز، مادة باب، ضمن معلمة المغرب، ج 3، الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، مطابع سلا، 1991م، (ص. 945-948).
- جمعة أحمد قحة، موسوعة العمارة الإسلامية، دار الملتقى، 1989.
- حسن حافيظي علوي، مادة تيزيمي، معلمة المغرب، ج. 8، م. س، (صص. 2960-2961).
- شفيق محمد، المعجم الأمازيغي العربي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، الطبعة الأولى، 1990، الجزء الأول.
- الطاهري أحمد صالح، مادة العمارة على العهد المريني، معلمة المغرب، ج 18، الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، مطابع سلا، 1424هـ/2003، (صص. 6178-6182).
- عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون، مكتبة مدبولي للنشر، مصر، 2000.
- عوني الحاج موسى، المعاضيد، معلمة المغرب، مطابع سلا، 2005، ج. 21، (صص. 7184-7185).

- كحالة عمر رضا، معجم القبائل العربية القديمة والحديثة، الطبعة الهاشمية بدمشق، طبعة منقحة، العراق، 1949، ج. 2.
- مجدوب محمد، مادة الجيتوليون، ضمن معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، مطابع سلا، 1419هـ/1998، ج. 10، (ص. 3206-3210).
- مزين العربي، تافيلالت مهد الدولة العلوية، مذكرات من التراث المغربي، ج2، مجموعة تحت إشراف العربي الصقلي، طبع وتجليد Atlamira-Madrid، 1985.
- المغاري مينة، مادة قصبة، ضمن معلمة المغرب، ج 19، الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، مطابع سلا، 1425هـ/2004، ص. 6633.
- ابن منظور (جمال الدين محمد)، لسان العرب، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1993.

❖ البوابات والمواقع الإلكترونية:

- www.ina.fr (Inondations au Tafilalet, le : 16 nov. 1950)
- www.forum.topmaxtech.net
- www.almaany.com
- www.taflilaltnews.com
- www.imf.org
- www.islamicurbanheritage.org.sa

الفهارس

I. فهرس الخرائط

الرقم	الموضوع	الصفحة
1	مجال وحدود تافيلالت الكبرى	93
*	إقليم الرشيدية وتحديد مجال الدراسة	96
3	مجال تحركات التحالفات القبلية بمنطقة تافيلالت	150
4	موقع قصور المعاضيد	225
5	توزيع قصور المعاضيد ضمن مجال جماعة عرب الصباح زيز	227
6	مسار بعض القصور والقصبات الفيلالية	333

II. فهرس الجداول

الرقم	الموضوع	الصفحة
1	مؤشرات ديموغرافية حول مجال الدراسة ما بين 1994 و2004	94
2	مشيخات وعدد قصور جماعات مجال الدراسة	95
3	أهم قصور منطقة تافيلالت قبل تدمير مدينة سجلماسة	119
4	أبعاد أسوار بعض القصور الفيلالية	158
5	أبعاد أبواب بعض القصور بتافيلالت	161
6	نماذج من القصور والقصبات بتافيلالت حسب التصنيف الطوبونيمي	190
7	نماذج من القصور والقصبات بتافيلالت حسب التصنيف الوظيفي	197
8	مقاييس وأبعاد قصور المعاضيد ذات السور الدور بالمتر	234
9	أبعاد بعض أبراج بعض قصور المعاضيد ووضعيتها الراهنة	238

240	أبعاد أبواب قصور المعاضيد	10
299	القصور المسكونة والمهجورة بمجال الدراسة	11
316	جوانب من ترميم العمارة العسكرية بقصور تافيلالت في القرن 19	12
321	القصور الفيلاية المرممة خلال الألفية الثالثة	13
327	ضوابط البناءات بالطين	14
343	الوثائق الرسمية والخاصة التي تم توظيفها في البحث	15
357	القصور والقصبات التابعة لجماعة عرب صباح زيز	16
357	القصور والقصبات التابعة لجماعة الريصاني القروية	17
358	القصور والقصبات التابعة لجماعة بني امحمد سبلماسة	18
358	القصور والقصبات التابعة لجماعة السفالات	19
359	القصور والقصبات التابعة لبلدية مولاي علي الشريف	20

III. فهرس الأشكال والتصاميم

الرقم	الموضوع	الصفحة
1	تخطيط قصر قصر أبو عام	133
*	المكونات العمرانية لعمرانية الأساسية لقصر أبو عام	133
3	واجهات أبراج الوادي بمجال قصور تيزيمي	169
4	تصميم قصر القصيبة/المحيريكية بالمعاضيد	184
5	تصميم قصر تابوعصامت	184
6	تصميم قصر اللهاين بتيزيمي	185
7	تصميم قصر أولاد ابحر بتيزيمي	186

186	تصميم قصبة بلحسن بتيزيمي	8
186	تصميم قصر أولاد عبد الحليم	9
187	تصميم قصر مولاي عبد الله الدقاق	10
187	تصميم قصر مولاي ابراهيم بتيزيمي	11
208	تخطيط وأبعاد قصر أولاد عبد الحليم ومكوناته المعمارية	12
217	الموضع الطبوغرافي لقصر الجبيل بتافيلالت	13
218	تخطيط قصر الجبيل بمجال تافيلالت	14
232	تخطيط وأبعاد قصر المعاضيد الأم (المكابر، العبادلة، القصير)	15
244	موقع الزاوية الغازية التي ينتمي إليها قصر تابوبكرت	16
245	تخطيط قصر زاوية تابوبكرت	17
246	باب قصر زاوية تابوبكرت	18
251	تخطيط قصر البروج ومكونات عمارته العسكرية	19
253	سور الجهة الشرقية لقصر البروج وأبراجه الركنية	20
255	البرج الركني للجهة الغربية لقصر البروج	21
265	الاستعمالات الأساسية للطين في العمارة الصحراوية	22
278	رسم اللوح لبناء جدار الطابية	23
280	أسلوب الضفيرة المستعمل في رص لبنات الأجور النيء بقصور تافيلالت	24
287	زخرفة واجهة باب قصر آبار	25
288	زخرفة واجهة الباب الخارجي لقصر أولاد عبد الحليم	26
289	الزخرفة الهندسية لأبراج قصر أولاد عبد الحليم	27

28	التشكيلات الزخرفية الهندسية الموظفة في مكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت	290

IV. فهرس الصور

الرقم	الموضوع	الصفحة
1	ساحة قصر العبادة بالمعاضيد	136
*	الواجهة الغربية والشمالية لسور وأبراج قصر الفيضة	157
3	السور الدور لقصر المكابر بالمعاضيد	159
4	نماذج من أبواب القصور الفيلاية	163
5	أبراج قصر آبار الركنية المتصلة بسقالة السور الشمالي	164
6	واجهات أبراج بعض القصور الفيلاية	166
7	الجهة الجنوبية لبرج المراقبة إيريدي	168
8	الجهة الشمالية والغربية لبرج المراقبة إيريدي	168
9	واجهات أبراج المراقبة بغابة قصر مزكيدة	170
10	الباب الخارجي لقصر أولاد عبد الحليم	210
11	الباب الداخلي لقصر أولاد عبد الحليم	210
12	سقالة السور الشرقي لقصر أولاد عبد الحليم	212
13	السور الشمالي لقصر أولاد عبد الحليم	212
14	البرج الركني الشمالي لقصر أولاد عبد الحليم	213
15	البرج المتصل بالسور الشمالي لقصر أولاد عبد الحليم	213
16	قصر الجبيل	217

217	موضع الجهة الشرقية لقصر الجبيل	17
219	سور الجهة الشرقية لقصر الجبيل	18
221	واجهة باب قصر الجبيل	19
221	البرج الركني الشمالي الشرقي لقصر الجبيل	20
234	أسوار واجهة قصر المعاضيد الأم (المكابر، العبادلة، القصير)	21
236	مدخل السور الدور لقصر العبادلة بالمعاضيد	22
241	المدخل المنكسر بقصر المكابر	23
241	المدخل المباشر (المستقيم) بقصر العبادلة	24
247	السور الغربي لقصر زاوية تابوبكرت	25
248	البرج الركني الجنوبي لقصر تابوبكرت	26
252	سور الجهة الشمالية لقصر البروج وأبراجه الركنية سنة 1950	27
254	السور الغربي لقصر البروج	28
256	السور الشمالي والغربي لقصر البروج	29
257	مدخل قصر البروج	30
257	البرج الجنوبي الغربي لقصر البروج	31
284	الشرفات الهرمية بالسور الشمالي لقصر أولاد عبد الحليم	32
284	الشرفات المسننة بواجهة باب قصر مزكيدة	33
284	الشرفات الهرمية بواجهة باب قصر تابوعصامت	34
291	نقيشة بمدخل الدار الكبيرة بقصر آبار نموذج للزخرفة الكتابية بقصور تافيلالت	35
292	زخرفة برج واجهة باب قصر آبار	36

292	زخرفة البرج الركني الشمالي لقصر أولاد عبد الحليم	37
300	تآكل السور الغربي لقصر القصيبة/المحيريكية	38
300	تآكل السور الغربي لقصر القصير بالمعاضيد	39
307	صورة ثلاثية الأبعاد لحوض زيز وسهل تافيلالت	40
308	آثار الخسائر الفادحة لفيضان 1950 على معمار قصور تافيلالت	41
322	ترميم واجهة باب قصر أولاد عبد الحليم	42
322	ترميم واجهة قصر العبادلة بالمعاضيد	43

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوعات
1	قائمة المختصرات والاختزالات
2	مقدمة
12	الباب الأول: موقع العمارة العسكرية لقصور تافيلالت في المصادر والمراجع وفي فقه العمران، مع تعريف مصطلحاتها ومفاهيمها
13	تقديم
15	الفصل الأول: موقع العمارة العسكرية لقصور تافيلالت في المصادر والمراجع المعتمدة
16	المبحث الأول: قراءة في المصادر التاريخية
16	1- كتب التاريخ العام
19	2- كتب الجغرافيا والرحلات
21	3- كتب النوازل الفقهية
23	4- الوثائق
23	1.4 الوثائق المخزنية
24	2.4 الوثائق الخاصة
25	5- الرواية الشفوية
26	المبحث الثاني : الدراسات الأجنبية
26	1- الدراسات الأجنبية قبل الحماية
28	2- الدراسات الأجنبية خلال فترة الحماية والاستقلال
32	المبحث الثالث : الدراسات المغربية حول العمارة العسكرية
32	1- الدراسات التاريخية والمعمارية العامة
36	2- الدراسات المختصة في الموضوع

45	الفصل الثاني : العمارة العسكرية في الفقه الإسلامي
46	المبحث الأول: الفقهاء ومسائل العمران
46	1- مصادر دراسة فقه العمارة الإسلامية
47	2- فقه العمارة الإسلامية: المفهوم والقواعد
51	3- دلالة العمارة العسكرية في الفقه الإسلامي
56	المبحث الثاني: أثر البعد العسكري في تخطيط المدينة الإسلامية
57	1- ضوابط تأسيس المدينة الإسلامية عند الفقهاء والمؤرخين وعلماء السياسة الشرعية
57	1-1- شروط تأسيس المدينة عند ابن الربيع
60	2-1- ضوابط تأسيس المدينة عند الماوردي
61	3-1- شروط تأسيس المدينة عند ابن خلدون
63	4-1- شروط تأسيس المدينة عند ابن الأزرقي
64	2- تصورات فقهية حول العمارة القروية
65	3- موقع العمارة العسكرية ضمن الشروط الفقهية في العمارة الإسلامية
70	الفصل الثالث : العمارة العسكرية بالمغرب : إشكالية المفاهيم وقضايا التطور التاريخي
71	المبحث الأول: العمارة العسكرية وإشكالية المفهوم
74	المبحث الثاني : تعريف مصطلحات ومفاهيم العمارة العسكرية
74	1- الأسوار
75	2- الأبواب
76	3- البرج

78	4- الحصن
79	5- الخنادق
79	6- رباط
80	7- قصبة
81	8- قلعة
82	المبحث الثالث : تطور التحصينات العسكرية في تاريخ المغرب
82	1- الفترة القديمة
83	2- الفترة الوسيطة
85	3- الفترة الحديثة
88	الباب الثاني : قصور تافيلالت : إشكالية التأسيس والأبعاد العسكرية والوظيفية
89	تقديم
91	الفصل الرابع : قصور تافيلالت : إشكالية التأسيس والامتداد التاريخي
92	المبحث الأول: تافيلالت : الموقع والدلالة الطوبونيمية والتطور التاريخي
92	1- موقع تافيلالت وحدودها الجغرافية
97	2- طوبونيمية تافيلالت
101	3- التطورات التاريخية لمنطقة تافيلالت
108	المبحث الثاني : مفهوم القصور والأصول المعمارية للقصور الفيلاية
108	1- مفهوم القصر
112	2- الأصول التاريخية لعمارة القصور الفيلاية
115	المبحث الثالث : نشأة القصور الفيلاية وتطورها
115	1- تشييد القصور الفيلاية
117	2- القصور الفيلاية قبل اندثار سجلماسة
121	3- القصور الفيلاية بعد اندثار سجلماسة
126	الفصل الخامس : البعد العسكري في تخطيط القصور الفيلاية

127	المبحث الأول: ضوابط إنشاء القصر الفيلاي
127	1- ملكية الأرض العقارية لبناء القصر
129	2- العوامل المتحكمة في تخطيط القصر بتاڤيلات
131	3- تخطيط القصر الفيلاي ومكوناته الأساسية
131	1.3 تخطيط القصر الفيلاي
134	2.3 المكونات الأساسية للقصر الفيلاي
145	المبحث الثاني : وظائف القصور بتاڤيلات
145	2- الوظيفة العسكرية والدفاعية للقصور الفيلاية
151	3- الوظيفة الاقتصادية
153	4- الوظيفة السكنية
153	5- الوظيفة التنظيمية والسياسية
155	6- الوظيفة الدينية والثقافية
156	المبحث الثالث : العمارة العسكرية بالقصور الفيلاية
156	1- الأسوار
160	2- الأبواب
164	3- الأبراج
170	4- الخنادق
176	الفصل السادس : القصور الفيلاية وإشكالية التصنيف
177	المبحث الأول: المعايير المعتمدة لتصنيف القصور الصحراوية ببلاد المغرب
178	1- التصنيف التاريخي
179	2- التصنيف حسب الشكل الخارجي
180	3- التصنيف حسب التخطيط الداخلي للقصر
181	4- التصنيف حسب الموقع والموضع
181	5- التصنيف حسب الأدلة الأثرية

182	المبحث الثاني : نحو وضع نموذج لتصنيف القصور الفيلاية
183	7- التصنيف حسب الشكل الهندسي
188	8- التصنيف الطوبونيمي
191	9- التصنيف الوظيفي
191	1.3 القصور المخزنية
193	2.3 القصور الزوايا
194	3.3 القصور القبلية
195	4.3 القصور القصبات
198	4- محاولة في التصنيف العسكري للقصور الفيلاية
201	الباب الثالث : دراسة العمارة العسكرية بقصور تافيلالت من خلال نماذج
202	تقديم
204	الفصل السابع : دراسة العمارة العسكرية بقصور تافيلالت من خلال نماذج
205	المبحث الأول : القصور ذات الأسوار والأبراج المنتظمة
205	1- التعريف والخصائص العمرانية
207	2- قصر أولاد عبد الحليم : نموذج للقصور ذات الأسوار والأبراج المنتظمة
214	المبحث الثاني : القصور المرتكزة على التحصين الطبيعي
214	1- التعريف والخصائص العمرانية
215	2- قصر الجبيل : نموذج للقصور المرتكزة على التحصين الطبيعي
222	المبحث الثالث : القصور ذات النظام الدفاعي السور الدور
222	1- التعريف والتوزيع الجغرافي والوظائف
223	2- قصر المعاضيد الأم نموذج للقصور ذات النظام الدفاعي السور الدور
242	المبحث الرابع : القصور الزوايا ونظامها الدفاعي المادي واللامادي
242	1- التعريف والأهمية

243	2- قصر زاوية سيدي الغازي نموذج للقصور الزوايا ذات النظام الدفاعي المادي واللامادي
248	المبحث الخامس : القصور ذات النظام الأصلي المنشأ
248	1- التعريف والتوزيع الجغرافي
249	2- قصر البروج : نموذج للقصور ذات النظام الدفاعي الأصلي المنشأ
260	الفصل الثامن : مواد وأساليب البناء في العمارة العسكرية بقصور تافيلالت والتشكيلات الزخرفية
261	المبحث الأول: مواد البناء في العمارة العسكرية بقصور تافيلالت
261	1- التراب ومشتقاته
265	2- الحجارة
267	3- القرميد
268	4- الملاط
269	5- الطلاء
269	6- الخشب
272	المبحث الثاني : عناصر وأساليب الإنشاء في العمارة العسكرية بقصور تافيلالت
272	1- التصميم المعماري لمكونات العمارة العسكرية بقصور تافيلالت
274	2- الأساسات
275	3- الطابية
279	4- الأجور النبيئ
280	5- السواري / الأعمدة
281	6- الساكف
282	7- العقد
283	7- الشرفات
285	المبحث الثالث : التشكيلات الزخرفية للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت وزخرفتها

285	1- الزخارف بأسوار قصور تافيلالت
286	2- الزخارف في مداخل قصور تافيلالت
291	3- الزخارف في الأبراج بقصور تافيلالت
295	الفصل التاسع : صيانة وترميم وتثمين العمارة العسكرية بقصور تافيلالت
296	المبحث الأول : العمارة العسكرية بقصور تافيلالت : واقع الحال وعوامل التدهور
296	أولا : واقع الحال للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت
301	ثانيا : عوامل تدهور العمارة العسكرية بقصور تافيلالت
311	المبحث الثاني : استراتيجية المحافظة ورد الاعتبار للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت
312	1. موقع القصور الفيلائية ضمن القوانين التشريعية والتنظيمية العامة للحفاظ على التراث المعماري بالمغرب
312	1.1 القوانين التشريعية والتنظيمية العامة للحفاظ على التراث المعماري بالمغرب
314	2.1 موقع المحافظة على القصور الفيلائية في ضوء التشريعات والقوانين الوطنية
315	2. الجهود المبذولة لترميم العمارة العسكرية بقصور تافيلالت
315	1.2 الجهود المبذولة لترميم العمارة العسكرية بقصور تافيلالت خلال القرن 19
317	2.2 الجهود المبذولة لترميم العمارة العسكرية بقصور تافيلالت خلال القرن 20
319	3.2 الجهود المبذولة لترميم العمارة العسكرية بقصور تافيلالت خلال الألفية الثالثة
323	2. المؤسسات الوطنية المعنية برد الاعتبار للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت
324	المبحث الثالث : الآفاق المستقبلية للعمارة العسكرية بقصور تافيلالت
324	1. متطلبات وآفاق الترميم والإنقاذ
326	2. مقتضيات عامة لترميم العمارة الترابية بواحة تافيلالت
328	3. آليات استثمار العمارة العسكرية بقصور تافيلالت في التنمية المستدامة محليا
336	خاتمة
342	الملحق
343	ملحق الوثائق

357	جرد لقصور مجال الدراسة
360	قائمة المصطلحات التقنية ومقابلها باللغة الفرنسية
362	البيبلوغرافيا
393	فهرس الخرائط
394	فهرس الجداول
395	فهرس الأشكال والتصاميم
397	فهرس الصور
401	فهرس المحتوى